

شرح مقامات الحريري

للأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريفي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الخامس

المكتبة العصرية
مكتبة دار بيروت

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م

شركة إنشاء شريف للأضيائيات للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب بمكة المكرمة للطباعة والنشر

الدار السنوية جيتو المطبعة بمكة المكرمة

بكيروت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تليكس ٢٠١٧٤٢

صيدا - ص.ب. ٢٢١ - تليكس ٢٩١٩٨٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقامة الحادية والأربعون وهي التَّيْسِيَّة

حدَّث الحارث بن همام قال : أَطَعْتُ دَوَاعِيَ التَّصَابِي ، فِي غُلُوءِ
شَبَابِي ؛ فَلَمْ أَزَلْ زِيرًا لِلنَّيْدِ ، وَأَذُنًا لِلْأَغَارِيدِ ؛ إِلَى أَنْ وَافَى التَّنْذِيرَ ، وَوَلَّى
الْعَيْشُ النُّصَيْرَ ؛ فَقَرِمْتُ إِلَى رُشْدِ الْإِنْتِبَاهِ ، وَنَدِمْتُ عَلَى مَا فَرَّطْتُ
فِي جَنْبِ اللَّهِ . ثُمَّ أَخَذْتُ فِي كَسْحِ الْهَنَاتِ بِالْحُسَنَاتِ ، وَتَلَا فِي
الْهَفَوَاتِ قَبْلَ الْفَوَاتِ ؛ فَلْتُ عَنْ مُنَادَاةِ الْغَادَاتِ ، إِلَى مُلَاقَاةِ
الثَّقَاةِ ، وَعَنْ مُقَانَاةِ الْقَيْنَاتِ ، إِلَى مُدَانَاةِ أَهْلِ الدِّيَانَاتِ ، وَآلَيْتُ
أَلَّا أَصْهَبَ إِلَّا مَنْ نَزَعَ عَنِ النَّمَى ، وَفَاءَ مَنْشَرُهُ إِلَى الطَّى . وَإِنْ
الْفَيْتُ مَنْ هُوَ خَلِيعُ الرَّسَنِ ، مَدِيدُ الْوَسَنِ ، أَنَايْتُ دَارِي عَنْ دَارِهِ ،
وَفَرَرْتُ عَنْ عَرِّهِ وَعَارِهِ .

* * *

أَطَلَعْتُ دَوَاعِيَ التَّصَابِي ، يُقَالُ : أَطَعْتُ كَذَا ، وَطَعْتُ لَهُ ، أَيْ انْقَدْتُ .
وَالْمُطِيعُ : الْمُتَقَادِمُ ، وَالتَّصَابِي : التَّظَاهَرُ بِالصَّبَا وَالتَّشَاغُلَ بِهِ . وَدَوَاعِيهِ : مَا يَدْعُوهُ
إِلَيْهِ ، وَغُلُوءُ الشَّبَابِ : أَوَّلُهُ وَسُرْعَتُهُ ، أَرَادَ : مِلْتُ إِلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ فِي أَوَّلِ

شبابي ، فلما أتى الشيبُ أحببت الرجوعَ إلى الخير . زيراً : كثير الزيارة .
والغيد : جمع غيداء ، وهي اللينة العنق والمفاصل من النعمة . أذنًا
للأغاريد ، أي كثير الاستماع للغناء ، وفلان أذن ، إذا كان يستمع من كل
قائل ، ويقبل منه . وافى : أتى ، والنذير : الشيب ، لأنه منذر الإنسان بتمام
العمر ، أي يُعلمه . ولى : رجع وزال . النضير : الناعم ، يريد زمن الشباب .
ونؤخر ذكر الشيب ، فإنه يؤدي إلى تغيير شرح المقامة ، وتكلم هنا
على ذهاب الشباب .

[البكاء والأسف على ذهاب الشباب]

قال أبو عمرو بن العلاء : ما بكتِ العربُ شيئاً ما بكتِ الشباب ، وما
بلغت به ما يستحقه .

الأصمعي : من أحسن ألفاظ الشعر المراثي والبكاء على الشباب ، قال ابن
عباس رضي الله عنهما : الدنيا العافية ، والشباب الصحة .

ومن ألفاظ أهل العصر : الشباب باكورة الحياة ، وروائح الجنة في
الشباب . أطيب العيش أوائله ؛ كما أن أطيب الثمار بواكرها .

قال الصولي : قد أكثر في ذكر الشباب القدماء وأهل الإسلام . وأجمع
الحذاق بالشعر وتمييز الكلام وألفاظه ؛ أنه لم يُقل فيه أحسن من قول
منصور النمرى ، ووقع الإجماع عليه ، فما ضرّ تأخره ، وهو :

مَا تَنْقُضِي عِبْرَةً مِّنِّي وَلَا جَزَعٌ إِذَا ذَكَرْتَ شَبَاباً لَيْسَ يَرْتَجِعُ^(١)

(١) الاغانى ١٣ : ١٤٥ ، أمالي المرتضى ٢ : ٦٠٦ ، حساسة ابن الشجري ٢٣٩

بَانَ الشَّبَابُ وَفَاتَنَتْنِي مَسَرَّتُهُ صُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خُدَعُ
 مَا كُنْتُ أَوْفَى شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ
 إِنْ كُنْتُ لَمْ تَطْعَمِي ثُكُلَ الشَّبَابِ وَلَمْ تَشْجِيْ بِفَضَّتِهِ فَالْعَذْرُ لَا يَقَعُ
 أَبْصِي شَبَابًا سُلْبَنَاهُ وَكَانَ وَلَا تَوَفِّي بِقِيَمَتِهِ الدُّنْيَا وَلَا تَسْعُ
 مَا وَاجَهَ الشَّيْبُ مِنْ عَيْنٍ وَإِنْ رَمَقَتْ إِلَّا لَهَا نُبُوَةٌ عَنْهُ وَمُرْتَدَعُ
 وَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ :

كَانَ الشَّبَابُ مِطْيَةً الْجَهْلُ وَمَحْسَنَ الضَّحِكَاتِ وَالْمَهْزَلِ (١)
 كَانَ الْجَمَالُ إِذَا ارْتَدَيْتُ بِهِ (٢) وَخَرَجْتُ أَخْطِرُ صَيِّتِ النَّمَلِ
 كَانَ الْبَلِيغُ إِذَا نَطَقْتُ بِهِ وَأَصَاخَتِ الْأَذَانُ لِلْمُنَى
 كَانَ الْمَشَقَّعُ فِي مَآرِبِهِ عِنْدَ الْحِسَانِ وَمُدْرِكِ النَّبْلِ (٣)
 وَالْبَاعِثُ وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا (٤) حَتَّى أَكُونَ خَلِيفَةَ الْبَيْعِلِ (٥)
 وَقَالَ جَحْظَةُ :

وَاهَا لِأَيَّامِ الشَّبَابِ بِ وَمَالَيْسَنَ مِنَ الزَّخَارِفِ
 وَزَوَاهِنٍ بِمَا عَرَفْتَ مِنَ الْمُنَاكِرِ وَالْمَعَارِفِ
 أَيَّامَ ذِكْرِكَ فِي دَوَا وَبِالصَّبَا صَدَرَ الصَّحَافِ

(١) ديوانه ٣١١ ، أمالي المرتضى ٢ : ٦٠٧ .

(٢) المرتضى : « كَانَ الْجَمِيلُ » .

(٣) النبل : المثار ، وفي ط : « النَّبْل » تحريف .

(٤) الديوان وأمالي المرتضى : « هَجَعُوا » .

(٥) بعده في الديوان والمرتضى :

وَالْأَمْرِ حَتَّى إِذَا عَزَمْتَ نَفْسِي أَعَانَ عَلَى الْبِفْعَلِ
 فَالْآنَ صِرْتُ إِلَى مِقَارِبَةٍ وَحَطَّطْتُ عَنْ ظَهْرِ الصَّبَا رَحْلِي

وقال ابن أبي حارثة :

وَلَى الشَّبَابُ نَحْلَى الْعَيْنِ تَهْمِلُ فَقَدْ الشَّبَابُ بِفَقْدِ الرُّوحِ مُتَّصِلُ^(١)
لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا مِنْ الشَّبَابِ يَوْمٌ وَاحِدٍ بَدَلُ
وقال آخر :

شَيْثَانٌ لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءُ عَلَيْهِمَا عَيْنَايَ حَتَّى تَوْذَنَا بِذَهَابِ
لَمْ أَبْلُغِ الْمَعَارَ مِنْ حَقِّهِمَا : فَقَدْ الشَّبَابُ وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ
أعرابي :

يَا طَيْبَ أَيَّامِ الشَّبَابِ وَعَصْرِهِ لَوْ يُسْتَعَارُ جَدِيدُهُ فَيَعَارُ^(٢)
مَا كَانَ أَقْصَرَ لَيْلًا وَنَهَارَهُ وَكَذَاكَ أَيَّامُ الشُّرُورِ قِصَارُ
وقال ابن عبد ربه :

قَالُوا شَبَابُكَ قَدْ مَضَتْ أَيَّامُهُ بِالْعِيشِ قُلْتُ وَقَدْ مَضَتْ أَيَّامِي^(٣)
لَهُ آيَةٌ نِعْمَةٌ كَانَ الصَّبَا لَوْ أَنَّهَا وَصِلَتْ بِطُولِ دَوَامِ
حَصَرَ الشَّبَابُ قَنَاعَهُ عَنْ رَأْسِهِ وَصَحَا الْعَوَازِلُ بَعْدَ طُولِ مَلَامِ
فَكَانَ ذَلِكَ الْعِيشَ ظِلُّ غَمَامَةٍ وَكَانَ ذَلِكَ اللَّهُوَ طُولُ مَنَامِ^(٤)
وقال أيضاً :

صِبَايَ كَيْفَ صِرْتُ إِلَى نَفَادِ وَبُدِّلْتَ الْبَيَاضَ مِنَ السَّوَادِ^(٥)

(١) اللالى لأبي عبيد البكرى ٣٣٧ ، حساسة ابن الشجرى ٢٣٩ ، معانى العسكري

٢ : ١٥٢ ، ونسبة الأبيات فيها الى محمد بن حازم ، وانظر أيضا العقد ٣ : ٤٦

(٢) العقد ٣ : ٤٧ ، بنسبته الى امرأى أيضا .

(٣) العقد ٣ : ٤٧

(٤) العقد : « طيف منام » .

(٥) العقد ٣ : ٤٨ : ، وفيه : « شبلى كيف صرت » .

فما أَبْقَى الحوادثُ منك إلا كما أَبْقَتْ من القَمَرِ الدَّادَى ^(١)
 فراقُكَ عَرَفَ الأَحْزَانُ قَلْبِي وِفَرَّقَ بَيْنَ عَيْنِي والرُّقَادِ
 زَمَانٌ كَانَ فِيهِ الرُّشْدُ غَيًّا وَكَانَ الْغَيُّ فِيهِ مِنَ الرُّشَادِ
 بَقْبُلْنِي بَدَلًا مِنْ قَتُولٍ ^(٢) وَيُسْعِدُنِي بِوَصْلِ مَنْ سَعَادِ
 وَأَجْنُبْهُ فِيمَعْطِينِي قِيَادًا وَيَحْتَنِبُنِي فَأَعْطِيهِ قِيَادِي

قال الفرزدق :

إِنَّ اللَّامَةَ مِثْلَ مَا بَكَرْتُ بِهَا مِنْ تَحْتِ لَيْلِيهَا عَلَيْكَ نَوَارُ ^(٣)
 قَالَتْ : وَكَيْفَ يَمِيلُ مِثْلُكَ لِلصَّبَا ^(٤) وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الْحَلِيمِ عِذَارُ
 وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي الشَّبَابِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ
 إِنَّ الشَّبَابَ لِرَاحِمٍ مَبْتَاعُهُ ^(٥) وَالشَّيْبُ لَيْسَ لِبَائِعِهِ تِجَارُ

قال إسحاق الموصلي : قال لي المعتصم : لقد فَضَحَكَ الشيب في عارضيك ،
 قُلْتَ : نعم يا سيدي ، وبكيت ثم قلت :

تَوَلَّى شَبَابُكَ إِلَّا قَلِيلًا وَحَلَّ الشَّيْبُ فَضْرًا كَحِمْلٍ ^(٦)
 كَفَى حَزَنًا بِفِرَاقِ الصَّبَا وَإِنْ أَصْبَحَ الشَّيْبُ مِنْهُ بَدِيلًا
 فَلَمَّا رَأَى الْغَانِيَاتِ الشَّيْبَ أَغْضِينَ دُونِي طَرَفًا كَحِمْلٍ ^(٧)
 سَأَنْدُوبُ عَهْدَ انْقِضَاءِ الصَّبَا وَأَبْكِي الشَّبَابَ بِكَاءِ طَوِيلًا

(١) الدَّادَى : ثلاث ليالٍ من آخر الشهر قبل ليلَى الحلق .

(٢) المَعْد : « يقول » .

(٣) ديوانه ٦٧

(٤) الديوان : « وتقول كيف » .

(٥) الديوان : « لرايح من باعه » .

(٦) الخبر والشعر في الاغانى ٥ : ٦٩ (ساسي) .

(٧) الاغانى : « اغضين دونك » .

وَعَنَيْتُهَا . فَبَكَى الْمُعْتَصِمُ ، وَقَالَ : لَوْ قَدَرْتُ عَلَى رَدِّ شَبَابِكَ لَفَعَلْتُ وَلَوْ بِشَطْرِ
مُلْكِي ؛ فَلَمْ يَكُنْ لِكَلَامِهِ عِنْدِي جَوَابٌ إِلَّا أَنْ قَبِلْتُ الْبَسَاطَ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَأَبْكَى بَيْتَ وَرَدَ فِي فَقَدِ الشَّبَابِ قَوْلَ أَبِي الْفَضْلِ الْأَسَدِيِّ :
أَتَأْمَلُ رَجْعَةَ الدُّنْيَا سَفَاهَا وَقَدْ صَارَ الشَّبَابُ إِلَى ذَهَابِ
فَلَيْتَ الْبَاكِاتِ بِكُلِّ أَرْضٍ مُجْمَعِنَ لَنَا فَتُخَنَ عَلَى الشَّبَابِ
وَقَالَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ ، وَهُوَ جَاهِلِيٌّ :

أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيداً ذُو التَّعَاجِيبِ أَوْدَى وَذَلِكَ شَأَوْ غَيْرُ مَطْلُوبٍ ^(١)
وَلَى حَثِيثًا وَهَذَا الشَّيْبُ يَطْلُبُهُ لَوْ كَانَ يَدْرِكُهُ رَكْضُ الْيَعَاقِيبِ ^(٢)
أَوْدَى الشَّبَابُ الَّذِي مَجْدُهُ عَوَاقِبُهُ فِيهِ كَلَدٌ وَلَا لَذَاتٍ لِلشَّيْبِ
وَقَالَ سَلَامَةُ أَيْضاً :

يَا خَدَّ أُمْسَى سَوَادُ الرَّأْسِ خَالِطُهُ شَيْبُ الْقَذَالِ اخْتِلَاطُ الصَّفْوِ بِالْكَدَرِ ^(٣)
يَا خَدَّ أُمْسَتْ لُبَانَاتُ الصَّبَا ذَهَبَتْ فَلَسْتُ مِنْهَا عَلَى عَيْنٍ وَلَا أَثَرِ
كَانَ الشَّبَابُ لِحَاجَاتٍ وَكَانَ لَهُ فَقَدْ فَرِغْتُ إِلَى حَاجَاتِي الْآخِرِ
وَأَنشَدَ أَبُو الْعِينَاءِ :

مَا فِي يَدَيَّ مِنَ الصَّبَا إِلَّا الصَّبَابَةُ وَالْأَسَفُ
جَاءَ الشَّبَابُ فَمَا أَقَا مَ وَلَا أَلَمَ وَلَا وَقَفَ
كَانَ الشَّبَابُ كَزَائِرٍ مَلَّ الزِّيَارَةَ وَانصَرَفَ
وَالْبَابُ لَا يُحْصَى كَثْرَةُ .

(١) مطلع الفضلية ٢٢ ص ١١٩ . وأودى : هلك : ذو التعاجيب : كثير العجب .

(٢) اليعاقيب : جمع يعقوب ، وهو ذكر الحجل ، خصه لسرعته .

(٣) الأبيات لابن مقبل ، ديوانه ٧٢ ، ٧٤ ، وفيه : « يا حر » .

قوله : قرمت لكذا ، أى اشتدت شهوتي إليه ، وأصله شدة الشهوة إلى اللحم . والرشد والرشد واحد . فرطت : ضيعت ، وفرط في الشيء : قدم فيه التقصير والعجز ، وهو من قولهم : فرط الفارط في طاب الماء ، أى تقدم القوم إليه . وقرئ : ﴿ يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾ ^(١) ، بتخفيف الراء ، ومثله : ﴿ يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله ﴾ ^(٢) ومعنى القراءتين التقصير في جنب الله ، أى في حقه ، وقيل : في أمر الله ، وقيل في طاعته .

ابن الأعرابي : في قرب الله . الفراء : الجنب : القرب ، والجنب معظم الشيء وأكثره ، ومنه : هذا قليل في جنب مودتك . الزجاج : أى على ما فرطت في الطريق الذى هو طريق الله الذى دعانى إليه .

وكسع الهنات ، أى طرد القبائح والقاذورات ، والهنات ، كناية عن الفواحش والأفعال القبيحة ، مأخوذ من ألهن ، وهو الفرج ، وكسعها : دفعها وإزالتها ، والكسع أن تضرب بيدك على دبر الشيء ، وكسعتهم بالسيف ، إذا اتبعت أديبارهم ، فكأنه أزال القبائح عن نفسه ثم أتبعها بالدفع والضرب ؛ حتى نفاها بحسناته ، والكسع أيضاً : أن تضرب الشيء بصدر قدمك وقد كسعته . الأصمعي : الكسع : سرعة المرح ، وكسعته بكذا : جعلته تابعا له .

تلافي : تدارك . الهفوات : السقطات والزلات ، وقد هفا الرجل ، إذا فعل المنكر وما يكره . الفوات : الموت . مفاداة : مباكرة ، وقد غاداه : أتاه بالغدو ، والغادات : النواجم من النساء ، الواحدة غادة ، والتقاة : الخائفون ،

(١) سورة الانعام ٢١

(٢) سورة الزمر ٥٦

الواحد تقى ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ ^(١) ، يجوز أن يكون الأتقياء ، ويجوز أن يكون مصدراً ، وهو أجود القولين : تقيته ، واتقيته تُقَى وَتَقِيَّةً وَتَقَاً وَتَقَاءً ، أى حذرته ، والاسم التقوى . مقانة : مخالطة وملازمة ، وهى مفاعلة من القينة ، وهى الجارية المغنية ، والجمع قَيْنَات . مدانة : مقارنة . ديانات ، هى من الدين ، أراد بها الطاعة . آليت : حلفت . نزع : زال وكف . الغنى : الضلال . فاء : رجع . منشره : انتشاره فى الصُّبَا واللَّهْو . ألفت : وجدت . خلع الرِّسَن : مسَّىب فى المعاصى ، لا يكفُّه عن إتيانها عقل ولادين ، وَخَلَعْتُ رِسْنَ الدَّابَّةِ : تركتها ترعى حيث شاءت سائبة ، ومثله خَالِعُ الْعِذَارِ ، وخلع عذاره ، أصله فى الدَّابَّةِ إِذَا خُلِعَ عِذَارُهَا فَسُيِّبَتْ ، فَإِنْ انْفَلَتَ رِسْنُهَا الَّذِى تَمْسِكُهَا بِهِ فَقَرَّتْ ، قيل : جرت رسنها ، وفلان يجرّ رسنه ، وبابه فى الاستعارة أنه مسَّىب فى الشهوات مجاهر بها . مديد الوَسَن : طوليل النَّوْم ، أى فارغ البال من ذكرٍ أو صلاة بالليل أو قراءة . أنأيت : أبعدت . عره : جربه ودائه ، يريد أنه حَلَفَ أَلَّا يَصَاحِبَ إِلَّا مَنْ كَفَّ عَنْ الصُّبَا واللَّهْو والنساء ، ومتى وجد أهل اللهو والغزل فرَّ عنهم وتركهم ، وقال الألبيرى فأحسن :

مَنْ حَادَ عَنْ نَهْجِ الْهَدَى فَاضْلًا قَصْدَ سَبِيلِهِ
فَتَوْقَ خَلْتِهِ فَدِينُ الْمَرْءِ دِينُ خَلِيلِهِ

وله أيضاً

أَلَا خَيْرٌ بِمَنْزَحِ النَّوَاحِى أَطِيرُ إِلَيْهِ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ ^(٢)

(١) سورة آل عمران ٢٨

(٢) من قصيدة له فى ديوانه ٨٤

وَأَسْأَلُهُ وَأُطْفِئُهُ عَسَاهُ سَيَأْسُو مَا بَدِينِي مِنْ جِرَاحِ
وَيَجْلُو مَا دَجَى مِنْ لَيْلِ جَهْلِي بَنُورِ هُدًى كَمَنْبُجِ الصَّبَاحِ
فَأَبْصُقُ فِي حَيَا أَمْ دَفْرِ وَأَهْجُرُهَا وَأُدْفَعُهَا بِرَاحِي
وَأُحْشُو مِنْ حَيَاها وَأَسْلُو عَفَاقًا عَنْ جَاذِرِهَا الْمَلَاحِ
وَأُصْرَفُ هَمِّي بِالْكَفِّ عَنْهَا إِلَى دَارِ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاحِ

* * *

فَلَمَّا أَلْقَيْتُ الثُّرْبَةَ بِنَيْسٍ ، وَأَحْلَيْتُنِي مَسْجِدَهَا الْأَنْبَسَ ، رَأَيْتُ
ذَا حَلَقَةٍ مُتَلَحِّمَةٍ ، وَنَظَّارَةٍ مُزْدَحِحَةٍ ؛ وَهُوَ يَقُولُ بِجَاشٍ مَكِينٍ ،
وَلِسَانٍ مُبِينٍ : مَسْكِينُ ابْنِ آدَمَ وَأَيُّ مَسْكِينٍ ! رَكْنٌ مِنَ الدُّنْيَا
إِلَى غَيْرِ رَكِينٍ ، وَاسْتَقْصَمَ مِنْهَا بِمَيْرٍ مَكِينٍ ، وَذُجِحَ مِنْ حُبِّهَا بِغَيْرِ
مَسْكِينٍ ، يَكْلَفُ بِهَا لِقَاؤُهُ ، وَيَكْلَبُ عَلَيْهَا لِسْقَاؤُهُ ، وَيَعْتَدُّ
فِيهَا لِمُفَاخِرَتِهِ ، وَلَا يَتَزَوَّدُ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ .

أَقْسِمُ بِمَنْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، وَتَوَّرَ الْقَمَرَيْنِ ، وَرَفَعَ قَدْرَ الْحَجَرَيْنِ :
لَوْ عَقَلَ ابْنُ آدَمَ ، لَمَّا نَادَمَ ، وَلَوْ فَكَّرَ فِيمَا قَدَّمَ ، لَبَكَى الدَّمُ ،
وَلَوْ ذَكَرَ الْمَكَافَاتِ ، لاسْتَذْرَكَ مَا قَاتَ . وَلَوْ نَظَرَ فِي الْمَالِ ، لِحَسَنَ
قَبِجِ الْأَعْمَالِ .

يَا عَجَبًا كُلِّ الْعَجَبِ ، لِمَنْ يَفْتَحِمُ ذَاتَ اللَّهِبِ ، فِي اكْتِنَازِ الذَّهَبِ ،

وَحَزَنُ النَّسَبِ ، لِذَوِي النَّسَبِ . ثُمَّ مِنَ الْبِدْعِ الْعَجِيبِ ، أَنَّ يَعِظَكَ
وَحْطُ الْمَشِيبِ ، وَتَوُذِنَ شَمْسُكَ بِالْمَغِيبِ ، وَلَسْتَ تَرَى أَنَّ تُتِيبُ ،
وَتَهْذِبَ الْمَغِيبَ .

* * *

[ذكر تنيس]

تَنِيسُ بلدةٌ كبيرةٌ ، وهى جزيرةٌ أُحْدِثَتْ بها بحيرةٌ يَتَّصِلُ بها النيلُ ،
فَتُعَذَّبُ عِنْدَ زِيَادَتِهِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَتَمْلَحُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَيَتَّصِلُ بها خَلِيجٌ دُمِيطُ ،
وخليجها ينقسم على شَرْقِيَّهَا غَرْبِيَّهَا ، وَيَلْتَقِيَانِ فى الْبَحِيرَةِ ، فَيَسِيرُونَ بِسَفْنِهِم
مِنَ دُمِيطَ إِلَى تَنِيسَ ؛ دَخُولُهُمْ لَهَا وَخُرُوجُهُمْ بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ مُحْكَمَةٍ . وَأَهْلُ تَنِيسَ
ذَوُو يَسَارٍ ، وَأَكْثَرُهُمْ حَاكَةٌ . وَثِيَابُ الشُّرُوبِ الَّتِى تُصَنَّعُ بِهَا وَبَدُمِيطَ لَا يُصَنَّعُ
مِثْلُهَا فى الدُّنْيَا ، وَلَيْسَ فى الدُّنْيَا طَرَازُ كَتَّانٍ يَبْلُغُ الثَّوْبُ مِنْهَا دُونَ أَنْ يَبْعِينَ
بِذَهَبٍ مِائَةَ دِينَارٍ ، غَيْرَ طَرَازِ تَنِيسَ وَدُمِيطَ ، وَيَكْتَفِى ثَوْبُهَا بِقِصَّارَةِ يَوْمٍ
وَاحِدٍ فى الْبَحِيرَةِ فَيَبْيُضُّ . قَالَ الْبَيْهَقَوِيُّ : مَدِينَةُ تَنِيسَ مُحِيطٌ بِهَا الْبَحْرُ
الْأَعْظَمُ الْمَلْحُ وَلَهَا بِحِيرَةٌ يَأْتِى مَأْوَاهَا مِنَ النَّيْلِ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ بِهَا
تُعْمَلُ الثِّيَابُ الرَّفِيعَةُ الصَّفَاقُ وَالْمَعْصَبُ وَالْبُرُودُ وَالْوَشْيُ ، وَبِهَا مَرَسَى الْمَرَاكِبِ
الْوَارِدَةِ مِنَ الشَّامِ وَالْمَغْرِبِ .

قوله : ملتحمة ، أى منضمة ملتصقة . ذا حلقة : يريد واعظا قد حلقة
الناس والنظارة : الناظرون إليه . جاش : تنفس . مكين : شديد . مبين :
مفصّل . أى مسكين : ترحم عليه لكثرة مسكنته وتعجب منه . ركن :

سكن ولجأ . ركين شديد : قوى يُركن إليه ، ورجل ركين ، أى وقورٌ بين
الركانة ، والركين الثابت . مكين : عزيزه مكانة ، أى منزلة رفيعة . دُبح
من حبّها بغير سكنين ، إشارة لعذابه فيها ومحنته ، لأنّ السّكين تذبح المذبح
من ساعته ، ومن يُذبح بحجر أو عُود أر غير ذلك ، فهو فى تعذيب .

أبو موسى: قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَ بآخِرَتِهِ ،
وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَ بِدُنْيَاهُ ، فَآثَرُ مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » .

وقال سفيان بن عيينة : ويلكم يا علماء السوء ، لاتكونوا كالمنخل يخرج
منه الدقيق الطيب فيمرّ ويمسك النخالة ، فكذلك أتمّ تُخرِجون الحكمة من
أفواهكم ، ويبقى الغلّ فى صدوركم ، ويحكم ! إنّ الذى يخوض النهر لابدّ أن
يصيب ثوبه الماء وإن جهّد ألاّ يصيبه ، كذلك مَنْ يَحِبُّ الدنْيا لا ينجو من
الخطايا .

يَكَلِّف ، أى يولع بها ويشتدّ حُبّه فيها . غباوته : جهله . يكلّب :
يشتدّ حرصه ، وكلّب على الشئ : ألحّ فى طلبه ، وأصله من الكلب وهو السّعر
فى الكلاب . يعتدّ : يستعدّ . مرّج : خلط ، وقيل : أرسلهما وخلاهما كما
تسرح الدابة فى مرعاها . والتمرين : الشمس والقمر ، غلب لفظ القمر لخفته
بالتذكير وإن كانت الشمس أنور ، وهى أصلُ لنور القمر ، ولهذا قال المتنبي :
وَمَا التَّائِثُ لاسم الشمس عَيْبٌ وَلَا التَّذْكِيرُ نَغْرٌ لِلْهَلَالِ^(١)

أراد أنّ الشمس أنور وأضوأ ، فما يضرّ هاتائث اسمها ، وما ينفع الهلال
تذكيرُ اسمه ، وهو ناقص عنها ، فانخفة لفظ القمر غلب ، كما قالوا : العمران

لأبي بكر وعمر ، وأبو بكر أفضل من عمر باتفاق من أهل السنة ، فغلب لفظ عمر لحقته بإفراده وقلة حروفه .

[مما قيل في القمر]

ومما يحسن موقعه مع قوله : وتور القمرين ؛ أن أعرابياً أضلَّ الطريق فمات جَزَعًا ، وأيقن بالهلاك ، فلما طلع القمر اهتدى ، ووجد الطريق ، فرفع إليه رأسه ليشكره ، فقال له : والله ما أدري ما أقول لك ، ولما أقول فيك ! أقول : رفعك الله ، فإله قد رفعك ، أم أقول : نورك الله ، فإله قد نورك ، أم أقول : حسنتك الله ، فإله قد حسنتك ، ولكن ما بقى إلا الدعاء أن يُنسى الله في أجلك ، وأن يجعلني من سوء فداك .

وصَلَّت ناقة لأعرابيٍّ في ليلة مظلمة ، فأكثر في طلبها ، فلم يجدها ، فلما طلع القمر وانبسط نوره وجدَّها إلى جانبه ببعض الأودية ، وقد كان اجتاز بموضعها مراراً فلم يرها لشدة الظلام ، فرفع رأسه إلى القمر ، وقال : ماذا أقول وقولي فيك ذو خطرٍ وقد كفيتهنَّ التفصيل والجمال إن قلت لازلت مرفوعاً فانت كذا أو قلت زانك ربِّي ، فهو قد فعلاً ومما قيل في ذمِّه : عرهد بعض الحِجَّان على القمر ، فقال : والله إنك لتفتت الكتَّان ، وتُغيِّر الألوان ، وتصفرُّ الأسنان ، وتختَر الأبدان ، وتسدُّ الآذان ، وتفضح السكران ، وتظهر السكَّمان وتقلق الصبيان ، وتبييض الأرجوان ، وتلحس الزعفران ، وتهزل الحيتان ، وتمحق الأدمغة بالنقصان .

وقال ابن المعتز يذمه :

يا سارق الأنوارِ من شمسِ الضُّحَى يا مُشكِلِي طيبِ السكرى ومنفصلي^(١)

أما ضياء الشمس فيك فناقص^(١) وأرى حرارة نارها لم تنقص^(٢)
لم يظفر التشبيه فيك بظائل متسلخ لونا كلون الأبرص

قوله : الحجرين ، أى الذهب والفضة . وقيل الحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام . نادم : صاحب ، والنديم الصاحب على الخمر . المكافات : المجازاة . المسأل : المرجع . ذات اللهب : صاحبة النار ، يعنى جهنم . يقتحم : يتراعى فيها ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني لأخذ بمُحْجَزِكُم عن النار ، وأتم تقتحمون فيها ، كما تقتحم الفراش والجنادب » .

الخزن : الجمع . البدع : الحدث لم يكن ثم كان ، وقد ابتدعت الشيء . أحدثته ، وسقت الناس إلى فعله . وخط : اختلط ، وقد وخط الشيب الشعر ، إذا خالطه وفشا فيه . وتؤذن : تعلم . شمسك بالمغيب : نفسك بالذهاب . تنيب : ترجع وتتوب . تهذب : تخلصه من العيب . والمعيب : الكثير العيب . يرشد : يهدى ويدل الطريق .

[مما قيل في الدنيا]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل في الدنيا موافقةً للحريرى ، ثم نعود إلى ذكر الشيب :

ومن خطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا :

الستم في مساكن من كان أطول منكم أعماراً ، وأعدّ عديداً ، وأوضح آثاراً ، وأكثر جنوداً ، وأعدّ عتاداً ، وأطول عماداً ؛ تعبدوا للدنيا أئى تعبد ،

(١) الديوان : « ضياء الشمس منك » .

(٢) الديوان : « حرارتها بها » .

وآثروها أى إيثار ، وغلغولوا عنها بالكفرة والصغار ، فهل بلغكم أن الدنيا أسمعتم لهم نفساً ، وأغنت عنهم بحيلة ، بل أرهقتهم بالحوادث ، وضغضعتهم بالنوائب ، ودهمتهم بالمصائب ، أرايتم مكرها بمن دان لها وآثرها ، وأخلد إليها ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ ^(١) إلى قوله : ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه : « ألا أريك الدنيا جمعاء بما فيها ؟ قال : قلت : بلى ، فأخذ بيدي ، وأتى وادياً من أودية المدينة ، فإذا مَرْبَلَةٌ فيها رهوس الناس وغذيرات وخرق ، فقال : يا أبا هريرة ، هذه رهوس كانت تحرص حرصكم ، وتأمل أملككم ، ثم هى اليوم عظام ، ثم غدأ رماد ، وهذه الغذيرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها قذفوها فى بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، والريح تصفقها ، وهذه عظام دوابهم التى كانوا بها ينتجعون أطراف البلاد ، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك . فما برحنا ، حتى اشتد بكأؤنا .

مرة أبو عثمان الدباج ، برجل على كنيف ، فقال له : إلى هذا انتهت دنيا القوم .. وقال الشاعر :

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسمت عجبا ولم تبدي
حتى سررت على الكنيف فقال لى أموالهم ونوالهم عندي

ويروى أن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام مرّ بجمجمة فضرها برجله ، وقال : تكلمى ياذن الله ، فقالت : ياروح الله ، أنا ملك زمن كذا ، فبينما أنا جالس فى ملكى ، على تاجى ، وحولى حشى وجنودى على سريرى ،

إِذَا بَدَأَ لِي مَلَكُ الْمَوْتِ وَظَهَرَ ، فَرَزَالَ غَنَى كُلِّ عَضْوٍ مِنْ مَوْضِعِهِ ، ثُمَّ خَرَجَتْ
إِلَيْهِ نَفْسِي .

ولبعض الزهاد :

دُنْيَا تُخَادِعُنِي كَأَنِّي لَسْتُ أَعْرِفُ حَالَهَا
مَدَّتْ إِلَى يَمِينِهَا قَطَعَتْهَا ، وَشِمَالَهَا
مَنْعَ الْإِلَهِ حَرَامَهَا وَأَنَا اجْتَنَبْتُ حَلَالَهَا
وَرَأَيْتُهَا مُحْتَاجَةً فَوَهَبْتُ مُجْلَتَهَا هَلَا

ولبعضهم :

هَبِ الدُّنْيَا تَسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى انْتِقَالٍ
وَمَا دُنْيَاكَ إِلَّا مَثَلٌ فِيءٍ أَظْلَكَ مِمَّ آذَنَ بِالزَّوَالِ
أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

يَا مَنْ تَرَفَّعَ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا لَيْسَ التَّرَفُّعُ رَفَعَ الطَّيْنِ بِالطَّيْنِ
إِذَا أَرَدْتَ شَرِيفَ الْقَوْمِ كُلِّهِمْ فَانْظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ مُسْكِينٍ
أَرَى أَنَا نَاسًا بِأَدْنَى الدِّينِ قَدْ قَنَعُوا وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي الْعِيشِ بِالدُّنُونِ
فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَنْ دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا اسْتَعْنَى الْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ
وَقَالَ التَّهَامِيُّ :

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَدَارِ قَرَارٍ^(١)
بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مَخِيرًا حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
طُبِعَتْ عَلَى كَدْرِ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَكْدَارِ
وَمَكَلْتَ الْأَيَّامَ ضِدَّ طَبَاعِهَا مَتَطَلَّبٌ فِي الْمَاءِ جَذْوَةٌ نَارٍ

وقال أبو حاتم: إنما بينى وبين الملوك واحدة؛ أمّا أمس فلا يجدون لذته،
وأنا وإيّاهم فى غد على وجل، وإنا هو اليوم، فما عسى أن يكون اليوم!
أخذه أبو العتاهية فقال:

حَتَّى مَتَى نَحْنُ فِي الْأَيَّامِ نَحْسَبُهَا وَإِنَّمَا نَحْنُ فِيهَا بَيْنَ يَوْمَيْنِ^(١)
يَوْمٌ تَوَلَّى وَيَوْمٌ نَحْنُ نَأْمُلُهُ لَعَلَّهُ أَجْلِبُ الْأَيَّامَ لِلْحَيْنِ
ولحاتم:

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد كذا الدهر فيما بيننا يتردد
برد علينا ليلة بعد يومها فلا عمرنا يبتقى ولا الدهر ينفد
والفقيه الباجي:

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا بَأَن جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاءَةٌ
فَمَنْ لَا أَكُونُ ضَنِينًا بِهَا وَأَجْعَلُهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَةٍ!
وله أيضًا:

تَبَلَّغْ مِنَ الدُّنْيَا بِإِسْرَارٍ زَادَ فَإِنَّكَ عَنْهَا رَاحِلٌ لِمَعَادٍ
وَعُضَّ عَنِ الدُّنْيَا وَزَخَرَفِ أَهْلَهَا جُفُوكَ وَاجْهَلْهَا بِطَيْبِ مَسَادٍ
وَجَاهِدْ عَنِ الْآذَاتِ نَفْسَكَ جَاهِدًا فَإِنَّ جِهَادَ النَّفْسِ خَيْرُ جِهَادٍ
وَمَا هِيَ إِلَّا دَارُ لَهْوٍ وَفِتْنَةٍ وَإِنَّ قَصَارَى أَهْلِهَا لِنِفَادٍ

وقال آخر:

وَمَا أَهْلُ الْحَيَاةِ لَنَا بِأَهْلٍ وَلَا دَارُ الْفَنَاءِ لَنَا بِدَارٍ
وَمَا أَمْوَالُنَا إِلَّا عَوَارٍ سَيَأْخُذُهَا الْمَعِيرُ مِنَ الْمَعَارِ

ولأبى العتاهية :

قطعتُ منكِ حباثل الآمالِ ووجدتُ برْدَ اليأسِ بينَ جَوَانِحِي
فأرحتُ من حَطِيٍّ ومن ترَحَالِي فالآنِ يا دُنْيَا عَرَفْتُكِ فاذْهَبِي
يا دارَ كلِّ تنقُّلٍ وزوالِ والآبِ صار لي الزمانُ مؤدِّباً
فقد ا وراحَ علىِّ بالأمثالِ بأَيُّهَا البَطَلُ الَّذِي هو من غدٍ
في قـبـره متفرِّقِ الأوصالِ حَيْلُ ابنِ آدَمَ في الأمورِ كثيرةٌ
والموتُ يقطعُ حيلةَ المحتالِ والقاضى أبى حفص بنِ عمران :

أَيُّهَا المَفْتَرُّ بِالزَّمَنِ في هَوَاهِ خالِعِ الرِّسَنِ
حَبِّكَ الدُّنْيَا وزينتها فتنةَ عَمَّتْكَ بِالْفِتَنِ
ظَلَّتْ والحالاتُ شاهدةٌ عاكفاً منها على وَثَنِ
فاهجرنها إنَّ زينتها زينةٌ شانت ولم تزنِ
خدعتك إنها قُبْحَتِ باطناً في ظاهرٍ حَسَنِ
واسئلُ عن حرصٍ وعن طَمَعٍ أملا يردى وعنِ وعنِ
ولتقدِّم ما تُسرُّ به قبل طولِ البَثِّ والحزنِ
فكأنَّ أخراك مابِرَحَتِ وكأنَّ دنياك لم تَكُنِ

* * *

ثمَّ اندفع يُنشدُ ، إنشادَ مَنْ يُرشد :

يَا وَنَحْ مَنْ أَنْذَرَهُ شَيْبُهُ وَهُوَ عَلَى غَيِّ الصَّبَا مُنْكَمِشْ
يَعْسُو إِلَى نَارِ الْهَوَى بَعْدَ مَا أَصْبَحَ مِنْ صُغْفِ الْقَوَى يَرْتَعِشْ
وَيَعْتَطِي اللَّهْوَ وَيَعْتَدُّهُ أَوْ طَامَا يَفْتَرِشُ الْمُفْتَرِشْ

لَمْ يَهَبِ الشَّيْبَ الَّذِي مَا رَأَى نَجْومَهُ ذُو الْأَبِّ إِلَّا دُهُشَ
وَلَا انْتَهَى غَمًّا مَا نَهَاهُ النَّهَى عَنْهُ وَلَا بَالَى بِعِرْضِ خُدِشَ
فَذَلِكَ إِنْ مَاتَ فَسُحْقًا لَهُ وَإِنْ يَعْشُ عُدَّ كَأَنَّ لَمْ يَعْشُ
لَا خَيْرَ فِي حَيَا امْرِئٍ نَشْرُهُ كَنَشْرِ مَيِّتٍ بَعْدَ عَشْرِ نَبْشِ

* * *

قوله : يا ويح من أنذره شيبه ، ويح كلمة ترحم ؛ أنذره : أبلغه وحذره .
غى : ضلال . منكش : مسرع إليه ملازم له ، وقد كمش الرجل وانكش
في أمره : استمرَّ ومضى فيه مسرعاً .

ومن قولهم في الشيب

في هذا المعنى ما قال أكرم بن صيفي : الشيب عنوان الموت

وقال العتابي : الشَّيْبُ نذيرُ الموت .

وقال الثُميري : هو عنوان الكبر .

قيس بن عاصم : هو خطام المنية .

محمود الوراق : الشَّيْبُ إخذى الميتتين .

المعز بن سايمان : الشيب موت الشعر ، وموت الشعر علة موت البشر .

أعرابي : كنت أنكر السوداء ، فياخير مبدول ويا شرَّ بدَلٍ ! أخذه

حيب فقال :

شَابَ رَأْيِي وَمَا رَأَيْتُ مَشِيبَ الرَّأْسِ إِلَّا مِنْ قُضْلِ شَيْبِ الْفُؤَادِ^(١)

وكذلك الروس من كلّ بؤس^(١) ونعيم طلائع الأجداد
 طال إنكارى البياض وإن عُمّرت شيئاً أنكرت لون السواد^(٢)
 زارنى شخصه بطلعة ضيم عُمّرت مجلسي من القواد
 قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : عجّل عليك الشيب يا رسول الله ، فقال :
 « شيبّنى هود وأخواتها » .

وقيل لعبد الملك : عجّل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ، فقال شيبّنى ارتقاء
 المنار وتوقع اللحن .

وقيل لشاعر : عجّل عليك الشيب ، فقال : كيف لا ، وأنا أعصِرُ قلبي في
 عمل لا يُزجى ثوابه ، ولا يؤمن عقابه .
 وقال محمود الوراق رحمه الله :

بَكَيْتُ قُرْبَ الْأَجَلِ وَبَعْدَ فَوَاتِ الْأَمَلِ^(٣)
 وَوَفِدَ شَيْبٌ طَرَا بَعَقِبِ شَبَابٍ رَحَلَ
 شَبَابٌ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ وَشَيْبٌ كَأَنَّ لَمْ يَرَكَ

وقال حبيب :

غَدَا الشَّيْبُ مُحْتَطًّا بِفُودَى خُطَّةٍ

طريقُ الرَّدَى منها إِلَى النَّفْسِ مَهْمَعٍ^(٤)

(١) الديوان : « وكذلك القلوب » .

(٢) بعده في الديوان :

نَالَ رَأْسِي مِنْ نُفْرَةِ الْهَمِّ دَالًا لَمْ يَنْلَهُ مِنْ نُفْرَةِ الْمِيلَادِ

(٣) المقدم ٣ : ٢٢

(٤) ديوانه ١٩٠

هو الزَّوْرُ يُجَنِّى والمُعَاشِرُ يُجْتَوَى وَدُو الْإِلَافِ يُقَلِّى والجديد يَرْقَعُ
لَهُ مَنَظَرٌ فِي الْعَيْنِ أبيضُ ناصعٌ وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ
وَنَحْنُ نَرْجِيهِ عَلَى السَّخَطِ وَالرِّضَا^(١) وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهُوَ أَجْدَعُ

وقال ابن عبد ربه :

شَبَابُ الْمَرْءِ تُنْفِذُهُ اللَّيَالِي إِنْ كَانَتْ تَصِيرُ إِلَى نَفَادٍ^(٢)
فَأَسْوَدُهُ يَعُودُ إِلَى بَيَاضٍ وَأَبْيَضُهُ يَعُودُ إِلَى سَوَادٍ

أخذ هذا من قول المستوغر بن ربيعة حين دخل على معاوية ، وهو ابن
ثلاثمائة سنة ، فقال : كيف تجددك يا مستوغر ؟ قال : أجدني قد لَانَ مَنِّي ما كنت
أحبَّ أَنْ يَشْتَدَّ ، وأبيضَ مَنِّي ما كنت أحبُّ أَنْ يَسُودَ .

وقال ابن عبد ربه :

أَطْلَالُ لَهْوِكَ قَدْ أَقْوَتْ مَعَانِيهَا لَمْ يَبْقَ مِنْ رَمِيمِهَا إِلَّا أُنْثَاهِهَا^(٣)
هَذِي الْمَفَارِقُ قَدْ قَامَتْ شَوَاهِدُهَا عَلَى فَنَائِكَ وَالْدُنْيَا تَزَكِّيْهَا
لِلْمَوْتِ سَفْتَجَةٌ فِيهَا مَعْنُونَةٌ لَمْ يَبْقَ لِلْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَسْحَبِيَهَا^(٤)

* * *

قوله : يعشو ، أى ينظر ببصر ضعيف . يمتطى : يركب . يعتده : يحسبه .
المفترش : المضطجع على الفراش ، يريد أنه يركب اللهو فيلتذ به ويجده وطيباً .
يَهَبُ : يخف . اللَّب : العقل : دُهِش : تحير . النَّهْي : جمع نُهْيَة ، وهى العقل
ينهى عن القبيح ، وينتهى به إلى حسن الرأى فى الأمور ، ويقال : نهاه عن
ذلك نُهَاه ، أى عقله .

(١) الديوان : « على الكره والرضا » .

(٢) المعتد ٣ : ٤٤

(٣) المعتد ٣ : ٤٤

(٤) يقال : سحى القرباس ، اذا أخذ منه سحاة ، والسحاة : ما يقشر عنه .

وأنشد أبو طاهر السلفي ، قال : أنشدني القاضي أبو محمد بن الحسن بن
نصر بن مرهف الهاوندي ، قال : أنشدني الأديب المديني لنفسه في نفسه :

لِي عَلَى النَّاسِ فَضْلُ نَظْمٍ وَنَثْرٍ مِنْ أَبَاهُ هَوْنُهُ وَأَبَاهُ
وَإِذَا مَا أَتَى صَفْعَتُ قَفَاهُ وَقَفَا مِنْ أَعَانِهِ وَقَفَاهُ
رَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَرَادَ مُحَالًا فَتَهَاهُ عَنْ الْحَالِ نُهَاهُ

قوله : خُدْش ، أى ذمّ وسُبّ ، وأصل الخُدْش الأثر في الجلد ، ثم
اتَّسع فيه ، فَجُعِلَ لِلْعَرَضِ . سحقا : بعدا ، وَاللَّشْرُ : الرِّيحُ ؛ طَيِّبَةٌ كَانَتْ
أَوْ خَيْثَةً . نُبِشَ : أُخْرِجَ ، وَكُلُّ مَدْفُونٍ أُخْرِجَتْهُ فَقَدْ نَبَشَتْهُ . وَأَخَذَ هَذَا
الْبَيْتَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الْمَعْتَزِ :

تَبَحَّثْتُ عَنْ آثَارِهِ فَكَأَنَّمَا نَبَشَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ الدَّفْنِ

وله :

أُنْثِيَ عَلَيْكَ بِمِثْلِ رِيحِكَ مِثْنًا فِي عَقَبِ يَوْمِ تَرْفُكِ الْأَعْوَادِ
وَأَخَذَ هَذَا وَهَذَا مِنْ قَوْلِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ : لَوْ رَأَيْتَنِي بَعْدَ ثَلَاثَةِ ! وَتَقَدَّمَ
فِي الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ .

* * *

وَحَبَّذَا مَنْ عَرِضَهُ طَيْبٌ يَرُوقُ حُسْنًا مِثْلَ بُرْدٍ رُقِشَ
فَقُلْ لِمَنْ قَدْ شَاكَهُ ذَنْبُهُ : هَلَكْتَ يَا مُسْكِبٍ أَوْ تَنْتَقِشُ
فَأَخْلَصِ التَّوْبَةَ تَطْمِئِنْ بِهَا مِنَ الْخَطَايَا السُّودِ مَا قَدْ نُقِشَ
وَعَاشِرِ النَّاسِ بِمُخْلَقِ رِضَا وَدَارِ مَنْ طَاشَ وَمَنْ لَمْ يَطِشْ
وَرِشَ جَنَاحَ الْحُرِّ إِنْ حَصَّهُ زَمَانُهُ ، لَا كَانَتْ مَنْ لَمْ يَرِشْ

وَأُعْجِدِ الْمَوْتَوْرَ ظُلُمًا فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ إِنْجَادِهِ فَاسْتَجِشْ
وَأَنْعَشْ إِذَا نَادَاكَ ذُو كَبُوءٍ عَسَاكَ فِي الْحُشْرِ بِهِ تَنْتَشِشْ
وَهَاكَ كَأْسَ النَّصِيجِ فَاشْرَبْ وَجُدْ بِفَضْلَةِ الْكَأْسِ عَلَى مَنْ عَطِشَ

* * *

يروق : يُعْجِب : بُرَد : ثوب . رُقِش : رَقِم وَزَيْن ، تقول : رَقِشْتُ يَدَ
المرأة بِالْحَنَاءِ وَالْحَانِطَ بِالْأَصْبَاغِ وَالْقِرطَاسَ بِالْمِدَادِ ، وشبه هذا شاكه ذنبه ،
يقال : شاكه يشوكه ، إذا دخل فيه شوكه ، قال الشاعر :

لَا تَنْقُشَنَّ بِرَجْلِ غَيْرِكَ شَوْكَةً فَتَقِيَ بِرَجْلِكَ رِجْلَ مَنْ قَدْ شَاكَهَا
فشاكها ، أَدْخَلَ فِيهَا الشَّوْكَ ، وشَاكَتْهُ الشَّوْكَةُ : دَخَلَتْ فِيهِ ، وشَاكَتْهُ
أَنَا ، إِذَا أَدْخَلْتَ الشَّوْكَةَ فِي جِسْمِهِ ، فَإِنْ أَصَابَكَ الشَّوْكَ قَالَتْ : شَاكَنِي الشَّوْكَ
يَشُوكُنِي شَوْكًا . وانتَمَشَتْ حَقِّي مِنْ فُلَانٍ ، إِذَا اسْتَخْرَجْتَهُ وَلَمْ تَرَكَ مِنْهُ شَيْئًا .
وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَإِنْ شَيْكَ فَلَا تَنْقَشِ » ، فَشَيْكَ أَصَابَهُ
الشَّوْكَ وَمَعْنَاهُ إِذَا وَقَعَ فِي شَرٍّ فَلَا يَخْلُصُ مِنْهُ .

تَنْقَشُ : تَخْرُجُ الشَّوْكَةُ وَتَبْحَثُ عَلَيْهَا ، وَأَوْ بِمَعْنَى إِلَّا . وَالْمُنَاقَشَةُ : الْبَحْثُ
وَالِاسْتِقْصَاءُ ، وَمِنْهُ مُنَاقَشَةُ الْحِسَابِ ، وَبِذَلِكَ سَمِيَ الْمُنَاقَشُ ، وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ :

إِذَا رُمْتُ بِالْمُنَاقَشِ تَنْفَ أَشَاهِي أَتِيحُ لَهَا مِنْ يَنْهَنِّ الْأَبَاهُ
يُرَاوِغُ مُنَاقِشِي نَجُومَ مَسَاحِي وَهَنْ بَعِينِ طَالِعَاتِ نَوَاجِمِ
تَطْمِسُ : تَمْحُو . وَنَقَشَ : كَتَبَ ، وَالنَّقْشُ يَسْتَعْمَلُ فِي مِثْلِ الْخَشَبِ
وَالْحَانِطِ وَالصَّخْرِ ، وَالنَّقْشُ : الْفَتْحُ وَالتَّأْمِيرُ فِي نَفْسِ الْمُنَقُوشِ . وَقَالَ الْأَلِيرِيُّ
فِي مَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ :

مَنْ لَيْسَ يَسْعَى فِي الْخِلَاصِ لِنَفْسِهِ كَانَتْ سَعَايَتُهُ عَلَيْهَا ، لَا لَهَا (١)

إِنَّ الذُّنُوبَ بِتَوْبَةٍ تُمْحَى كَمَا يَمْحُو سُجُودُ السَّهْوِ غَفْلَةً مَنْ سَهَا
 قوله : عاشر ، أى صاحب . دار : عامله بما يحب ، وأمّش على غرضه .
 طاش : خف عقله ، ورجل طيَّاش غير مقتصد فى قوله ، وهو من طاش السهم ،
 إذا لم يصب ووقع على غير قصد ، ومثله قول أعرابي لبنيه : عاشروا الناس
 معاشرة إذا غبتم حنوا إليكم ، وإن متم بدؤوا عليكم ؛ وهذا من قول الشاعر :
 وأكرم كريباً إن أذاك لحاجة لفاقته إن العصاة ترؤح
 وقال الأضبط بن قريع :

لا تهين الفقيرَ علَّك أن ترزَّك يوماً والذهب قد رَفَعَهُ^(١)

رش الجناح : اكسه الريش ، والمعنى أصليح حال الحر إذا افتقر . حصه :
 نتفه . أنجد : قو وأعن ، والموتور : المظلوم الذى قتل له أخ أو ولد أو نسيب .
 استجش : اجمع جيشاً ، والمعنى : إذا لم تقدر على إعانة مظلوم ، فتوسط لمن
 يُعينه . انفس : ارفع . كبوة : سقطة وعثرة . تنتعش : ترتفع وتقوم من
 عثرتك . هاك : خذ ، والمعنى خذ كأس النصيحة فاشربها فإذا رويت فاسق
 غيرك . ولا يقال كأس إلا إذا كان فيها شراب .

* * *

قال : فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مُبْكِيَاتِهِ ، وَقَضَى إِنْشَادَ أَيْيَاتِهِ ، نَهَضَ
 صَبِيٌّ قَدْ شَدَنَ ، وَأَعْرَى الْبَدَنَ ، وَقَالَ : يَا ذَوِي الْخِصَاةِ ، وَالْإِنْصَاتِ
 إِلَى الْوَصَاةِ ، قَدْ وَعَيْتُمُ الْإِنْشَادَ ، وَفَقَّهْتُمُ الْإِرْشَادَ ، فَمَنْ نَوَى مِنْكُمْ
 أَنْ يَقْبَلَ ، وَيُصْلِحَ الْمُسْتَقْبَلَ ، فَلْيُبْنَ بِرَى عَنْ زَيْتِهِ ، وَلَا يَعْدِلْ

(١) الشعر والشعراء ٣٨٣ ، وهو من أبيات الشواهد ، على أن نون التوكيد الخفيفة
 تحذف لالتقاء الساكنين والاصل : « لا تهين » .

عَنِّي بِعَظِيَّتِهِ ؛ فَوَالَّذِي يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ ، وَيَغْفِرُ الْإِضْرَارَ ؛ إِنَّ سِرِّي لَكَمَا
تَرَوْنَ ، وَإِنَّ وَجْهِي لَيَسْتَوْجِبُ الصَّوْنَ ؛ فَأَعِينُونِي رُزِقْتُمُ الْعَوْنَ .
قال : فَأَخَذَ الشَّيْخُ فِيمَا يَعْطِفُ عَلَيْهِ الْقُلُوبَ ؛ وَيُسَنِّي لَهُ الْمَطْلُوبَ ؛
حَتَّى أَنْبَطَ حَفْرُهُ ، وَاعْشَوْشَبَ قَفْرُهُ . فَلَمَّا أَنْ تَرَعَ الْكِيسُ ؛
انْصَلَتْ يَمِيسُ ، وَيَحْمَدُ تَنِيسُ ، وَلَمْ يَحُلْ لِلشَّيْخِ الْمَقَامَ ، بَعْدَ مَا انْصَاعَ
الْغَلَامُ . فَاسْتَرْفَعَ الْأَيْدَى بِالْدُّعَاءِ ، ثُمَّ نَحَا نَحْوَ الْإِنْكِفَاءِ .

* * *

قوله : قضى ، أى أتم . نهض : قام وتقدم . شَدَنَ : اشتد وقوى ،
وأصله فى الظَّئِى والصَّبَى ، تقول : شَدَنَ الظَّئِىُّ ، إِذَا اشْتَدَّ وَتَرَهَّرَ ، وكذلك
الصَّبَى قَالَ عمر بن أبى ربيعة :

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِمَقْصُولٍ عَوَارِضُهُ وَمَقْلَتِي جُؤْذَرٍ لَمْ يَعُدْ أَنْ شَدَنًا^(١)
أَرَادَ أَنَّهُ تَرَعَرَعَ لِمَشْيِ وَالرَّغَى . أَغْرَى الْبَدَنَ : تَرَكَّهُ غُرْيَانًا . ذَوَى
الْحَصَاةِ : أَهْلُ الْعُقُولِ : وَالْإِنْصَاتِ : السَّكُوتُ وَحَسَنُ الْإِسْتِمَاعِ . وَالْوَصَاةُ ،
بِمَعْنَى الْوَصِيَّةِ كَالْتِقَاةٍ بِمَعْنَى التَّقِيَّةِ ، وَأَصْلُهَا « وَقِيَّةٌ » قُلِبَتِ الْوَاوُ تَاءً وَالْيَاءُ أَلْفًا ،
وَالْوَاوُ إِذَا انْضَمَّتْ فِي أَوَّلِ الْكَلِمَةِ كُنْتَ بِالْخِيَارِ ، إِنْ شَتَّتَ تَرْكُوتَهَا ، وَإِنْ
شَتَّتَ قَلْبُوتَهَا ، وَلِهَذَا تُرِكَتْ فِي الْوَصَاةِ . وَقِيلَ الْوَصَاةُ بَفَتْحِ الْوَاوِ فِي الْوَصِيَّةِ ،
وَبِضْمِّهَا جَمْعُ وَاصٍ كِرَاعٍ وَرُعَاةٍ ، وَعَيْتَمٌ : حَفِظْتُمْ . فَهَتَمٌ : فَهَمْتُمْ : الْإِرْشَادُ :
الْهُدَايَةُ : أَيْ قَدْ فَهَمْتُمْ مَا ذَلَّلْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فَانْعَمُوا . نَوَى : قَصَدَ وَأَضْمَرَ ، وَهُوَ
مِنَ النِّيَّةِ ، وَأَرَادَ بِالْمُسْتَقْبَلِ ، مَا يَسْتَقْبَلُهُ مِنْ أَفْعَالِهِ . فَلْيَبِينَ : فَلْيَفْصَحْ وَبَيِّنْ .
يَبْرئى : يَا كِرَامِي . عَنْ نَيْتِهِ : عَنْ قَصْدِهِ وَصِدْقِ بَاطِنِهِ . يَغْدِلُ : يَمِيلُ .

الإصرار : الإقامة على الذنب ، سرّى لكما تروّف ، أى هو ظاهر لكم غير مستتر : الصّون : الحوطه فيما يعطف عليه القلوب ، يريد أنه أخذ في كلام تحنّ به للصبيّ قلوب الناس . يسنى : يسهل وييسّر . أنبط : أخرج الماء . القفر : مالا نبات فيه . اعشوشب تغطّى بالعشب ، يريد أنه استغنى بعد الفقر ، وضرب بأنبط واعشوشب المثل . ترع : امتلأ ، والكيس : وعاء الدراهم . انصلت : تسلّل وخرج بسهولة . يميس : يتمايل ويتبختر . انصاع : ذهب مسرعاً وانقتل راجعاً . استرفع : طلب رفعها . نحاحوا الانكفاء ، أى قصد قَصْد الانصراف .

* * *

قال الراوى : فازمَحْتُ إِلَى أَنْ أُعْجِمَهُ ، وَأَحْلَلْتُ مَتَرَجْمَهُ ، فَنَبِغْتُهُ وَهُوَ يَشْتَدُّ فِي سَمْتِهِ ، وَلَا يَفْتَقُ رَتَقَ صَمْتِهِ ؛ فَلَمَّا أَمِنَ الْمُفَاجِي ، وَأَمَكْنَ التَّاجِي ، لَفَتَ جِيدَهُ إِلَى ، وَسَلَّمَتْ سَلِيمَ الْبَشَاشَةِ عَلَى ، ثُمَّ قَالَ : أَرَأَيْكَ ذَكَاءَ ذَاكَ الشَّوَيْدِينَ ؟ فَقُلْتُ : إِي وَالْمُؤْمِنِ الْمُهْنِمِينَ ؛ قَالَ : إِنَّهُ فَتَى السَّرُوجِيِّ ، وَخُجِرَجِ الدَّرِّ مِنَ اللَّجْبِيِّ . فَقُلْتُ : إِنَّكَ لَشَجَرَةٌ ثَمَرَتِهِ ، وَشَوَاطِ شَرَرَتِهِ . فَصَدَّقَ كَهَانَتِي ، وَاسْتَحْسَنَ إِبَانَتِي . ثُمَّ قَالَ : هَلْ لَكَ فِي ابْتِدَارِ الْبَيْتِ ؛ لِنَتَنَازَعِ كَأَسَ السَّكْمِيَّتِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : وَنَحْكُ ! ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ . فَافْتَرَّ افْتِرَارَ مُتَضَاحِكٍ ، وَمَرَّرَ غَيْرَ مِمَّا حِكِ . ثُمَّ بَدَأَ لَهُ أَنْ تَرَجَعَ إِلَى ، وَقَالَ : احْفَظْهَا عَنِّي وَعَلَى :

اضْرِفْ بِصِرْفِ الرِّاحِ عَنْكَ الْأَسَى وروِّحِ الْقَلْبَ وَلَا تَكْتَسِبْ
وَقُلْ لِمَنْ لَامَكَ فِيمَا بِهِ تَذَقُّعُ عَنْكَ الْهَمُّ : قَدْكَ اتَّيَّبْ

قوله : ارتحت ، أى اشتبهت وطربت . أعجمه : أخبره . مترجمه : ملتبسه .
 يشتد : يجرى . سمته : طريقه . يفتق رتق : يشق غلق . صمته : مبهم أمره .
 والفتق : الخرق ، والرتق : الإغلاق ، وهو ضده ، وذلك أن يضم المتخرق
 بعضه إلى بعض : التناجي : التحدث . لفت جيده : عطف عنقه . البشاشة :
 الخفة وإبداء السرور . أراقك ؟ : أعجبك ؟ ذكاء : حذق ، والذكاء : توقد الذهن .
 الشويدن : تصغير شادن ، وأراد ابنه . والمؤمن المهيمن ، هو الله تعالى ، والإيمان :
 التصديق . وقال أبو بكر بن العربي : البارئ تعالى مؤمن بتصديقه لنفسه
 بقوله ، وذلك حقيقته ، قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، أو بتصديقه
 لرسوله بإظهار المعجزة ، أولاً وليائه بإظهار الكرامة ، وهما مجازان . والمهيمن :
 الرقيب الحافظ .

الكسائي : المهيمن : الشهيد . أبو عبيدة : الرقيب ، وقد هيمن هيمنة .
 ابن الأنباري : القائم على خلقه ، قال الشاعر :
 ألا إن خير الناس بعد نبيهم مهيمنه التالبي في العرف والنكر
 أى القائم على الناس بعده ، وأصله « مؤمن » فأبدلوا من الهمزة هاء كما
 قالوا : أَرَقْتُ وَهَرَقْتُ . وفي مثل مدح هذا الغلام بالذكاء قال الفضل بن جعفر :
 فَإِنْ خَلَفْتُهُ السَّنَ فَاَلْعَقْلُ بِالْعُ بِهِ رَتَبَةُ الْكُهْلِ الْمُرْشَحِ لِلْمَجْدِ
 فقد كان يحى أوتى الحكم قبله صبياً وعيسى كلم الناس في المهدِ
 وقال البحرى :

لا تنظرنَّ إلى العباس من صغرى
 فى السن وانظر إلى المجد الذى شاداً^(١)

إنَّ النجوم نجومُ الجوّ أحقرُها فى العين أكثرُها فى الجوّ إصعاداً

(١) ديوانه ٦١٠ . وفيه : « لا تنظرن الى العباس » ، والاصح ما فى الديوان ،
 والتصيدة فى مدح على بن محمد بن الفياض .

[ذكر نوارد الولدان]

ولمّا ذكر لهذا الصبيّ من فصاحة اللسان وبراعة البيان ما ذكر ، وجب علينا أن نذكر من نوارد الولدان فصلاً كافياً يؤنس بما ذكر ، لئلا نخلّ بما شرطناه ، فقد تروى للولدان نوارد ، ربما عجزت عنها الكهول ذوو البصائر .

حكى الخطّابيّ أنه قدّم على عمر بن عبد العزيز وفدٌ فيهم شاب ، فتحوّس للكلام ، فقال عمر : كبروا أكبروا ، أى ليتكلّم الكبراء منكم ، فقال : الغلام يا أمير المؤمنين ، لو كان [الأمر] بالسنّ لكان في المسلمين من هو أسنُّ منك . قال عمر : صدقت ! تكلّم .

فتحوّس : فتهيّأ للكلام .

وفي رواية : قدم وفد الحجاز على عمر فقدّموا غلاماً منهم للكلام ، فقال عمر : مهلاً ، ليتكلّم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنّما الرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الحلية . قال : تكلّم ، قال : نحن وفود الشكر ، لا وفود المرزئة^(١) ، لم تُقدّمنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنّا أُمنا في زمانك ما خفنا ، وأدر كنّا ما طلبنا .

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قُبِضت ضياعهم وهو غلام صغير ، فقال : السّلام عليك يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك ، سليلُ نعمتك وابن دولتك ، وغصنٌ من أغصان دوحتك ؛ أفتأذن لي في الكلام ؟ قال : نعم . حمّد الله تعالى وصلى على نبيه ، ثم قال : أمتعنا الله بحياطة ديننا ودنيانا ،

(١) رزاء : أصاب منه خيرا .

ورعاية أقصانا وأدنانا ، ببقائك يا أمير المؤمنين ، ونسأله أن يزيد في عمرك من أعمارنا ، وفي أثرك من آثارنا ، وبقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مقام العائد بظلك ، الهارب إلى كنفك وفضلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك . ثم سأل حوأنجه قضاها .

وقَطَّعتِ البادية أيام هشام بن عبد الملك ؛ فوفد عليه رؤوس القبائل فجلس لهم ، وفيهم صبيٌّ ، ابن أربع عشرة سنة ، يسمَّى درواس بن حبيب ، في رأسه ذؤابة ، وعليه بُرْدَةٌ يمانية . فاستصغره هشام وقال لحاجبه : ما يشاء أحدٌ أن يصل إلينا إلا وصل ، حتى الصبيان ! فقال درواس : يا أمير المؤمنين ، إن دخولي لم يُخلِّ بك ولا انتقصك ، ولكنَّه شَرَّفَنِي ، وإن هؤلاء قدِمُوا لأمرٍ فهابوك دونه ، وإن الكلام نشر ، والسكوت طيٌّ لا يُعرف إلا بنشره ؛ فأعجبه كلامه ، وقال : انشر لا أم لك ! فقال : إنا أصابتنا سنون ثلاثة ، فسنة أكلت اللحم ، وسنة أذابت الشحم ، وسنة أنقَتَ^(١) العظم ، وفي أيديكم فضول أموالٍ ، فإن كانت لله عز وجل فقرَّ قوها على عباده ، وإن كانت لهم فلا تحتبسوها عنهم ، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم ؛ فإن الله يجزي المتصدقين ، ولا يضيع أجر المحسنين ؛ وإنَّ الوالي من الرعية كالروح من الجسد ، لا حياة له إلا به . فقال هشام : ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً ، وأمر بمائة ألف دينار فقرَّرت في أهل البادية ، وأمر له بمائة ألف درهم : فقال : اردُّوها في جائزة العرب ، فما لي حاجة في خاصَّة نفسي دون عامَّة المسلمين .

أحمد بن يحيى : حدثني السدري أن مُميراً غزت حَنيفة فغنمت ، وتبعتهم حنيفة فهزموهم ، وردُّوا غنائمهم ، فلقيتُ غلاماً منهم ، قلت : كيف صنع قومك ؟ قال : تبعهم والله ، وقد أحقبوا كلُّ بُحاليَّة خَيْفَانَةً ، فما زالوا ينخسفون

(١) انتقت العظم : أخرجت النقي منه . والنقي : مخ العظم .

أخفاف المطىّ بخواف الخيل حتى لحقوهم بعد ثلاثة . فجعلوا المَرَّانَ أُرْشِيَةً للموت ،
فاستقوا بها أرواحهم .

وهذا كلام فصيح كثير الاستعارة . أحقبوا : أُرْدِفُوا بموضع الحقيقة ،
والجُمالية المرأة الجميلة : وخصف : خرز ، وتشبيه المَرَّان — وهى الأرماع —
بالأُرْشِيَّة وهى الحبال حَسَن .

وجلس خالد التسرى يوماً للشعراء على الفرات ، فأنشدوه وأخذوا
الجوايز وانصرفوا ، ولم يبق إلاَّ غلام ، فقال خالد : يا غلام ، أشاعر أنت ؟
قال : لا ولكنى مُتَعَلِّمٌ ، وقد قلتُ شيئاً ، قال : هات ، فأنشأ يقول :

أَلَا هَلْ تَرَى دَوَجَ الْفُرَاتِ كَأَنَّهُ جِبَالُ سُورٍ قَدْ أُتِفِنَكَ عَوَمَا
وما ذاك من عاداته غَيْرَ أَنَّهُ رَأَى شِيَةً مِنْ جَارِهِ فَتَعَلَّمَا

وكان بَقِيَ على البساطِ فَصَلَّةُ مال ، فقال له خالد : اطوِ البساط بما عليه ،
فأخذه الغلام بما عليه .

ورأى بعضُ الملوك غلاماً يسوق حماراً ، وهو يعُنفُ عليه ، فقال : ارفُقْ
يا غلام ، فقال : أيها الملك ، فى الرفق مَضَرَّةٌ عليه ، قال : وما مَضَرَّتُهُ ؟ قال :
يطول طريقه ، ويشدُّ جوعه ، وفى العنف عليه إِحْسَانٌ إِلَيْهِ ، يخفُّ
حملة ، ويطول أكله . فأعجب به ، وقال : قد أمرت لك بألف درهم ، قال :
رزقٌ مقدور ، وواهب مأجور . قال : وقد أمرت بإثبات اسمك فى حَشَمِي ،
قال : كُفَيْتُ مَثُونَةً ، وورقت بها معونة ، قال : لولا صغرك لاستوزرتك ،
قال : لم يعدم الفضل من رزق العقل ، قال : أفصلح لذلك ؟ قال : إنما يكون
الحمد أو الذم بعد التجربة ، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوها ، فاستوزره
فوجدته ذا رأى صائب .

دخل الفرزدق — وهو غلام يافع — على سعيد بن العاص ، وقد أنشد أشعاراً والخطيئة حاضر فأنشده :

ترى الفرّ الجحاح من قرّيش إذا ما الأمر في الحدّان عالا^(١)
قياماً ينظرون إلى سعيد كأنهم يرون به أهلالا

فقال الخطيئة : هذا والله الشعر ، لا ما تعلّل به نفسك هذا اليوم ، يا غلام أدركت من قبلك ، وسبقت من بعدك ، وإن طال عمرك لتبرزن ، ثم قال له : هل أنجذت أمك يا غلام ، قال : لا بل أنجد أبي ، فوجده لقينا حاضر الجواب فأعجبته .

وكان للفرزدق نديم يسمى زياداً الأقطع ، فأتى بابه ، فخرجت له بُنيّة له صغيرة اسمها مكية ، فقال لها : ابنة من أنت ؟ قالت : ابنة الفرزدق ، قال : فما بالك حبشيّة ؟ قالت : فما بال يدك مقطوعة ؟ قال : قُطعت في حرب الحرورية ، قالت : بل قُطعت في اللصوصية ، فقال : عليك وعلى أهلك لعنة الله ، ثم أخبر الفرزدق بالخبر ، فقال : أشهد أنها ابنتي حقاً ، ثم قال :

سام إذا ما كنت محميّة^(٢) بدارميّ أمّه ضبيّة^(٣)
* صمخمخ مثل أبي مكّيّة^(٤) *

وقرّع باب عدى بن الرقاع جماعة من الشعراء ، فخرجت إليهم بُنيّة له صغيرة فقالت : ما تريدون من أبي ؟ فقالوا : جئنا لنُهاجيه ، فقالت :

تجمّعتم من كلّ أوبٍ ووجهية على واحدٍ لازلتُم قرنَ واحدٍ^(٥)

(١) ديوانه ٦١٨ . عال : أنقل ، وفي الديوان : « لا »

(٢) ديوانه ٨٨٥ ، وفيه : « شامد » ، بدل : « سام » .

(٣) « ضبية » وما أثبتته من الديوان .

(٤) الصمخمخ : الشديد الخلق والالواح .

(٥) الخبر والشعر في الأغاني ٩ : ٣١٠

فأخمتهم ، ورجعوا بأخزى حالة .

وقال معاوية لعمر بن سعيد وهو صغير : إلى مَنْ أوصى بك أبوك ؟
قال : إنَّ أبى أوصى إلىَّ ولم يوصِ بى . أخذه بعضهم فقال :

وكنْتُ النجيب لى ناجلي فأوصى إلىَّ ولم يوصِ بى
قال يحيى بن يزيد : استنشدتُ غلاماً ، فأنشدنى أرجوزة ، فقلت : لمن هذه ؟
قال : لى . فجزته فأنشأ يقول :

إنى وإن كنتُ صغير السنَّ وكان فى العين نبوءٌ عني
فإن شيطاني أميرُ الجنِّ يذهب بى فى القول كلَّ فنِّ

الأصمى رحمه الله : قال وقف على غلام بحمى ضرية ، ما ظننته يجمع بين
كلمتين ، فقلت له : ما اسمك ؟ قال : خرّ بقيص ، فقلت له : ما كفى أهلك أن سموك
حرقوصاً حتى صفروا اسمك ! فقال : إن السَّقَط ليحرق الحرّجة ، فعجبت من
جوابه ، فقلت : أنشد شيئاً من أشعار قومك ؟ قال : نعم أنشد امرأنا :

سكنوا شبيئاً والأحصَّ فأصبحت نزلت منازلهم بنو ذُبْيَانِ
وإذا يقالُ أنْتُمْ لم يَبْرَحُوا حتى تقيم الخيل سوق طِعَانِ
وإذا فلان مات عن أكرومةٍ رنموا معاوَزَ ققره لفلانِ

قال : فكادت الأرض تسوخ لحسن إنشاده وجودة الشعر ، فحدثت
الرشيد الحديث فقال : وددتُ يا أصمى لو رأيتُ هذا الغلام ، فكنت أُبلغه
أعلى المراتب ^(١) . فهذا الغلامُ مُنمى بحقير مصغّر ، وهو فى معناه جليل معظم .

ويُنظر إلى هذا من باب الضدِّ ما حدث أبو العباس عن الرياشي عن
الأصمى ، قال : مرّ بنا أعرابي ، وهو ينشد ابناً له ، فقلت له : صفه ، فقال :
ديمري ، قلنا : لم نره ، فلم نلبث أن جاء بجُعَلٍ على عنقه ، قلنا له : لو سألت
عن هذا لأرشدناك ، ما زال هذا اليوم بين أيدينا .

(١) الخبر فى إمالى العلى ١ : ٦٦

الأصمعيّ: قيل لأبي المِخْش: أما كان لك ابن؟ فقال: المِخْش، قيل: وما كان المِخْش؟ قال: أشدق خُرطائيًا، إذا تكلم سال إمامه، كأنما ينظر من فلسين، وكان ترقوته بوان أو خالفة^(١)، وكان مشاش منكبيه كركرة جل؛ فقال الله عيني هاتين إن كنت رأيت أحسن منه قبله أو بعده، وأنشد:

نعم ضجيع الفتى إذا برد الليل سحيراً وقرقف الصرد
زيّنها الله في الفؤاد كما زيّن في عين والد ولد

وقال أبو المِخْش: كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتبرز كفًا كأنها حلّعة، في ذراع كأنها جمارة، فلا تقع عينيها على أكلة نفيسة إلا خصّنتني بها، فزوّجتها، وصار يجلس معي على المائدة ابن لي، فيبرز كفًا كأنها الكرنافة، في ذراع كأنها سباطة، فلا تقع عيني على أكلة نفيسة إلا سبقت يده إليها قبلي.

- الحش: الذي ينخس في القوم، يدخل معهم وهم يأكلون، وأراد بمثل الفلّسّين عور عينيّه. وقيل خفرتهما. خُرطائيًا: طويل الأنف، وسيلان اللعاب يدلّ على قوة النفس. البوان: عمود في مقدّم البيت، والكرنافة: طرف الكرّب العريض المتصل بالنخلة كأنها كتف -

اليزيدي: أوّل ما ظهر من نجابة المأمون وسداده أني كنت أودّبه فوجّهت إليه يوماً ليخرج، فأبطأ، فقلت لسعيد الجوهرى وهو في حُجرة: إن هذا الفتى قد اشتغل بالبطالة، فقال سعيد: قوّمه بالأدب، فلما خرج ضربته ثلاث دررٍ، فإنه ليبيكي إذا بجعفر بن يحيى قد استأذن عليه، فوثب إلى فراشه مسرعاً، وهو يمسح عينيّه، فجلس ثم قال: ليدخل، فدخل، فقامت من المجلس وخشيت أن يشكّوني إلى جعفر، فألقى منه ما أكره، فأقبل عليه بوجه طلق وحادثه وضاحكه، فلما هم بالحركة قال: يا غلام، دابته، ورجعت. فقال: ما حملك أن

(١) الخالفة: عمود من أعمدة البيت.

قلت عنا ! قلت : خفت أن تشكوني إليه فيوتحنى ، فقال : إنا لله يا أبا محمد ! ما كنت أطلع الرشيد على هذا ، فكيف أطلع جعفرأ على أنى أحتاج إلى أدب ! يغفر الله لك . فكنت أهابه بعد ذلك .

وشكى إلى معلم عبد الرحمن بن حسان بصبيان ، فضربهم حتى انتهى إلى عبد الرحمن ، فهدده فقال :

الله يعلم أنى كنت معتزلاً فى دار حسان أستاذ اليعاسيا
فتركه . وبلغ حسان ، فضمه إليه وقال : أنت والله ابنى حقاً فذاك
أبى وأمى !

ودخل عليه يوماً يبكى من لسعة زنبور ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال :
لسعنى طائر كأنه ملتف فى بُرْدَى حَبْرَة ، فقال : قلت والله يا بُنَى الشعر .

وجاءت سكينه بنت الحسين أمها الرباب وهى تبكى ، فقالت : مالك ؟
فقال : مَرَبَّتْ بى طُورَة فلسعتنى بأيرة .

ويروى : مَرَّتْ بى دُبيرة ، تصغير دَبْرَة وهى النخلة .

* * *

قوله : اللجى : البحر . شواظ : لُهب النار . والكهانة : بالكسر : حرفة
الكاهن ، وبالفتح فعل الكاهن ، وهو المصدر ، والكاهن : الخبير بالغيب .
وافتر : تبسم . متضاحك : مستعمل الضحك . مُمَاحَك : لجوج ، أى
مشى غير غاضب .

احفظها عني ، أى حَصَلْها وعِيَهَا . وعلى ، أى اكتبها واسترها ، وقامت
الواو مقام تكرير الفعل . اصرف : أزل ونَحَّ . صِرَف الراح : خالص الخمر .
الأسى : الحزن . تكتئب : تهتم وتحزن . قَدْكَ : حسبك . انتب : ارتجع وكف .

وقيل: معناه استخفى، يقال منه: وأبّ وأتأب، أى خزى واستحيا والآبة والمؤبة: الخزى والحياء والانتقاض، وأوأبه واستأبه: رده بخزى وعار، والتاء فيها مبدلة من واو، فأصل اتأب اتأب أو تأب فأبدلت الواو تاء وأدغمت فى التاء بعدها، وهى من وأب الحافر يئب وأبأ إذا انضم. وحافر وأب، أى خفيف، والتوبة مأخوذة من أتأب: وقال حبيب:

فَدَكَ اتَّيَّبُ أَرَيْتَ فِي الْعُلَا كَمْ تَعْدِلُونَ وَأَنْتُمْ شَجَوَى

فهذا يبين لك موقعها فى المقامة .

وعلى قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(١)، قال: أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مررت برجال ليلة أُسْرِى بى، تُقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار، قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم» .

أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم يُجرؤون قصبهم فى نار جهنم، فيقال لهم: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحن الذين كنا نأمر بالبر وننسى أنفسنا» .

قال أبو العتاهية فى منصور بن عمار وكأنه يخاطب واعظ المقامة:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا	إذ عبت منهم أموراً كنت تأنيها
كاللبس الثوب من عري وعورته	للناس بادية ما إن يوارىها
وأعظم الأمر بعد الشرك تعلمه	فى كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها	منهم ولا تبصر العيب الذى فيها

ومن لزوميات المعرى :

رُوَيْدُكَ قَدْ خُدِعْتَ وَأَنْتَ كَهْلٌ بصاحب حيلة يعطى النساء^(١)
يحرم فيكم الصهباء ضُبْحًا ويشربها على غدير مساء^(٢)
يقول لكم : غدوتُ بلا كِسَاءٍ وفي لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء

[من الخمریات]

ونذكر هنا من الآيات الخمریات ما يأتى على معنى البيتین اللذین أشد ،
قال الحسن :

ما مثل هذا اليوم في حسنه عطل من لمور ولا ضيعة^(٣)
هل لك أن تغدو على قهوة تسرع في المرء إذا أسرعا
ما وجد الناس ولا جربوا اللهم شيئاً مثلها مدفعا
وله أيضاً :

حَلَبْتُ لأصحابي بها دِرَّةَ الصُّبَا بصفراء من ماء الكروم تشول^(٤)
إذ ما أنت دونَ اللّٰهامة من الفتى دعا همّه من صدره برحيل
وله :

دع ذا فديتك واشربها معتقة صفراء تعبق بين الماء والزبد^(٥)

(١) اللزوميات ٥١

(٢) بعده في اللزوميات :

تَحَسَّاهَا فَمِنْ مَزَجٍ وَصِرْفٍ يَعْلُ كَأَنَّمَا وَرَدَ الْحِسَاءُ

(٣) ديوانه ٣٠٣ ، وفيه : « لم أر مثل اليوم في حسنه » .

(٤) ديوانه ٣١٠ وفيه : « بصهباء » .

(٥) ديوانه ٢٢٧ ، وفيه :

* صفراء تفرق بين الروح والجسد *

من كفّ مختصر الزّنار معتدل كفصن بانٍ ثنّى غير ذى أود^(١)
لو كان لومك نصحاً كنت أقبه لكنّ لومك محمولٌ على الحسد
وقال الصّابي :

كوكبُ الإصباح لاحاً طالماً والدّيك صاحاً^(٢)
فاسقنيها قهوةٌ نا سؤمينّ الهَمّ جراحاً
ذاتَ نشرٍ كنسيم الرّوض غبّ القطر فاحاً
يا غلامى ما أرى فيك ولا فيها جُناحاً

وله من أبيات يصف فيها مجلس شراب :

كانَ الكُئُوس بأيدى الشّقاءِ سيوفٌ لها بالدّماءِ احمرارُ^(٣)
كانَ تَسْكَابِها فى الرّجّاجِ حريقٌ لها من حُبّابِ شرارُ
فلما برزنا إلى الهَمّ فيه وليّ بالشّرور عليه اقتدارُ
جرى الضربُ مختلفاً بيننا فمات وعِشتُ وقد نيل نارُ
وقال أبو بكر البلوى :

ومدام كست الكأ س من النور وشاحاً
ظَهَرَتْ فى جُنْحِ ليلٍ فكانَ الفجر لاحاً
لم يكن وقتَ صباحٍ لحسبناهُ صباحاً

وقال أبو بكر الخالدي :

ما عذّرنا فى تركنا الأعتابا سقط النّدى وصفاً الهواء وطاباً^(٤)
فأدِمّ لذادة عيشنا بمُدّامةٍ زادت على هَرَمِ الزّمانِ شَباباً

(١) فى الديوان

من كفّ مضطمر الزّنادِ معتدلٍ كان غصن بانٍ غير ذى أود

(٢) البيتية ٢ : ٢٣٦

(٣) البيتية ٢ : ٢٣٧

(٤) ديوانه ١١٦

سَفَرْتُ وَغَابَ حَبَابُهُمَا مِنْ لِحْظِهَا فَمَلَأَ مُحَاسِنَهَا فَصَارَ نِقَابًا
ولا بن المعتز :

ونارٍ قد حنَّها سِرَاعًا بِسُحْرَةٍ متى ما يُرَقِّقُ ماءٌ عليها توقَّدَ
يجولُ حَبَابُ الْمَاءِ فِي جَنَابِهَا كما جال دمعٌ فوق خدٍّ مُورَدٍّ

* * *

ثم قال : أما أنا فساأنطلق ، إلى حيث أصطبح وأغتبِقُ ؛ وإذا
كنت لا تصحب ، ولا تلائمُ مَنْ يَطْرَبُ ؛ فَلَسْتُ لِي بِرَفِيقٍ ،
وَلَا طَرِيقَكَ لِي بِطَرِيقٍ ؛ نَحْلُ سَبِيلِي وَنَكَبُ ، وَلَا تَنْقَرُ عَنِّي وَلَا
تَنْقُبُ ؛ ثُمَّ وَلَّى مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ .

قال الحارث همام : فَالْتَهَبْتُ وَجَدَ عِنْدَ انْطِلَاقِهِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ أَلَاقِهِ .

* * *

قوله : أصطبح ، أشرب صَبُوحًا وهو شُرْبُ الْغُدُوِّ . وأغتبِقُ : أشرب
غَبُوقًا ، وهو شُرْبُ الْعَشِيِّ . تلائمُ : توافِقُ . نكَّبُ : تمنَحُّ عن طريقٍ واجعله لجهة
منكِبِكَ . تنقَرُ وتنقُبُ : تبعث وتفتش ، وقد نَقَرْتُ عَنْ الْأَمْرِ إِذَا طَلَبْتَ عِلْمَ بَاطِنِهِ
ونَقَبْتُ عَنْهُ ، إِذَا بَحَثْتُ عَلَيْهِ بِظَنِّكَ حَتَّى تَسْتَخْرِجَ سِرَّهُ ، وَفُلَانٌ نَقَّابٌ ، أَيْ
فَطِنٌ ذِكْرِي يُحَدِّثُ بِالْغَائِبِ ، وَالتَّنْقِيبُ فِي الْبِلَادِ : تَطْلُعُ أَحْوَالِ أَهْلِهَا وَتَجَرِيبُ
أُمُورِهِمْ . وَلَّى : أَدْبَرَ ، وَتَرَكَ طَرِيقَهُ الَّذِي كَانَ يَسْتَقْبِلُهُ . يُعَقِّبُ : يَنْظُرُ . وَالْوَجْدُ :
الْحُزْنُ . وَالتَّهَبْتُ . اشْتَغَلْتُ . وَوَدِدْتُ : تَمَنَّيْتُ .

ومما قيل في ترك الوداع :

صدَّني عن حلاوة التَّشْيِيعِ اجتنابِي سَمَارَةَ التَّوَدِيعِ
لا يَنْفِي أُنْسُ ذَا بُوْحْشَةٍ هَذَا فَرَأَيْتُ الصَّوَابَ تَرَكَ الْجَمِيعِ

المقامة الثانية والأربعون وهي النجرائية

حكى الحارث بن همام قال : تَرَامَتْ بِي مَرَامِي النَّوَى ،
وَمَسَارِي الْهَوَى ؛ إِلَى أَنَّ صِرْتُ ابْنَ كُلِّ تَرْبَةٍ ، وَأَخَا كُلِّ غُرْبَةٍ ؛
إِلَّا أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَقْطَعُ وَادِيًا ، وَلَا أَشْهَدُ نَادِيًا ؛ إِلَّا لَاقْتِبَاسِ الْأَدَبِ
الْمُسْلِيِّ عَنِ الْأَشْجَانِ ، الْمَغْلِي قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ ؛ حَتَّى عُرِفْتُ لِي هَذِهِ
السُّنْشِنَةُ ، وَتَنَاقَلَتْهَا عَنِّي الْأَلْسِنَةُ ، وَصَارَتْ أَعْلَقَ بِي مِنَ الْهَوَى بَيْنِي
عُذْرَةٌ ، وَالشَّجَاعَةُ بِأَلِ صُفْرَةٍ .

* * *

ترامت بي : رميتني هذه إلى هذه وهذه إلى هذه . والمرامى : المواضع التي
ترميه . والمسارى : مواضع السرى ، وهو سير الليل ، وهو جمع مَرَمَى وَمَسَرَى ،
ويكون المَرَمَى والمسَرَى مصدرين . والنوى : الغربة والبُعد عن الأهل ،
أراد أن البلاد والجهات ترميه بلدة إلى بلدة ، وجهة إلى جهة ، فهو أبدأ في
الجولان . وابن كل تربة ، أى ينسب لكل بلدة لكثرة ما يظهر فيها .
نادياً : مجلساً . الاقتباس : الاكتساب . المُسْلِي : المذهب للهيم ، وتسليت
عن الهم : نسيته . والأشجان : الأحزان ، وقد تقدم شرح هذه المعاني وتكرّر .
السُّنْشِنَةُ : الطليعية . أعلق : ألصق .

[ذكر بنى عذرة ونواديرهم وأشعارهم]

وبنو عُدْرَةَ : قبيلة معروفة من قبائل العرب ، وهم أولاد عُدْرَةَ بن سعد بن
هُذَيْم بن زيد بن ليث بن سويد بن أسلم بن الحاف بن قضاة .
الفنجدية : عُدْرَةَ قبيلة من العرب ، يستلذون مرارة العشق مثل الضرب ،

جُبِلَتِ الْحُبَّةُ فِي طِينَتِهِمْ ، وَجُنِيتِ الْمَوْدَةُ مِنْ لَيْتِهِمْ ، وَصَارَ الْهُوَى وَصْفَهُمُ الَّذِي لَا يَنْفَكَ ، وَرَهَائِنُ قُلُوبِهِمْ مِنْ حَرَارَاتِ الشُّوقِ لَا تُنْفَكُ ، اسْتَأْرَهُمُ الْعَشَقُ أَمْرًا ، وَاسْتَأْصَلَهُمُ الْحُبُّ قَهْرًا وَقَسْرًا ؛ فَهُمْ مِنْ يَمُوتُ مِنْ أَوَامٍ غَرَامِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُوتُ بِهَيْيَامٍ سَقَامِهِ .

وَمِنْ مَشَاهِيرِهِمْ جَحِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْمَرِ الْعُذْرِيِّ صَاحِبُ بَيْتِنَةِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ الْعُذْرِيَّةِ ، وَعَمْرُو بْنُ حِزَامٍ صَاحِبُ عَفْرَاءِ بِنْتِ مَالِكِ الْعَذْرِيِّينَ .

وَقَالَ : سَعِيدُ بْنُ عَتَبَةَ الْهُمْدَانِيُّ : قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ قَوْمٍ إِذَا عَشَقُوا مَاتُوا ، قُلْتُ : عُذْرِيٌّ ؟ قَالَ : عُذْرِيٌّ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ، قُلْتُ : وَمِمَّ ذَاكَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ فِي نِسَائِنَا صَبَاحَةَ ، وَفِي فِتْيَانِنَا عَقَّةَ .

وَسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ مِنْهُمْ فَقِيلَ لَهُ : مَا حَدَّثَ الْحُبُّ عِنْدَكُمْ ؟ فَقَالَ : أَعَيْنُ تَتَلَاظِمُ وَالسِّنُّ تَتَلَافِظُ ، وَعِيدَاتُ تَتَفَقَّضُنِي ، وَإِشَارَاتُ تَدُلُّ عَلَى السَّخَطِ وَالرَّضَا . قِيلَ لَهُ : فَالْبَاضِعَةُ ؟ قَالَ : ذَلِكَ طَلَبُ الْوَلَدِ ، الْحُبُّ إِذَا نُكِحَ فَسَدَ .

سَفِيَانُ بْنُ زِيَادٍ : قُلْتُ لَامْرَأَةٍ مِنْ عُذْرَةٍ - وَرَأَيْتُ بِهَا هَوًى غَالِبًا حَتَّى خَفَتْ عَلَيْهَا الْمَوْتَ : مَا بَالُ الْعِشْقِ يَقْتُلُكُمْ مَعَاشِرَ عُذْرَةٍ مِنْ بَيْنِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ؟ قَالَتْ : فِينَا جَمَالٌ وَتَعَفُّفٌ ، فَالْجَمَالُ يَحْمِلُنَا عَلَى الْعَنَافِ بِهِ ، وَالْعَنَافُ يُوْرِثُنَا رِقَّةَ الْقَلْبِ ، وَالْعِشْقُ يَفْنَى آجَالَنَا ، وَإِنَّا نَرَى مُحَاجِرًا لَا تَرَوْنَهَا .

أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ تَمِيمٍ ، قَالَ : خَرَجْتُ فِي طَلَبِ ضَالَّةٍ لِي ، فَبَيْنَمَا أَنَا أُدَوِّرُ فِي أَرْضِ بَنِي عُذْرَةٍ أَنْشُدُهَا ، إِذَا بِبَيْتٍ مَنْعَزِلٍ عَنِ الْبُيُوتِ ، وَفِي كِنْسَرِهِ شَابٌّ مَغْمًى عَلَيْهِ ، وَعِنْدَ رَأْسِهِ عَجُوزٌ بِهَا بَقِيَّةُ جَمَالٍ ، سَاهِمَةٌ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهَا ، فَردَّتْ السَّلَامَ ، فَسَأَلْتُهَا عَنْ ضَالَّتِي فَلَمْ تَعْلَمْ بِهَا ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا الْفَتَى ؟ فَقَالَتْ : ابْنِي ، فَهَلْ لَكَ فِي أَجْرِ لَا مُؤْنَةَ فِيهِ ؟ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ إِنِّي أَحِبُّ الْأَجْرَ وَإِنْ رُزِئْتُ ، فَقَالَتْ : إِنْ ابْنِي هَذَا يَهْوَى ابْنَةَ عَمٍّ لَهُ ، عَلِقَهَا وَهِيَ صَغِيرَانٌ ، فَلَمَّا

كبرت خطبها غيره ، فأخذه شبيه الجنون ، نخطبها إلى أبيها ، فمنعه وزوجها غيره ،
فنحل جسمه واصفر لونه ، وذهب عقله ، فلما كان منذ خمس زفت إلى زوجها ،
فهو كما ترى مغنى عليه ، لا يأكل ولا يشرب ، فلو نزلت إليه فوعظته ! قال :
فنزلت إليه فلم أدع موعظة إلا وعظته بها ، حتى قلت له : إنهن الغواني صاحبات
يوسف ، الناقضات العهد ، وقد قال فيهن كثير :

هل وصل عزة إلا وصل غانية في وصل غانية من وصلها خلف^(١)

قال : فرفع رأسه محررة عيناه كالغضب ، وهو يقول : لست بكثير ،
إن كثيراً رجل مائق ، وأنا وامق ، ولكنى كأخى تميم حيث يقول :

ألا لا يضر الحب من كان صابراً ولكن ما اجتنب الفؤاد يضر

ألا قاتل الله الهوى كيف قادني كما قيد مغلول اليد أسير

قلت له : فإنه قد جاء عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أصيب

منكم بمصيبة فليذكر مصابه بي » . فأنشأ يقول :

ألأما للمليحة لم تعذني أبخل بالمليحة أم صدود !

مرضت فعادني أهلى جميعاً فمالك لم ترئى فيمن يعود !

فقدتكم بينهم فبكيت شوقاً وقد الإلف يا أملى شديد

وما استبطأت غيرك فاعلميه وحولى من ذوى رضى عديد

ولو كنت المريض لكنت أسعى إليك وما يهددنى الوعيد

ثم شق شهقة ، وخفت خفته ، فداخلى أمر ما داخلى مثله قط ، والمعجوز

تبكى ، فلما رأته ما حل بي قالت : يافتي ، لا ترع ؛ مات والله ولدى بأجله ،

واستراح من تباريحه وغصصه ، فهل لك في استكمال الصنعة ؟ قلت : قولى .

مأحيت ، قالت : تأتي البيوت فتنعاه إليهم ، ليعاونوني على رمسه ، فإني وحيدة ، فركبتُ فرسي ، وأتيت البيوت ، رافعاً صوتي بنعيه ، فلم ألبث أن خرجتُ لى جارية ، أجلُّ ما رأيت من النساء ، ناشرةً شعرها ، حديثة عهد بعُرس ، تقول : بفيك الحجر المصمت ! مَنْ تَنْعَى ؟ قلت : أنعى فلاناً ، قالت : أو قد مات ! قلت : إى والله قد مات . قالت : فهل سمعت له قولاً ؟ قلت : اللهم شعراً ، قالت : وما هو ؟ فأنشدتها أبياته ، فاستعبرت وأنشأت تقول :

عَدَّابِي أَنْ أَزُورَكَ يَا مُرَادِي معاشرُ كلُّهم واشٍ حَسُودُ
أشاعوا ما علمت من الدَّواهي وعابونا وما فيهم رشيدُ
فَأَمَّا إِذْ ثَوَيْتَ الْيَوْمَ لِحْدًا وكلُّ الناس دورهم لحودُ
فَلَا طَابَتْ لِي الدُّنْيَا فُؤَادًا^(١) ولا لهم ولا أفرى العديدُ

ثم شبهت شهقة ، ف وقعت مغشياً عليها ، وخرجت النساء من البيوت . فاضطربت ساعة ، وماتت .

فوالله ما برحتُ حتى دفنتُها جميعاً^(٢) .

هشام بن عروة : أذن معاوية للناس يوماً فكان فيمن دخل عليه فتى من بني عُذرة ، قدام بين السَّماطين وأنشأ يقول :

أَتَيْتَكَ لَمَّا ضَاقَ فِي الْأَرْضِ مَسْكِ وَأَنْكَرْتُ مِمَّا قَدْ أُصِيبْتُ بِهِ عَمَلِي
فَقَرَّجَ كَلَاكُ اللَّهِ عَنِّي فَأَتَيْتُ لَقِيتُ الَّذِي لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي
وَحَذَلِي هَذَاكَ اللَّهُ حَقِّي مِنَ الَّذِي رَمَانِي بِهِمْ كَانَ أَهْوَنُهُ قَتْلِي
وَكُنْتُ أَرْجَى عَدْلُهُ إِذْ أُنِيتُ^(٣)

فَأَكْثَرَ تَرَدَادِي مَعَ الْخَبَسِ وَالْكَبِيلِ
فَطَلَقْتُهَا مِنْ جُهْدٍ مَا قَدْ أَصَابَنِي فَهَلْ ذَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَدْلِ !

(١) الفواق : الوقت بين الحلبتين .

(٢) الخبر والشعر في كتاب ذم الهوى لابن الجوزي ٥٠٤ هـ - ٥٠٦ هـ .

فقال له معاوية : اذنُ بارك الله عليك ، ما خطبك ؟ قال : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إني رجل من بني عُذرة ، تزوّجتُ ابنة عمّ لي . وكانت لي صِرمَةٌ^(١) من الإبل وشوْيهات ، فأنفقت ذلك عليها ، فلما أصابتنى نائبات الزمان وحادثات الدهر رغب عني أبوها - وكانت جاريةً منها الحياء والكرم ، فكرهتُ مخالفة أبيها - فأنيت عاملك عبد الرحمن بن أم الحكم فذكرتُ ذلك له . وبلغه جاهها ، فأعطى أباه عشرة آلاف درهم وتزوَّجها ، وأخذني فخبسني ، وضيق عليّ ، فلما أصابني مسُّ الحديد وألم العذاب طلّقتُها ، وقد أتيتك يا أمير المؤمنين ، وأنت غياث المحروب ، ومعيد المملوك ، فهل من فرَج ؟ ثم بكى وهو يقول :

في القلب مِنِّي نارُ	والنَّار فيها شرارُ
وفي فؤادي جمرُ	والجر فيه احمرارُ
والجسم مِنِّي نحيلُ	واللون فيه اصفرارُ
والعين تبكي بِشَجْوٍ	فدمعها مِـدْرَارُ
والحبّ داء عسيرُ	فيه الطيب يحارُ
حملتُ منه عظيماً	فما عليه اضطبارُ
فليس ليلى ليلاً	ولا نهاري نهَارُ

فرّق معاوية له ؛ وكتب إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً وفي آخره :

ركبتَ أمراً عظيماً لست أعرفهُ	أستغفرُ الله من جورِ امرئ زاني
قد كنت تُشبهه صوفياً له كتب	من الفرائض أو آيات فرقانٍ
حتى آتاني الفتى العذرى منتحِباً	يشكو إليّ بحقٍّ غير بُهتانٍ
أعطى الإله عهداً لا أخيس بها	أولا فبرئت من ديني وأيمانٍ

(١) الصرمة : الجماعة من الإبل ما بين العشرين والثلاثين .

إِنْ أَنْتِ رَاجَعْتَنِي فِيمَا كَتَبْتُ بِهِ لِأَجْعَلَنَّكَ لِحْمًا بَيْنَ عِقْبَانِ
 طَلَّقَ سَعَادَ وَفَارَقَهُمَا بِمَجْتَمَعٍ
 وَأَشْهَدُ عَلَى ذَاكَ نَصْرًا وَابْنَ ظَبْيَانِ
 فَمَا سَمِعْتُ كَمَا حُدِّثْتُ مِنْ عَجَبٍ وَلَا فَعَالُكَ حَقًّا فَعَلَ إِنْسَانِ

فلما ورد الكتاب على ابن أم الحكم ، تنفّس الصُّعْدَاءُ ، وقال : وددت لو أن أمير المؤمنين خَلَّى يَدِي وَيَدَهَا سَنَةً ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَى السَّيْفِ ، وَجَعَلَ يُؤَامِرُ نَفْسَهُ فِي طَلَاقِهَا فَلَمْ يَقْدِرْ ، فَلَمَّا أَرَزَعَهُ الْوَفْدَ طَلَّتْهَا ثُمَّ قَالَ : يَا سَعَادُ اخْرُجِي ، فَخَرَجَتْ شَكْلَةً غَنَجَةً ذَاتَ هَيْئَةٍ وَجَمَالٍ ، فَلَمَّا رَأَاهَا الْوَفْدُ قَالُوا : مَا تَصْلُحُ هَذِهِ إِلَّا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَا لِأَعْرَابِيٍّ ، وَكَتَبَ الْجَوَابَ :

لَا تَحْنَنَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ أَوْفَى بِعَهْدِكَ فِي رَفَقٍ وَإِحْسَانِ
 فَمَا رَكِبْتُ حَرَامًا حِينَ أَعْجَبَنِي فَكَيْفَ سُمِّيتُ بِاسْمِ الْخَائِنِ الزَّانِي !
 فَسَوْفَ تَأْتِيكَ شَمْسٌ لَا خِفَاءَ بِهَا أَبْهَى الْبَرِيَّةِ مِنْ أَنْسٍ وَمِنْ بَلَدِ
 حَوْزَاءٍ يَقْصُرُ عَنْهَا الْوَصْفُ إِذْ وَصِفْتُ

أَقُولُ ذَلِكَ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانِ

فلما وردت على معاوية ، قال : إِنْ كَانَتْ أُعْطِيتُ حَسَنَ النِّعْمَةِ مَعَ هَذِهِ الصِّفَةِ ، فَهِيَ أَكْمَلُ الْبَرِيَّةِ ، فَاسْتَغْنَيْتُهَا ، فَإِذَا هِيَ أَحْسَنُ النَّاسِ كَلَامًا ، وَأَكْمَلُهُمْ شَكْلًا وَدَلًّا ، فَقَالَ : يَا أَعْرَابِيَّ ، هَلْ مِنْ سُؤْلٍ عَنْهَا بِأَفْضَلِ الرِّغْبَةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِذَا فَرَّقْتَ بَيْنَ رَأْسِي وَجَسَدِي ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

لَا تَجْعَلَنِي وَالْأُمُشَالَ تُضْرَبُ بِي كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمَضَاءِ بِالنَّارِ
 ارْدَدِ سَعَادَ عَلَى حَذِيرَانَ مَكْتُوبٍ يُبْنِي وَيَصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارِ
 قَدْ شَفَقَ قَلْقُ مَا مَنَلَهُ قَلْقٌ وَأَسْعَرَ الْقَلْبُ مِنْهُ أَيَّْ إِسْعَارِ
 وَاللَّهُ وَاللَّهُ لَا أَنْسَى مُحَبَّتَهَا حَتَّى أَغَيَّبَ فِي رَمْسٍ وَأَحْجَارِ

كيف السلو وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صَبَّارٍ
فغضب معاوية غضباً شديداً ، ثم قال لها : اختارى مَنْ شئت ، أنا
أو ابن أم الحكم أو الأعرابي ؛ فأنشأت تقول :

هذا وإن أصبح في أطمارٍ أو كان في بعضٍ من البسارِ
أكبرُ عندي من أبي وجارى وصاحب الدرهم والدينار
* أخشى إذا غدرتُ حرَّ النارِ *

فقال له معاوية : خذها لا بارك الله لك فيها ، فأخذها وأنشأ يقول :

خَلُّوا عن الطريق للأعرابي أَلَمْ تَرْقُوا وَنَحْكُمُ لِمَا بِي !

فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأدخلت لبعض قصوره
حتى انتقضت عِدَّتُها من ابن أمَّ الحكم ، ثم دفعها للأعرابي^(١) .

وقال بعضهم : كنت سائراً في بلاد عُذْرَة فوجلتُ بعضَ أوديتهم وإذا
شابُّ حسنُ الوجه ، بيده زمام ناقة ، عليها هودجٌ مسجَّف^(٢) ، به جارية ، ومن
وراء الناقة خمس قلائص^(٣) ، وقد رفع عقيرته ينشد ويقول :

ته كيف شئتَ وسِرَّ على مهلٍ كلُّ الجال عليك يا بَجَلُ
على أنك لا ترى كَلَّلاً ما دام فوقك هذه الكِلَلُ

فسلمتُ عليه ، فردَّ ، وسألته وسألني وتناشدنا ، واتصل الأُنسُ بيننا ، وسرنا
غير قليل ، فرأى قانصاً في أحبولة ظلي ، فلما رآه يضطرب في الأحبولة أَجْهِشَ
بالبكاء ، وأنشأ يقول :

وذكرني مَنْ لا أبوحُ بحُبِّهِ محاجرَ ظلي في حُبالة قانِصٍ

(١) الخبر والشعر في كتاب نهاية الارب ٢ : ١٥٦ - ١٥٩

(٢) اليهودج : مركب للنساء . ومسجف ، عليه مسبحان وهو المستر ■

(٣) القلوص من الإبل : الشلعة

فقلتُ وجفنُ العينِ يجرى بَعْبَرَةٌ ولحظي إلى عينيه لحظةٌ شاخصِ
 ألا أيُّ هذا القانصِ الظبيِّ خَلَّه وخذ عِوَضاً منه جِيَادَ قلائِصِي
 خفِ الله لا تجبسه إن شبيهه حياتي قد أَرَعِدَتْ منه فرائِصِي
 فقال القانص : الله إن فعلت ؟ قال : الله ، فأرسل الظبي ، واستاق القلائص .
 وحدث رجل من بني عذرة قال : كان فينا فتىٌ ظريف غزل ، كثيراً
 ما يتحدث إلى النساء ، فهوى جاريةً من الحى ، فراسلها فأظهرت له جفوة ،
 فوق مضى مدنفاً وظهر أمره ، وتبين دنفه ، ولم يزل النساء من أهلها وأهله
 يكلمنَّه فيها ، حتى أجابت ، فسارت إليه عائدةً ومسلَّمةً ، فلما نظر إليها تحدَّرت
 عيناه بالدموع ، وأنشأ يقول :

أريتُك إن مرَّت عليك جنازتي تروح بها أيدٍ طوالٍ وتسرعُ
 أما تتبَعينَ النَّعشَ حتى تسلى على رمسٍ مَيتٍ بالخفيرةِ يودعُ !
 فبكى رحمةً ، وقالت : والله ما ظننت أن الأمر بلغ بك هذا ، فوالله
 لأساعدنَّك ولأداوِمَنَّ على وصالك ، فهملت عيناه بالدموع ، وأنشأ يقول :
 دَنَتْ وظِلالُ الموتِ بيني وبينها ومَنَّتْ بوصلي حيث لا ينفع الوصلُ
 ثم شهِقَ شهقةً فخرجت نفسه ، قال : فوقع عليه تلثمه ، ثم رجعت عنه
 مغشياً عليها ، فما مكثت بعده إلا أياماً حتى ماتت ^(١) .

قال حماد الراوية : انصرفت من جنازة لبعض السكاسك ، فإذا بصبيٍّ من
 هُذْرةٍ ظريف ، حسن الوجة ، صَغير السنِّ ، موصوف بقول الشعر ، فوقفنا
 فسألنا ، فقام إعظاماً لنا ، فقلت : أنشدنا شيئاً ، فكأنه استجيا ، فقلت له :
 لا بدَّ ، فأنشدنا :

هل من الحبِّ مجيرٌ من ملاحٍ يعتدُّونا

قد شكونا بخضوعٍ عدل قوم يعذُّونا
في جوى نلقاهِ مِنَّ لا يبالِ ما لقينا
وبكينا بدموعٍ أغرقت منا الجفونا

قال حماد : فكدت أرقص طرباً وقلت : فداؤك عُك ! وجلسنا إليه تعجباً
من رفته وجماله وفصاحته ، فأنشدنا :

ولقد أرسلتُ دمعِي شاهداً ثم صيرتُ إليها المشتكى
فتولتْ ، ثم قالت شغلي كلُّ مَنْ شاء تبكى ! فبكى

قال حماد : قلت له : فديتك ، تحبُّ هذه الجارية ؟ قال : يا عم ، والحبُّ
عيب ! إن كان عيباً تركته . ثم قال : يا عم إذا قرأت أو بلغني أحاديثُ قومي مثلُ
عمرو وجميل ، أفلا أشتبهى أن أكون واحداً منهم ! فانصرفنا عنه متعجبين .

[ذكر آل أبي صفرة]

قوله : والشجاعة بآل أبي صفرة ، أبو صفرة هو ظالم بن سراق بن كندى
ابن عمرو بن عدى ، ويتصل بعمرو مزيقيا ، ثم بأزدبما ، وأزدبما بين عُمان
والبحرين ، وكانوا أسلموا ثم ارتدوا في خلافة أبي بكر ، فبعث إليهم أبو بكر
عكرمة بن أبي جهل ، فقاتلهم وسبى ذراريهم وبعث بهم إلى أبي بكر ،
وأبو صفرة غلام ، فحبسهم أبو بكر ، فلما توفى أطلقهم عمر ، فنزل أبو صفرة
البصرة ، فشرَّف بها .

وروى بعضهم أنَّ أبا صفرة طلب من عمر أن يولِّيه عملاً ، فسأله عن اسمه
فقال : ظالم بن سراق ، فقال : نعلم أنت ويسرق أبوك ! ولم يولِّه عملاً
تطيراً باسمه .

والمهلبية تزعم أنَّ أبا صفرة قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعليه حلة

صفراء يسحبها خلفه ذراعين . وله طول ومنظر وفصاحة ، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم مارأى من جماله وخلقه ، فقال له : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : أنا قاطع بن سارق ابن ظالم بن عمرو بن شهاب بن مرة بن الهلقام بن الجلندی بن المستكبر بن الجلندی ، الذى كان يأخذ كل سفينة غصبًا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ أَبُو صُفْرَةَ ، ودع عنك ظالمًا وسارقًا » ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله حقًا ، إِنْ لى ثمانية عشر ذكرًا ، ورزقت بآخرهم بنتًا سميتها صُفْرَةَ .

وأما أولاد أبي صُفْرَةَ ، فكانوا كُتَّابًا شجعانًا أبطالًا حماةً ، منهم أبو سعيد المهلب . وذكروا أَنَّ أبا صُفْرَةَ وفَدَّ على عمر رضى الله عنه ومعه عشرة من ولده - والمهلب أصغرهم - فتوَّعَّمهم عمر ، ثم قال : هذا سيِّد ولدك المهلب ، والمهلب هو صاحب حروب الأزارقة ، وولاه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة تسع وسبعين ، ومات سنة ثلاث وثمانين ، واستخلف يزيد ابنه عليها ، فأقره عبدُ الملك عليها سنتين أو ثلاثًا . وغزا يزيدُ جرجان في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة سبع وتسعين ، في ثلاثين ألف مقاتل ، فقاتلهم أشهرًا ، ثم صالحهم على أن يُعطوا خمسمائة ألف درهم كلَّ عام ، يؤدونها إليه ، ثم غزا سنة ثمان وتسعين طَبْرِسْتان ، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة وقر زعفران وأربعمائة رجل مع كلِّ رجل بُرْنس وطيلسان وخاتم فضة ، وسَرَقَة حرير وكسوة ، وقبل ذلك وانصرف عنهم . ثم غدر أهل جُرجان بمن خلف عليهم من المسلمين فقتلهم ؛ فلما فرغ من طَبْرِسْتان سار إليهم ، فقاتلهم شهرًا ، ثم نزلوا على حكمه ، فقتل مقاتلتهم ، وسبى ذراريهم وصلبهم فرسخين ، وقاد منهم اثني عشر ألفًا إلى وادى جرجان ، فقتلهم وأجرى الماء في الوادى على الدَّم ، وعليه أرحاء بدمائهم تطحن ، واختبز وأكل ، وكان قد حلف على ذلك .

الأصمعيّ : قبض^(١) الحجاج على يزيد ، وأخذ به سوء العذاب ، فسأله أن يخفف عنه العذاب على أن يعطيه كلّ يوم مائة ألف درهم ، فكان دأبه أنه إذا أذاها تركه ، وإلاّ عذّبه إلى الليل ، فجمع يوماً مائة ألف درهم ، يشتري بها عذابه ، فدخل عليه الأخطل فأنشده :

أبا خالدٍ بادت خراسانُ بعدكمْ وقال ذَوُو الحاجات أين يزيد^(٢) ؟
فما سَقَى الرّوان بعدك قطرةً ولا أخضرَ بالمرّوين بعدك عُودُ
وما السرير بعد ملكك بهجةً ولا الجواد بعد جودك جودُ

فأعطاه المائة الألف . فبلغ ذلك الحجاج ، فدعا به ، وقال : يا مروزيّ ، أكل هذا الكرم وأنت بهذه الحالة ؟ قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده^(٣) .

ابن عبد الحكم : أخبرنا الشافعيّ قال : طعن يزيدُ بن المهلب رجلاً من الخوارج ، فصرعه فوثب الخارجيّ بالسيف ، وهو يقول :

وإنّا لقومٌ لا نعوّد خيلنا إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
وننكرُ يوم الروع ألوانَ خيلنا من الدم حتى نحسبَ الرّود أشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردّها صحاحاً ولا مستنكرٍ أن تُعقرا

قال يزيد : فكرهت أن أقتل مثله ، فانصرفت عنه . وقتل يزيد يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة ، وهو ابن سبع وأربعين سنة .

(١) القصة والأبيات في ابن خلّكان ٢ : ٢٦٥

(٢) قال ابن خلّكان : قوله : « فلا مطر المروان ... ولا أخضر بالمرّوين » هما تثنية مرو ، وأحدهما مرو الشامجان ، وهى العظمى ، والأخرى مرو الرود ، وهى الصغرى ، وكلتاها مدينتان مشهورتان بخراسان .

(٣) قال ابن خلّكان : قلت هكذا ذكر ابن عسّكر ، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة وهذه الأبيات هو الفرزدق ، ثم انى رأيت هذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم ، والله أعلم بالصواب .

وقيل للمهلب: بم نلت ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم، وعصيان الهوى.
وقيل لأبي إسحاق الهمداني: لم رويت عن المهلب؟ قال: لأنني لم أر
أميراً أبين منه تقية ولا أشجع منه، ولا أبعد مما يكره، ولا أقرب مما يحب.
ومرّ المهلب بقوم فعظموه وسودّوه، فقال رجل: ألهذا الأعور تسودون!
والله لو خرج إلى السوق ما زادت قيمته على ألفي درهم، فسمعه المهلب، فقال
لبعض من معه: أتعرف الرجل؟ قال: نعم، فلما انتهى إلى مجلسه أرسل إليه
بألفي درهم. فقال له: لو زدّتنا في القيمة لزدناك في العطية، فنجعل الرجل،
وعرف منزلته.

وللمهلب وبنيه وإخوته في حروب الأزارقة مشاهد ما شوهدت قط في
جاهلية ولا إسلام.

وقتل المهلب وأولاده وإخوته ومن معه من الأزارقة في ليلة واحدة
أربعة آلاف وثمانمائة، وانهمز بقيتهم مع قطري، فنفاهم إلى أقصى البلاد حتى
قتل قطري ومن معه.

وسئل المهلب عن ابنه: أيهما أشجع أيزيد أم حبيب؟ فقال: إن الولد
ربّما سبق رأي أبيه فيه، وقطري قد مارسهما، فسלוه عنهما. فلما كان من
الغد واصطفوا للقتال صاح رجل: يا أبا نعامه^(١)، فقال: أفرجوا له، ثم قال:
قد سمعت قتل؛ فقال: إننا سألنا الأمير عن ابنه يزيد وحبيب: أيهما أشجع،
فقال: سلوا أبا نعامه، فقال: على الخير سقطت، أمّا صاحب الكرّ والفرّ
والإقدام والإحجام، وصحة التدبير ومبارزة الكمي المدجج فأخرون يزيد،
وأمّا إذا التقت غياطيل الليل، وخفت الأصوات إلا الغام، وقرع الحديد
بالحديد فالخيار حبيب.

(١) أبو نعامه كنية قطري.

— الغَيْطَالَةُ التَّبَاسِ الظَّلَامِ ، وَخَفَّتْ : سَكَنْتَ . وَالغَمْفَمَةُ : أَصْوَاتُ الْأَبْغَارِ
فِي الْقِتَالِ —

وَسَأَلَ الْحِجَاجُ كَهْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْعَرِيَّ^(١) حِينَ وَفَدَ عَلَيْهِ بِالْفَتْحِ ،
فَقَالَ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنْ بَنِي الْمُهَلَّبِ ، فَقَالَ : الْمَغِيرَةُ فَارِسُهُمْ وَسِيدُهُمْ ، وَكُنْفَى بِيَزِيدَ
فَارِسًا وَشَجَاعًا ، وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيهِمْ قَبِيضَةٌ ، وَمَا يَسْتَحْيِ الشُّجَاعُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُدْرِكٍ ،
وَعَبْدُ الْمَلِكِ سَمٌّ نَاقِعٌ ، وَحَبِيبُ مَوْتٍ دُعَافٌ ، وَ مُحَمَّدٌ لَيْثٌ غَلَبَ . وَكَفَّالُكَ بِالْمُفَضَّلِ
نَجْدَةٌ . فَقَالَ : كَيْفَ كَانُوا فِي الْبَاسِ ؟ قَالَ حَمَاةُ السَّرْحِ نَهَارًا ، فَإِذَا أَلْيَلُوا
فَفَرَسَانِ الْبَيَاتِ . قَالَ : فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدَ ، قَالَ : كَانُوا كَالْحَلْقَةِ الْمَفْرَغَةِ لَا يُدْرَى
أَيُّنَ طَرَفِهَا .

وَحِينَ وَفَدَ الْمُهَلَّبُ عَلَى الْحِجَاجِ أَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ ، وَأَظْهَرَ إِكْرَامَهُ ،
وَقَالَ : يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، أَتَمَّ عِبِيدُ الْمُهَلَّبِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ
لَقَيْطُ الْإِيَادِيِّ :

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ اللَّهُ دَرَكُكُمْ رَحْبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعًا^(٢)
لَا مَتَرَفًا إِنْ رَخَا فِي الْأَمْرِ سَاعِدُهُ^(٣) وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعًا
مَازَالَ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ يَكُونُ مِتْبَعًا طَوْرًا وَمِتْبَعًا
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْرٍ مَرَارَتُهُ^(٤) مُسْتَحْكِمُ الرَّأْيِ لَا قَضْمًا وَلَا ضَرَعًا

فَقَامَ رَجُلٌ وَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَسْمَعُ السَّاعَةَ قَطْرِيًّا يَقُولُ
لِلْمُهَلَّبِ كَمَا قَالَ لَقَيْطُ الْإِيَادِيِّ ... وَأَنْشَدَ الْآيَاتِ ، فَامْتَلَأَ الْحِجَاجُ سُرُورًا .

وَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : أَذْكَرَ لِي الَّذِينَ أَبْلَوْا وَصَفَى بِلَاءَهُمْ ، فَقَدَّمَ بَنِيهِ ، وَقَالَ :

(١) ط : « الْأَشْعَرِي » بِالْعَيْنِ ، تَحْرِيفٌ .

(٢) مَخَارَاتُ ابْنِ الشَّحْرِ .

(٣) ابْنُ الشَّحْرِ : « أَنْ رَخَا الْعَيْشُ سَاعِدُهُ » .

(٤) ابْنُ الشَّحْرِ : « مَرِيرَتُهُ » .

والله لو تقدّمهم أحد في البلاء لقدّمته عليهم ، ولولا أن أظلمهم لأخّرتهم .
فقال له الحجاج : نعم إنهم لسيوف من سيوف الله تعالى في الأرض .

وقال يوماً عبد الملك للشعراء : تشبّهوني مرة بالأسد الأبحر ، والجبل
الأوعر ، والبحر الأجاج وبالصقر والباز ، ألا قلت كما قال كعب الأشقرى في
المهلب وبنيه :

براك الله حين براك ببحراً	وفجّر منك أنهاراً غزاراً
بنوك السّاقون إلى المعالي	إذا ما أعظم الناس الفخاراً
كانهم نجومٌ حول بدرٍ	دجوجيٌ تكمل واستداراً
ملوكٌ ينزلون بكلّ فخرٍ	إذا ما الهام يوم الرّوع طاراً
رزانٌ في الأمور ترى عليهم	من الشيخ الثّمائل والنّجاراً
نجومٌ يهتدى بهم إذا ما	أخو الغمرات في الظّماء حاراً

وفي ديوان الحماسة :

آلُ المهلب قومٌ خُوتلوا شرفاً	ما ناله عربيٌّ لا ولا كاداً ^(١)
لو قيل للمجد حدٌ عنهم وظلمٌ	بما احتكمت من الدنيا لما حاداً
إنّ المكارم أرواح يكون لها	آلُ المهلب دُونَ الناس أجساداً

ولبعضهم :

إذا كان المهلب من ورأى	هدأ ليلي وقرّ له فؤادى
ولم أخش الدّنيّة من أناس	ولو صالوا بقوة قومٍ عادٍ

وتوفّي المهلب بفنجدية بصحراء راغول سنة ثلاث وثمانين ؛ فبعد أربعائة
وثلاثين من وفاته ، رأى بعض علماء فنجدية في المنام كأنّ المهلب يقول : الله

الله ، الحقنى قَبْلَ أن يأخذنى رُوذمرو - وهو نهر عظيم يُعْبَرُ عليه بالنفن -
واقفلنى إلى بعض مقابر المسلمين ، وأنا مدفون على شاطئ هذا النهر الكبير
فى الموضع القلانى ، وقد حفر الماء تحت قبرى ، وقرب أن يأخذنى ، فلما
أصبح الرجل أخذ جماعةً من أصحابه معهم المساحى والفتوس فمضوا إلى ذلك
الموضع ، وحفروا حتى وصلوا إلى قلبه فكشفوا التراب عنه ، فكانت عظامه
ما بليت بعد ، فدفنوه بمقبرة مذونة .

قال الفنجديسى : وهى محلتنا ؛ وسمعتُ معنى هذه الحكاية من والدى
رحمه الله .

* * *

فلما أَلْقَيْتُ الْجِرَانَ بِنَجْرَانَ ، واصطفيتُ بها الْخُلَّانَ والجيرانَ ،
تَخَذْتُ أُنْدِيَتَهَا مُعْتَمِرِي ، وَمَوْسِمَ فَكَاهَتِي وَسَمَرِي ؛ فَكُنْتُ أَتَعَهَّدُهَا
صَبَاحَ مَسَاءَ ، وَأَظْهَرُ فِيهَا عَلَى مَاسَرٍّ وَسَاءَ ؛ فَيَمَّا أَنَا فِي نَادٍ مَحْشُودٍ ،
وَمَحْفَلٍ مَشْهُودٍ ؛ إِذْ جِئْتُ لَدَيْنَا هِمَّ ، عَلَيْهِ هِذَمٌ ؛ خَفِيًّا تَحِيَّةَ مَلِيقٍ ،
بِلِسَانٍ ذَلِيقٍ ؛ ثُمَّ قَالَ : يَا بُدُورَ الْمَحَافِلِ ، وَبُحُورَ النَّوَافِلِ ، قَدْ بَيَّنَّ الصُّبْحُ
لِذِي عَيْنَيْنِ ، وَنَابَ الْعِيَانُ مَنَابَ عَدَلَيْنِ ، فَمَا تَرَوْنَ ، فَمَا تَرَوْنَ ؟
أَتُحْسِنُونَ الْعَوْنَ ، أَمْ تَنَآوُونَ إِذْ تُدْعَوْنَ ! فَقَالُوا : تَاللَّهِ لَقَدْ غَضَّتْ ،
وَرُمْتَ أَنْ تُنْبِطَ فَنِفُضْتَ .

* * *

قوله : بِنَجْرَانَ : بلد من كُور نجد مما يلي بلاد اليمن ، سُمِّيَتْ بِنَجْرَانَ
ابن زيد بن سبأ . اصطفيتُ : اخترت . الْخُلَّانُ : الأحاب . تَخَذْتُ ،
بمعنى اتَّخَذْتُ . أُنْدِيَتَهَا : مجالسها ومجتمع أهلها . مُعْتَمِرِي : موضع

زيارتى ، واعتمرت الموضع : قصدته وزرته . مؤسّم : عيد . فكاهتى :
 مازحتى . سَمَرى : حديثى بالليل . أتعهدُها : أنفقَها صباح مساء :
 اسماء مركبان جُعلا خمسة عشر ، وأراد يزورها فى الصباح والمساء .
 نادى محشود : مجلس مجموع الأهل ، ومثله الحفل المشهود . جَمّ : برك . هِمّ :
 شيخ هَرِم ، قد أذهبَ الكِبَرُ قُوَّتَه ولحمه ، وتقول : هَمَمْتُ السَّحْم : أذْبته ،
 ومنه قولهم : هذا الأمر لا يَهْمُنِي ، بفتح الياء وكسر الهاء ، أى لا يذِيبُنِي ،
 ومن قال بضمّ الياء فمعناه لا يقلقُنِي . هِذِم : ثوب خَلَقَ كأنَّهُ هدمه البلى .
 مَلِيق : متلطف فى كلامه . ذَلَق : حديد . التَّوافل : العطايا . يَبِينُ الصبح
 لذى عينين ، مثل ، ويريد أنَّ الليل يتساوى فى ظلمته الأعمى والصحيح ، فإذا
 ظهر ضوء الصبح أبصر الأشياء مَنْ له بصر ، وقيل معنى يَبِينُ الصبح ، أى
 تَبَيَّنَ ، والعيان : المشاهدة ، وعابنته : شاهدته ، أى أتمَّ مَنْ لا يخفى عليكم
 حالى ، يريد أنَّ المعاينة تغنى عن الشهود العدول . فإذا ترون : فما رأيكم ؟
 وهى من رؤية القلب . فيما تَرَوْنَ ، أى فيما تنظرون وتبصرون ، وهو من رؤية
 البصر . وقال الفجديهي فى شرحه : فما ترون ؟ أى فما تظنون فيما تَرَوْنَ ؟
 أى فيما تبصرون . تناوَن : تبعدون . غطت ، من الغيظ ، أى لقد حَرَّكَتْ
 غيظًا . رُمْتُ أن تُنْبِطَ : أردت أن تخرج ماء . غِضَّتْ . غِيْبَتَه وجَفَفَتْه ، والغَيْض
 نقيض الغَيْض ، وغاض الماء : ذهب فى الأرض .

* * *

فناشدَهُمُ اللهُ عَمَّا ذَا صَدَّهُمْ ؛ حَتَّى اسْتَوْجَبَ رَدَّهُمْ ؛ فقالوا : كُنَّا
 نَتَنَاصَلُّ بِالْأَلْفَازِ ؛ كَمَا يَتَنَاصَلُّ يَوْمَ الْبِرَازِ ؛ فَمَا تَمَالِكَ أَنْ شَعَثَ مِنْ
 الْمَنُضُولِ ، وَأَلْحَقَ هَذَا الْفَضْلَ بِنَمَطِ الْفُضُولِ .

فَلَسَنَتُهُ لُسْنُ الْقَوْمِ ، وَوُخْزُوهُ بِأَمِينَةِ اللَّوْمِ ، وَأَخْذُوهُ يَتَنَصَّلُ

من هَفَوْتِهِ ، ويتَنَدَّمُ عَلَى فَوْهَتِهِ ، وَهُمْ مُضِيبُونَ عَلَى مُؤَاخَذَتِهِ ؛ وَمُلبَّونَ دَاعِي مُنَابَذَتِهِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُمْ : يَا قَوْمُ ؛ إِنْ الاحْتِمَالُ مِنْ كَرَمِ الطَّبْعِ ، فَعَدُّوا عَنِ اللَّذَعِ وَالْقَذَعِ ، ثُمَّ هَلُمَّ إِلَى أَنْ نُلْغِزَ ، وَنَحْكُمَ الْمُبَرِّزَ .

* * *

ناشدهم : حَلَفَهُمْ . صَدَّهْمُ : صرفهم وأزالهم . نَفَنَّا ضَلَّ : نترامى . البراز : القتال : والألفاز : جمع لُغَزَ ، وهو الكلام المعنى ، وأنغز ، إذا عَمِيَ كلامه فلم يُفهم ما يقصده ، وأصله من اللُّغَزِ وهو الحجر الملوئ : ما تمالك : ما أبطأ ولا ملك نفسه .

شَعَثَ : غَبَّرَ ، وَيُرْوَى « شَعَبَ » . من المنضول ، أى نقصه وفرقه ، والمنضول : المرمى ، أى قبَّح فعلهم ومراماتهم . الفنجديهيّ : شَعَثَ الدهرُ ماله ، أى أخذه ، والمنضول : المغلوب فى النَّضال ، والمعنى فما صَبَرَ عن تشميث همّ المغلوب ونصره وتحليصه عما أُرْتِجَ عليه من اللُّغَزِ ، ويقال : شَعَثَ منه ، أى عابه وتنقصه ، وكأنه عاب المنضول كيف أُرْتِجَ عليه شيء سهل ! وهذا تفسير حسن ، إِلَّا أَنَّ مساق كلام الحريرى أدلُّ على التفسير الأول .

نَمَطَ : نوع . لَسَنَهُ : أخذه بلسانه . لُسْنُ القوم : فصحاؤهم . وَخَزَوْهُ : طعنوه . يَنْصَلُّ : يتبرأ ويعتذر . هَفَوْتُهُ : سقطته . فَوْهَتُهُ : كلمته التى فاه بها ، أى نطق . مُضِيبُونَ : مقيمون ملتزمون ، وأضِبَّ عَلَى الشَّيْءِ : لازمه . مُؤَاخَذَتُهُ : إنشابه الشرِّ معه ، وتواخذ الرجالان : آخذ كل واحد منهما صاحبه بضرب أو شتم . مُلَبَّبُونَ : محييون . مُنَابَذَتُهُ : متاركة ومهاجرة ، وقد نبذتُ الشَّيْءَ ؛ إذا رميته من يدك . الاحتمال : الصبر على الجفاء . عَدُّوا : انصرفوا وتنحَّوا . اللذع : إحراق القلب باللوم والعتب . والقذع : السَّبُّ . نُلْغِزُ : نعَمي الكلام ونُلَبِّسُهُ عَلَى السامع . المبرِّز : الغالب .

* * *

فَسَكَنَ عِنْدَ ذَلِكَ تَوْقُدُهُمْ ، وَانْحَلَّتْ عُقْدُهُمْ ، وَرَضُوا بِمَا بَهَا
 شَرَطَ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ ، واقترحوا أن يكون أولهم ، فأمسك ريثماً يُعْقَدُ
 شِسْعٌ ، أو يُشَدُّ نِسْعٌ ، ثم قال : اسمعوا وُقَيْتُمُ الطَّيْشَ ، وَمُلَيْتُمُ الْعَيْشَ ،
 وَأُنْشَدَ مُلَغِزاً فِي مِرْوَحَةِ الْخَيْشِ :

وَجَارِيَةٍ فِي سَيْرِهَا مُشْمَعِلَةٌ وَلَكِنْ عَلَى إِثْرِ الْمَسِيرِ قُفُولُهَا
 لَهَا سَائِقٌ مِنْ جِنْسِهَا يَسْتَحِبُّهَا عَلَى أَنَّهُ فِي الْاِخْتِثَاتِ رَسِيلُهَا
 تَرَى فِي أَوَانِ الْقَيْظِ تَنْطَفُ بِالنَّدَى وَيَبْدُو إِذَا وَلَّى الْمَصِيفُ قُحُولُهَا

* * *

ريث ، أى بَطْء . شِسْعٌ : شراكة النعل . أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم
 أنه قال : « لن ينقطع شِسْعٌ أحدكم إلا من ذنبٍ عليه ، فليستغفر الله وليرجع
 فإنها مصيبة عرضت عليه » . والنَّسْعُ : شراكة مضمفورة على هيئة النعال ، ويشد
 بها الرَّحْلَ وغيره .

وُقَيْتُمُ : كَفَيْتُمُ . الطَّيْشُ : خفة العتل . مُلَيْتُمُ : طُولُ لَكُمْ . الْخَيْشُ . ثياب
 خشنة من الكتان ، وهذه المروحة تستعمل ببلاد العراق تكون شبه الشراع
 للسفينة ، وتعلق من سقف البيت ، يشدُّ فيها حبل ويُدار بهامشيها ، وتُبَلُّ
 بالماء وترشُ بماء الورد ، فإذا أراد الرجل فى القائلة أو الليل أن ينام جَذَبَهَا
 بِجَنْبِهَا ، فتذهب بطول البيت وتجيء ؛ فيهبَّ على الرجل منها نسيم طيب الريح
 بارد فيذهب عنه أذى الحرِّ ويستطيب به النوم وهى فوقه ذاهبة وجائية ، ولذلك
 سَمَّاها جَارِيَةً . وَمُشْمَعِلَةٌ : سريعة الذهاب . قُفُولُهَا : رجوعها . والسَائِقُ : الشريط
 الذى يسوقها إذا جُذِبَتْ به . يَسْتَحِبُّهَا : يستعجلها ، ومن جِنْسِهَا ، أى هو من
 كَتَّانٍ مثلها أو من قِنَبٍ . والَاِخْتِثَاتِ : التَّعْجِيلِ . رَسِيلُهَا ، أى مرسلها ،
 ويرسل معها لزاوية البيت ويرجع معها ، والرَّسِيلُ : الفرسُ يُرْسَلُ مع آخر

في السباق . أو أن القميط : وقت الصيف . تَنْطَفُ : تقطر ، ونطفُ الماء : سال
وقطر ، والندى : الرشّ الضعيف . وقُحُوها : ييسها . ولَّى : أدبر ، وإذا ولَّى
الحرُّ لم يُحْتَجْ إليها ، فلا تُرَشُّ ولا تستعمل فتيس . وللسرى الموصلى فيها :

ومبثوثة في كلِّ غربٍ ومشرقٍ لها أمّهاتٌ بالعراقِ بواطنُ^(١)
يحرّكُ أنفاسَ الرِّياحِ حراكُها كأنَّ نسيمَ الروضِ فيهنَّ كلامُ
وله أيضاً :

وخيش كما انجرتْ ذيولُ غلائلٍ مصندلةٌ يختال فيها الكواعبُ^(٢)
وقد أطلعتْ فيها الشمالُ وانتثتْ مُقَيَّدةٌ عن جانبيها الجوانبُ^(٣)
ومما يكتب على مروه الكف :

أنا في الكفِّ لطيفةٌ مسكنى قصرُ الخليفة
أنا لا أصلح إلا لظريفٍ أو ظريفة
أو وصيفٍ حسن القدِّ شبيهٍ بالوصيفة

وفيها أيضاً :

إني أجلبُ الرِّياحَ وبى يدفع الحجلُ
وحجاب إذا الحبيبُ ثنى الرأسَ للقبيلِ

* * *

ثمَّ قال : وهما كمُّ يا أولي الفضلِ ، ومَراكزَ العقلِ ، وأنشد
مُلقِزاً في حابل النخل :

(١) لم أجدهما في ديوانه .

(٢) ديوانه ٦١

(٣) الديوان « الجنائب » :

وَمُنْتَسِبٍ إِلَى أُمِّ تَنْشَأُ أَصْلُهُ مِنْهَا
يُعَانِقُهَا وَقَدْ كَانَتْ نَفَثُهُ بُرْهَةً عَنْهَا
بِهِ يَتَوَصَّلُ الْجَانِي وَلَا يُلْحَى وَلَا يُنْهَى

* * *

قوله : هاكم ، أى خذوا . مرا كز العقل : مواضعه ومحالّه ، كأنّ العقل رُكُزٌ فيهم . والحابل : حبل يُصْعَدُ به على النخل يُعْمَلُ من ليفها ، وهو حبل يُفَقَدُ حلقة ، ويدخل فيها الرجل ويدرجه على النخلة شيئاً شيئاً عند طلوعه حتى يصير بأعلاها ، وحبل النخل ليس فيه شيء من الملاسة ولا فى النخلة ذلك ، فله بها استمساك ، ولذلك جعله معانقاً لها ، لأنه استدار بها ، وقيل له : حابل لأنه لا يُستعمل إلا للصعود على النخيل ، فَرَقّاً بينه وبين الحبل المستعمل لكل شيء ، ولما كان يُصنع من ليف النخل ، جعل النخلة أمه . برهة : زماناً . والجاني : الذى يجنى الثمر ، ألغز به وأوهم أنه الذى يجنى جناية . يُلْحَى : يلام ويسب .

* * *

ثم قال : ودونكمُ الخَفِيَّةَ العَلَمَ ، المعتكرة الظلمَ ، وأنشد مملغزاً فى القلم :

ومأمومٍ بِهِ عُرِفَ الإِمَامُ كما باهت بِصُحْبَتِهِ الكِرَامُ
لَهُ إِذْ يَرْتَوِي طَيْشَانُ صَادٍ وَيَسْكُنُ حِينَ يَعْرِوهُ الأَوَامُ
وَيُذْرى حِينَ يُسْتَسْعَى دُمُوعاً يَرْمُقْنَ كَمَا يروقُ الإِبْتَسَامُ

* * *

قوله : العَلَمَ ، أى الرَّمَمَ فى الثوب ، فأراد أنها خَفِيَّةٌ فى اللغز ، فعلمها الذى تُعْرَفُ به خَفِيٌّ . والمعتكرة : الشديدة السواد . ومأموم : برأسه أمة ،

أى شجرة ، يريد الشق برأسه ، والإمام : أمير المؤمنين ، وجعله معروفاً بالقلم ، لأن القلم يبدى أسرار الملك وأخباره فى كتبه . وقيل : الإمام الكتاب ، من قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾^(١) ، أى بكتابهم ، وقيل بنبئهم ، ولا يمتنع أن يريد بالأموم المتبوع ، وإمامه . الذهن الذى يملى عليه ، أو يد الكاتب به ، وقيل : سماء مأموماً ، لأنه يؤم القرطاس ، أى يقصده ويتبعه الإمام كتاب الله سبحانه وتعالى لأنه يُتَّبَع ويؤتم به ، ويُقتدى بما فيه . باهت : افتخرت . والكرام : الكتبة لقوله تعالى : ﴿بأيدي سَفَرَةٍ * كرامٍ بَرَرَةٍ﴾^(٢) ولا مرتبة أشرف من مرتبتهم بعد الإمرة ، ولذلك قال الصابى :

وقد علم السلطان أنى لسانه وكتبه الكافى السديد الموفق^(٣)
أوازره فيما عرّا وأدّه برأى يُريه الشمس والليل أغسق
فيمنأى يمنأه ولفظى لفظه وعينى له عين بها الدهر يرمق

طيشان صاد ، أى جولان عاطش ، وطاش : خف . يعرؤه : يقصده .
والأوام : العطش ، يريد أن القلم إذا ارتوى بالمداد أسرع فى الكتابة وإذا جف توقف وأمسك . يرقن : يُعْجَبَن .

ونظر المأمون إلى جارية تكتب ، فقال :

وزادت لدينا خُطوة حين أطرقت وفى إصبعيها أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك يتأل جسيمات العلا وهو أعجف
وقال العلوى :

إذا ما التقينا وانتضينا صوارمًا يكاد يصم السامعين صريرها
تساقط فى القرطاس منها بدائع كمثل اللآلى نظمها ونثيرها

(٢) سورة عبس ١٦ ، ١٧

(١) سورة الاسراء ٧١

(٣) بتيمة الدهر ٢ : ٢٤٧

ثُمَّ قَالَ : وَعَلَيْكُمْ بِالْوَاضِحَةِ الدَّلِيلِ ، الْفَاضِحَةِ مَا قِيلَ ، وَأَنْشُدْ مِثْلَ فَرْأٍ
فِي الْمِيلِ :

وَمَا نَاكِحُ أُخْتَيْنِ جَهْرًا وَخُفِيَةً وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي النَّكَاحِ سَبِيلُ
مَتَى يَفْشَ هَذِي يَفْشَ فِي الْحَالِ هَذِهِ وَإِنْ مَالٌ بَعْلٌ لَمْ تَجِدْهُ يَمِيلُ
يَرِيدُهَا عِنْدَ الْمَشِيبِ تَمَهُدًا وَبِرًّا وَهَذَا فِي الْبَعُولِ قَلِيلُ

* * *

قوله : الواضحة ، أى البينة . الفاضحة ، أى المبدية لعب ما قيل قبلها من اللفز .
والميل : المزود . والأختين : العينين . ليس عليه سبيل ، مع أن الجمع بين الأختين .
لا يجوز . يَفْشَ : يدخل لها . مَالٌ : عدل وزال عنها . والبعل : الزوج .
تَمَهُدًا : تَقْدًا . بَرًّا : إكرامًا . يريد أن الأبصار عند الكبر يضعف نظرها
فتحتاج إلى الكحل . وقيل : عَبَّرَ بِالمشيب عن مَرَوِ العين وهو فسَادُهَا من
ترك الكحل .

* * *

ثُمَّ قَالَ : وَهَذِهِ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ ، مَعْيَارُ الْآدَابِ ، وَأَنْشُدْ مِثْلَ فَرْأٍ
فِي الدُّوَلَابِ :

وَجَافٍ وَهُوَ مَوْصُولٌ وَصُولٌ لَيْسَ بِالْجَافِي
غَرِيقٌ بَارِزٌ فَاعْجَبُ لَهُ مِنْ رَاسِبٍ طَافِي
يَسُحُّ دُمُوعَ مَهْضُومٍ وَيَهْضِمُ هَضْمَ مِثْلَافٍ
وَتُخْشَى مِنْهُ حَدُّهُ وَلَكِنْ قَلْبُهُ صَافِي

* * *

أولى الألباب ، أى أهل العقول . معيار : مقياس يعبر به ، وتقول : عايرت
المكاييل ، إذا قست بعضها ببعض ، وساويت بينها . والدُّولاب : الناعورة .
والجافى : الثقيل ، يريد أن الدولاب جافى في نفسه وخلقه ، وليس بجافٍ لسرعة
حركته ودَوْرانه . وموصول : ليس من عُودٍ واحد . وَصُول ، يعنى للرياض
بمائه ولهذا المنفعة ضئع . قوله : ليس بالجافى ، يعنى إذا فارق الماء عاد إليه
لا يجفوه ، والجفاء يكون فى الخلقة والخلق ، يقال : رجل جافى الخلقة ، أى
غليظ ، وجافى الخلق إذا كان كزّاً غليظ العشرة ، وجفا الشيء يجفوه جفاء : لم يلزم
مكانه ، وجفا جنبه عن الفراش : لم يطمئن ، ويجفوه ، ضدّ يصله ، جفوة :
مرة واحدة ، وجفاء مصدر عام ، ورجل وَصُولٌ : كثير الوصل .

وقال الرُّصافى فى هذا المعنى فأحسن :

وذى حنينٍ يكاد شوقاً يختلسُ الأنفُسَ اختِلاساً^(١)
إذا غدا للرياض جاراً قال له المحلُّ : لا مساساً
يتيسمُ الرّوضُ حين يَبْكي بأعينٍ ما رأينَ بأساً
من كلِّ جفنٍ يسْلُ سيفاً صارَ له غمّده رأساً

ولأبى الفضل بن الأعمى فى قواديس الساقية :

ونُسَّكٍ كمتهم حفرة من فارق الحفرة بيكها
حتى إذا ما أنفذوا دمهم خرّوا على رموسهم فيها

وقال أعرابى فى ساقية :

باتت تحنُّ وما بها وحدى وأحنُّ مشتاقاً إلى بجز
فدموعها تحيّا الرّياضُ بها ودموع عيني أحرق خدى

قوله : غريق بارز ، يريد أن بعضه يَغْرَقُ فى الماء وبعضه يبرز منه ، وهو

معنى راسب طافي ، لأنك تقول : رسب الشيء في الماء ، إذا هبط في قعره .
وسفل فيه ، وطفا ، إذا ارتفع على وجه الماء . يسح : يصب . مهضوم ويهضم :
ينقص . متلاف : مبدّر للمال ، يريد كثرة أخذه للماء وإراقته له . حدّته :
سرعة جريه ، لأنه إن نشب بأحد في جريه أهلكه . وقلبه صافي ، لأنه ليس
من الحيوان فيعتقد شرًا إن أخرج . ولا بن سعد الخير البلنسيّ ن دولاب :

لله دُولَابٌ يفيض بسلسلٍ في روضةٍ قد أَيْنَعَتْ أَفْنَانًا^(١)
قد طارحته بها الحمام شجّوها فيجيبها ويراجع الألحانا
وكانه دَفٌّ يدور بمعهـ يدكي ويسأل فيه عَنِّ بَانَا
ضاقت مجاري دمه عن جفنه فتفتحت أضلاءه أجفانا
ولبعض أصحابنا :

وقدّة الحسن في محاسنها للعين قيّد وللحجا شرك
تبكي فتبدي حنين ذى نسك بعد التصابي وما بها نُسك
إذا بكت في الرياض من طرب بدا بوجه الأواهر الضحك
كان ما انهل من مدامعها رجوم شهيق يعلها فلك

قال : فلما رَشَقَ ، بالخمس التي نَسَقَ ، قال : يا قوم تدبّروا هذه الخمس ،
واعقدوا عليها الخمس ، ثُمَّ رَأَيْكُمْ وَضَمَّ الذَّيْلَ ، أو الازدياد من
هَذَا الْكَيْلِ .

قال : فاستقرت القوم شهوة الزيادة ، على ما أشربوا من البلادة ،
فقالوا : إن وقوفنا دون حدك ، لِيَفْجُمُنَا عَنْ اسْتِيرَاءِ زَنْدِكَ ، واستشفاف
فِرْنِكَ ، فإن أتممت عشرًا فمن عندك ؛ فاهتز اهتزاز من فلج سهمه ،
وانخزل خصمه .

قوله : رَشَق ، أى رمى ، مأخوذ من رَشَق السهام ، يقال : رَشَقْتُ رَشَقًا ، أى رَمَيْتُ ، والرَّشَق بالكسر : اسم للسهم ، وهو اسمٌ لِلْهَدَفِ الَّذِي يرمونه . نَسَق : تابع واحدًا بعد واحد ، وكلُّ شَيْءٍ تبع بعضه بعضًا على السواء فهو نَسَق . ضَمَّ الذيل : التشمير . الفنجديهي : ضمَّ الذيل كناية عن الاكتفاء بهذه الأحاجي الخمس ، والسكوت عن طلب الزيادة ، يريد بالازدياد من الكيل ، أن يزيدهم من حسن الأحاجي .

واستفَزْتَهُمْ : استدعتهم واستخفَّتْهم ، الرَّجَاج في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِرْ مَنِ اسْتَضَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكِ﴾^(١) أى استدعه لتستغفَّ به إلى إجابتك ، واستفَزَهُ : ختله حتى ألقاه في مهلكة . أَشْرَبُوا : سُقُوا ودُوخِلُوا وخولطوا ، وكلُّ لون خالط لونا آخر فقد أَشْرَبَهُ .

وَالْبَلَادَةُ : التَّحْيِيرُ في الأمر ، والبليد المتحير : الذى لا يدري أين يتوجّه ، الأَصْمَعَى : البليد : الذى يضرب بإحدى بلديته على الأخرى من الغمِّ عند المصيبة . وَالبَلْدَةُ هى الرَّاحَةُ ، يقال : تَبَدَّلَ الرجل ، إذا تحيَّرَ وضرب بإحدى يديه على الأخرى ، يريد أَنَّ البلادَةَ مَشَتْ فِيهِمْ وَأَشْرَبَتْهُمْ .

* * *

ثُمَّ افْتَتَحَ النَّطْقَ بِالْبَسْمَلَةِ ، وَأَنشَدَ مُلَغِّزًا فِي الْمَزْمَلَةِ :

ومسرورة مغنومة طول دهرها	وما تَذْرى ما السرور ولا النِّم
تُقَرَّبُ أحيانا لأجل جنينها	وكم ولد لولاه طُلِّقَتِ الأم
وثُبَعْدُ أحيانا وما حال عهدُها	وإبعاد من لم يَسْتَحِلْ عهدُه ظلم

إِذَا قَصَرَ اللَّيْلُ اسْتَلِدَّ وَصَالَهَا
وإن طَالَ فَاِلْإِعْرَاضُ عَنْ وَصْلِهَا نَعْمَ
لَهَا مَلْبَسٌ بَادٍ أُنِيقٌ مُبْطَنٌ
عَمَّا يُزْدَرَى لَكِنْ لَمَّا يُزْدَرَى الْحُكْمُ

* * *

قوله : الزمّلة ، أى الملقفة ، وقد زُمْتُ ، إذا لَفَّتْ ، وهى آنية يُبرد فيها الماء ، شبه الخاية ، تستعمل بأرض العراق وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتُغَشَّى بجَد أو ثوب مزيّن ، حسن لنظر العين ، ومن تحته تلك الأغشية الخشنة التي لها السرّ والحكم فى تبريد الماء . ومَسْرُورة ، أى محمولة على سرير ، وهم يجمعون تحتها مِرْفَعاً من عود أو حديد ، تَرْتَفِعُ به عن الأرض فهو سريرها ، وكذلك رأيتُ خوابى الماء بسجّلماسة ، كلها على أسرّة عود . وقيل مسرورة : مغمومة مغطاة ، وسرير الكمأة : ما غطاها من التراب . والغم : ضدّ السرور . جنينها : ولدها ، أراد به الماء . وحال : تغيّر . عهدها : التقاؤها وقربها . غُئِمَ : غنيم . أنيق : مُعْجِب . يزدرى : يحتقر ، وأراد بالحكم معنى تبريد الماء ، وأراد أن ما بدا منها للنّاظر فهو غشاء حين يعجب مَنْ رآه ، وهو قد بطنَ بلفائف غِلَاطٍ مستحقرة ، ولها معنى تبريد الماء ، وقال السرى الموصلى فى الزمّلة :

وحافظة ماء الحياة لفتية حياتهم أن تُسْتَلَدَّ المشارب^(١)
تسرّبُها أجفَى اللباس وإئتما يلىق بها أفوافه والسباسب^(٢)
على جسدٍ مثل الزَّبَرَجَد لم يزل يشاكله فى لونه ويناسب
إذا استودعت حرّ اللجين سبائكا تصوّب فى أحشائها وهو ذائب^(٣)

(٢) الديوان : « السباسب » .

(١) ديوانه ٦١

(٣) الديوان : « يصوب من اجسامها » .

فهذه القطعة وقطعة المقامة تدل على تفسيرنا، وبه كان يفسر شيخنا ابن جهوز رحمه الله، حدثنا بذلك شيخنا أبو بكر بن أزمهر عنه . وأما الفنجديهي ففسر المزملة بتفسير غير مرضي ، وذلك أنه قال : المزملة موضع يعضى ؛ ويحشى ثبناً ، ويوضع في وسط الثبن وعاء في القبط يُبقى الماء بارداً ، ويترك ثقبه في وسط الموضع لدخول الجرة فيها ، ولهذا قال : «مسرورة» أى مقطوعة السرّة ، وهو من مُرّ الصبي ، إذا قطعت القابلة سرّته .

* * *

ثُمَّ كَشَرَ عَنْ أُنْيَابِهِ الصُّفْرَ ، وَأَنْشَدَ مُلْمِغِزًا فِي الظَّفَرِ :

وَمَرَهُوبِ الشَّبَا نَامٍ وَمَا يَرعى وَلَا يَشْرَبُ

يُرَى فِي الْعَشْرِ دُونَ النَّحْرِ فَاسْتَمِعْ وَصْفَهُ وَانْجِبْ

* * *

كَشَرَ : كشف . أُنْيَابِهِ : أضراسه . الصُّفْرَ : يريد أنه لا يتعهدها بالسَّوَاك ، ولذلك أَصْفَرَتْ وتلك الصفرة تسمى الْقَلَح ، وقد قال في السادسة والعشرين : «بِحَسَنِ مُلْمِغِهِ وَقَبِحِ قَلَحِهِ» . مرهوب : مخوف . الشَّبَا : الحدّ . نَامٍ : زائد ، والظفر إذا تَرَكَ بغير تقليم طال . وما يَرعى ، يريد أن نمو الخلق وزيدته إنما هو بما يتغذى به من الأكل والشرب ، وهذا يكبر ويزيد من غير غذاء . والعشر في الظاهر : عشر ذى الحجة . والنحر : يوم النحر أى يوم العيد ، فأراد أن هذا المرهوب الشَّبَا إنما يظهر في العشر خاصّة ، فإذا جاء يوم العيد وطول السنة بعده لم يظهر ، وإنما يعنى بالعشر الأصابع . والنَّحْر : العنق ، أى أن الأظفار خُلِقَتْ في الأصابع لا في العنق ، أو يريد أن الظفر يرى في الأصابع العشر في عشر النحر من ذى الحجة .

* * *

ثُمَّ تَخَازَرَ تَخَازُرَ الْيَفْرِيتِ ، وَأَنْشَدَ مُلْمِغِزًا فِي طَاقَةِ الْكَيْبَرِيَّةِ :

وَمَا مَحْقُورَةٌ تُدَنِّى وَتُقْصَى وَمَا مِنْهَا إِذَا فَكَّرْتَ بُدًى

لَهَا رَأْسَانِ مُشْتَبِهَانِ جَدًّا وَكُلٌّ مِنْهُمَا لِأَخِيهِ ضِدُّ
تُعَذِّبُ إِنْ هُمَا خُضِبَا وَتُلْفَى إِذَا عَدِمَا الْخَضَابُ وَلَا تُعَدُّ

* * *

قوله : تَخَازَر ، أى نظر بمؤخر عينيه مستقلا لذلك ، وهو نظر المحتقر لمن ينظر المنكر عليه . والعفريت : الشيطان المؤذى ، وهو الرئيس من الجن ، والكبريت ، معروف فارسيّ معرّب . وطاقاته : قضبانه التى تجعل شيئا على شيء وهو الوقود الذى يشعل به المصباح . تُقْصَى : تبعد . جدّا ، أى كثيراً ، ويريد بالرأسين طرفى قضيب الوقيد اللذين ينغمسان فى الكبريت ، وجعلهما ضديّين لأن هذا فى طرف وهذا فى طرف ، فقد تباعدا وضدّ الشيء بعيد عنه ، وجعلهما متشبهين ؛ لأن شكل الطرفين وهما الرأسان شكل واحد . وخُضِبَا : غمسا فى الكبريت . وتُلْفَى : تهجر وتترك ، وقال ابن رشيق :

إِنْ كُنْتَ تَنْكُرُ مَا مِنْكَ ابْتَلَيْتُ بِهِ فَإِنَّ بُرْءَ سِقَامِي عَزَّ مُطْلَبُهُ^(١)
أَشِيرُ بَعْدِي مِنَ الْكَبْرِيتِ نَحْوِي وَانْظُرْ إِلَى زَفَرَاتِي كَيْفَ تُلْهِبُهُ

* * *

نَمَّ تَحْمَطُ تَحْمَطَ الْقَرَمِ ، وَأَنْشَدَ مُلْفِرًا فِي حَلَبِ الْكَرَمِ :

وَمَا شَيْءٌ إِذَا فَسَدَا تَحَوَّلَ غَيْثُهُ رَشَدَا
وَإِنْ هُوَ رَاقٌ أَوْ صَافَا أَثَارَ الشَّرِّ حَيْثُ بَدَا
زَكَّى الْعِرْقِ وَالِدُهُ وَلَكِنْ بَنَسَ مَا وَلَدَا

* * *

قوله : تَحْمَطُ ، أى تكبر وتهيا للقول ، وأصل التَحْمَطُ للقرم ، وهو فحل الإبل ، وتَحْمَطُ : تهيا للهدير وأخذ فى الصّياح والمجوم على الإبل . وحلب الْكَرَمِ ، أراد النحر ، لأنها تُحْلَب من العنب . والحلب : اللبن الحلو ، يقول :

المر إذا فسدت صارت خلا ، فخل استعمالها ، فقد صارغيثها وهو فسادها رشداً ،
 أى صلاحاً ، وقال أبو بكر بن القَبْطُرُنة في خمر له فسدت فصارت خلاً :
 أبا حسنِ إني فجِعتُ بصاحبِ أنيس يسلى الهمَّ عند احتلالهِ
 غدت بنتِ بسطامِ بن قيس بدنتها وأمست كجسمِ الشَّنْفَرى بَعْدَ خالهِ
 قوله : « غدت بنتِ بسطامِ بن قيس » ، أى صهباء ، لأن بسطام بن قيس يكنى
 أبا الصهباء . وقوله : « وأمست كجسمِ الشَّنْفَرى » ، أى خلاً ، لأنه يريد قول
 الشَّنْفَرى (١) :

* إن جسمى من بعد خالى خلّ *

أى مختلّ .

وقال آخر في ذلك :

حَسِبْتُهَا بنتَ بسطامٍ لها أرجُ ثم افتضضت ختاماً من أبى سلمة
 عرض بأبى سلمة الخلال .

ومن التعريض المركب على هذا المعنى قول الشاعر :

شربتُ مداماً تسرّ التريفاً فأصبحت تجرّع خلا تقيفاً (٢)
 وصرت حجازاً جديب الحللِّ وقد كنت للطلاب الخضب ريفاً
 وقال آخر :

يا عُقاراً صار خلاً وملاذاً للبعوضِ
 سِرٌّ فما لى فيك حظٌّ كان ذا قبل الجموضِ
 ما أبالى بعد أكل الزبد من طَرَحِ الخيضِ

قوله : راق أوصافاً ، أى حسنت أوصافه وحسبها أن توصف بالركة والصفاء
 والحجرة والقَدَم وقوة الفعل ، يقول : فإذا كانت أوصافه معجبة أو قد الشر حيثما

(١) اللسان — خلل ، وصدرة :

* فاستقنيها يا سواد بن عمرو *

(٢) ط : « بت » .

حضر فإذا فسدت أوصافه صلح . زكى العرق : كريم الأصل ، والزكاء : النماء
والزيادة، أى كثير الفضل والخير، وأراد أنها شجرة مباركة يكون منها العنب
والزبيب والرب ، ولكنها تلد ولد سوء ، وهو الخمر ، وأخذ هذا المعنى من
قول الشاعر :

فإن نغرتَ بآباءهم شرفٌ قلنا صدقتَ، ولكن بئس ما ولدوا
أو يريد لذة العنب .

* * *

ثمَّ اغْتَضَدَ عَصَا التَّسْيَارِ ، وَأَنْشَدَ مُلْغِزًا فِي الطَّيَّارِ :

وَذَى طَيْشَةٍ شِقُّهُ مَائِلٌ وَمَا عَابَهُ بِرِمَا عَاقِلٌ
يُرَى أَبْدًا فَوْقَ عَلِيَّةٍ كَمَا يَعْتَلِي الْمَلِكُ الْعَادِلُ
تَسَاوَى لَدَيْهِ الْحِصَا وَالنُّضَارُ وَمَا يَسْتَوِي الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ
وَأَعْجَبُ أَوْصَافِهِ إِنْ نَظَرْتَ كَمَا يَنْظُرُ الْكَيْسُ الْفَاضِلُ
تَرَاخَى الْخِصُومُ بِهِ حَاكِمًا وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ مَائِلُ

* * *

قوله : اغْتَضَدَ ، جعلها تَحْتَ عَضْدِهِ . التَّسْيَار : السَّيْر . وَالطَّيَّار : ميزان
معروف عندهم ، يرجِّحه أيسر شئ ؛ فَلِخَفَّتْهُ سُمِّيَ الطَّيَّار . وقيل : الطَّيَّار . ميزان
الدراهم المعروف عندهم بالقارسطون . الفنجديهي : الطَّيَّار : لسان الميزان .

طَيْشَةٍ خَفَةٍ . شِقُّهُ : نصفه وجانبه ، فيريد بالظاهر : وذى حق وخفة أصابه
خَدَرٌ وفالج ، فليس جنبه فسال على الجانب الصحيح ، ومع ذلك لا يُرَى أَبْدًا
إلا فى مكان مرتفع عاليًا كما يَفْعَلُ الملك ، والحجارة والذهب عنده سواء .
وَالنُّضَار : الذهب ، ثم قال : وإذا نظرت إليه نظر كَيْسٍ حاذق رأيت فى وصفه
عجبا حين كان الناس يتراضون بحكمه مع معرفتهم بأنه ناقص الخلقه ، لا يعدل فى

حكمه إنما هو مِثَال مع أحد الخصمين . والعَلِيَّة : اليد التي يمسك عليها الميزان .

[بعض الألفاظ]

وقال أبو نواس يلفز :

واسم عليه جُنَنٌ للصبا وضمّه للوصف دَوَّارُ
فضحتُ عنه سرّاً كتمانَه وكان من شأنِي إظهارُ
يُحَذَفُ أول مبتدأ لاسمه ثم يكون الوصف إضمار
فذاك عل في لعلّ وفي قولك في حارث : يا حار
فهو بحذف ذا وترخيم ذا أح لمن تلذعه النار

الاسم راحة ، يحذف أوّل حرف وآخر حرف ، ويبقى أح ، وهو من لذعته النار .

وقال آخر :

ويلي من الحبّ وويلاهُ مُلْكٌ قلبي وتناساه
مَنْ ثالث العنبر بعضُ اسمه ورابع العنبر أولاهُ
وقوله عند سؤالي له : ما في اسمه والحافظ الله ؟

الاسم رعبلان . وأنشد ابن إسحاق النحوي :

حلف الحبيب عليّ لاسميته فكثّنته وأطعتُ خوف تفاضيه
ظلي إذا ما زارني حلّ اسمه قلبي وذاك من عجيب عجائبه
ويكون إن رخته وجزمته وقلبه ما تشتهي من صاحبه
ويكون بعد الجزم إن فكرت في التّصّحيف مقلوباً أشدّ معاييه

الاسم فرجة . وأشدّ معايبه فرج ، وهو ما يشتهى من صاحبه ، إذا
حذفت الهاء .

وقال ابن شرف :

ما آكلٌ يعطى على أكلةٍ إعطاءً إقلالٍ وإكثار^(١)
لُقمته قيمتها وحدها من غير خلفٍ ألفُ دينار
هو فرج المرأة .
وله في المرأة :

ما يقول الشيخ في شيء تراه ويراك^(٢)
ثم لا تلقاه إلا حين لا يلتقي سواكا
وله أيضاً في الإبرة :

ضئيلة الجسم لها فعل متين السبب^(٣)
حافرها في رأسها وعينها في الذنب
ولغيره في الميزان :

وقاضٍ قد قضى في الأرض عدلٌ له كفتٌ وليس له بئانٌ
رأيتُ الناسَ قد قبلوا قضاؤه ولا نطقٌ لديه ولا بيانٌ
وقال العلويّ الأصهباني بلغز في النسر الواقع :

وركب ثلاث كالأنافي تعاوروا دُجَا الليل حتى أومضت سنة الفجر
إذا اجتمعوا سميتهم باسم واحدٍ وإن فرقوا لم يُعرفوا آخر الدهر

(١) يظله في التنف ١٠١

(٢) التنف ١٠٦

(٣) التنف ٩٢

وأنشد الحاتمي في الخفاش وهو طائر الليل :

أَرَى عُلَمَاءَ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَنِي وَقَدْ ذَهَبُوا لِلْعِلْمِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ
يَجْلِدُ إِنْسَانَ وَصُورَةَ طَائِرٍ وَأُظْفَارُ يَرْبُوعٍ وَأَنْيَابُ ثَعْلَبٍ
وأنشد في الطائر وظله :

عَجِبْتُ لَطَائِرٍ فِي الْحُومِ طَارَا وَكَانَا وَاحِدًا فَانْتَبِهَ صَارَا
فَهَذَا طَائِرٌ فِي الْجَوِّ يَهْوِي وَذَا مُسْتَأْنَسٌ لَزِمَ الْقَرَارَا
وأنشدوا في مصراع الباب :

عَجِبْتُ لِحُرُومَيْنِ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بَيْنَتَانِ طَوَلَ اللَّيْلُ يَفْتَقِنَانِ
إِذَا أُمْسِيَا كَانَا عَلَى النَّاسِ مَرَصِدًا وَعِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَفْتَرِقَانِ
وأنشدوا :

فَمَا مَيِّتَ أَحْيَا بِهِ اللَّهُ مَيِّتًا لِيُخْبِرَ قَوْمًا أَنْذَرُوا بَيَانِ
وَعَجْفَاءٌ قَدْ قَامَتْ لَتُنْذِرَ قَوْمَهَا وَأَهْلُ قُرَاهَا رَهْبَةُ الْخَدَانِ
الميت الأول بقرة بنى إسرائيل ، والميت الثاني الذي ضرب ببعضها .
والعجفاء نملة سليمان عليه السلام .

والألفاز أكثر من أن يأتي عليها الحصر .

* * *

قال : فَظَلَّتِ الْأَفْكَارُ تَهِيمٌ فِي أَوْدِيَةِ الْأَوْهَامِ ، وَتَجُولُ جَوْلَانِ
الْمُسْتَهَامِ ، إِلَى أَنْ طَالَ الْأَمَدُ ، وَحَصَّصَ الْكَمَدُ . فَلَمَّا رَأَوْهُمْ يَرْيَدُونَ
وَلَا سَنًا ، وَيَقْضُونَ النَّهَارَ بِالْمُنَى ، قَالَ : يَا قَوْمُ ؛ إِلَامَ تَنْظُرُونَ ،
وَحَتَّامَ تَنْظُرُونَ ! أَلَمْ يَأْنِ لَكُمْ اسْتِخْرَاجُ الْخَلْبِ ، أَوْ اسْتِسْلَامُ الْغَيْبِ !
فَقَالُوا : تَاللَّهِ لَقَدْ أَعْوَضْتَ ، وَلَنْصَبْتَ الشَّرْكَ فَقَنْصْتَ ؛ فَتَحَكَّمْ كَيْفَ

شيت ، وحُزِرَ النُّعْمَ والصَّيِّت ، فَفَرَضَ عَنْ كُلِّ مَعْنَى فَرَضًا ، وَاسْتَخْلَصَهُ مِنْهُ نَضًّا . ثُمَّ فَتَحَ الْأَفْئَالَ ، وَوَسَمَ الْأَغْفَالَ ، وَحَاوَلَ الْإِجْفَالَ . فَاعْتَلَقَ مِدْرَهُ الْقَوْمَ ، وَقَالَ لَهُ : لَا لُبْسَةَ بَعْدَ الْيَوْمِ . فَاسْتَنْسَبَ قَبْلَ الْإِنْطِلَاقِ ؛ وَهَبَهَا مُتَعَةً الْمَطْلَاقَ ، فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ مُرِيبٍ ، ثُمَّ أَنْشَدَ وَالذَّمْعُ مُجِيبُ .

* * *

قوله : تهيم أى تتحير والهائم : الذى يركبُ رأسه ويمشى على غير هداية .
الأوهام : جمع وَهْم وهو ما تنوهمه وتتصوره فى نظر مسألة مشكلة ، إما خطأ وإما صواباً ، وأراد أن أفكارهم كانت تتحير فى نظر أَلغازه ولا تهتدى . تَجُولُ : تتصرف . المُستَهَام : العاشق الذى ذهب به الحبُّ كلَّ مذهب . حصحص : تبين .
الكمد : الحزن والهم . يَزْنِدُونَ وَلَا سَنًا : يقدحون الزَّند ، ولا يظهر لهم ضوء ، أى تضرب أذهانهم الألفاظ ، فترجع بلا فهم . ويقضون : يقطعون يومهم بأماني لا محصول لها .

[من أقوالهم فى الأمانى]

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إِيَّاكَ وَالْمَنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى ، وَتَثْبِطُ عَنِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، وَأَشْرَفَ الْغِنَى تَرَكَ الْمُنَى .

على بن عبيدة الزنجاني : الأمانى مخايل الجهل .

وقال غيره : الأمانى تخدعك وعند الحقائق تدعك .

وفى ضده : أفلاطون : التمنى حلم المستيقظ وسلوة المحروم .

غيره : الأمل رفيق مؤنس إن لم يبلِّغك فقد أهلك .

قيل لأعرابي : ما أمتع لذات الدنيا ؟ قال : بمازحة الحبيب ، ومحادثة

الصديق ، وأمانى تقطع بها أيامك . وأنشد الثعالبي :

ولا تكن عبدَ المنى فالمنى رموس أموالِ الفاليسِ

وقال مسلم بن الوليد :

وأكثر أفعال الغواني إساءة وأكثر ما تلقى الأمانى كواذبا^(١)
وأنشد أبو تمام في ضده :

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمَنَى وَإِلَّا فَقَدْ عَشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغْدَا
أَمَانِيٍّ مِنْ كَيْلِي حِسَانًا كَأَنَّمَا سَقَتْنِي بِهَا لَيْلَى عَلَى ظُمَأٍ بَرْدَا
ابن المعتز يصف ساقياً :

فَظَلَّ يُنَاجِيَنِي بِقَلْبٍ طَرَفَهُ بِأَطْيَبَ مِنْ نَجْوَى الْأَمَانِيِّ وَالْأُطْفَا
غيره :

عَلَّيْنِي بِمَوْعِدٍ وَامْطُلِي مَا حِيدَتْ بِهِ
وَدَعِينِي أَفْوَزٍ مِنْكَ بِنَجْوَى تَطْلُبِي
فَعَسَى يَقُتِّرُ الزَّوْمَا نَ بِمُخْطَى فَيَنْتَبِهَ

قوله : تُنْظَرُونَ ، أى تَوَخَّرُونَ . يَأْنِ : يَحْنُ وَيَقْرُبُ . الْخَبِيٍّ ، أى الخجوة
المستور ، يريد ما خَبَأَ لَهُمْ فِي الشَّعْرِ مِنَ اللَّغْزِ . اسْتِسْلَام : انْقِيَاد . الْغَبِيِّ ، أى
الجاهل بالشئ . أَغْوَصْتُ : أَتَيْتُ بَعْوِيصَ وَهُوَ الصَّعْبُ . الشَّرْكُ : آلَةٌ يُصَادُ
بِهَا . قَنَصْتُ : صِدْتُ . الْغُنْمُ : الْغَنِيمَةُ وَالْجَائِزَةُ . الصَّيْتُ : الذِّكْرُ الْحَسَنُ .
يُنْشَرُ فِي النَّاسِ وَيَشِيعُ . فَرَضَ : قَسَطَ . وَأَوْجَبَ : وَأَلْزَمَ . وَالْفَرَضُ : الْعَطِيَّةُ .
وَأَسْتَخْلَصَهُ : جَعَلَهُ خَالِصًا . نَصًّا : حَاضِرًا . فَتَحَ الْأَقْفَالَ ، أى حَلَّ أَلْفَاظَ الْأَلْفَاظِ
وَالْبَاسِهَا وَكَأَنَّهَا لِتَعْمِيَّتِهَا كَأَنَّ عَلَيْهَا أَقْفَالًا ، فَحَلَّهَا بِتَفْسِيرِ . وَالْأَغْفَالُ : جَمْعُ
غُفْلٍ ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْمُهْمَلُ لَيْسَ لَهُ عَلَامَةٌ يَعْرِفُ بِهَا . وَسَمَّيَاهَا : جَعَلَ لَهَا عَلَامَةً .
حَاوَلَ الْإِجْفَالَ ، أَرَادَ الْفِرَارَ ، وَأَجْفَلَ الْقَوْمَ : انْهَزَمُوا . وَمِدَّرَهُ الْقَوْمَ : لَسَانَهُمْ
وَفَصِيحَهُمُ الْمُتَكَلِّمَ عَنْهُمْ ، وَأَصْلُ الْمُدْرَةِ الْمِدْفَاعُ ، وَقَدْ دَرَّهَتْهُ ، إِذَا دَفَعَتْهُ : لُبْسَةُ :
شَبْهَةٌ ، وَقَدْ التَّبَسَّ الْأَمْرُ إِذَا أَشْكَلَ ، وَمُتَمِّعَةُ الطَّلَاقِ ، أَنْ يَهْبِ الرِّجْلُ لِأَمْرَاتِهِ

شيئاً من ماله إذا طلقها يسألها بذلك عن فراقه لها ، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أكثر المتعة خادم ، وأقلها ثلاثون درهماً ، وقيل : أكثرها خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثمن . وهبها : أحسبها ، يقول : احسب انتسابك لنا متعةً وتسليّة لفراقك عنا . أطرق : أمال رأسه وسكت . مُريب : صاحب ريبة . والدّمع مجيب ، يريد أن إنشاده دعا دمه فأجابه وقد قال أبو الطيب :

* أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلٍ ^(١) *

يريد أنه لما وقف على الطلل وهو أثرُ دارِ أجابه هيجه لم فبكي ، فالطلا لما دعاه للتذكّر أجابه بدموعه .

* * *

سَرُوجٌ مَطْلَعُ شَمْسِي	وَرَبْعٌ لَهْوِي وَأُنْسِي
لَكِنْ حُرِمْتُ نَعِيمِي	بِهَا وَلَذَّةَ نَفْسِي
وَاعْتَظْتُ عَنْهَا اغْتِرَابًا	أَمَرَّ يَوْمِي وَأَمْسِي
مَالِي مَقَرٌّ بِأَرْضِي	وَلَا قَرَارٌ لِعَنْسِي
يَوْمًا يَنْجِدُ وَيَوْمًا	بِالشَّأْمِ أَضْحِي وَأُمْسِي
أَزْجِي الزَّمَانَ بِقَوْتِ	مُنْغَصٍّ مُسْتَحْسٍ
وَلَا أَيْتُ وَعِنْدِي	فَلَسٌ ، وَمَنْ لِي بِفَلَسٍ !
وَمَنْ يَعْشُ مِثْلَ عَيْشِي	بَاعَ الْحَيَاةَ بِبَحْسٍ

ثمَّ إِنَّهُ اخْتَبَنَ خُلَاصَةَ النَّصِّ ، وَنَدَرَ ضَارِبًا فِي الْأَرْضِ ، فَنَاشَدَنَاهُ أَنْ يَعُودَ ، وَأَسْتَنِينَا لَهُ الْوَعْدُ ؛ فَلَا وَأَيُّكَ مَا رَجَعَ ، وَلَا التَّرْغِيبُ لَهُ تَجَمُّعٌ .

* * *

(١) ديوانه ٤ : ٧٤ ، وبقينه

* دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالْإِبِلِ *

قوله : مَطْلَع شَمْسِي ، يريد أن مَرُوج هي بلدة التي نشأ فيها . ربع : منزل .
 اعْتَصَتْ : استبدلت . أمرٌ : جَعَلَهُ مُرًّا . مَقَرٌّ : إقامة . قرار : سكون وإقامة
 عَنَسَى : ناقى الوثيقة . نَجَدَ : ما ارتفع من الأرض ، وأُنْجَدَ : أتى نجدا . والشَّامُ :
 أَخَذَ من اليد الشَّوْمِي . أَرْجَى : أسوق . مَنْقَصٌ : مكْدَّر ، ويقال : نَقَصَ علينا
 فلان ، أى قطع علينا ما كنا نَحْبُ الاستكثار منه ، وكلَّ مَنْ قَطَعَ شَيْئًا يَحِبُّ
 الزيادة منه فهو مَنْقَصٌ . مُسْتَخَسٌ : مستهجن . بَخْسٌ : نقصان .

اخْتَبَنَ : جعله في خُبْنَتِهِ : وهو طرف ثوبه ، والخُبْنَةُ كالْحُجْزَةِ للإضرار ،
 والتخلصة : ما خلص له منه وصفا . ونذر : سبق ، وذهب يضرب في الأرض
 إذا سار فيها ، وأصل نَذَرَ ، خرج وطار ، مثل النّوأة إذا طارت من تحت المَرَضِخ
 وشبهها . فناشدناه : حلفناه . يعود : يرجع . أَسْتَيْنَا : عَظَّمْنَا وجعلناها سَنِيَّةً
 أى رفيعة . والوعود : جمع وَعْدٍ ، وهو ما وعدوه به من المال . الترغيب :
 التطميع ، وقد رَغَّبْتُهُ في الشيء إذا زَيَّنْتُهُ له وطَمَعْتُهُ فيه . ونَجِعَ : نفع ، وقد نَجَعَ
 عليه الطاهام ، إذا أصْلَحَ عليه جسمه .

المقامة الثالثة والأربعون وهي البكرية

حكى الحارث بن همام قال : هَفَا بِي الْبَيْنُ الْمُطَوِّحُ ، وَالسَّيْرُ
 الْمَبْرُحُ ، إِلَى أَرْضٍ يَضِلُّ بِهَا الْخَرِيتُ ، وَتَفَرَّقُ فِيهَا الْمَصَالِيتُ ،
 فَوَجَدْتُ مَا يَجِدُ الْحَازِرُ الْوَحِيدُ ، وَرَأَيْتُ مَا كُنْتُ مِنْهُ أَحْيَدُ ؛ إِلَّا أَنِّي
 شَجَعْتُ قَلْبِي الْمَزْمُودَ ، وَنَسَأْتُ نِضْوَى الْمَجْهُودِ ، وَسِرْتُ سَيْرَ
 الضَّارِبِ بِقَدْحَيْنِ ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلْحَيْنِ ؛ وَلَمْ أَزَلْ بَيْنَ وَخْدٍ وَذَمِيلِ ،
 وَإِجَازَةٍ مِيلٍ بَعْدَ مِيلٍ ؛ إِلَى أَنْ كَادَتْ الشَّمْسُ تَجِبُ ، وَالضِّيَاءُ يَحْتَجِبُ .
 فَارْتَعْتُ لِإِظْلَالِ الظَّلَامِ ، وَاقْتِحَامِ جَيْشِ حَامِ ، وَلَمْ أَدْرِ أَا كِفْتُ
 الذَّلِيلَ وَأَرْتَبِطُ ، أَمْ أَغْتَمِدَ اللَّيْلَ وَأَخْتَبِطُ !

* * *

هفا ، أى طار وخَفَ . المطوِّح : المُنْبَعِدُ المُسْفِي عَلَى الْهَلَاكِ ، وَقَدْ طَوَّحْتُ
 الشَّيْءَ ، إِذَا رَمَيْتَ بِهِ وَأَلْقَيْتَهُ إِتْقَاءَ مَنْكَرٍ . الْمَبْرُحُ : الشَّاقُّ الْمَتْعَبُ ، وَقَدْ بَرَّحَ
 الْأَمْرُ ، إِذَا عَظُمَ وَاشْتَدَّ . يَضِلُّ : يَتَحَيَّرُ وَيَتَلَفَّ . الْخَرِيتُ : الدَّلِيلُ ، وَقِيلَ :
 هُوَ مَنْ خَرَّتْ الْإِبْرَةُ كَأَنَّهُ مِنْ حَسَنِ دَلَالَتِهِ يَهْتَدِي عَلَى مِثَالِ خَرْتِ الْإِبْرَةِ
 وَهُوَ مُتَقَبِّهَا . تَفَرَّقَ : تَفَرَّعَ . الْمَصَالِيتُ : الشَّجَعَانِ الْمَاضُونَ فِي الْحُرُوبِ ، وَاحِدُهُمْ
 مِصْلَاتٌ ، قَالَ الْفَرَّاءُ : الْمُنْصَلَّتُ : الْمُسْرِعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَجَمْعُهُ مَصَالَتْ
 وَمَصَالِيتُ . أَحْيَدُ : أَخَافُ وَأَمِيلُ عَنْهُ . الْمَزْمُودُ : الْمَفْرَعُ ، وَزَيْدُ الرَّجُلِ : فَرْعُ .
 نَسَأْتُ : ضَرَبْتُ بِالْمِنْسَاءِ ، وَهِيَ الْعَصَا . نِضْوَى : بَعِيرَى . الْمَجْهُودُ : الْمَتْعَبُ .
 قَدْحَيْنِ : سَهْمَيْنِ .

[الميسر والقداح]

وكان الرجل في الجاهلية يُمسك ثلاثة أقداح ، على أحدها مكتوب :
« أمرنى ربى » ، وعلى الثانى « نهانى ربى » ، والثالث غُفْل لا شىء عليه
وهو الكنيح ، فإذا أراد سَفْراً أو أمراً ضرب بها ، فإن خرج له « أمرنى ربى »
مضى آمناً ، وإن خرج له « نهانى ربى » ترك ذلك الأمر وإن خرج له غُفْل
أعاد الضرب .

وقيل : كان يمسك قدحين مكتوب على أحدهما « افعل » وعلى الثانى
« لا تفعل » ، فإن خرج « افعل » مضى ، وإن خرج « لا تفعل » ترك .

وقيل : كان لا يمضى حتى يخرج له « افعل » ثلاث مرات ، ولا يترك المضى
حتى يخرج له « لا تفعل » ثلاث مرات ، فإن خرج له مرة « افعل » ومرة
« لا تفعل » ولم يخلص له أحدهما ، فإن مضى فى ذلك الأمر مضى وهو يرجو
وينجى ، وهذا هو الذى أراد الحريرى لأنه كان بين الرجاء والخوف .

ولما قُتِلَ حجر أبو امرئ القيس ، أخذ امرؤ القيس أزالاً موهى القِدَاح ،
وأتى ذا الخلصة - وهو صنم لدونس وخنعم وبجيلة - فاستقسم عندها بالأزلام فخرج
له القِدَح الذى يكره ، فأخذ الأزلام وكسرها وضرب بها وجه صنمها ، وقال :

لو كنتَ إذا اخلَّصَ الموثوراً^(١)

مئلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتلِ العداة زوراً

وحكى الفجديهي ، قال : الضارب بقَدَحَيْنِ ، يعنى به قول الناس :
إِما العُثم ، وإما العُرم ، وإما المُلْك وإما المُلْك قال الشاعر :

ضربتُ بها البيتَ ضَرْبَ القِدَا ح إما لهذا وإماً لهذا^(١)
والقِدْح : السهم قبل أن يُراش ويركَّب نَصْلُهُ .

وحكى ابن ظَفَر أن الأزلام سبعة قِدَاح ، مكتوب على أحدها « نعم »
وعلى الآخر « لا » وعلى قِدْح « منكم » وعلى قِدْح « من غيركم » وعلى قِدْح
« مُلْصَق » وعلى قِدْح « العقل » ، وعلى قِدْح « فضل العقل » . وكانت بيد
سادن الأصنام ، فيأتيه ذو الحاجة بدراهم ، فيسأل الصنم أن يوضح له ما سأل عنه ،
ثم يضرب بالقِدَاح ، فإن أتى سائل عن تزويج أو سفر أو شبه ذلك مما يستشار
في مثله ضَرْب له بالقِدْحين اللذين عليهما نعم ولا ، فإن خرج « نعم » مضى
على فعله وإن خرج « لا » ترك ذلك . فإن انتسب رجل إلى قبيلة ضرب له
بالأقداح الثلاثة التي فيها « منكم » « من غيركم » « ملصق » فإن خرج
« منكم » أضافوا نسبه إلى أنفسهم ، وإن خرج « من غيركم » كان حليفاً
وإن خرج « ملصق » لم يكن له حلف ولا نسب . فإن أتى سائل عن قتيل أو
جناية ضرب بالقِدْحين اللذين عليهما العقل ، فإن خرج على قوم « العقل » برىء
منه الآخرون ، وإن عتلوا ففُضِّل شيء ، فإن اختلفوا فيه ضرب بالقِدْح الذي
عليه فضل العقل ، فإن خرج عليه أداه .

ومعنى الاستقسام بها الرضا بالقسمة بينهم من الأمر والنهي والبراءة
والوجوب .

وسهام الميسر عشرة : ثلاثة يُتسكَّرُ بها لا أنصباء لها ، وسبعة لها أنصباء ،
فأولها القَدَّ ، وفيه فُرْضة واحدة وله نصيب واحد ، والثاني التوم وفيه فُرْستان
وله نصيبان ، ثم الرقيب وفيه ثلاث فُرُض ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم الحِلْس بأربع ،
والنافس بخمس ، والمسبل بست ، والمعلّى ، وهو أعلاها بسبع فُرُض وعلى عدد
الفُرُض هي الأنصباء . وقال ابنُ بُنَال لُجْمَعُها في بيت :

(١) انظر الميسر والقَدَاح ٥٦ ، ٥٧ .

فَدُتُّ وتوهم والرقيب ونافسٌ والجلس ثُمَّتْ مُسْبِلٌ ثم المعسلُ
واسم الثلاثة أَلَّتِي يُتَكَثَّرُ بِهَا : الفسيح والمُنِيح والوغد ؛ فإذا أرادوا
الضَرْبَ بِهَا طلبوا أَوَّلَ رَجُلٍ يَلْقَوْنَهُ ، فشدُّوا عَيْنِيهِ ، ويسْمُونَهُ الخُرْصَةَ ،
وأقاموا له الرقيب وضَرْبَ ، فكلَّمَا خَرَجَ لَهُ قِدْحٌ دفعه إلى الرقيب ، والرقيب
هو الأمين على الضَرْبِ بالقِداح ، قال الشاعر :

لَهَا خَلْفٌ أَذْنَابُهَا أَزْمَلُ مَكَانُ الرَّقِيبِ مِنَ الْيَاسِرِ

وكان أهلُ اليَسَارِ والجود من الجاهليَّةِ عند شدَّةِ الزمان ، يَنْحَرُونَ
الْجُزُورَ وَيَقْتَسِمُونَهَا وَيَضْرِبُونَ عَلَيْهَا بِالْقِدَاحِ ، فَنَ قَرَّ (١) جَعَلَ نَصِيْبَهُ لِأَهْلِ
الْمَيْسَرِ ، والقمار يُكْنَى عَنْهُ بِالْمَيْسَرِ ، وأصلُ الْمَيْسَرِ مَوْضِعٌ تُنْحَرُ بِهِ الْجُزُورُ ،
وَالْيَاسِرُ : الْجَازِرُ ، وتقسِمُ الْجُزُورَ عَشْرَةَ أَجْزَاءَ : الْعَضْدَانِ فِي الْكَتِفَيْنِ جُزْأَنَ ،
وَمَا ابْنَا مِلَاطَ ، وَالْعَجْزُ وَالزَّوْرُ جُزْأَنَ ، وَالكَاهِلُ وَاللِّحَاءُ عَلَيْهِمَا الْجَنْبُ
بِنِصْفَيْنِ جُزْأَنَ ، وَالْوَرِكُ كَانَ عَلَيْهِمَا الذَّرَاعَانِ جُزْأَنَ ، وَالْفَخِذَانِ عَلَيْهِمَا الْعُنُقُ
مَقْسُومَا جُزْأَنَ . وَبَقِيَ جَنْبٌ ، وَهُمْ يَسْتَنْوْنَهُ وَقَدْ لَا يَسْتَنْوْنَهُ ، فَيَرُدُّ مِنْهُ عَلَى
جُزْءِ الْكَاهِلِ ضِلَعَانِ وَعَلَى سَائِرِهَا ضِلَعٌ ضَلَعٌ ، فَإِنْ فَضَلَتْ قِطْعَةٌ أَوْ عَظْمٌ
سَمَّيَ الزَّيْمَ ، قال الشاعر :

وَكُنْتُ كَعَظْمِ الزَّيْمِ لَمْ يَدِرْ جَازِرٌ عَلَى أَيْ أَدْنَى مَقْسِمِ اللَّحْمِ يَجْعَلُ

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِي الْمَيْسَرِ : إِنَّهُ شَيْءٌ كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ ، فَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنْهُ
حَقِيقَةٌ .

قوله : الْمُسْتَسْلِمُ لِلْحَيِّنِ ، أَيْ الْمُنْقَادُ لِلْهَلَاكِ . الْوَحْدُ : نَوْعٌ مِنَ السَّيْرِ وَهُوَ أَنْ
تَرْجُمَ الْأَرْضَ بِقُوَّائِمِهَا لِسُرْعَةِ سَيْرِهَا . وَالذَّمِيلُ : سَيْرَتَيْنِ . تَجِبُ : تَسْقُطُ لِلْغَيْبِ .

ارتعت : فزعت . لإظلال : لقرب ودنو . اقتحام : دخول الشيء على غرر .
وحام ، هو ابن نوح وقد تقدّم في الحادية والعشرين ، وأراد بجيش حام ظلام الليل ،
لأنّ حاماً أبو السودان ، أكفّت : أقبضه وأشمره . أرتبط : أربط بعيرى .
أعتمد : أقصد : أختبط : أمشى على غير هداية ، وأراد أنه لا يدرى ما يفعل ،
أينزل ويبيت ، أم يسير في الليل على غرر .

وَيْنَمَا أَنَا أَقْلَبُ الْعَزَمَ ، وَأَمْتَحِضُ الْحَزَمَ ، تَرَأَى لِي شَبَحُ جَلِ ،
مُسْتَذِرٍ بِجَبَلٍ ، فَتَرْجِيئُهُ قُعْدَةُ مُرِيحٍ ، وَقَصْدَتُهُ قَصْدَ مُشِيحٍ ؛ فَإِذَا
الظَّنُّ كَهَانَةً ، وَالْقُعْدَةُ عَيْرَانَةً ، وَالْمُرِيحُ قَدِازْدَمَلٍ بِبِجَادِهِ ، وَاكْتَحَلَ
بِرُقَادِهِ ، جَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ ؛ حَتَّى هَبَّ مِنْ نِعَاسِهِ ؛ فَلَمَّا ازْدَهَرَ
سِرَاجَاهُ ، وَأَحَسَّ بِمَنْ فَاجَاهُ ، نَفَرَ كَمَا يَنْفِرُ الثَّرِيبُ . وَقَالَ : أَخُوكَ
أُمُ الذِّيبِ ! فَقُلْتُ : بَلَى خَابِطُ لَيْلٍ ضَلَّ الْمَسْلَكَ ، فَأَضِئْ لِي أَقْدَحَ لَكَ .
فَقَالَ : لَيْسَرُ عَنْكَ هُمُوكَ ، قَرُبْ أَخِي لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ . فَانْسَرَى عِنْدَ
ذَلِكَ إِشْفَاقِي ، وَسَرَى الْوَسْنُ إِلَى آمَاقِي ، فَقَالَ : عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ
الْقَوْمُ الثَّرَى ، فَهَلْ تَرَى كَمَا أَرَى !

العزم والحزم : اجتماع رأى الرجل على ما يريد أن يفعله فلا يتردد فيه .
أمتحض : أحرّك وأحلب ، وأراد أنه أخذ يحدث نفسه ويُدبّر رأيه : هل
يسرى أو يقعد . تراءى ، أى ظهر . مستذِر : مستعلٍ ، والذروة أعلى الشيء ،
أراد أنه ظهر له شبح جبل ، أى شخصه في أعلى جبل . قُعْدَةُ : بعير يقعد عليه
عند الركوب . مريح : مستريح ، قد نزل يريح نفسه وبعيره . مشيح : مُجِدِّ .
والقُعْدَةُ : المركوب . والعيرانة : الناقة الصلبة تشبّه بالعتير ، وهو حمار الوحش .
(م ٦ - شرح مقامات الحريري - ج ٥)

وازْدَمَل : التَفَّ . بيجاده : بكائه . هَبْ : انقبه . ازدهر : انفتح وأضاء .
 سراجاه : عيناه . فأجاه : أتاه على غفلة . المريب : الذى أتى ريبة . أخوك
 أم الذيب^(١) ، مثل ، كأنه خاطب نفسه ، فقال : أخوك هو الذى رأيت أتى
 لمؤانستك أم ذئب لإذابتك ، وتضمن الكلام أن الاستفهام وقع بالذى رآه ،
 فكأنه قال له : يا هذا ، أأخ أنت أم صاحب فأركن إليك أم عدو فأحذرُك ؟
 فأجابه بأن قال له : بل خابط ليل ، أى ماشٍ فيه على جهالة . ضلّ المسلك :
 أخطأ الطريق . أضىء لى : اكشف لى عن حاله . أقدح لك : أكشف لك
 عن حالى ، وهذا أيضاً ممثّل ، وفى هذا التباس ؛ لأنه إذا أضاء له ، أى أعطاه
 ضوءه أو أظهره له ، فأى حاجة له فى القدح ، وهو الضرب بالزند ليخرج ناره ،
 وإنما معناه أن رجلاً كان طلب لآخر ضوءاً مثل فتيل يوقده ، فتخيّل من
 صاحبه أنه لا يعطيه ، فقال له : أضىء لى ، أى أعطنى ضوءاً فليس عليك فيه
 تكلف فإنك أن أتيته فى مثلها فلم تجد لى ضوءاً قدحت لك زندي ، وتكلف لك
 ذلك ، ثم استعمل فيمن يطالعك على أمره فتطلعه من أمره على ما هو أفيد
 ممّا أطلعك عليه ، فعنه أطلعنى على ظاهر أمره أطلعك على باطن أمرى .
 ويروى : « أكدح لك » قال أبو زيد : إذا طلب الرجل إلى الرجل حاجة
 فلم يعرف وجهها ، قال : أضىء لى أكدح لك ، أى بين لى فأكدح لك ، أى
 أسعى لك ، وكدح لمعيشته : سعى واكتسب ، وأضىء : أسرج .

الفنجديهى : أضىء لى أكدح لك ، مثل يضرب فى المساواة بالأفعال ،
 والمعنى : كن لى أكن لك ، واسع لى أسع لك ، والمراد به كُنْ لى أكثر مما أكون
 لك لأن الإضاءة أكثر نفعاً من القدح ، ويقال : معناه : تولّ الأمر المين أتولّ
 الأمر الصعب . لَيْسَرُ : لَيْزُلٌ وليذهب . سَرى عِرْقُ الشجرة يسرى : دبّ
 تحت الأرض ، وسرى يسرى سار .

(١) الميدانى ١ : ٥٠ ، قال فى شرحه : أى هذا الذى تراه أخوك أم الذئب ، يعنى
 فن أخاك الذى تخافه مثل الذئب فلا تأمنه ، يضرب فى موضع النبوى والشك .

[أصل المثل : رب أخ لم تلده أمك]

رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ ، معناه قد وجدت منى صديقاً يقوم لك مقام شقيقك ، وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأى امرأته قد خلا بها رجلاً وهي تلاعبه وبلاعبها ، ومعها صبيٌ صغير يبكي ، وهما قد أقبلتا على شأنهما لا يكثر ثمان به ، فسألها عن الرجل ، فقالت : هو أخى ، فقال رب أخ لك لم تلده ^(١) أمك ، يكذبها فى قصدها أى هو أخوك بالحبة والصدقة لا بالولادة . وقال فى الدرة : حكى ابن نصر ^(٢) الكاتب أن أبا العباس ابن ياسر ^(٣) دخل عليه ، رجل نصرانى ومعه فتى من أهل ملته حسن الوجه ، فقال له : مَنْ هذا الفتى ؟ فقال له : بعض أخوانى ، فأنشد أبو العباس :

دعنى أخاها أمٌ عمرو ولم أكن أخاها ولم أرضع لها بلبان
دعنى أخاها بعد ما كان بيننا من الأمر ما لا يصنع الأخوان
وقالوا فى هذا المعنى : رب بعيد أقرب من قريب ، وقالوا : القريب مَنْ قَرَّبَ نفعه ، وقال أبو تمام :

ولقد سبَّرت الناس ثم خبرتهم وبلوت ما وصفوا من الأسباب ^(٤)
فإذا القربة لا تقرب قاطعاً وإذا المودة أقرب الأنساب
وقال ابن ميادة :

وإني لزوار من لا يزورنى إذا لم يكن فى وده بهرب
تقرب لى دار الحبيب وإن تأت وما دار من أبغضته بقرب
فلا تطابن القرب والبعد بعدها إلى غير نياتٍ وغير قلوب

(١) الميدانى ١ : ٢٩ ، ٣١

(٢) درة الغواص : « فى كلب المغاوضة » .

(٣) درة الغواص : « أبو العباس بن ماسرجس » .

(٤) المعقد لابن عبد ربه ٢ : ٣١٤ ونسبها الى أبى تمام وفى ٢ : ٣٢٨ من غير نسبة ■

وقال آخر :

أخوثة يُسرّ ببعض شأني وإن لم تُدني منّي قرابة^(١)
أحبّ إليّ من ألفي قريب بنات قلوبهم لي مُستراية

وقال ابن هرمة :

هشّ إذا وقف الوفودُ ببابه سهل الحجاب مؤدّب الخدام^(٢)
فإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدرك أيّهما أخو الأرحام

انسرى : زال وذهب ، وسرّوتُ الثوب عني إذا جردته . إشفاقى :
خوفى . سرّى الوسن : أقبل النوم . آماقى : آخر عيني ، والموقُ طرفُ العين من
جهة الأنف .

[أصل المثل : عند الصباح يحمد القوم السرى]

قوله : عند الصباح يحمد القوم السرى مثل ؛ ومعناه إذا سرى القوم بالليل .
قطعوا أرضاً كثيرة والأرض تُطوى بالليل لمن يمشيها فإذا أصبحوا حمدوا سيرهم .

وهذا المثل ييت من رجزٍ وقع في شعر الشماخ ، وذلك أنه سافر في قوم
من بني ثعلبة ، فمشوا حتى إذا كانوا قريباً من قنماء ، قال الشماخ لابن أخيه :
انزل فاحدّ بنا ، فنزل فحدّاهم ثم نزل القوم للحداء واحداً بعد واحدٍ ، فوقعت
أرجيزهم في ديوان الشماخ ، فنُسبت إليه ، وأول الرجز :

(١) العقد ٢ : ٣١٤ من غير نسبة .

(٢) ديوان الحماسة — بشرح المرزوقي ٢ : ٨٠٨ ونسبهما إلى محمد بن بشير الخارجي .

ونكر قبلهما :

نعم الفتى فجّعت به إخوانه يومَ البقيع حوادث الأيام

والإبيات أيضاً في العقد ٢ : ٣١٥ مع اختلاف في الرواية .

طَافَ حَيَالٌ مِنْ سُلَيْمَى فَأَعْتَرَى^(١)
 بنجدٍ أو تيماء أو وادي القرى^(٢)
 فَمَنَعَ النّوْمَ وَمَنَى بِالْمَنَى

وفي آخره :

عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرَى
 وَتَنْجِلِي عَنْهُمْ غَيَابَاتُ الْكَرَى

قال المفضل الضبي : أول مَنْ قال ذلك خالد بن الوليد ، لما بحث إليه أبو بكر رضى الله عنه وهو باليمامة أن ينزل إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائي : قد سلكتها في الجاهليّة ، وهى خمسٌ للإبل الواردة ، وما أظنك تقدر عليها إلا أن تحمّل من الماء ، فاشتري مائة شارب^(٣) فمطّسها ثم سقاها الماء حتى إذا مضى يومان خاف العطش على الناس والخيّل ، وخشى أن يذهب ما فى بطون الإبل ، ونحرها ، واستخرج ما فى بطونها . فسقى الناس والخيّل ومضى ، فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظروا ، هل ترون سدرًا عظيمًا ؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوها فأخبروه فكبروا وكبر الناس ثم هجموا على الماء فقال خالد :

(١) ديوانه ٢٧٧ — ٢٨٤ وبعد هذا البيت كما فى الديوان :

حَنَنْتُ وَقَالَتْ بِدُنْهَا حَتَّى مَتَى

تُبَشِّرِي بِالرِّفَةِ وَالْمَاءِ الرَّوَى

(٢) رواية الديوان :

بَجَرٍ أَوْ تَيْمَاءٍ أَوْ وَادِي الْقُرَى

فَمَنَعَ النّوْمَ وَمَنَانَا الْمَنَى

(٣) الشارف : المسن .

لِلَّهِ دَرُّ رَافِعٍ أَنَّى اهْتَدَى^(١)
فَوْزٌ مِنْ قَرَارٍ أَنَّى مَرَى
خَسَا إِذَا سَارَ بِهَا الْخَيْسُ بَكَى
مَا سَارَهَا مِنْ قَبْلِهِ إِنْ سَرَى
عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرَى

ويقال : فوز إذا ركب المفازة . وقرار : اسم قرية من اليمن . والخيس :
الجان الضعيف ، وقيل : الثَّغِيل . قال أبو عبيدة : والخيس أن تشرب الإبل
يومَ وردها وتُصْدِرَ يومها فتظلُّ بعد ذلك اليوم من الماء ثلاثة أيام سوى يوم
الصدر ، وتردُّ اليوم الرابع فذلك الخيس .

* * *

فَقُلْتُ إِنِّي لَكَ لَأَطْوَعُ مِنْ حِذَائِكَ ، وَأَوْفَقُ مِنْ غِذَائِكَ ، فَصَدَعَ
بِمَحَبَّتِي ، وَبَجَنَجَ بِصُحْبَتِي ، ثُمَّ اخْتَمَلْنَا مُجِدِّينَ ، وَارْتَحَلْنَا مُدْجِلِينَ ، وَلَمْ
تَزَلْ نُعَانِي الشَّرَى ، وَنُعَاصِي الْكَرَى ؛ إِلَى أَنْ بَلَغَ اللَّيْلُ غَايَتَهُ ، وَرَفَعَ
الْفَجَرُ رَايَتَهُ .

فلما أسفر الفاصح ، ولم يبقَ إلَّا واضح ، تَوَسَّمتُ رَفِيقَ رِحْلَتِي ،
وَسَمِيرَ لَيْلِي ، فَإِذَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ مُطْلَبُ النَّاشِدِ ، وَمَعْلَمُ الرَّاشِدِ ، فَتَهَادَيْنَا
تَحِيَّةَ الْمُحِبِّينِ ؛ إِذِ التَقِينَا بَعْدَ الْبَيْنِ ، ثُمَّ تَبَاثُنَا الْأَسْرَارَ ، وَتَنَاثُنَا
الْأَخْبَارَ ، وَبَعِيرِي يَنْحِطُ مِنَ الْكَلَالِ ، وَرَاحِلَتُهُ تَزِفُ زَفِيفَ الرِّالِ ؛
فَأَعْجَبَنِي اشْتِدَادُ أَسْرِهِا ، وَامْتِدَادُ صَبْرِهَا ؛ فَأَخَذْتُ أُسْتَشِفُّ جَوْهَرَهَا ،
وَأَسْأَلُهُ مِنْ أَيْنَ تَحْيَرَهَا .

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٤١٦ ونسبها إلى شاعر من المسلمين .

فقال : إِنَّ لَهُذِهِ النَّاقَةَ خَبْرًا حُلُوَ المذاقة ، مليح السَّيَاقَةِ . فَإِنْ أَحْبَبْتَ اسْتِمَاعَهُ فَأَنْخِ ، وَإِنْ لَمْ تَشَأْ فَلَا تُصِخْ .

* * *

قوله : حذائك ، أى نعلك . صدّع : كشف وأظهر . وبخبخ : قال : بخ ، وهى كلمة تقال عند الإعجاب . مُجَدِّين : مُجْتَهِدِينَ . مُدْلِجِينَ : ماشِينَ بِاللَّيْلِ . نَعَانَى : نَقَاسَى . الكرى : النوم . رايته ، أراد ضوءه . أسفر : أضاء . الفاضح : من أسماء الصبح سُمِّيَ بذلك لأنه يَفْضَحُ الأشياء ، أى لا يَظْهَرُهَا . واضح : بَيِّنٌ ، يريد أن الصبح كشف ماستره الليل فاستبان كل شيء . توسّمت : نظرت . الفنجديهى : واضح : نجم ، والنجم الذى يُرى بعد الصُّبْحِ مَضِيئًا فى كثير من الأوقات وهو الزُّهْرَةُ . ابن سيده : الواضح : الكواكب الخمس ، إذا اجتمعت مع الكواكب المضيئة من كواكب المنازل . والخنّس : الراجعة والمتأخرة والمنقبضة . رحلتى : ارتحالى . والسَمِيرُ : مُحَادِثُكَ بِاللَّيْلِ . مطلب الناشد ، أى حاجة الطالب التى تلفت له ، فجعل يطلبها . مَعْلَمُ الرَّاشِدِ : دليل المهادى ، والمعلم : الجبل يُعَلِّمُ به الطريق . فتهادينا تحية المحبين ، أى أهديته سلام محبٍّ أهدى لى مثلَ ذلك . تباثنا : تكاشفنا ، أى كشفتُ له سِرِّيَّ وكشف لى سرّه . تناثنا : تفاشينا ، أى أفشيتُ له خبرى وأفشى لى خبره ، والبث أصله التفریق ، والنث بالنون : أصله نشر الحديث وإفشاؤه . الفنجديهى : تناثنا : تذاكرنا ، والنث : الذِّكْرُ وَنَثَوْتُ الذِّكْرَ وَنَثَوْتُ الحديث ، أثوه ، إذا أذعته وأفشيتَه . ابن الأعرابى . النشاء فى الحسن والقبيح من الكلام ، وقيل : النث : نشر الحديث الذى كَتَبْتُهُ أَوَّلَى من نشره ، وفى معنى هذا اللقاء قال المعرى :

وَلَوْ لَمْ أَلْقَ غَيْرَكَ فِي اغْتِرَابِي لَكَانَ لِقَاؤُكَ الْحَطَّ الْجَزِيلًا^(١)
 سَتَحْمِلُ نَاجِيَاتُ الْعَيْسِ مِنِّي صَدِيقًا عَنْ وَدَادِكَ لَنْ يَحْوِلَا
 يُؤْمَلُ فِيكَ إِسْعَافَ اللَّيَالِي وَيَنْتَظِرُ الْعَوَاقِبُ أَنْ تُذِيلَا

يَنْحِطُ : يَزْفِرُ وَيَتَنَفَّسُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ، وَالنَّحْطُ : خُرُوجُ النَّفْسِ بِصَوْتٍ، وَهُوَ صَوْتُ يَعْتَرِي الْمَهْمُومَ وَالْمَتْعُوبَ مِنْ صَدْرِهِ بِتَوَجُّعٍ، وَقَدْ نَحَطَ يَنْحَطُ نَحْطًا وَنَحِيطًا، وَالنَّحِيطُ يَعْتَرِي الدَّابَّةَ إِذَا كَلَّتْ أَوْ زِيدَ فِي حَمْلِهَا، فَتَسْمَعُ لَهَا زَفِيرًا بِصَوْتٍ، فَذَلِكَ هُوَ النَّحِيطُ، وَقَدْ نَحَطَ الْقَصَّارُ إِذَا ضَرَبَ بِالثَّوبِ عَلَى الْحَجَرِ وَتَنَفَّسَ لِيَكُونَ أَرْوَحَ لَهُ . تَزَفَّ : تُسْرِعُ . وَالزَفِيفُ : مَشَى فِي سَكُونٍ مُتَتَابِعٍ . وَالرَّأَلُ : قَرَنُخَ النَّعَامَةِ وَالْجَمْعُ الرَّئَالُ . أَسْرَهَا : قَوَّتَهَا وَشِدَّةَ خَلْقِهَا . امْتَدَادُ : طَوَّلَ . أَسْتَشِفَّ : أَنْظَرَ . جَوهرَهَا : خَلَقَهَا وَجَوهرَ كُلِّ شَيْءٍ : مَا وُضِعَتْ عَلَيْهِ جِبِلَّتُهُ . أَخْنَحُ : حَطُّ بَعِيرِكَ وَانْزِلَ . تُصْنَعُ : تَسْتَمَعُ .

* * *

فَأَنْخَتُ لِقَوْلِهِ لِيُضَوِّيَ ، وَأَهْدَفْتُ السَّمْعَ لِمَا يَرَوِي ، فَقَالَ :
 اعْلَمْ أَنِّي اسْتَعْرَضْتُهَا بِحَضْرَةِ مَوْتٍ ، وَكَابَدْتُ فِي تَحْصِيلِهَا الْمَوْتَ ، وَمَا زِلْتُ
 أَجُوبُ عَلَيْهَا الْبُلْدَانَ ، وَأَطِيسُ بِأَخْفَافِهَا الظَّرَّانَ ؛ إِلَى أَنْ وَجَدْتُهَا عَبْرَ
 أَسْفَارٍ ، وَغُدَّةٍ قَرَارٍ ، لَا يَلْحَقُهَا الْعَنَاءُ ، وَلَا تَرَاهُ قُهَا وَجَنَاءُ ، وَلَا تَدْرِي
 مَا الْهِنَاءُ . فَأَرَصَدْتُهَا لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَأَحْلَلْتُهَا مَحَلَّ الْبِرِّ السَّرِّ ، فَاتَّفَقَ أَنْ
 تُذَتَّ مِنْذُ مُدَّةٍ ، وَمَالِي سِوَاهَا قُعْدَةٌ ، فَاسْتَشَعَرْتُ الْأَسْفَ ، وَاسْتَشَرَفْتُ
 التَّلَفَ ، وَنَسِيتُ كُلَّ رِزْءٍ سَلَفَ ، وَمَكْنَتُ ثَلَاثًا ، لَا أَسْتَطِيعُ انْبِعَاتًا ،
 وَلَا أَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا جِثَاثًا ، ثُمَّ أَخَذْتُ فِي اسْتِقْرَاءِ الْمَسَالِكِ ، وَتَفَقَّدْتُ

الْمَسَارِحَ وَالْمَبَارِكِ ، وَأَنَا لَا أُسْتَنْشِي مِنْهَا رِيحًا ، وَلَا أُسْتَفْشِي يَأْسًا
مُرِيحًا ؛ وَكَلِمَا إِذَا كَرْتُ مَضَاءَهَا فِي السَّيْرِ ، وَإِنْبِرَاءَهَا لِمَبَارِقِ الطَّيْرِ ،
لَا عَنِي إِلَّا دَوَّكَارٌ ، وَاسْتَهْوَتْ نِي الْأَفْكَارِ .

* * *

نَضَوِي : بِعَيْرِي الْمَهْزُولِ . أَهْدَفْتُ : جَعَلْتُهُ غَرَضًا يَقَعُ فِيهِ كَلَامُهُ . وَالسَّمْعُ :
الْأُذُنُ . وَالْمَهْدَفُ : الْغَرَضُ تَرْمِي عَلَيْهِ . اسْتَعْرَضْتُهَا : طَلَبْتُ أَنْ تَعْرَضَ عَلَيَّ
لِلْبَيْعِ . حَضْرَمْتُ : كُورَةُ مِنْ كُورِ الْيَمَنِ فِيهَا مَدَائِنٌ ، وَتَعْمَلُ بِهَا النِّعَالُ
الْحَضْرَمِيَّةُ وَهِيَ غَايَةُ فِي الْجُودَةِ . كَابَدْتُ : قَاسَيْتُ . أَجُوبُ : أَقْطَعُ . أُطْسُ :
أَكْسِرُ . وَالْوَطْسُ : الْوُطَاءُ الشَّدِيدُ الْمُؤَثِّرُ . الظَّرَانُ : وَاحِدَهَا ظَرَرٌ ، بَظَاءٍ مَنْقُوطَةٌ
وَرَاءَيْنِ ، وَهِيَ الْحَجَارَةُ الْعَرِيضَةُ ، وَقِيلَ الْمَحْدَدَةُ . عَبْرَ أُسْفَارٍ : أَيُّ قُوَّةٍ عَلَى
السَّفَرِ كَأَنَّهَا تُعَبَّرُ بِهَا الْمَرَاكِلُ ، أَيُّ تَقْطَعُ ، وَأَصْلُهُ عَبَّرْتُ فِي النَّهْرِ إِذَا جَزَيْتَهُ
مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى . فِرَارٌ ، أَيُّ قَدْ اسْتَعَدَّتْ لِلْفِرَارِ وَالْهَرَبِ . الْعَنَاءُ :
التَّعَبُ . تَرَاهِقُهَا : تَدَانِيهَا وَتَقَارِبُهَا ، وَقَدْ أَرَهَقْتُ الرَّجُلَ ، إِذَا دَانَيْتَهُ ، وَذَلِكَ
أَنْ يَذْهَبَ أَمَامَكَ فَتَتَّبِعُهُ ، فَإِذَا قَرُبَتْ مِنْهُ قُلْتَ : رَهَقْتُهُ ، فَإِذَا أَدْرَكَتَهُ قُلْتَ :
أَرَهَقْتَهُ . وَرَوَايَةُ ابْنِ جَهْوَرٍ « تَوَاهَقُهَا » بِالْوَاوِ ، وَمَعْنَاهَا تَوَاطَبَ عَلَى الْمَشْيِ
مَعَهَا ، وَالْمَوَاهِقَةُ : الْمَعَارِضَةُ فِي السَّيْرِ . وَجَنَاءُ : نَاقَةٌ قُوَّةٌ غَلِيظَةٌ . وَالْوَجِينُ :
مَا صَلُبَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَقِيلَ : الْوَجْنَاءُ الْعَظِيمَةُ الْوَجَنَاتُ . وَالْهِنَاءُ : الْقَطِرَانُ ،
أَيُّ لَيْسَ بِهَا دَاءٌ فَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَهِيَ لَا تَعْرِفُهُ . أَرَصَدْتُهَا : أَعَدَدْتُهَا . التَّبَرُّ : الَّذِي
يُبْرِّكُ وَيَكْرُمُكَ . وَالسَّرُّ : مَا يَسْرُكَ : نَدَّتْ : قَرَّتْ وَشَرَدَتْ . اسْتَشْعَرْتُ :
لَبِستُ . الْأَسْفُ : الْحُزْنُ . اسْتَشْرَفْتُ التَّلْفَ : عَايَنْتُ الْهَلَاكَ وَنَظَرْتُهُ ،
وَاسْتَشْرَفْتُ فَلَانًا إِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ لَتَنْظُرَ إِلَيْهِ وَيَدُكَ عَلَى حَاجِبِكَ . وَالرَّزَاءُ :
قَدْ الشَّيْءُ . سَلَفٌ : مَضَى . مَكَّثْتُ : أَقَمْتُ . انْبَعَاثًا : نَهوضًا وَخروجًا إِلَى السَّفَرِ .

حِثًّا: قليلاً، والحِثَّاء: أن يصيبك النوم ثم يزول عنك في الحال، ويوصف به
 فيقال: يوم حِثَّاء، أى قليل. والطعم: الذوق. استقراء: تتبّع. والمسالك:
 الطُرُق. المسارح: المراعى وحيث تسرح الإبل. والمبارك: مرقد الإبل
 حول الماء. اسقنشاء الريح: شتمها، مهموز وغير مهموز. استغشى ثوبه: تغطى
 به. اليأس: قطع الرجاء. مريحاً: يُدخِل على صاحبه الراحة. اذكّرت:
 تذكّرت. مضاءها: فنادها وإسراعها. انبرأها: نهوضها، وقد انبرى لك
 فلان إذا عَرَضَ لك. مباراة: معارضة. لاعنى: أحرقنى، اللوعة: حرقة القلب
 من شدة الوجد. استهوتنى: هوتنى فى كلّ طريق. الأفكار: تذكّر المعلوم.

* * *

فبينما أنا فى جِواء، بعض الأحياء، إذ سمعتُ من شخصٍ مُتبعِد،
 وصوتٍ مُتجرّد: مَنْ ضَلَّتْ لَهُ مَطِيَّةٌ، حَضَرَ مَيَّةٌ وَطِيَّةٌ، جَلَدُهَا قَدْ وَسِمَ،
 وَعَرَّثُهَا قَدْ حُسِمَ، وزمائمُها قد ضَفِرَ، وظَهْرُها كَأَنَّ قَدْ كَسِرَ ثُمَّ جُبِرَ،
 تَزِينُ الماشية، وتُعينُ النَّاشية، وتقطعُ المسافةَ النَّاشية، وتظلُّ أبدأً لك
 مُدَانِيَّة، لا يَعتَوِرُها الوَتْنى، ولا يَعتَرِضُها الوَجى، ولا تُخَوِّجُ إلى
 العصا، ولا تَعَصِي فَيَمْنُ عَصَى؟

قال أبو زيد: فجذبني الصوتُ إلى الصَّائت، وبشّرني بدركِ الفاتت.
 فلمّا أفضيت إليه، وسلمت عليه، قلت له: سلمُ المطيَّة، وتسلمُ العطية،
 فقال: وما مطيَّتُك، غُفِرَتْ خَطِيئَتُك؟ قلت له: ناقة جُثِّثُها كالحضبة،
 وذُرْوَتُها كالقُبَّة، وحَلَبُها ملءُ العُلْبَةِ، وكنتُ أعطيتُ بها عشرين،
 إذ حَلَلْتُ يَبْرين، فاستزدت الذى أعطى، ودَرَيْتُ أَنَّهُ أخطأ.

* * *

قوله : حواء : بيوت مجتمعة مائتان أو نحوها . الأحياء : القبائل . متجرد : ماضي ظاهر ، وقيل ضعيف لبُعْده . ضَلَّتْ : تلفت وضاعت . مطية ، يعني بها نعلًا في المعنى وفاقه في اللفظ ، وقد تقدّمت أشعار اللّغز بهما . وطية : لا تحرك الراكب ، وهي الذّكول ، وفرّاش وطىء : وثير لا يؤذى جنب النائم عليه ، وعلى من ضلّت له مطية [أن يقول ما]^(١) في حديث عتبة بن غزوان عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا ضل أحدكم شيئًا وأراد غوثًا وهو بأرض ليس بها أحد فليقل : يا عباد الله المسلمين أعينوني ، يا عباد الله المسلمين أعينوني ، فإنّ لله عبادًا لا نراهم » ، وقد جرب ذلك . وميم : خرز ، أى جعل الحرز فيها كالعلامة . عرّها : جرّ بها . حُسيم : استؤصل بالقطع ، يريد أن آثار الجرب التي كانت في الجلد الذي صنّعت منه هذه النعل قد قُطعت وأزيلت . وزمأها : شرّكها . كسّر ثم جبر ، يريد أن ظهرها يبس فتكسّر ، فوُصِل بجلده آخر فصحّ .

والماشية : الرّجل التي تمشي فيها ، وكذلك النّاشية ، ويقال : نشأ الرجل ، إذا نهض لحاجته ونشأ أيضًا . وسهل النّاشية لأجل الماشية وأصلها الهمز . الفنجديهي : تُعين النّاشية ، أى تُعين على السّير في ناشئة الليل ، قال ابن عرّفة : كلّ ساعة قامها قائم من الليل ناشئة . الأزهرى : ناشئة الليل قيام الليل مصدر جاء على « فاعلة » بمعنى النّشء كالعافية والخاتمة بمعنى العفو والختم ، وقيل : النّاشية والنّسيئة أن تنام من أوّل الليل ثم تقوم . وقيل : النّاشئة أوّل النهار أوّل الليل ، وأكثر المفسرين على أن ناشئة الليل أوّلها . عاصم : يهزمه والباقون لا يهزمون . جذّبنى ، ساقني بعنف . الصّائت : صاحب الصوت الذى سمع ، وقد أصات إذا رفع صوته . درّك الفائت : لحوق التّألف . أفضيت : وصلت .

(١) زيادة يقتضيهما السياق .

تَسَلَّمَ : خذ . جُثَّتْهَا : جسدها ، والجُثَّة : شخص القائم والقاعد والراكب .
والهَضْبَةُ : الصخرة العظيمة ، وقيل الجبل المنبسط الأملس . ذِرْوَتُهَا : أعلى
ظهرها . والعُلْبَةُ : إناء من جلود . يَبْرُزُ : أرض فيها رمل .

* * *

قال : فَأَعْرَضَ عَنِّي ، حِينَ سَمِعَ صِفَتِي ، وقال : لست بصاحب
لِقُطَاتِي . فَأَخَذْتُ بِتَلَايِبِهِ ، وَأَصْرَرْتُ عَلَى تَكْذِيبِهِ ، وَهَمَمْتُ بِتَمْزِيقِ
جَلَائِبِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ : يَا هَذَا مَا مَطَيْتِي بِطَلْبِكَ ، فَكَفَفْتُ عَنِّي مِنَ
عَرَبِكَ ، وَعَدَدْتُ عَنْ سَبِّكَ ؛ وَإِلَّا فَقَاضِي إِلَى حَكَمِ هَذَا الْحَيِّ ، الْبَرِيِّ
مِنَ النَّفْيِ ، فَإِنْ أَوْجَبَهَا لَكَ فَتَسَلَّمْ ، وَإِنْ زَوَّاهَا عَنْكَ فَلَا تَتَكَلَّمْ ، فَلَمْ
أَرْ دَوَاءَ قِصَّتِي ، وَلَا مَسَاغَ غُصَّتِي ، إِلَّا أَنْ آتَى الْحَكَمَ ، وَلَوْ لَكُمْ .

فَانْخَرَطْنَا إِلَى شَيْخٍ رَكِيزِ النَّصْبَةِ ، أُنِيقِ الْعِصْبَةِ ، يُؤْتِسُّ مِنْهُ سَكُونُ
الطَّائِرِ ، وَأَنْ لَيْسَ بِالْجَائِرِ ، فَاَنْدَرَأْتُ أَتْظَلُّمٌ وَأَتَأَلَّمُ ، وَصَاحِبِي مُرِمٌ
لَا يَتَرَمَّرَمُ ، حَتَّى إِذَا ثَلُثْتُ كِنَانَتِي ، وَقَضَيْتُ مِنَ الْقَصَصِ لُبَّانَتِي ، أُبْرَزُ
نَمَلًا رَزِينَةَ الْوِزْنِ ، مَخْذُوعَةً لِمَسْلِكِ الْحَزَنِ ، وَقَالَ : هَذِهِ الَّتِي عَرَفْتِ ،
وَإِيَّاهَا وَصَفْتُ ، فَإِنْ كَانَتْ هِيَ الَّتِي أُعْطِيَ بِهَا عِشْرِينَ ، وَهِيَ هُوَ عِشْرِينَ
الْمُبْصِرِينَ ، فَقَدْ كَذَبَ فِي دَعْوَاهُ ، وَكَبُرَ مَا افْتَرَاهُ ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَمُدَّ
عَذَالَهُ ، وَيُبَيِّنَ مِصْدَاقَ مَا قَالَهُ .

* * *

أَعْرَضَ : نَحَى وَجْهَهُ . وَاللَّقْطَةُ : مَا تَجِدُهُ قَدْ سَقَطَ مِنْ غَيْرِكَ فَتَلْتَقِطُهُ ، وَعَامَّةُ أَهْلِ اللُّغَةِ عَلَى فَتْحِ قَافِهَا مِثْلُ أَبِي عُبَيْدَةَ وَيَعْقُوبَ وَالْمُفَضَّلَ وَأَمَلَبَ وَابْنَ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِمْ . وَحَكَى ابْنُ خَالَوَيْهِ أَنَّ تَسْكِينَهَا لَفَةً تَمِيمَ ، وَفَتْحَهَا لَفَةً أَهْلِ الْحِجَازِ ، فَهُمَا لَفَتَانِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ التَّقَطَ لُقْطَةً فَلْيُشْهَدْ ذَا عَدْلٍ ثُمَّ لَا يَكْتُمُ وَلَا يَغِيبُ ، فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا ، وَإِلَّا فَهُوَ مَالُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » . تَلَايِبُهُ : أَطْوَاقُ ثَوْبِهِ ، وَالتَّلْيِبُ الْجَنْبُ ، وَأَخَذَتْ بِتَلْيِبِ فُلَانٍ ، إِذَا جَمَعْتَ ثَوْبَهُ الَّذِي حَوَالَى صَدْرِهِ وَقَبَضْتَ عَلَى نَحْرِهِ ، وَالْجَلْبَابُ : الْمَلْحَفَةُ وَالرِّدَاءُ . أَصْرَرْتُ : أَقَمْتُ . تَمَزَّقَ جَلَابِيْبُهُ : تَمَزَّقَ ثِيَابُهُ . بَطْلَبُكَ : بِمَا تَطْلُبُ . وَالطَّلَبُ : اسْمُ مَا تَطْلُبُ . ابْنُ دَرِيدٍ فَلَانَةٌ طَلَبُ فُلَانٍ ، إِذَا كَانَ يَطْلُبُهَا وَيَهْوَاهَا . عَدَّ : كَفَّ وَاصْرَفَ . سَبَّكَ : شَتَمَكَ . قَاضَى : حَاسَبَنِي . الْحَى : الْقَبِيلَةُ . الْغَى : الضَّلَالُ وَالْفَسَادُ . زَوَاهَا : نَحَّاهَا .

قوله : مَسَاغَ غُصَّتِي ، أَي بَلَغَ مَا اخْتَنَقَ بِهِ ، وَسَاغَ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ فِي الْحَلْقِ : سَهَلَ نَزُولُهُ فِيهِ . لَكَمَهُ ، يَلْكُهُ : ضَرَبَهُ بِجَمْعِ كَفَّهُ .

انْخَرَطْنَا : سَرْنَا مَسْرِعِينَ . وَرَكِيزُ النَّصْبَةِ : وَقُورُ الْهَيْئَةِ ، وَفُلَانٌ رَكِيزٌ . يَبِينُ الرِّكَانَةُ ، أَي ثَقِيلُ الْمَجْلِسِ ثَابِتٌ قَوِيٌّ . الْأَزْهَرَى . يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا كَانَ وَقُورًا سَاكِنًا : إِنَّهُ لَرَكِيزٌ ، وَقَدْ رَكَّنَ رِكَانَةً . الْجَوْهَرَى . يُقَالُ جَبَلٌ رَكِيزٌ ، أَي لَهُ أَرْكَانٌ عَالِيَةٌ ، فَيَحْتَمِلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ رَكِيزُ النَّصْبَةِ ، عَالِيُ الْإِنتِصَابِ حَسَنُ الْقَامَةِ ، وَالنَّصْبَةُ الْفِعْلَةُ مِنَ الْإِنتِصَابِ ، وَأَرَادَ بِهَا هَيْئَةَ إِنتِصَابِهِ فِي جُلُوسِهِ وَحَالَتِهِ . أَنَبَقَ : مُعْجَبٌ . الْعِصْبَةُ : هَيْئَةُ الْعِمَامَةِ عَلَى رَأْسِهِ ، تَقُولُ : عَصَبْتُ رَأْسِي بِالْعِمَامَةِ إِذَا شَدَدْتَهُ بِهَا ، وَالْعِصْبَةُ هَيْئَةُ التَّعَمُّمِ ، يَقُولُ : إِنْ هَذَا الشَّيْخُ الْحَاكِمُ رَزِينٌ فِي جُلُوسِهِ حَسَنُ التَّعَمُّمِ وَالْهَيْئَةِ . يُونُسُ : يَبْصُرُ . سَكُونُ الطَّائِرِ ، كُنَايَةٌ عَنِ الْوَقَارِ وَالْحِلْمِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الطَّائِرَ لِأَنَّهُ لَا يَنْزِلُ إِلَّا عَلَى سَاكِنٍ .

وإذا نزل عليه سكن هو ، فإذا كان عند الرجل هَوَجٌ وطيش ، قيل : طارت عصفيره ، فإذا كان القوم أهلَ وقارٍ قيل : كأنَّ على رؤوسهم الطير . اندرأت : اندفعت . أنظلم : أنشكى الظلم . أنالم : أتوجع . مُرِمَ : ساكت . لا يترمم : لا يُجيب ولا يتحرك ، وتكلمَ فما ترَمَّم ، أى ما أجاب ، وأصل ترَمَّم تحرك . ثلثُ كِناتى : أخرجت ما فيها من السهام ، وأراد أتممت كلامى . وقضيت : أتممت . والقَصَص : ذكر الخبر . لبانتى : حاجتى . أبرز : أظهر . رزينة : ثقيلة .

محدوة، جُعل عليها الحذاء ؛ وهو الجلد الذى تُنقل به . مسالك : طرق . والحزن : ما غلظ من الأرض . عَرَفَتْ : حَيَّتَ بها ليعرفها صاحبها . ما افتراه : ما جاء به من الادعاء والكذب . قَذالة : عنقه ، والقَذال : ما بين قُرّة القفا إلى الأذن ، وجمعه قُدُل ، يقول : فإن كانت هذه النعل تُساوى عشرين - وها هو يبصر أن هذا باطل - فقد صارت دعواه باطلة ، اللهم إلا أن يمدَّ عنقه ويأتى ببيان أنها تساوى عشرين ، إلى هذا التفسير رأيتُ أكثر من لقيت يذهب ، وهو ضعيف ولا يكون لمدَّ قذال له معنى ولا لما بعده .

والتفسير الحسن الذى فيه جِلالٌ للمعنى ما كان يفسره به شيخى أبو بكر ابن أزرع عن ابن جَهْور ، وذلك أنه كان يفسر أعطى بمعنى صُنِعَ وضرب ، وكذلك كتب عليه فى طرة كتابه ، أن أعطى بمعنى ضَرَب ، لغة أهل الشرق ، وقد حَدَّثْتُ أنا عنهم أن الرجل إذا كلم الآخر بما لا يُرضيه ثم انصرف عنه صاح الآخر فى أثره : أعطيه ، بمعنى اصفعه ، فهى لفظة متعارفة بينهم لهذا المعنى وبيان موقعها هنا أنه لما ادعى السَّروجى أنه أُعْطِيَ بناقته عشرين ، فوصفها بما يصح معناه فى حقها من أنها تساوى عشرين . ثم قال : إن المعروف أبرز

نعلا رزينة الوزن ، أى ثقيلة فى الميزان . محدوة لسلك الحزن ، أى قد جمل عليها حذاء ، أى رُقْعٌ من الجلد طرقت بها ليسلك بها الحزن ، أى ليمشى بها فى أرض ذات حجارة فلا تؤثر فيها لتلك الأطراف ، وبذلك الأطراف صارت ثقيلة فى الوزن ، فلما أبرز هذه النعل التى وصفتها رفعها بيده إلى الحاكم قائلاً له : هذه النعل التى عرّفت ، وإياها وصفت ، فإن كانت هذه التى أعطيت بها عشرين ، أى صُفِعَ بها عشرين . فقلت : الإعطاء للنعل بمعنى يوافقها إذ عدت عشرين ديناراً فى ثمنها بعيد ، ثم بينه بقوله : وها هو من المبصرين . والضرب الجافى فى العنق تدمع له العينان ، وإذا أفرط فيه عَمِيَ له المصقوع ، فيقول المعرّف : هذه النعل لو صُفِعَ بها إنسان صَفْعَةً واحدة لعمى ، وهذا يقول إنه صُفِعَ بها عشرين وهو سالم البصر ، فقد كذب فى ادّعائه أنه صُفِعَ بها عشرين ، وكبرت فريته ، اللهم إلا أن يمدّ قفاه فيربنا فيها أثر الصفع ، وأثره احمراره وتعجيره ، فيتبين بذلك الأثر صدق قوله . فهكذا تفسير هذا الموضع ومعناه . وابن جهور الذى شافه الحريرى بمشكلات كتابه كان أضبط لها ممن يتحكم فيها بنظره ، فيكون تلخيص المعنى إن المعرّف يقول : هذه النعل يدعى هذا أنه أعطيت بها عشرين ، وأنتم تروونه سالم البصر ، ومحال أن يُصَفَعَ بها إنسان نخشنها وقتلها عشرين صَفْعَةً إلا وبعمى ، فقد صارت دعواه كاذبة إلا أن يمدّ لنا عنقه فترى فيها أثر الصفع والرّزء فنصدّقه فى دعواه . وفى رواية غير ابن جهور « بعد المبصرين » فقال : كذب دعواه وهو داخل فى قول المعرّف الأوّل فلا يحتاج إلى إدعائه ، ولو جاء هنا بثمّ مكان الفاء لكان أبين فكان بمعنى قوله ، قال : ثم يمشى فى كلامه ثم ينسّق عليه قال : لكلام ثان ، وإتما وضع الفاء موضع ثمّ لأن جواب الشرط الذى هو « فإن كان » مضمّن فى قوله « وها هو من المبصرين » فإنه يتضمّن قوله : « وها هو من المبصرين » معنى فقد كذب ، وليس فيه لفظ الجواب ، فجاءت الفاء كأنها جواب لفظى ، ووقعت قال : موطنه

لقال الأولى ، ألا ترى أن في رواية ابن جهور مكان فقال فقد ، والكلام بها متصل حسن ، قال أبو الرقعمق يصف العمى من الصنع :

ولقد بُقنا على زمنٍ	ورءوس القوم تُسَلَبُ
وكنوسُ الصنع دائرة	وبها اللذات والطَّرَبُ
وكان الصنع بينهم	شُعْلُ النيران تلهبُ
والعمى منهم وإن شغلوا	عنه باللذات مقربُ

وله :

إن الذين تصافعوا	بالقرع في زمن القُشُورِ
أسفوا على لأنهم	حضرُوا ولم ألك في الحضورِ
لو كنتَ تم لقيـل هل	من آخذ بيد الضـريرِ
يا للرجال تصافعوا	والصَّنع مفتاح السرورِ
لا تفعلوه فإنه	يَسْتَلُّ أحقاد الصدورِ

وقال يصف أثر الصَّنع في قفاه :

ففي ما شئت من حق ومن هوسٍ	قليله لكثير الحق إكسِيرُ
كم رام إدراكه قوم فاعجزهم	وكيف يُدرك ما فيه قناطيرُ
لا عيب في سوى أتى إذا طربوا	وقد حضرت يرى في الرأس تعجيزُ
والأخدعان فما زالا يرى لهما	لكثرة المزح توريمٌ وتخميمُ

ففي هذه الأشعار تدبين لك تلك الأغراض التي قدمنا ذكرها .

[حكاية ابن المغازلي]

وتنتظم في سلكها حكاية ابن المغازلي ، وكان رحلاً يتكلم ببغداد على الطرق بأخبار ونوادر متنوعة ، وكان نهاية في الحدق لا يستطيع من سَمِعَهُ ألا يضحك

قال : وَقَفْتُ يوماً على باب الخَاصَّةِ أَضْحِكُ النَّاسَ وَأَتَنَادَرُ ، فحضر خَلْفِي بعضُ خَدَّامِ العَتَمَةِ ، فَأَخَذَتْ في نوادر الخدم ، فَأَعْجِبَ بِذَلِكَ وانصَرَفَ ، ثم عاد فَأَخَذَ يَبْدِي وقال : دخلتُ فوقفت بين يدي سَيِّدِي فتذَكَرْتُ حِكَايَتَكَ فضَحَكْتُ ، فَأَنكَرَ عَلَيَّ ، وقال : مالك ويلك ! قُلْتُ : على الباب رجل يعرف بابن المُغَالِزِي يتكَلَّمُ بِحِكَايَاتِ ونودار تُضَحِّكُ النَّاسَ ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِكَ ولى نصف جَائِزَتِكَ ، فَطَمَعْتُ في الجائِزَةِ ، وقلت : يا سَيِّدِي أَنَا ضَعِيفٌ وَعَلَى عَيْلَةٍ ، فَلَوْ أَخَذْتَ سُدَّةً مَهْأً أَوْ رُبْعَهَا ! فَأَبَى وَأَدْخَلَنِي فَسَلَّمَتْ فَرَدَ السَّلَامَ ، وهو ينظر في كتاب ، فنظر في أَكْثَرِهِ ، وَأَنَا واقفٌ ، ثم أَطْبَقَهُ ورفع رأسه إِلَيَّ ، وقال : أَنْتَ ابنُ المُغَالِزِي ؟ قلت : نعم يا مولاي ، قال : بَلَّغْنِي أَنَّكَ تَحْكِي وَتُضَحِّكُ بنوادرَ عَجِيبَةٍ ، قُلْتُ : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الحَاجَةُ تَفْتَقُ الحِيلَةَ ، أَجْمَعُ لِلنَّاسِ حِكَايَاتٍ أَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى قُلُوبِهِمْ فَأَتَمَسَّ بِرَّهْمٍ ، فقال : هَاتِ مَا عِنْدَكَ ، فَإِنْ أَضْحَكْتَنِي أَجْزَلُكَ بِخَمْسِمِائَةِ دَرَاهِمٍ ، وَإِنْ أَنَا لَمْ أَضْحَكْ فَمَا لِي عَلَيْكَ ؟ قُلْتُ لِلْحَجِينِ : مَا مَعِيَ إِلَّا قَفَايَ ، فَاسْأَلْ مَا أَحْبَبْتَ ، قال : أَنْصَفْتُ إِنْ لَمْ تُضَحِّكْنِي أَصْفَعُكَ بِذَلِكَ الجِرَابِ عَشْرَ صَفْعَاتٍ ، قُلْتُ في نَفْسِي : مَلِكٌ لَا يَصْفَعُ إِلَّا بِشَيْءٍ لَيْنٍ خَفِيفٍ ، وَالتَفَتُّ فَإِذَا بِجِرَابٍ مِنْ أَدَمٍ مَعْلَقٌ فِي زَاوِيَةِ الْبَيْتِ ، قُلْتُ : مَا أَخْطَأَ ظَنِّي ، عَسَى فِيهِ رَجْحٌ إِنْ أَضْحَكْتَهُ رَجَحْتُ ، وَأَخَذْتُ الجَائِزَةَ ، وَإِلَّا فَمَشَرْتُ صَفْعَاتٍ بِجِرَابٍ مَنفُوخٍ شَيْءٌ هَيْنَ ، ثُمَّ أَخَذْتُ فِي النُّوَادِرِ وَالْحِكَايَاتِ وَالنَّعَاشَةِ وَالْعِبَارَةِ ، فَلَمْ أَدْعُ حِكَايَةَ أَعْرَابِيٍّ ، وَلَا نَحْوِيٍّ ، وَلَا مَخْنَثٍ ، وَلَا قَاضِيٍّ ، وَلَا نَبَطِيٍّ ، وَلَا سِنْدِيٍّ ، وَلَا زَنْجِيٍّ ، وَلَا خَادِمٍ ، وَلَا تَرْكِيٍّ ، وَلَا شَاطِرٍ ، وَلَا عِيَّارٍ ، وَلَا نَادِرَةٍ ، وَلَا حِكَايَةَ إِلَّا وَأَحْضَرْتُهَا حَتَّى نَفَدَ كُلُّ مَا عِنْدِي ، وَتَصَدَّعَ رَأْسِي ، وَفُتِرَتْ وَبَرَدَتْ ، وَلَمْ يَبْقَ وَرَائِي خَادِمٌ ، وَلَا غَلَامٌ إِلَّا وَقَدْ مَاتُوا مِنَ الضَّحْكِ ، وَهُوَ مُقَطَّبٌ لَا يَتَبَسَّمُ ، قُلْتُ : قَدْ نَفَدَ مَا عِنْدِي ، وَوَاللَّهِ

ما رأيتُ مثلكَ قطّ ، فقال لى : هيه ، ما عندك ؟ قلت : ما بقى لى سوى نادرة واحدة ، قال : هاتِها ، قلت : وعدتني أن تجعل جائزتي عشر صفعاتٍ وأسألك أن تُضعفها لى وتضيف إليها عشر صفعاتٍ أخرى . فأراد أن يضحك ثم تماسك ، قال : نفعل يا غلام خذ بيده ثم مددت قفاى فصُفِعتُ بالجِرابِ صَفْعَةً ، فكأنا سقُطْتُ على قفاى قطعةً من جبل ، وإذا هو مملوء حصاً مدوراً فصُفِعتُ عَشْرًا ، فكادت أن تنفصل رقبتي ، وطُنتُ أذناى واقتدَحَ الشعاع من عيني ، فصحتُ يا سيدي ، نصيحة ، فرفع الصّفع بعد أن عزم على العشرين ، فقال : قل نصيحتك ، فقلت : يا سيدي إنه ليس فى الديانة أحسن من الأمانة ، وأقبح من الخيانة ، وقد صَحِمتُ للخادم الذى أدخلنى نصفَ الجائزة على قُلُوبها وكُتُوبها ، وأمير المؤمنين بفضلِه وكرمِه قد أضعفها وقد استوفيتُ نصي ، وبقي نصفه . فضحك حتى استلقى ، واستفزّه ما كان سمع ، فتحامل له ، فما زال يضرب يديه الأرض ويفحص برجليه ويمسك بمرآق بطنه ، حتى إذا سكن قال : علىّ به ، فأُتِيَ به ، وأمر بصفعه ، وكان طويلاً ، فقال : وايش جنايتي ؟ قلت له : هذه جائزتي وأنت شريكى فيها ، وقد استوفيتُ نصيبى منها ، وبقي نصيبك ، فلما أخذه الصّفع وطرق قفاه الوقع ، أقبلتُ ألومه وأقول له : قلت لك إني ضعيف معيل ، وشكوتُ إليك الحاجة والمسكنة ، وأقول لك خذ ربعها أو سدسها ، وأنت تقول : لا آخذ إلا نصفها ، ولو علمتُ أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جائزته الصنع وهبتها لك كلها . فعاد إلى الضحك من عتابي للخادم ، فلما استوفى نصيبه أخرج صُرّة فيها خمسمائة درهم ، وقال : هذه كنت أعددتُها لك ، فلم يدعك فضولك حتى أحضرت شريكاً لك ، فقلت : وأين الأمانة ؟ قسمها بيننا وانصرفت .

فقال الحكم : اللهم غفراً ، وجعل يُقلب النعل بطناً وظهراً ؛
ثم قال : أما هذه النعل فنعلي ؛ وأما مطيتك ففي رجلي ، فانهمض لتسلم
نماقتك ، وافعل الخير بحسب طاقتك ، ففقت وقلت :

أقسم بالبيت العتيق ذى الحرم
والطائفين العاكفين فى الحرم
إنك نعم من إليه يُحتكم
وخير قاض فى الأعراب حكم
فاسلم ودم دؤم التمام والنعم

فأجاب من غير روية ، ولا عقدية ، وقال :

جزيت عن شكر خيراً يابن عم
إذ لست أستوجبُ شكرًا يلتزم
شر الأنام من إذا استقضى ظلم
ثم من استرعى فلم يرع الحرم
فذان والكلب سوا في القيم

ثم إنه نفذ بين يدي ، من سلم التافة إلى ، ولم يمتن على ، فرخت
جميع الأرب ، أجر ذيل الطرب ، وأقول يا للعجب !

قوله : اللهم غفراً ، أى اغفر غفراً ، والغفر : السَّتر والتغطية . انهض : تقدّم .
 لَقِسْمْ : لقبض . العتيق : القديم . الحَرَم : جمع حُرمة . والعاكفين : المقيمين فيه
 للعبادة ، والعكوف : الإقامة ، والحرم حَرَم مكة . اسلم : دعاء ، معناه سَلِّمْكَ اللهُ .
 والنعم : طير معروف . الأعراب : الأعراب وهم سكان البادية . والنعم :
 جمع نعمة ، والدَّوْم والدوام واحد . رويّة ، أى فكرة . عقْد نيّة : أى ندير .
 استرعى : جُمِل راعياً ، أى حكماً على الناس . يَرعى : يحفظ . فذان ، أى فهذان .
 القيم : جمع قيمة . يمتنّ : يعتدّها منّة ، وامتنّ فلانٌ عليك ، إذا فعل معك
 معروفًا فتى أنكر عليك شيئاً ذكر لك معروفه وجبّهك به ، وقالت الحكماء :
 أحيى المعروف بإماتة ذكره ، وعظمه بالتصغير له .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت له تالله لقد أطرفت ، وهرفت بما
 عرفت ، فنادى بك الله : هل ألفت أسحر منك بلاغة ، وأحسن للفظ
 صياغة ؟ فقال : اللهم نعم ، فاستمع وانعم . . . كنت عزمْتُ حين
 اتهمت ، على أن أَخْجِذَ ظِعِينَةً ، لتكون لي مُعِينَةً ؛ حين تعين الخطبُ .
 الملب ، وكاد الأمرُ يَسْتَتِب ، أفكرتُ فِكرَ الْمُتَحَرِّزِ مِنَ الْوَهْمِ .
 المتأمل كيف مَسَقَطُ السهم ، وبث ليلتي أَناجي القلبِ المُعَذَّبِ .
 وأقلبُ العزمَ المذبذب ، إلى أَن أجمعُ على أَن أسْجِر ، وأُشاورَ أولَ
 من أبصر . فلما قوسنتِ الظلمةُ أبوابها ، وولت الشهبُ أذنانها ،
 غَدوتُ غُدُوَ المتعرف ، وابتكرتُ ابتكارَ المتعيف ، فانبرى لي يافعٌ .

في وجهه شافع ، فَتَيَمَّنْتُ بِمَنْظَرِهِ الْبَهِيجِ ، واستقدختُ رأيه في التزويج .
فَقَالَ : أَوْ تَبْغِيهَا عَوَانًا ، أم بَكَرًا دُمَانِي ؟ فقلت : اختر لي ما تَرَى ،
فقد أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ الْقُرَى .

* * *

أُطْرَفَتْ : أُتِيَتْ بِطُرْفَةٍ ، يريد بامرٍ عجيب غريب . هَرَفَتْ بِمَا عَرَفَتْ ،
أى تَكَلَّمَتْ بِشَيْءٍ غَرِيبٍ ، وَالْهَرَفُ : الإطْنَابُ فِي الْمَدْحِ ، وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ
لَا تَهْرِفْ بِمَا لَا تَعْرِفُ . نَاشَدْتُكَ : خَلَقْتُكَ : صِيَاغَةُ : صَنَعْتُ وَسَبَّكَ . أَتَهَمْتُ :
أَتَيْتُ تِهَامَةً ، وهى مَا انْخَفَضَ مِنْ أَرْضِ الْعَرَبِ . طَعِينَةُ : زَوْجَةُ . الْخِطْبُ :
النِّكَاحُ . وَتَعَيَّنَ : تَحَقَّقَ . يَسْتَتِبُّ : يَتَمَّ . الْوَهْمُ : الْغَلَطُ . التَّأَمُّلُ : النَّظَرُ .
لِلْمُذَبْذَبِ : الْمُضْطَرَبِ ، الَّذِى لَا يَعْتَمِدُ عَلَى رَأْيٍ . أَزْمَعْتُ : عَزَمْتُ . أُسْحِرُ :
أُخْرِجُ فِي السَّحَرِ . قَوَّضْتُ : هَدَمْتُ . وَالْأُطْنَابُ : حِبَالُ الْخِجَاءِ وَتَقْوِيضُهَا :
إِزَالَتُهَا . الشَّهْبُ : النُّجُومُ ، وَجَعَلَ لَهَا أُذُنَابًا بِمَجَازٍ ، وَأَرَادَ أَنْ الْفَجْرِ إِذَا طَلَعَ
وَانْتَشَرَ غَابَتِ النُّجُومُ ، فَكَأَنَّهُمَا قَدْ وَلَّتْ أُذُنَابُهَا وَقَالَ التَّهَامِيُّ فِي ذَلِكَ :

فَظَلْتُ أَعَثُرُ فِي ثَوْبِ الدُّجَى وَلِهَذَا وَالْجَوَّ رَوْضُ وَزَهْرُ الشَّهْبِ كَالزَّهْرِ (١)
وَالْمَجْرَّةُ فَوْقَ الْأَرْضِ مَعْتَرِكٌ كَأَنَّهَا حَبَبٌ يَعْلُو عَلَى نَهَرٍ
وَاللَّتْرِيَّا رَكُودٌ فَوْقَ أَرْحُلِنَا كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنْ فَرْوَةِ النَّمِرِ
كَأَنَّ أَتْجَمَهَا وَالصُّبْحَ يُغْمِضُهَا قَسْرًا عَيُونَُ غَفَتْ مِنْ شِدَّةِ السَّهَرِ
الْمُتَعَرِّفُ : الْمَكْتَسِبُ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ مَا جَهِلَ . الْمُتَعَيِّفُ : الزَّاجِرُ ، مِنْ عَافِ
الشَّيْءِ إِذَا كَرِهَهُ . يَافِعُ : فَتَّى شَابٌّ وَقَدْ أَفِيعَ إِذَا شَبَّ . فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ ، أَى
هُوَ حَسَنُ الْوَجْهِ يَشْفَعُ وَجْهِهِ إِذَا أُذْنِبَ أَوْ أَخْطَأَ .

* * *

[من قولهم في الوجه الحسن]

وفي وجهه شافع صدر بيت للحكم بن قنبر .

وقال يحيى بن علي المنجم : كنت يوماً بين يدي المعتضد ، وهو مقطّب ،
فأقبل بدرّ موله ، فلما رآه من بعيد ضحك وقال : يا يحيى من الذي يقول : « في
وجهه شافع » ؟ فقلت : يقوله ابن قنبر المازني البصري ، فقال لله : درّه ، فأنشد
هذا الشعر ، فأنشدته :

وَيْلِي عَلَى مَنْ أَطَارَ النُّومَ فَاْمْتَنَعَا وَزَادَ قَلْبِي عَلَى أَوْجَاعِهِ وَجَعَا
كَأَنَّمَا الشَّمْسُ فِي أُعْطَافِهِ لَمَعَتْ حُسْنًا أَوْ الْبَدْرُ مِنْ أَرْزَارِهِ طَلَعَا
مُسْتَقْبِلَ الْإِذَى يَهْوَى وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ الذُّنُوبُ وَمَعْذُورٌ بِمَا صَنَعَا
فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ يَحْجُو إِسَاءَتَهُ مِنْ الْقُلُوبِ وَجِيهٌ حَيْثَا شَفَعَا

أنس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حسن الوجه مال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخير عند حسان الوجوه » .

وقال الشاعر :

أَنْتَ شَرَطَ النَّبِيَّ إِذْ قَالَ يَوْمًا اطلبوا الخير من حسان الوجوه
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ وَجْهًا حَسَنًا وَاسْمًا حَسَنًا ،
وجعله في موضع غير شائن ، فهو من صفوة الله من خلقه » .

ابن عمر رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة تجلّو البصر :
النَّظَرُ إِلَى الْخُضْرَةِ ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْمَاءِ الْجَارِي ، وَالنَّظَرُ إِلَى الْوَجْهِ الْحَسَنِ » ، نظمها
الشاعر فقال :

ثَلَاثَةٌ يُذْهِبْنَ لِلرَّءِ الْخُزْنَ الْمَاءُ وَالْخُضْرَةُ وَالْوَجْهُ الْحَسَنُ

قوله تيمّنت : تبرّكت . البهيح . الحسن . استقدحت : طلبت ، وأصلها ،
في قدح النار . تبغيها : تطلبها . عواناً : ثيباً . تعانى : تعالج وتراضى . العرا :
جمع عروة .

* * *

فقال : إلى التّبين ، وعليك التّمين ، فاستمع أنا أفديك ، بمد
دفن أعاديك ؛ أما البكر فالذرة المخزونة ، والبيضة المكنونة ،
والباكورة الجنيّة ، والسّلالة الهنيّة ، والروضة الأنف ، والطّوق
الذى كمن وشرف ؛ لم يدنسها لامس ، ولا استنقشها لابس ، ولا مارسها
عابث ، ولا وكسها طامث ، ولها الوجه الحيّ ، والطرف الخفيّ ، واللّسان
العبيّ ، والقلب النّقيّ . ثم هي الدّميّة المّلاعية ، واللّعبة المّداعية ، والنزلة
المّعازلة ، والمّلحة الكاملة ، والوشاح الطاهر القشيب ، والضّجيج
الذى يشب ولا يشيب ... أما الثيب فالمطيّة المذلّة ، واللّهنة المّجّلة .
والبيّة المّسّهلة ، والطّبة المّعلّلة ، والفرينة المتحبّبة ، والخليفة المتقرّبة ،
والصّناع المدبّرة ، والفطنة المختبرة . ثم إنّها مجالّة الرّاكب ، وأنشوطه
الخاطب ، وقعدّه العاجز ، ونهزة المبارز ، عريكتها ليّة ، وعقلتها هيّة ،
ودخلتها متبيّنة ، وخدمتها مزيّنة ، وأقسم لقد صدقت في النّعين ،
وجلّوت المّهايتين ، فبايتهما هام قلبك ، وعلى أيّتهما قام ربّك ؟

* * *

الذرة : الجوهرة . المخزونة : التي جعلت في الخزانة لرفعها ، يريد أن
البكر تحجب وتضآن : البيضة المكنونة ، أراد بيضة النعام ، ويشبه بها النساء

لبياضها والصفرة التي تضرب فيها ، وقد تقدمت هذه الصفة في العاشرة ، وقال
امروء القيس :

كَبْكِرَ مُقَانَاةَ الْبَيَاضِ بَصْفَرَةٍ غَذَاهَا تَمِيرُ الْمَاءَ غَيْرُ الْحَلَالِ ^(١)
وقال ذو الرُّثمة :

* كَانَهَا فَضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبٌ * ^(٢)

والمسكونة : المصونة ، والنعامه تُسَكِنُ بيضتها بريشها ، ولا تبديها للشمس
والريح لئلا تتغير ، وقال الله تعالى : ﴿ كَانَهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ ^(٣) ، الباكورة :
أول ما يُبَاكَر من الثمر . والسلافة : الحمر ، والمدخورة : المحجوبة في آنتها .
الأنف : التي لم تُدْخَل ولا رعيت . والطوق : ثوب رفيع . ثَمْنُ : كثر ثمنه .
اللامس : الذي يلمس الشيء بيده ويدنسه ، وأراد به الذي يلاعبها ويعضها .
ابن عباس : اللمس واللامسة واللامس ، كناية عن الجماع ، وفلانة لا ترد يد
اللامس ، أى لا تمنع مجامعتها من أرادها . استغشاها : جامعها ، وغشيان النساء :
مجامعتهن . واللابس : الذي لابسها واختلط بها ، يريد نكحها . مارسها :
عالجها وعانها . عابث : مفسد ، وأراد من يعبثُ بها عند الجماع . وگمها :
تقصها ، ووضع منها ، والوكس : الخسارة في البيع . طامث : ناكح . والطامث :
المفتض للسكر . القبي : الذى لا يعرف تصرفات الكلام : والذمية صورة
الرخام . واللعبة : ما يلعب به ، وتقول : لمن اللعبة ؟ أى لمن الغلب فى لعب
الشطرنج وشبهه . على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « المرأة
لُعبة زوجها ، فإن استطاع أن يُحسِّن لعبته فليفعل » . والمداعبة : المازحة .
والمغازلة : تقول غازلتنى المرأة إذا تماججت عليك فى كلامها ، وأشارت لك

(٢) ديوانه ه ، و صدره :

(١) ديوانه ١٦

* كَحَلَاةٍ فِي بَرَجٍ صَفَرَاءَ فِي نَعِيجٍ *

(٣) سورة الصافات ٤٩

بعينها وغزرتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صددت عنك . والمُلحَة : الصورة المستلحة كالدمى وكالصورة التي تلعب بها البنات والشطّار ، وهى اللعبة . وجاء بملحة أى بكلمة طيبة مليحة . والوشاح : الحزام . والقشيب : الحديد جعلها كالوشاح عند عناقها وجاعها . والضجيع : المراقد . يشبّ : يردك شاباً . يُشيب : يُكسبك الشيب . اللهنّة : ما يعجل للضيف قبل القرى . والطبّة : الحاذقة بمصالحها . المعلّة : التى تعطيك ما تريد منها مرّة بعد مرّة ، وهى بكسر اللام ، والمعلّة : التى تعلل مرثفها بالريق ، قال امرؤ القيس :

* وَلَا تَمْنَعِينَا مِنْ جَنَّاكِ الْمَعْلَلِ ^(١) *

ابن الأعرابي : المعللّ : المعين بالبرّ بعد البرّ ، ومن نصب اللام فعناه المطيب مرّة بعد مرّة ، والتعليل سقى بعد سقى . والقرينة : الصّاحبة . والحليلة : الزّوجة . والصّناع : الحاذقة بالصّنعة . ومجالة الراكب : ما يعجل له من الطعام والشراب ، مثل التمر والسويق ، وما لا يتعب بمعالجته ، وكانت العرب تُكرمها يمرّ عليها الرجل ، وهو راكب فتعريض عليه النزول للقرى ، فيمتنع لأعذار له فيمسك ؛ حتى يُخرج له من البيوت أيسر ما يوجد ، يأكله وهو راكب ، فجعل الثيّب لسهولتها كالمجالة التى لا يتكلّف لها ، وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : البكر كالبرّة تطحنها وتمجنها وتخبزها وتأكلها ، والثيّب مجالة الراكب تمر وسويق . والأنشوطه : عقدة تحلّ بسهولة . نهزة : فرصة وغنيمة سهلة . هريكتها : طبيعتها ، ورجل لين العريكة إذا كان سهلاً سلس القياد ، وأصل العريكة سنام البعير ، وكانوا يعمدون للبعير إذا كان فيه شماس وامتناع ، فيقطعون فى حدّته وهى مرتفعة يصعب الرّكوب عليها ، فإذا قطع فيها سكن البعير ولان ، وتوطأ موضع الرّكوب منه فيقال : قد لانت عريكته وقال الشاعر :

(١) ديوانه ١٢ ، وصدره :

* قَهَلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْخَى زِمَامَهُ *

من اللواتى إذا أودت عريكتهنَّ يَبْقَى لها بعدها أَلٌ ومجهود
 قوله : أودت ، أى زالت وذهبت ، فهذا يدلُّ على ما ذكرنا . عُقَلْتها :
 حبستها ، يريد أن ما يعقلها به صاحبها شيء هين ، والعُقلة مثل العقدة ، وفلان
 عُقْلَةٌ يعقل بها الناس فيغلبهم ويصرعهم . دَخَلْتها : باطن أمرها ، وفلان
 عَفِيف الدَّخْلَةِ وخيئها ، أى الباطنة والسريرة . متبينة : مكشوفة ظاهرة ،
 أى سرها ظاهر . المهاتين : البكر والثيب ، والبقرة الوحشية هى الهاء . هام :
 تحير من شدة الحب .

* * *

قال أبو زيد : فرأيتُهُ جَنْدَلَةً يَتَّقِيها المَراجِم ، وتُدَمِّى منها
 المحاجِم ؛ إلا أننى قلت له : كنتُ سمعتُ أنَّ البِكرَ أشدُّ حُبًّا ، وأقلُّ
 خُبًّا ، فقال : لعمري قد قيل هذا ، وَلَكِنْ كَمْ قولٍ أذى ، ويحك !
 أما هى المَهْرَةُ الأَيَّةُ العِنان ، والمَطِيَّةُ البَطِيَّةُ الإذعان ، والزَّئِدَةُ المتعسرة .
 الاقتداح ، والقَلْعَةُ المُستَصْعَبَةُ الافتتاح . ثم إنَّ مؤنتها كثيرة ، ومُعَوَّنتها
 يسيرة ، وعِشْرَتُها صِلْفَةٌ ، ودَأَّتُها مُكَلَّفَةٌ ، ويدها خِرْفَاءٌ ، وفِثْنَتُها
 صَمَاءٌ ، وعَرِيكَتُها خَشْنَاءٌ ، وَلَيْلَتُها لَيْلَاءٌ ، وفى رِيَاصَتِها عَنَاءٌ ، وَعَلَى خِمَرَتِها
 غِشَاءٌ ، وطالما أَخَزَتِ المَنَازِلَ ، وفَرَكَتِ المَغَازِلَ ، وأُخْنَقَتِ الهَازِلَ ،
 وَأُضْرَعَتِ الفَنِيْقُ البازِلَ . ثمَّ إنَّها التى تقول : أنا ألبس وأجلس ،
 فأطلب من يُطْلِقَ ويحبس .

فقلت له : فما ترى فى الثَّيِّبِ ، يا أبا الطَّيِّبِ ؟ فقال : وَيْحَكَ ! أَتَرْغَبُ
 فى فُضالةِ المَاءِ كُلِّ ، وثُمالةِ المَنَاهِلِ ، واللِّباسِ المُستَبْدَلِ ، والوعاءِ

المُسْتَعْمَل ، والدَّوَاقِيةِ المتطرِّفةِ والخَرَاجَةِ المتصرِّفةِ ، والوَقَاحِ المُتَسَلِّطَةِ ،
والمُخْتَكِرَةِ المُتَسَخِّطَةِ . ثم كَلِمَتُهَا : كُنْتُ وَصِرْتُ ، وطالما بُنِيَ عَلَى
فُنِصِرْتُ . وَشَتَّانَ بَيْنَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ ، وَأَيْنَ الْقَمَرُ مِنَ الشَّمْسِ ! وَإِنْ
كَانَتِ الْحَنَانَةُ الْبَرْوُكُ ، وَالطَّمَّاحَةُ الْهَلُوكُ ، فَهِيَ النُّلُّ الْقَمَلُ ، وَالْجُرْحُ
الَّذِي لَا يَنْدَمِلُ .

* * *

قوله : الْمُرَاجِمُ ، أَيْ الَّذِي تَرْجُمُهُ وَيَرْجُمُكَ . خِبًا : مَكْرًا وَخَدِيعَةً ، وَرَجُلٌ
خِيبٌ : غَاشٌّ فَاجِرٌ . الْآبِيَةُ الْعِنَانُ : الْمَمْتَنَعَةُ الْقِيَادُ . الْإِذْعَانُ : الْخُضُوعُ وَالذَّلَّةُ .
الزَّنْدَةُ : مَا تَرْتُدُّ مِنْهُ النَّارُ . الْمُتَعَسِّرَةُ الْاِقْتِدَاحُ : الَّتِي يَعْسِرُ إِخْرَاجَ النَّارِ مِنْهَا .
الْقَلْعَةُ : الْحِصْنُ وَالْمَكَانُ الْمَرْتَفِعُ . عَشْرَتُهَا : مُحَبَّتُهَا . صَلِيفَةٌ : مَجَاوِزَةٌ حَدًّا
الطَّوْقُ ، وَأَصْلُ الصَّلَفِ الْإِعْرَاضُ عَنِ الشَّيْءِ كَأَنَّهُ إِذَا اسْتَقْبَلَكَ أَبْدَيْتَ لَهُ
صَلِيفَتَكَ ، وَهُوَ صَفْحَةٌ عُنُقِكَ . وَدَآئِبُهَا : انْبِسَاطُهَا ، يَرِيدُ انْبِسَاطُهَا إِذَا أَرَادَتْ
أَنْ تُدَلَّ عَلَيْكَ تَسْكَفٌ ذَلِكَ . خَرْقَاءُ : لَا تَحْسِنِ الْعَمَلَ . صَمَاءٌ : شَدِيدَةٌ ، كَأَنهَا
لَا تَسْمَعُ النَّهْيَ وَالْعِذْلَ . وَفَتْنَتُهَا : شَرُّهَا . خَشْنَاءُ : خَشْنَةٌ صَعْبَةٌ . لِيْلَاءُ :
شَدِيدَةُ السَّوَادِ طَوِيلَةٌ . خَمَرَتُهَا : لَبَسَتْهَا الْخِمَارُ . غَشَاءٌ : غَطَاءٌ وَسِتْرٌ . فُضَالَةٌ :
بَقِيَّةٌ ، وَكَذَلِكَ نَمَالَةُ الْمَنْهَلِ : مَوْضِعُ الْمَاءِ . وَالنَّهْلُ : الشَّرْبُ الْأَوَّلُ . وَالدَّوَاقِيةُ
الْمُتَطَرِّفَةُ ، أَيْ الَّتِي تَذُوقُ طَرَفَ الشَّيْءِ . وَتَتْرَكُهُ أَوْ تَذُوقُ بِطَرَفِ لِسَانِهَا ثُمَّ تَبْصُقُهُ ،
وَتَطَرَّفَتِ النَّاقَةُ : رَعَتْ بِأَطْرَافِ الْمَرْعَى ، فَيُرِيدُ أَنَّهَا لَا تَبْقَى عَلَى زَوْجٍ وَاحِدٍ ،
إِنَّمَا هِيَ تَذُوقُ كُلَّ زَوْجٍ وَتَجْرِبُ لَذَّةَ مَبَاشَرَتِهِمْ ، وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : إِنِّي قَدْ طَلَقْتُ زَوْجَتِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ اللَّهَ لَا يَحِبُّ
الدَّوَاقِينَ وَلَا الدَّوَاقِاتِ » . الْخَرَاجَةُ : الْكَثِيرَةُ الْخُرُوجُ . الْمُتَصَرِّفَةُ : الْجَوَالَةُ .
الْوَقَاحُ : الصُّلْبَةُ الْوَجْهَ الَّتِي لَيْسَ عِنْدَهَا حَيَاءٌ . الْمُتَسَلِّطَةُ : الْمُسْتَطِيلَةُ اللِّسَانُ .

والمتحكرة : التي تسرق رزق زوجها، ثم تحتكره ، أى تدخره وترفعه ، فإذا احتاج زوجها لشرائه أخذت منه نمن ما عندها محتكراً . كنتُ وصرت : تخاطب به زوجها أى كنت فى نعمة مع الزوج الأول وأنا معك على شقاء . بُغى على ، أى اجتمع على بالظلم ، والبغى : الظلم . وشتان : بُعد . واليوم وأمس : الزوج الحاضر معها والزوج المفقود ، وهو الذى أراد بالقمر والشمس ، ويقال : شتان زيد وعمر وترفعهما بشتان ، وتفتح نونها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بالأدوات ويقال : شتان ما زيد وعمر ، فتجعل ماصلة أو تنصبها على التمييز على حَدِّ نَعْم رجلًا زيدًا والتقدير : شتان شهبًا زيد وعمر ، وبرفعهما بشتان بمعنى بُعد شهبًا زيد وعمر ، ويجوز كسر نون شتان على أنها تنفية شت ، وهو التفرق ، وجمعه أشتان ، ويقال : شتان ما بين زيد وعمر ، وترفع «ما» بشتان على أنها بمعنى الذى ، وبين صلتها ، ولا يجوز كسر نون شتان لأنها اسم واحد ، ومعنى ميمها بُعد الحفانة : صاحبة الولد الذى من غير الزوج الذى هى معه : فمتى رأت ولدها حنّت لوالده ، والبروك : التى تنزوح ولها ولدٌ كبير ، ويسمى ولدها الحوبند . والطاحاة الملوكة : هى التى فارقتها زوجها فتطمح له أبدًا وتهالك فى محبّته . وقيل : الطاحاة التى تطمح إلى كل شهوة ، والمملوك الفاجرة . والغُلّ : الشريك التى يُغَلّ بها الأسير أى يربطها فى عنقه ويديه . والقمل : الذى كثرت فيه القمل ويضرب بالغلّ القمل المثل للمرأة السيئة الخلق . لا يندمل : لا يبرأ .

أبو موسى رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث يدعون الله فلا يستجيب لهم : رجل كانت عنده امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجل أعطى ماله سفيهاً ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَوَثُّوا الشُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ﴾ ، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه » .

المقدمى : قال بعض الحكماء : أربعة أشياء يمنعن النوم والقرار : المرأة السوء ،

والولد الجاهل ، والعشير المخالف ، والعبد اللئيم . قال الأصمعي : قال لي زائدة البندار : قيل لي بالشأم : هل لك أن ترى العَجَب ؟ فذهبتُ فإذا سبعة في شق ، جدّ وستة من ولده وولد ولده ، وإذا الجدّ السابع أشب من الابن السابع ، فسألت عنه فقيل : كان للجدّ امرأة مُوافقة وللابن السابع امرأة سَلِيطة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أربعة لا يشبَّهنَ من أربعة : عينٌ من نظر ، وأرض من مَطَر ، وأتى من ذكر ، وعالم من علم » .

قال الأصمعي : تزوّج رجل من غُذرة امرأة من بليّ حقاء ، فغاب عنها غيبةً ثم قدم عليها ، فلما جمعهما المضجع أنشأت تقول :

ما مسَّني بعدك من إنسي غير غلامٍ واحدٍ جَعْدِي
ورجلٍ أحق من بليّ ورَجُلين من بني عديّ
وتسعة كانوا مع المطي وسبعة كانوا على الطويّ
 وخمسة وافوا مع القسي من بين جدّي إلى مكّي
* ومن تهايميّ إلى نجديّ *

فقام إليها بالسوط فضربها ، فاجتمع لذلك من حوله يولومونه ، فقال :

والله لولا ما قتلتُ لضربها لعدّت على أهل عَرَقات ومي .

وقيل ليحيى المديني : ما الجرحُ الذي لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم .

* * *

فقلت له : فهل ترى أن أترهبَ ، وأسئلكَ هذا المذهب ؟
فانتهرني اتهار المؤدّب ، عند زلة المتأدّب ، ثم قال : ويلك ! أتقتدى
بالرهبان ، والحق قد استبان ! أف لك ولو هن رايك ، وتبّا لك ولأولئك

أَتَرَكَ مَا سَمِعْتَ بِأَنْ لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ ، أَوْ مَا حَدَّثْتَ بِمَنَاكِحِ
 نَبِيِّكَ عَلَيْهِ أَزْكَى السَّلَامِ . ثُمَّ أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَرِينَةَ الصَّالِحَةَ تَرْبُثُ يَتِّكَ ،
 وَتَلْبِي صَوْتَكَ ، وَتَقْضِ طَرْفَكَ ، وَتُطَيِّبَ عَرْفَكَ ، وَبِهَا تَرَى قُرَّةَ عَيْنِكَ ،
 وَرِيحَانَةَ أَنْفِكَ ، وَفَرْحَةَ قَلْبِكَ ، وَخُلْدَ ذِكْرِكَ ، وَتَعْلَةَ يَوْمِكَ وَغَدِكَ !
 فَكَيْفَ رَغِبْتَ عَنْ سُنَّةِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمُتَعَةِ الْمَتَاهِلِينَ ، وَشِرْعَةِ الْمُحْصَنِينَ
 وَمَجْلَةِ الْمَالِ وَالْبَنِينَ : وَاللَّهِ لَقَدْ سَاءَ نِي فِيكَ ، مَا سَمِعْتَ مِنْ فِيكَ . ثُمَّ
 أَعْرَضَ إِعْرَاضَ الْمَغْضَبِ ، وَتَرَ تَرْوَانَ الْعُنْطَابِ ، فَقُلْتُ لَهُ : قَاتَلَكَ
 اللَّهُ ! أَتَنْطَلِقُ مُتَبَخِّرًا ، وَتَدْعُنِي مُتَحِيرًا ! فَقَالَ : أَظْنُكَ تَدْعِي الْخَيْرَةَ ،
 لِتَجْلِدَ عُصْبَةَ ، وَلِتَسْتَعْنِيَ عَنِ الْمُهَيَّرَةِ . فَقُلْتُ لَهُ : قَبَّحَ اللَّهُ ظَنَّنَكَ ،
 وَلَا أَشَبَّ قَرْنَكَ . ثُمَّ رُحْتُ عَنْهُ مَرَّاحَ الْخُزْيَانِ ، وَتُبْتُ مِنْ مَشَاوِرَةِ
 الصَّبِيَّانِ .

* * *

قوله: أترهب، أى أترك الزوج، والترهب ترك النساء. اتهزنى: زجرنى
 وأخذنى بلسانه. زلة: سقطه. استبان: ظهر. الأف وسخ الأذنين، والوهن:
 الضعف والخسران. ولأولئك، إشارة للربان. السكن: الزوجة يسكن إليها
 ترب: تصلح. تلبي: تجيب. تقض طرفك، أى تحصنك وتمنعك من نظر
 النساء. عرفك: ريمحك الطيب. وقرة العين: ما يتمنى وتقر به العين.

ريحانة: شجرة طيبة الريح، وريحانة من صفة المرأة. قال على رضى الله عنه
 فى وصيته لابنه محمد بن الحنفية: « لا تملك المرأة من الأمر ما يتجاوز نفسها
 فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، وإن ذلك أذوم لحالها وأرضى لبالها » .

وما أحسن ما قال ابن اللبانة يرثي أخت المرتضى صاحب مَيُورقة ، وماتت بعد أخيها :

أُبْنَتَ الْعِلَا جَدَّدْتَ مَنَعِي عَلَى مَنَعِي
مَضَى الْمَرْتَضَى أَصْلًا وَأَتَبَعْتِهِ فِرْعَا
جَرَى الْمَوْتُ جَرَى الرِّيحِ فِي مَنَبَتِيكَمَا
فَأَذْوَكَ رِيحَانًا وَكَسَّرَهُ نَبْعًا

تَعْلَةٌ : أَى تَعَمَّلُ وَتَنْتَفِعُ بِمَا عِنْدَهَا مِنَ الْقِيَامِ بِمُؤَنَّتِكَ . وَمُتْعَةٌ : مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ وَيَتَلَذَّذُ . الْمُتَأَهِّلِينَ : الْمُتَزَوِّجِينَ الَّذِينَ لَمْ أَهْل . شِرْعَةٌ : طَرِيقَةٌ . الْحَصَنِينَ : الْمُتَزَوِّجِينَ . نَزَا : وَثَبَ وَارْتَفَعَ . الْعُنْظُبُ : ذَكَرُ الْجُرَادِ .

[فصل فى الزواج واختيار الأزواج]

ونذكر هنا فصلاً يليق بهذا الموضع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعطاف بن وداعة الملالى : « يَا عَطَافُ أَلَيْكَ امْرَأَةٌ ؟ قَالَ : لَا قَالَ : فَأَنْتَ إِذَا مِنْ إِخْوَانِ الشَّيَاطِينِ ، إِنْ كُنْتَ مِنْ رَهْبَانِ النَّصَارَى فَالْحَقْ بِهِمْ ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْنا فَسَنَتُنَا النِّكَاحُ » .

أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رَكْعَتَانِ مِنَ الْمُتَأَهِّلِ خَيْرٌ مِنْ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ رَكْعَةً مِنَ الْعَزَبِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تَزَوَّجُوا الْوُلُودَ الْوُدُودَ مِنْ النِّسَاءِ فَإِنِى مَكَاثِرٌ بِكُمْ الْأُمَمِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم « النِّسَاءُ ثَلَاثُ : صِنْفٌ كَالرَّحَى تَحْمِلُ وَتَضَعُ ، وَصِنْفٌ كَالْعَرَّةِ وَهُوَ الْجَرْبُ ، وَصِنْفٌ وَدُودٌ وَلَوْ دُعِيَ زَوْجُهَا عَلَى إِيْمَانِهِ فَهَى خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْكَنْزِ » .

ابن عمرو رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى على أمتى مائة وثلاثون سنة فقد حلت لهم العزبة والترهب فى رءوس الجبال » .
وقال صلى الله عليه وسلم : الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .
وقال خالد بن صفوان لرجل : أتزوجت ؟ قال : لا ، قال : فتزوج ، ثم قال بعد ساعة : لا تنزوج ، فقال : لم ؟ قال : إنك إن تزوجت واحدة فتطهر إن طهرت وتحيض إن حاضت وتغضب إن غضبت ، فإن تزوجت باثنتين تقع بين ضرتين ، فإن تزوجت ثلاثا تقع بين أناف ، وإن تزوجت بأربع يغلسنك ويهزمنك . قال : أفتحرم ما أحل الله لك ؟ قال : لا ، ولكن كوزان وخماران وعباءة وقروصان .

وقال رجل : أردت النكاح فقلت : لأستشيرن أول من يطلع على ، فأعمل برأيه ، فأول من طلع على هبة القينسى الأحق وتحته قصة ، فقلت له : إني لأستشيرك فى النكاح ، فقال : البكر لك والثيب عليك ، وذات الولد لا تقر بها ، واحذر جوادى لا ينفحك .

وقال رجل لولده : يا بنى لا تتخذها حنانة ولا أنانة ولا منانة ولا عسبة الدار ولا كية القفا ، فالحنانة التى لها ولد من غيره فهى تحن إليه ، والأنانة : التى مات زوجها فهى إذا رأت الثانى أنت للأول وقالت : يرحم الله فلانا ، والمنانة التى لها مال ، فهى تمن به على زوجها متى احتاج إليه ، وعسبة الدار : خضراء الدمن ، وقد تقدمت ، وكية القفا : التى انصرف ابنها أو زوجها من بين القوم قال رجل قد كان بينى وبين أم هذا أو زوجته شىء .

وسئل أعرابى عن النساء ، وكان ذا تجربة لمن فقال : أفضلن أطولهن إذا قامت ، وأكظمن إذا قعدت وأصدقهن إذا قالت ، التى إذا غضبت حلت وإذا ضحكت تبسمت ، وإذا صنعت شيئاً جودت ، التى تلزم يديها ولا تعمى

زوجها العزيزة في قومها ، الذليلة في نفسها ، الودود الولود ، وكل أمرها محمود .
 نظر خالد بن صفوان إلى جماعة في مسجد البصرة فقال : ما هذه الجماعة ؟
 قالوا : امرأة تدلّ على النساء ، فأناها فقال لها : أبغى امرأة ، قالت : فصفها ،
 قال : أريدها بكراً كثيب ، أو ثيباً كبكر ، حُلوة من قريب ، ضخمة من
 بعيد ، كانت في نعمة ، وأصابتها حاجة ، ففيها أدب النعمة وذلة الحاجة ، إذا
 اجتمعنا كنّا أهلَ دُنيا ، وإذا افترقنا كنّا أهلَ آخرة ، قالت : قد أصبْتُها لك ،
 قال : فأين هي ؟ قالت : في الرفيق الأعلى من الجنة فاعمل لها .

[حكاية خالد بن صفوان مع أبي العباس السفاح وزوجه أم سلمة]

وقال خالد لأبي العباس السفّاح - وكانت عنده أم سلمة بنت يعقوب بن
 سلمة الخزومي ، وكان تزوّجها قبل الخلافة ، وحلف ألا يتزوج عليها ، ولا
 يفسرّي :- يا أمير المؤمنين ، إني تفكرت في أمرك ، مع سعة ملكك ، وقد
 ملكتُك امرأة واحدة ، إن مرضت مرضت لمرضها ، وإن غابت غبت ،
 وحرمت نفسك التلذذ بالجوارى ومعرفة جالاتهن ، فإنّ منهن الطويلة العيّد ،
 والفضة البيضاء ، والعقيقة الأدماء ، والرقيقة السّراء ، والبربرية العجّزاء ،
 يفتنّ بمحادثتهن . ونأثك عن بنات الأحرار والنظر إليهن ، ولو رأيت الطويلة
 البيضاء ، والسمراء العيّن ، والبيضاء العجّزاء ، والمولودات من البصريّات
 والكوفيّات ذوات الألسن المذبذبة ، والقُدود المبهمة ، والأوساط المحصّرة
 والأصداغ المزرقّة ، والعيون المكحلة ، والثديّ المحقّقة ، وحسن زينتهنّ
 وشكلهنّ ، لرأيت شكلاً حسناً ، فقال له : ويحك يا خالد ! ما سلك مسامعي
 والله كلامٌ أحسن مما سمعت منك . فانصرف وبقى أبو العباس متفكراً .
 فدخلت عليه أم سلمة فرأته ، مغموماً فقالت له : إني لأنكرُك يا أمير المؤمنين ، هل
 أتاك خبرٌ فارتعت له ؟ قال : لا ، قالت : فما قصّتُك ، فزوّى وجهه عنها ، فلم
 (م ٨ - شرح مقامات الحريري - ج ٥)

نزل به حتى أخبرها ، قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال : سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه ! فخرجت مغضبة ، وأرسلت إليه جماعة من العبيد ، وبأيديهم مقامع من حديد ، وأمرتهم ألا يتركوا من خالد عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت مسروراً لما رأيت من إعجابه بما ألقيت عليه ، ولم أشك أن صلتى ستأتينى .

فأتى لقاعد على باب دارى ، وإذا بالعبيد قد أقبلوا نحوى فلم أشك فى الجائزة ، فسألوا عني فقلت : أنا خالد ، فأهوى أحدهم إلى بهراوة فوثبت إلى منزلى ، وعلمت أنى أتيت من أم سلمة . وطلبنى أبو العباس طلباً شديداً ، وأنا مستخف ، فهجم على فى الثالث ، فقالوا : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت ، فدخلت عليه وليس فى وجهى دم ، فسلمت وجلست ، وإذا خلف ظهرى سترٌ خلفه حركة . فقال لى : يا خالد أين كنت منذ ثلاثة أيام ؟ قلت : عليلاً ، قال : إنك وصفت لى من أخبار النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قط شيئاً أحسن منه ، فأعذه على ، قلت : نعم أعلمتك يا أمير المؤمنين أن العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وإن أحدهم لم يكن عنده أكثر من واحدة إلا كان فى جهنم . قال : ويحك لم يكن هذا فى الحديث ! قلت : بلى والله ، وأعلمتك أن الثلاث من النساء كأنافى القدر يُغلى عليهن . قال أبو العباس : برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعت هذا منك فى حديثك ، قلت : وأخبرت أن الأربع شؤم مجتمع لصاحبهن ، يُسقمهن ويُهزمنه ويشيبنه . قال : والله ما سمعت هذا منك قط ! قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! وتكذبنى ! قلت : وتريد أن تقتلنى ! قال : مرة فى حديثك ، قلت : وأخبرت أن أبكار النساء رجالٌ ولكن لاخصى لهن ، قال : وسمعت الضحك من وراء الستر ، قلت : وأخبرت أن بنى مخزوم ربحانة قريش وعندك ربحانة من الرياحين ، وأنت تطمح إلى غيرها من الإمام ! فقيل لى من وراء الستر : صدقت والله يا عماء وبررت ، وبهذا حدثته ، ولكنه غير وبدل . فقال لى

أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزأك ! وفعل وفعل ! فتركته وخرجت ،
فما شعرت إلا برسل أم سلمة ، ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتحت وبرزون
وغلام ، فقبضتها^(١) .

وفي هذا الحديث المليح تعلق بما ذكر الحريري من مدح النساء وذمهن ،
وخالد بن صفوان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه ، وقد تقدم في
الثالثة هذا الفن .

[من فصاحة خالد بن صفوان]

وقال أبو العباس السفاح لخالد وعنده أخواله الحارثيون : كيف علمك
بأخوالي يا خالد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، هم هامة الشرف وعزّين الكرم ،
وغرّس الجود ، وفيهم خصال ليست لغيرهم ، إنهم لأصونهم أمّا ، وأحسنهم أمّا ،
وأكرمهم شيئا ، وأطيبهم طعما ، وأوفاهم ذمّا ، وأبعدهم همّا ، الجرّة في الحرب ،
والوفد عند الجذب ، وهم الرأس في كل خطب ، وغيرهم بمنزلة العُجب .
فقال : لقد وصفت يا بن صفوان فأحسننت ، فزاد أخواله في الفخر ، فغضب
أبو العباس لأعمامه فقال : انخر يا خالد ، فقال : أعلى أخوال أمير المؤمنين ؟ قال :
فأين أنت من أعمامه ! قال : كيف أفاخر قوما هم بين ناسج برّد وسائس قرد ،
ودابغ جلد ، دلّ عليهم هدهد ، وغرّقتهم فأرة ، ومَلَكْتَهُمْ امرأة !

ودخل خالد على أبي الجهم العدوي وهو يريد ركوب حمار ، فقال خالد :
أما علمت أنّ العير عار ، وأنّ الحمار شنار ، منكسر الصوت ، قبيح القوت ،
مترنّج في الحبل ، مرتطم في الوحل ، ليس بركوبة لخل ، ولا مطية رَحْل ،
راكبه مقرّف ، ومسايره مشرف . فاستوحش العدوي من رُكوبه ، فركب
فرسا وركب خالد الحمار ، فقال : ويحك يا خالد ! أنتهى عن شيء وتأتى مثله !
قال : أصلحك الله ، عيرٌ من بنات الكدّاد ، أسحم السربال ، مدمج الأوصال ،

محملج القوائم ، يحمل الرحلة ، ويبلغ العقبة ، ويمنعني من أن أكون جباراً
عنيداً ، أو ملكاً شديداً ، فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ! ذلك لك ، وهذا
لي . فتبسم العدو .

[ذكر مقاطيع في أوصاف النساء]

ثم نرجع إلى جملة مقاطيع من أوصاف النساء تقين بها أوصافهن ،
قال العديل بن الفرخ :

لَعِبَ النَّسِيمَ بَهْنٌ فِي أَظْلَالِهِ	حَتَّى لَبَسْنَ زَمَانَ عَيْشٍ غَافِلٍ
يَأْخُذْنَ زَيْنَتَهُنَّ أَحْسَنَ مَا يُرَى	وَإِذَا عُطِّلْنَ فَهِنَّ غَيْرَ عَوَاطِلٍ
وَإِذَا أُرِينَ خَدُودَهُنَّ أُرِينَهَا	حَدَقَ الْمَهْيَ وَأَخَذْنَ سَهْمَ الْقَاتِلِ
وَرَمَيْنَنِي لَا يَسْتَتِرْنَ بُحْنَةً	إِلَّا الصَّبَا وَعَرَفْنَ أَيْنَ مَقَاتِلِي

وقال العباس بن طرخان :

تَقَسَّمْنَ قَلْبًا كَانَ مَجْتَمِعَ الشَّمْلِ	وَفَرَّقْنَهُ بَيْنَ الْمَسَالِكِ وَالشُّبْلِ
زَوَّعْنَ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ ثُمَّ سَقَيْنَهُ	صَبَابَاتِ مَاءِ الشُّوقِ بِالْأَعْيُنِ النَّجْلِ
رَمَيْنَ فَلَمَّا أَنَّ أَصْبَنَ مَقَاتِلِي	تَوَلَّيْنَ وَانْضَمَّتْ جِرَاحِي عَلَى النَّبْلِ

وقال البحتري :

لَمَّا مَشَيْنَ بَذِي الْأَرَاكِ تَشَابَهَتْ	أَعْطَافَ قُضْبَانٍ بِهِ وَقُدُودِ ^(١)
فِي يَمْنَى حَبِيرٍ وَرَوْضٍ فَالتَقَى	وَشْيَانٍ : وَشَى رُبًّا وَوَشَى رُودِ
وَسَفَرْنَ فَاْمَتَلَتْ عَيُونٌ رَاقِمَا	وَرْدَانَ : وَرَدُّ جَنَى وَوَرْدُ خُدُودِ
وَمَتَى يَسَاعِدُنَا الْوَصَالُ وَدَهْرُنَا	يُومَانِ : يَوْمَ مَنَى وَيَوْمَ صَدُودِ !

وقال التهامي :

مَاتَتْ لَفَقْدِ الظَّاعِنِينَ دِيَارُهُمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا لَهَا أَرْوَاحًا^(١)
لَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ شَحٍّ نَسَائِهِمْ وَمِنْ السَّاحَةِ أَنْ يَكْنَ شَحَا
طَرَقَتْهُ فِي أَتْرَابِهَا فَجَلَّتْ لَهُ وَهَنًا مِنَ الْغَرَرِ الصَّبَاحِ صَبَا

وأنشد الأصمعي :

خُرَاعِيهِ الْأَطْرَافُ مُرِّيَّةَ الْحَشَى نِزَارِيَةِ الْعَيْنِينَ طَائِيَّةَ الْقَمَرِ
لَهَا حُكْمُ لَقْمَانٍ وَصُورَةُ يُوسُفَ وَنَفْعَةُ دَاوُدَ وَعِقَّةَ مَرْيَمَ

وقال الأسعد بن نبيط :

غُلَامِيَّةٌ جَاءَتْ وَقَدْ جَعَلَ الْكُحَى نَلَاتِمَ فِيهَا فَصَّ غَانِيَةً خَطَا
قُلْتُ : أَحَاجِيهَا بِنَا فِي جَفُونِهَا وَمَا بِالشَّاهِ الْأَعْسَ مِنْ حُسْنِهَا الْمَعْطَى
مَحَبَّةَ الْعَيْنِينَ مِنْ غَيْرِ سَكْرَةٍ مَتَى شَرِبْتَ الْحَظَّ عَيْنِيكَ إِسْفَنْطَا
أَرَى صُفْرَةَ الْمِسْوَاكِ مِنْ مُحْمَرَةِ اللَّامِ وَشَارِبِكَ الْخَضِرَ بِالسُّكِّ قَدْ خُطَا
عَسَى قَدْ خُ قَبْلَتِهِ فَاخَالَهُ عَلَى الشِّفَةِ اللَّامِيَاءِ قَدْ جَاءَ مُنْحَطَا

فتصور في البيتين قبل هذا أحسن مقابلة ، وتصور في البيتين من آخر
هذه القطعة ثلاث تشبيهات شَبَّهَتْ بِشَيْءٍ وَاحِدٍ يَتَضَمَّنُهَا جَمْعِيًّا !

وقال ابن شرف :

قَامَتْ تَجْرُ ذِيُولُ الْعَصَبِ وَالْخَبْرِ ضَعِيفَةً ائْخَطُو وَالْمِثْقَالَ وَالنَّظَرَ
تَخْطُو فَتَوَلَّى الْحَصَا مِنْ حَلْيِهَا نُبْدَا وَتَخْلِطُ الْعَنْبَرَ الْوَرْدَى بِالْعَقْرِ
تَلَفَّتْ عَنْ طَلَاؤِ سَنَانٍ وَابْتَسَمَتْ عَنْ وَاضِحٍ مِثْلَ نَوَزِ الرُّوضَةِ الْعَطْرِ

مالذَّ للعينِ نومٌ بعد ما ذكرتُ ليلاً سمرناه بين الضَّالِّ والسَّمرِ
تساقطَ الطلُّ من فوق التَّحورِ بِرٍ تساقطَ الدُّرِّ في اللَّبَّاتِ والثَّغَرِ
وقال الرمادى :

شَطَّتْ نِوَامٍ بِشَمْسٍ فِي هِوَادِجِهِمْ لَوْلَا تَلَاوُهَا فِي لَيْلِهِمْ عَشَا
شَكَتْ مُحَاسِنَهَا عَيْنِي وَقَدْ عَذِرْتُ لِأَنَّهَا بِضَمِيرِ الْقَلْبِ تَنْخَمِشُ
شَفَرٌ وَوَجْهٌ تَبَارَى فِي افْتِخَارِهَا لِحَسَنِ هَذَا وَذَاكَ الرُّومُ وَالْحَبَشُ
شَكَتْ فِي سَقَمِي مِنْهَا، أَفِي فِرْشِي إِذَا تَأَمَّلْتُ إِلَّا الطَّيْفُ وَالْفُرْشُ ؟
ولبعض أصحابنا :

سَائِلُ سُقَاةٍ الْحَيِّ عَنْ نَجْدِيَّةٍ وَرَدَ الْحَجِيجُ بِهَا سَقَايَةَ زَمَرٍ
صَفَاءٌ كَالَّذِينَ رَعُلَ تَرِيْبُهَا بِالزَّعْفَرَانِ وَخَدَّهَا بِالْعَنْدَمِ
لَبَسْتُ بُرُودَ السَّابِرِ فَأَفْضَلْتُ مِنْ ذَيْلِهَا وَلَبَسْتُ جِلْدَ الْأَرْقَمِ
يَالَيْتَ شِعْرَى وَهِيَ أَنْسُكَ نَاسِكٍ لَمْ تَسْتَحِلْ دَمَ الْحَبِّ الْمُسْلِمِ !
نَبَّتُ أَنْ الظَّاعِنِينَ بِهَا سَعَوْا لِلْأَجْرِ فَأَقْلَبُوا بِكِبَرِ الْمَأْتَمِ
سَفَكُوا دِمَاءَ الرَّائِحِينَ إِلَى مَنِيَّ بِحَفُونِهَا وَنَجَّوْا بِسَافِكَةِ الدَّمِ
وهذا القدر في هذا الموضع كاف ، وقد تضمن هذا الديوان مقطعات بديعة
في أوصاف النساء .

[ما جاء في الاستمنا]

قوله : لتجلد عميرة ، يقال لهذا الفعل الخضضة والتدليك والاستمنا .
والاعتمار ، واعتمر الرجل : جمع يديه وضمهما لذلك ، والإلطاف للنساء مثل
الخضضة للرجال ، يقال منه : ألطفت المرأة ، وقال القتيبي بيتاً ما سمعناه على
وجه الدهر :

إذا مررتَ بوادي لا أنيس به فاضرب عُميرة لا عارٌ ولا حرجُ
آخر :

يدي ورجلي لا عدمت كليهما أصبخت أغنى من يروح ويفتدي
أمشي على هذي وأنكح هذه فطقتي رجلي وجاريتي يدي
آخر :

تسألني عن عتدي وعندي فإني يا بنـة آل مرثد
* راحلتني رجلاي واسرائتي يدي *

وقال أعرابي :

إن تبخلى بالمركب المخلوق فإن عندي راحتي وريقي
ودلكات لسن للتمزيق أشهى من التصبيح والتغبيق

وقال الخزامي :

خطبتُ إلى ساعدي راحتي وما كنتُ من شرِّ خطَّابِها
وما إن تكلفتُ من مهرِها سوى ربيعة أتجرى بها
فإن شئتُ أوتى بها ثيباً وبكراً إذا شئتُ أوتى بها
ونزَّهت نفسي عن الغانيات وعن ذِكرِ سلمى وأثرابها

وقال الحسن :

إذا أنت أنكحتَ الكريمةَ كُفُوها

فأنكح حسيباً راحة لابن ساعدي

وقل بالرفا ما نلت من وصل حرّة لها ساحة خُف بجُمسٍ ولائد

وقال ابن الرقعمق :

ومن بلائي أبو عميرٍ معرّضٌ بي إلى المنونِ
منتصباً ما ينام وقتاً وليس يهدأ من الزّنين
من يك ذا زوجة فإني لشقوتي زوجتي يميني
عميرة قد جلدتُ حتى خشيت والله تجلدوني
فراقبوا الله في يميني وخلصوها وزوجوني

وقال آخر يشتكي غلظ يده :

لو أنها لذنة قضيتُ من وطري لكنه خشنٌ أربي على السفينِ
أشكو إلى الله نعتاً قد مُنيت به وما ألاق من الإملاق والحزنِ
آخر :

ومفتابٍ إذا نبّحاً يظنّ سواه قد جرحاً
ومن لم يدر لم يالم فعاد عليه ما اجتراحاً
كنا كح كفّه ينوي فتاةً كان قد لحا
وما نكح الفتى أحداً ولكن نفسه نكحاً

فنكاحُ الكفّ هو جلدُ العميرة .

قال ابن الأَزمهر : مررت على برّذعة الموسوس ، وقد أدخل يده في جيبه ، وهو يخفض ، فضربته برجلي ، فانكشف ، فإذا هو منعظ ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أما ترى تلك ! وأشار بيده إلى جارية جميلة في عليّة متطلعة ، فقال : إني دعوتها إلى نفسي فلما لم تجبني أجبتها ، فقلت : قبّحك الله ! ووليتُ عنه . فلم يلبث أن لحق بي ، وقال : قضيتُ الحاجة على رغم أنفك ، ثم أنشدني :
أأنكرت ما عاينت من كفّ دالك وهل يُنكرُ التدليك في قول مالك

لقد أَمِنَ الدَّلَالُكَ مِنْ أَنْ تَنَالَهُمْ خُدُودُ الرِّثَانَا فِي وَاسْخَاتِ الْمَسَالِكِ
وَإِنِّي قَدْ سَكَنْتُ عَزْمَةَ عَمَلْتِي بِحَسَنِ عِيُونِ وَالثَّدَى الْعَوَاتِكِ

كذب على مالك والشافعي ، وعامة العلماء يحرمون الاستمنا ، وحجتهم
قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝

الفنجديهي : وقد جاء في تحريم الخَضَخْضَةِ حديث مشهور ، وسنده إلى
أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ،
ولا يزكّيهم ولا يجهمهم مع العالمين ، ويُدْخِلُهُمُ النَّارَ مَعَ الدَّخِيلِينَ ؛ إِلَّا أَنْ
يَتُوبُوا ، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ : النَّاكِحُ يَدَهُ ، وَالْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَمُدْمِنُ
الْخَمْرِ ، وَالضَّارِبُ أَبَوَيْهِ حَتَّى يَسْتَفِئَا ، وَالْمُؤَذِّي جِيرَانَهُ حَتَّى يَلْعَنُوهُ ، وَالنَّاكِحُ
حَلِيلَةَ جَارِهِ » . وَإِنَّمَا رُويَتِ الرِّخْصَةُ فِي ذَلِكَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ .

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن الخَضَخْضَةِ فقال : نكاح الأمة خيرٌ
منها وهي خير من الزنا .

الأزهرى : أبو عمير ذَكَرَ الرَّجُلَ .

الفنجديهي : سمعتُ الحافظَ أبا العلاء يقول : الخَضَخْضَةُ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ
أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ جَائِزَةٌ أَنْ اسْتَوَاتْ عَلَيْهِ الشَّهْوَةُ حَتَّى خَافَ عَلَى نَفْسِهِ
إِيْمَانَ الْفَوَاحِشِ .

أبو الفرج محمد بن أبي جعفر الطائي بهَذَانِ ، قَالَ : أَنْشَدَنَا الْإِمَامُ
أَبُو الْمُظَفَّرِ الْمَعَاوِي لِنَفْسِهِ ، وَكَانَ مِنْ أَرْوَعِ الْفَضْلَاءِ وَأَزْهَدِهِمْ :

خَلِيلِي لَا بَفْدَادٍ تَدْنُو فَتَنْفِضِي هُمُومِي وَلَا الرِّىَ الْبَغِيضَةَ تَبْعُدُ
فَلَيْسَ مِنَ الْأَنْصَافِ وَالْعَدْلِ أَنْكُمْ تَنْيَكُونُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ وَتُجْلَدُ
وَتَرْضُونَ بِالْحَرَمَانِ لِلْفَيْشَةِ الَّتِي عَلَى غَضَبِ بَاتِ تَقُومُ وَتَقْعُدُ

فلا تحسبو جَلْدِي عُمِيرَةً وَصِمَّةً عَلَى فَقْدِ أَفْتَى بِهَا الشَّيْخُ أَحَدُ
ولو وسعتها راحتي لاحتملتها فما حيلتي إِذْ ضَاقَ ذِرْعًا بِهَا الْيَدُ
وذكر بيتين آخرين .

قال : وأنشدني إمام أهل اللغة أبو المعالي إسماعيل بن الحسن البديع
لبعضهم :

إِنَّمَا هِيَ كُثِيرَةٌ نَشَفَتْ مَاءَ قَدِيرَةٍ
وخميرةٌ في دُكَيْرِهِ بُلَغَتْ مِنْهَا سُكَيْرَةٌ
وغلَامٌ أو فتاة قد كَفَى جِلْدَ عُمِيرَةٍ
مَنْ رَأَى عَيْشَى هَذَا عَاشَ لَا يُوْثِرُ غَيْرَةٍ

قال : وأنشدني البديع أيضاً لبعضهم :

يَا سِيدِي نَحْنُ فِي زَمَانٍ أَبْدَلْنَا اللَّهَ مِنْهُ غَيْرَةٍ
فَكُلْ ذِي خِسَّةٍ وَذَلِّ مَتَّعَ بِالطَّيِّبَاتِ أَيْرَةٍ
وكل ذِي فُطْنَةٍ وَكَيْسٍ يَجْلِدُ فِي يَتِهِ عُمِيرَةٍ

* * *

قوله : أَشَبَّ قَرْنِكَ : يُدْعَى بِذَلِكَ لِلصَّبِيِّ أَنْ يَكْبُرَ وَتَطُولَ قَامَتُهُ ، كَمَا تَقُولُ
لِلصَّبِيِّ فِي ضِدِّ ذَلِكَ : لَا كِبَرَكَ اللَّهُ . وَيُقَالُ : شَبَّ الصَّبِيُّ يَشْبُ بِكَسْرِ الشَّيْنِ
شَبَابًا بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَكَسْرِهَا ، إِذَا طَالَ وَنَمَّا جَسْمُهُ وَالصَّبِيُّ شَابَ ، وَأَشَبَّ اللَّهُ قَرْنَهُ ،
أَيَّ جَعَلَهُ شَابًا أَسْوَدَ الذَّوَابَةِ ، وَالْقَرْنُ الضَّفِيرَةُ ، وَهِيَ الذَّوَابَةُ وَقِيلَ : الْقَرْنُ جَانِبُ
الرَّأْسِ . الْمَرَّاحُ كَالرَّوَاحِ . الْخَزْيَانُ : الْمُهَانُ وَالْمُسْتَحْيَى ، وَخَزَى يَخْزِي خَزْيًا :
أُهِينَ ، وَخَزَايَةٌ اسْتَحْيَا ، فَهُوَ خَزْيَانٌ أَيْ مُسْتَحْيٍ ، وَقَوْمُ خَزَايَا .

وَتُبْتُ مِنْ مِشَاوَرَةِ الصَّبِيَّانِ ، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : خَصْلَتَانِ مِنْ عِلَامَةِ
الْجَهْلِ : مِشَاوَرَةُ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ ، وَاسْتِكْتَامُ السَّرِّ لِلنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلتُ له : أَقْسِمَ بِمَنْ أُنَبِّتَ الْآيَكُ ، أَنَّ
الجدلَ مِنْكَ وَإِلَيْكَ ؛ فَأَغْرَبَ فِي الضَّحِكِ ، وَطَرِبَ طَرَبَةَ الْمُنْهَمِكِ ،
ثم قال : الْعَقِ الْعَسَلُ ، وَلَا تَسَلْ ، فَأَخَذْتُ أَشْهَبُ فِي مَدْحِ الْأَدَبِ ،
وَأَفْضَلُ رَبِّهِ عَلَى ذِي النَّسَبِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى نَظَرِ الْمُسْتَهْجِلِ ، وَيَنْغَضِي
عَنِّي إِنْغَضَاءَ الْمُتَهَمِّلِ . فَلَمَّا أَفْرَطْتُ فِي الْعَصَبِيَّةِ ، لِلْمُضَبَّةِ الْأَدَبِيَّةِ ، قَالَ لِي :
صَهْ ، وَاسْتَمِعْ مِنِّي وَافَقَةً :

يَقُولُونَ إِنَّ جَمَالَ الْفَتَى وَزِينَتَهُ أَدَبُ رَاسِخٍ
وَمَا إِنْ يَرَيْنَ سِوَى الْكَثَرِينَ وَمَنْ طَوْدُ سُـوَدِّهِ شَامِخٍ
وَأَمَّا الْفَقِيرُ فَخَيْرُهُ لَهُ مِنْ الْأَدَبِ الْقُرْصُ وَالْكَامِخِ
وَأَيُّ جَمَالٍ أَنْ يَقَالَ أَدِيبٌ يَعْلَمُ أَوْ نَاسِخٌ !
ثم قال : سَيَبْضِحُ لَكَ صَدَقَ لَهْجَتِي ، وَاسْتِنَارَةَ حُجَّتِي .

الأيك : شجر . الجدال منك وإليك ، أى إتماماً كان هذا الخصام بينك
وبين نفسك ، ولم يكن ثم صبي تحاوره ، أى أن حديثك مصنوع لأصل له .

[بعض الحكايات المصنوعة]

ومن مستعمل الأخبار المصنوعة ما يحكى أن حبيب بن أوس ، قال : لِقِينَا
أَعْرَابِيٌّ ، وَقَدْ خَرَجْتُ فِي أَيَّامِ الْوَاتِقِ إِلَى سَرٍّ مَنْ رَأَى ، فقلتُ له : مِمَّنْ؟ قَالَ : مِنْ
بَنِي عَامِرٍ ، قلتُ : كَيْفَ عَمَلُكَ بِعَسْكَرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ : قَتَلْتُ أَرْضاً عَالِهَا ، قلتُ :
مَا تَقُولُ فِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : وَثِقَ بِاللَّهِ فَكَفَاهُ ، أَشْجَى الْعَاصِيَةِ ، وَقَمَعَ
الْعَادِيَةَ ، وَعَدَلَ فِي الرِّعْيَةِ . قلتُ : فَمَا تَقُولُ فِي أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ ؟ قَالَ : هَضْبَةٌ .

لا ثرام ، وجبل لا يُضام ، تُشَحِّذْهُ أُنْدَى ، وَتُنْصَبْ لَهُ الْحَبَائِلُ ، حَتَّى إِذَا قُبِدَ
وُثْبَ وَثْبَةِ الذُّبِّ ، وَخَتَلَ خَتَلَ الضَّبِّ . قلت : فحمد بن عبد الملك ؟ قال :
وَسِعَ الدَانِي شَرْهُهُ ، وَوَصَلَ الْبَعِيدَ ضَرْهُهُ ، لَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَرِيحٌ ، لَا يُرَى فِيهِ
أَثَرُ نَابٍ ، وَلَا نَدَبٌ مِخْلَبٍ ، قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ قال :
ذَلِكَ الرَّجُلُ نُشِرَ بَعْدَ مَا قُبِرَ ، فَعَلِيهِ حَيَاةُ الْأَحْيَاءِ ، وَخَفَّتْهُ الْمَوْتَى . قلت : فابن
الْخَصِيبِ ؟ قال : أَكَلْتُ أَكْلَةَ نَهْمٍ ، وَذَرَقْتُ ذَرَقَةَ بَيْشَمٍ ، قلت : فأخوه إبراهيم ؟ قال :
أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ، قلت : فَأَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ؟ قال :
لِللَّهِ دَرَّةٌ ! أَيُّ رَجُلٍ هُوَ ! اتَّخَذَ الصَّبْرَ دَنَارًا ، وَالْحَقَّ شَعَارًا ، وَإِنْ هَوَّنَ عَلَيْهِ يَهُمُّ ،
قلت : فإسليمان بن وهب ؟ قال : ذَلِكَ رَجُلُ السُّلْطَانِ ، وَبِهَاءُ الدِّيَّانِ ، قلت :
فأخوه الحسن ؟ قال : عُودٌ نَضِيرٌ ، غُرْسٌ فِي مَنَابِتِ الْكَرَمِ حَتَّى إِذَا اهْتَزَلَتْ لَمْ
حَصْدُوهُ ، قلت : فإبراهيم بن نجاح ؟ قال : ذَلِكَ رَجُلٌ أَوْفَقَهُ كَرَمُهُ ، وَأَسْلَمَهُ
حُسْبُهُ ، وَلَهُ دَعَاءٌ لَا يُسَلِّمُهُ ، وَرَبٌّ لَا يَخْذَلُهُ ، وَخَلِيفَةٌ لَا يَظْلِمُهُ ، قلت : فنجاح
ابن سامة ؟ قال : لِلَّهِ دَرَّةٌ أَيُّ طَالِبٍ وَثَرٌ وَمَدْرِكٌ نَارٌ ! يَلْتَهَبُ كَأَنَّهُ شَعْلَةُ نَارٍ ،
لَهُ مِنَ الْخَلِيفَةِ فِي الْأَنَامِ جَلْسَةٌ تَزِيلُ نَعْمًا ، وَتَحُلُّ نَعْمًا ، قلت : يَا أَعْرَابِيَّ أَيْنَ
مَنْزِلُكَ ؟ قال : اللَّهُمَّ غَفِّرْ لِي إِذَا اشْتَمَلْتُ الظَّلَامَ ، أَلْتَحَفْتُ اللَّيْلَ ، فَيَتِمَّ أَدْرَكُنِي الرَّقَادَ
رَقَدْتُ ، وَلَا أَخْلُقُ وَجْهِي بِمَسْأَلَتِهِمْ ؟ أَمَا سَمِعْتَ هَذَا الطَّائِيَّ يَقُولُ :

وَمَا أَبَالِي وَخَيْرُ الْقَوْمِ أَصْدَقُهُ حَقَّقْتُ لِي مَاءَ وَجْهِى أَوْ حَقَّقْتُ دُمِي
فَقُلْتُ لَهُ : أَنَا قَائِلُ هَذَا الشَّعْرِ ، قَالَ : أَتُنْفِكُ لِأَنْتَ الطَّائِيَّ ! قلت : نعم ،
قال : اللَّهُ أَبُوكَ ، أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ :

مَاجُودُ كَفَكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخَلَتْ مِنْ مَاءِ وَجْهِى إِذَا أَخْلَقْتَهُ عَوَضُ
قلت : نعم ، قال : أَنْتَ أَشْعَرُ أَهْلِ زَمَانِكَ .

وَنُبَيِّ خَبَرَهُ إِلَى ابْنِ أَبِي دَاوُدَ فَأَوْصَلَهُ إِلَى الْوَاتِقِ ، فَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ ،
وَأَخَذَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ مَا غَنَى بِهِ عَقِبُهُ بَعْدَهُ .

وهذا الخبر خرج عن أبي تمام ، فإن كان صادقاً^(١) وما أراد ، فقد أحسن الأعرابي الوصف ، وإن كان صنفه فقد قصر إذ منزلته أكبر من هذا .

* * *

قوله : أغرب ، أى أكثر الضحك حتى دمت عيناه . المنهمك : المبالغ الطرب . العق العسل ولا تسَلْ ، معناه إن طاب لك الكلام فاحفظه ولا تسَلْ عن صدقه ولا باطله ، كما إذا وجذب العسل حلواً فلا يلزمك السؤال عن نَحْلِهِ وقد قال فيما مضى :

* ولا تسأل الشَّهْد عن نَحْلِهِ *

فهذا هو ذلك . أمِهَب : أبالغ وأكثر . ذى النّشب : صاحب المال . يفضى : يتغافل . المستجهل : الذى يحسبني جاهلاً . المهمل : المؤخر ، وقد أمهله أى أخره . صه : معناه اسكت . القُرْص : الخبز ، وتسمى الخبزة قرصة ؛ لأن الخابز بقرصها من العجين ، أى يقطعها .

[الكامخ]

والكامخ : شئ يصنع من اللبن الحامض ، وهو أنواع . وقد قدّم لأعرابيٍّ كامخ ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : كامخ ، فقال : قد علمت فأنيكم كمخ به ؟ يقال : كمخ البعير إذا أخرج ثَلْطَه رقيقاً . وقدّم لأعرابيَّين كامخ ، فذاقه أحدهما ، فلم يستطبه ، فقال : هذا خرم ، وذاقه الآخر فاستطابه ، فقال : يوشك أن يكون خرم الأمير ! وقدّم لأعرابيٍّ كامخ فلم يستطبه قال : ما هذا ؟ قالوا : كامخ ، قال : ومن أى شئ صنع هذا ؟ قالوا : من الحنطة واللّبن قال : أبوان كريمان : وما أنجبا .

(١) الخبر في أخبار أبي تمام للمولى ٨٩ - ٩٣

وَقَدَّمَ لأعرابي كأمخ ، فلم يَسْتَطِيعْهُ ، وأكل منه شيئاً وخرج ، ودخل المسجد والإمام في الصلاة يقرأ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ ، فقال الأعرابي : والكامخ لا تَنْسَهُ أَصْلَحَكَ اللهُ !

وقيل : هو طعامٌ يؤتَمُّ به .

وقيل : هو البقل في الطعام مثل الكبر والزيتون والمرء والعناب إذا غلب طخاء الشحم على المعدة ، أخذ الرَّجُلُ منه شيئاً ، فانبجلى عن معدته ، وتنشَّط للأكل .

وقال أعرابي يصف إبْطِيهَ بالثَّنَن :

كَأَنَّ إبْطِيَّ وَقَدْ طَالَ الْمَدَى نَفْثَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوَامِيخِ الْقُرَى^(١)
الأصمعيّ : قدم علينا أبو طَيْبَةَ الأعرابيّ بعد ما خرج إلى البادية ، وتفقّه ، قللنا له : ما قولك في البيض ؟ قال : حرام ، قللنا : ولم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ والدجاج عندي من ذوى الأظفار . قللنا : فما قولك في الكامخ ؟ قال : حرام ، قللنا : ولم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفُخَّارِ ﴾ ، والكامخُ يتخذ من الفخار ، فأظنُّ بينه وبين الجلد نسبا .

قوله : واقفه ، معناه افهم . راسخ : ثابت . الكثيرين : الأغنياء . طَوْدٌ سَوْدَدَه : ارتفاع سيادته . والطود : الجبل . شامخ ، أى ثابت مرتفع . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ فِيهِ أَصْفَرٌ وَأَبْيَضٌ لَمْ يَتِمَّنِ الْعِيشُ » - يعنى الذهب والفضة .

وقال مهيار الديلمي :

تَشْرَفُ بِحِطِّ فَإِنَّ الْحِطُّوَظَ حُلَى كُلِّ ذِي نَسَبٍ يَفْضُلُ^(٢)

وما الحظ في أدب مُفصحٍ وَمِنْ دونه نسبٌ مُجهلٌ
تُراضِي الفتى رتبة وهو حيث يجعله ماله يُجَمَلُ

وقال ابن قاضي ميلة :

أُسعدُ بجدِّك لا تكونُ أدبياً أو أن يرى فيك الورى تهذِيباً
إن كنتَ مستويّاً ففعلك كلُّه عِوجٌ، وإن أخطأت كنت مصيباً
كالنفس ليس يصحُّ معنى ختمه حتَّى يكون بناؤه مقلوباً

قوله : لهجتى ، أى منطقى ، وقيل : هى جرس الكلام ، وقيل : هى
طَرَف اللسان ، وفلان فصيح اللهجة ، وهى لغته التى جُبِل عليها فاعتادها ونشأ
عليها . اسقنارة : ظهر نورها .

* * *

وسِرنا لا نألو جُهـداً ، ولا نستفيق جهـداً ؛ حتَّى أدانا السَّير ،
إلى قريةٍ عَزَبَ عنها الخَيْرُ ، فدخلناها للارتِياد ، وكلَّانا مُنْفِضٌ من
الزَّاد ؛ فإِنْ بَلَّغْنَا المَحَطَّ ، والمناخَ المَخْطَطَ ، أو لَقِينَا غلامٌ لم يبلغ الحِثَّ
وعلى عاتقه صِنْتَ . فحياه أبو زيدٍ تحيةَ المُسلم ، وسأله وَفَقَةَ المُفهِم ، فقال :
وعمَّ تسأل وققك الله ؟ قال : أبيع هاهنا الرُّطْبَ بألْطَب ؟ قال : لا
والله . قال : ولا أبلعُ بالمَلَح ؟ قال : كلاً والله ، قال . ولا الثَّمر بالسَّمر ؟
قال : هيهات والله . قال : ولا العَصائِدُ بالقَصائِد ؟ قال : اسكُتْ
عافاك الله . قال : ولا الثَّرائِدُ بالفرائِد ؟ قال : أين يذهب بك أَرشدك
الله ! قال : ولا الدَّقِيق بالمعنى الدَّقِيق ؟ قال : عدَّ عن هذا أصلحك الله !

* * *

نالو : نقصر . جهداً : طاقة واجتهاداً . نستفيق جُهداً : نستريح من المشقة .
 أدانا : أوصلنا . والقرية : في كلامهم : الموضع الذي يجتمع الناس فيه ، وقريةُ
 الماء في الحوض جمعته فيه . وعزُب : بعد . للارتداد : لطلب ما يؤكل .
 مُنفِض : فارغ ، وأنْفَضَ : فني زاده فنفض مزوده من الفُتات . الحطّ :
 المنزل الذي تحطّ فيه الأحمال . والمناخ : مثله في المعنى . والمُختطّ : المُعَلَّم عليه
 بخطّ ، وكلُّ موضع أردت حمايته ومنعه خططت عليه بخطّ ، فمن رآه علم أنه
 محميٌّ فاجتنبه . الحنث : الإنم ، أى لم يبلغ حدّ التكليف ، وهو الحلم فيكتب
 عليه إثم . على عاتقه ضيفت ، أى على عنقه حزمة حشيش ، والعائق : ما بين
 المنكب والعنق ، والضغث قبضة من أخلاط النبات أو من قُضبان مختلفة .
 المُفهم : الخبز المبين . أبيع هاهنا الرطْبُ بالرطْب ؟ الرطْب والبلح نوعان من
 التمر . والسمر : السهر بالليل على الحديث . هيهات ، أى بعد .

ابن عباس رضى الله عنهما : ما باع الدقيق برّ ولا فاجر إلا أصفر لونه
 وقسا قلبه ، ونزعت الرّحمة من قلبه .

الفرائد : جواهر الكلام . أين يذهب بك : أين تتلف وتضل ! ولذلك
 دعا له ، فقال : أرشدك الله ، أى هداك الطريق . عدّ : كَفَّ واضرف .

* * *

واستخلى أبو زيد تراجمَ السُّؤالِ والجوابِ ، والتكأيلَ من
 هذا الجراب . ولمح الغلام أن الشوْطَ بيطين ، والشيخ شويطين ، فقال
 له : حسبك يا شيخ قد عرفت فنك ، واستبنت أنك ، فخذ الجوابَ
 صبرة ، واكتف به خبرة ؛ أمّا بهذا المكان فلا يشتري الشَّعْرُ بشميرة ،
 ولا النثر بئثارة ، ولا القَصَصُ بقصاصة ، ولا الرِّسالة بفسالة ، ولا حِكْمُ

لُفْهَانِ بِلُفْهَةٍ ، وَلَا أَخْبَارُ الْمَلَا حِمِ بِلُحْمَةٍ . وَأَمَّا جَيْلُ هَذَا الزَّمَانِ ، فَمَا مِنْهُمْ
 مِنْ يَمِيحٍ ، إِذَا صَيَّغَ لَهُ الْمَدِيحُ ، وَلَا مَنْ يُحِيزُ ، إِذَا أُنْشِدَ لَهُ الْأَرَا حِيزُ ،
 وَلَا مَنْ يُعِيثُ ، إِذَا أُطْرِبَ بِهِ الْحَدِيثُ ، وَلَا مَنْ يَمِيرُ ، وَلَوْ أَنَّهُ أَمِيرُ .
 وَعِنْدَهُمْ أَنْ مِثْلَ الْأَدِيبِ ، كَالرَّبْعِ الْجَدِيبِ ، إِنْ لَمْ تَجِدِ الرَّبْعَ دِيمَةً ،
 لَمْ تَكُنْ لَهُ قِيَمَةً ، وَلَا ذَاتَهُ بِهَيْمَةً . وَكَذَلِكَ الْأَدَبُ ، إِنْ لَمْ يَعْضُدْهُ نَشَبٌ ،
 قَدَرُسُهُ نَصَبٌ ، وَخَزَنَهُ حَصَبٌ . ثُمَّ انْسَدَرَ يَعْدُو ، وَوَلَّى يَحْدُو .

* * *

لمح : نظر . الشَّوْطُ : الطَّلَقُ والجَرْيُ إِلَى الْغَايَةِ : الْأَخْفَشُ الشَّوْطُ أَنْ
 تَأْتِيَ إِلَى مَوْضِعٍ تَرِيدُهُ ، ثُمَّ تَرْجِعُ وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَذَلِكَ شَوْطٌ
 آخَرُ ، وَمَنْ الْحَجَرَ إِلَى الْحَجَرِ شَوْطُ : وَجَرَى الْفَرَسُ شَوْطًا إِذَا بَلَغَ مَجْرَاهُ ثُمَّ
 عَادَ . بَطَيْنٌ : مَتَّسِعٌ ، وَمَعْنَاهُ : عَلِمَ أَنَّ كَلَامَ الشَّيْخِ كَثِيرٌ . وَرَجُلٌ بَطَيْنٌ : عَظِيمُ
 الْبَطْنِ ، وَكَيْسٌ بَطَيْنٌ ، أَيْ مَلَانٌ ، وَأَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

وَزَحَزْخَنَ بَيْنَ أَدَانِي الْفَضَى وَبَيْنَ عُيْزَةِ شَوْطًا بَطَيْنًا

شَوِيطَيْنِ ، أَيْ دَوِيهِيَّةٍ لَا تَقَاوِمُ ، وَتَصَغِيرُهُ بِمَعْنَى التَّعْظِيمِ . حَسْبُكَ :
 يَكْفِيكَ . فَتُكْ : نَوْعُكَ وَطَرِيقُكَ . اسْتَبْنَتْ أُنْتُكَ ، أَيْ تَحَقَّقْتَ أَنَّكَ دَاهِيَةٌ :
 صُبْرَةٌ : أَيْ جُمْلَةٌ بَغِيرُ كَيْلٍ ، وَكَدْسُ الْقَمْحِ ، وَمَا يَكَالُ يُسَمَّى صُبْرَةً . اِكْتَفَى :
 اقْتَنَعَ . خَبْرَةٌ : اخْتِبَارٌ . النَّثْرُ : ضِدُّ النِّظْمِ مِثْلُ التَّرَا سِلِ وَالْخُطْبِ . وَالنُّثَارُ :
 مَا تَنَاقَرَتْ مِنْ الشَّيْءِ ، أَيْ تَفَقَّتْ ، تَقُولُ : نَثَرْتُ الشَّيْءَ أَيْ رَمَيْتُ بِهِ مُفْتَرَقًا ، وَاسْمُ
 مَا يَتَسَاوَرُ مِنْهُ النُّثَارَةُ . وَالْقَصَصُ : أَخْبَارُ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَالْقُصَا صَةُ : مَا تَسَاوَرَتْ
 مِنَ الشَّعْرِ إِذَا قُصَّ . وَالْفُسَالَةُ : الْمَاءُ الَّذِي قَدْ غُسِلَ بِهِ بَقِيَّةُ الطَّعَامِ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ

ويروى : « بفضالة » ، مكان غسالة ، والفضالة من الزرع إذا غُرِبِلَ تَبَقَّى في الغربال فتدرس بعد ذلك ، ويخرج ما فيها من الزرع .

وأنشد الفَنَجْدِيَّ في هذه المعاني :

عرضت على الخبَّاز نحوَ المبرِّدِ وكتباً حسناً للخليل بن أحمد
ورؤيا ابن سيرين وخطَّ مهلهل وتجويد عمرو بعدَ قسه محمد
وأنشدته شعر الكُمَيْتِ وجِرْوَلٍ وغنيتهُ لحنَ الفَرِيضِ ومَعْبُدٍ
فما نفعتني دون أن قلتُ هاكها مدورة صُفراً تظنُّ على اليدِ

وقال أخبرني أبو المحاسن بن أبي العلاء بن محمد الأديب ، قال : أنشدني لنفسه أبو يوسف بن محمد يعقوب الأديب .

[ذكر لقمان عليه السلام]

قوله : ولا حكم لقمان بلمعة ، في لقمان سبعة أقوال :

قال قتادة : خيَّرَ الله بين النبوة والحكمة ، فاختر الحكمة ، فقذفها عليه جبريلُ ، وهو نائمٌ ، فأصبح ينطق بالحكمة ، فسيئِل عن ذلك ، فقال : لو أرسل الله إلى النبوة عزمةً ، لرجوتُ الفوز بها ، ولكنه خيَّرني فخفت أن أضعف عن النبوة .

وقيل : كان من الثوبة قصيراً أفتس الأنف .

وقيل : كان حبشياً .

سعيد بن المسيب : كان أسود من سودان مصر ، ذا مشفرٍ ، حكمته حكمة الأنبياء .

وقيل : كان خياطاً .

وقيل : كان راعياً ؛ فراه رجلٌ كان يعرفه قبل ذلك ، فقال : ألسَ عبد

بني فلان كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى ؟ قال : فما بلغ بك ما أرى ، قال :

وما يُعْجِبُكَ مِنْ أَمْرِي؟ قَالَ : وَطءُ النَّاسِ بِسَاطِطِكَ ، وَغَشْيُهُمْ بِأَبْكَ ؟ وَرِضَاهُمْ بِجَوْلِكَ؟ قَالَ : يَا بَنَ أَخِي ، إِنْ صَنَعْتَ مَا أَقُولُ لَكَ كُنْتَ كَذَلِكَ ، قَالَ : وَمَا تَصْنَعُ؟ قَالَ غَضَّ بَصْرِي ، وَكَفَّ لِسَانِي ، وَعَقَّةَ طَعْمِي ، وَحَفِظَ فَرْجِي ، وَقِيَامِي بِسَهْدِي ، وَوَفَائِي بِوَعْدِي ، وَتَسْكِرَةَ ضَيْفِي ، وَحَفِظَ جَارِي ؛ وَتَرَكْتُ مَا لَا يَعْنِينِي ؛ فَذَلِكَ الَّذِي صَبَّرَنِي كَمَا تَرَى .

وَيُرَوَّى أَنَّهُ قَالَ : قَدَّرَ اللَّهُ وَأَدَّاءَ الْأَمَانَةَ وَصَدَقَ الْحَدِيثَ وَتَرَكْتُ مَا لَا يَعْنِينِي .
أَنْسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْحِكْمَةُ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفًا ، وَتَرْفَعُ الْمَلُوكَ حَتَّى يَجْلَسَ مَجَالِسَ الْمُلُوكِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)^(١) .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو إِسْحَاقَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ إِبْرَاهِيمَ الثَّعَالِبِيَّ الْمُبَشِّرَ : انْفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ لُقْمَانَ كَانَ حَكِيمًا ، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ، إِلَّا عَكْرَمَةُ فَإِنَّهُ تَفَرَّدَ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ .
ابْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : حَقًّا أَقُولُ ، لَمْ يَكُنْ لُقْمَانُ نَبِيًّا وَلَكِنْ كَانَ عَبْدًا صَمَّصَامَةً ، كَثِيرَ التَّفَكُّرِ ، حَسَنَ الْيَقِينِ ، أَحَبَّ اللَّهُ فَاحِبَهُ ، وَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْحِكْمَةِ .

وَهَبُ بْنُ مِنْبَهٍ : كَانَ لُقْمَانُ ابْنُ أُخْتِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقِيلَ : ابْنُ خَالَتِهِ ، وَكَانَ فِي زَمَنِهِ ، وَكَانَ دَاوُدُ يَقُولُ لَهُ : طُوبَى لَكَ ! أُوتِيتَ الْحِكْمَةَ ، وَصَرَفْتَ عَنْكَ الْبُلُوْى ، وَأُوتِيتَ دَاوُدَ الْخِلَافَةَ وَبُلِيَّ الْبَلِيَّةَ . وَكَانَ دَاوُدُ يَغْشَاهُ وَيَقُولُ : انْظُرُوا إِلَى رَجُلٍ أُوتِيَ الْحِكْمَةَ ، وَوُقِيَ الْفِتْنَةُ .

عَبْدُ الْوَارِثِ : أُوتِيَ لُقْمَانُ الْحِكْمَةَ فِي قَالَةٍ قَالَهَا ، فَقِيلَ : وَهَلْ لَكَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً فَتَعْمَلَ بِالْحَقِّ؟ فَقَالَ : إِنْ تَحْتَرَلِي فَسَمْعًا وَطَاعَةً ، وَإِنْ تَحْيِّرْنِي أَخْتَارُ الْعَافِيَةَ .
صَحِيلٌ : وَمَا عَلَيْكَ أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً فَتَعْمَلَ بِالْحَقِّ؟ قَالَ : فَإِنْ أَعْمَلَ بِالْحَقِّ

فبالحرى أن أنجبو، وإن أخطىء الحق أخطىء طريق الجنة، وإنه من يبع الآخرة بالدنيا يخسرهما جميعاً، وأن أعيش حقيراً ذليلاً أحبُّ إلى من أن أعيش قوياً عزيزاً. فشكر الله تعالى مقالته، ففطه في الحكمة غطة فأصبح وهو أحكم الناس

وقيل : كان عبداً نجاراً فقال له سيده : اذبح شاة وأتني بأطيب مُضغتين ، فأثاه بالقلب واللسان ، ثم أمره بمثل ذلك ، وأن يُخرج أخبث مُضغتين ، فأخرج القلب واللسان ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : ليس شيء أطيبُ منهما إذا طابا ، ولا أخبثُ منهما إذا خَبِثا .

وأما حكمته فقد ذكر الله تعالى منها في كتابه ما علم ، وذكر مالك في مؤطته منها كلاماً كثيراً ، وذكر منها فصلاً في كتاب الجامع من الموطأ .

ومن حكمته : يا بني إنَّ الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون ، وهم إلى الآخرة مِرَاعاً يذهبون ، وإنَّك قد استدبرت الدنيا منذ كنت ، واستقبلت الآخرة ، وإن داراً تسير إليها أقربُ من دارٍ تخرج منها . يا بني ليس غنى كصحة ، ولا نعيمٌ كطيب نفس . يا بني لا تجالس الفجَّار ولا تماشيهم ؛ اتق أن ينزل عليهم عذابٌ من السماء فيصيبك معهم ، وجالس العلماء وزاحمهم بركنيك ، فإن الله تعالى يُحْيِي القلوب الميتة بالعلم ، كما يُحْيِي الأرض بوابل المطر .

أبو إسحاق الثعالبي يأسناد له عن عكرمة ، قال : كان لقمان من أهون ممالك سيده عليه ، فبعثه مولاه مع عبيد له إلى بستانه يأتونه بشيء من ثمر فجاءوه ومامعهم شيء ، وقد أكلوا الثمر ، وأحالوا على لقمان ، فقال لقمان لمولاه : ذو الوجهين لا يكون عند الله وجهياً ، فاستقى وإياهم ماء حمياً . ثم أرسلنا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيثون تلك الفاكهة ولقمان يتقيأ ماء ، فعرف مولاه صدقه وكذبهم .

قال : وأول ما عُرِف من حكمته أنه كان مع مولاه ؛ فدخل مولاه المبرز فأطال فيه الجلوس ، فناداه لقمان : إنَّ طول الجلوس مع الحاجة ليجمع منه

الكبد، ويؤثر البأسور، ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هويّتي، قال :
فخرج وكتب حكمته على باب الحشّ .

قال : وسكر مولاه يوماً فخطر قوماً أن يشرب ماءً بجمرة ، فلما أفاق عرف
ما وقع فيه ، فدعا لقمان فقال له : لئلا هذا كنت اختبأتك . فقال لمولاه : أخرج
أباريقك ثم اجمعهم ؛ فلما اجتمعوا قال : على أي شيء خاطرتهم ؟ قالوا : على أن
يشرب ماء هذه البجيرة . قال : فإن لها مواداً فاحبسوا عنها موادها ، قالوا :
وكيف نستطيع ذلك ! قال لقمان : وكيف يستطيع هو أن يشربها ولها مواداً !
وأراد مولاه بيعه . فقال : يا مولاي إن لي عليك حقاً فلا تبغني إلا
ممن أحب . قال : لك ذلك ، فكان الرجل إذا جاء يستامه قال : لأي شيء
تريدني ؟ فقال أحدهم : تحفظ عليّ بابي . قال : اشتري ، فلما جنّه الليل أغلق
الباب ، وقام يصلي في الدهليز . وكان لبنات الرجل أخلاء فجاءوا فضربوا
الباب ، فقلن : يا لقمان ، افتح الباب ، فقال : بأبي أنتن وأمي ! ليس لهذا
اشتراني أبوكن ، فضربته ضرباً كدّن أن يأتين منه على نفسه ، فلما أصبح
لم يخبر أباهن ، فلما كانت الليلة الثانية عاودنه بمثل ذلك ، فلما أصبح لم يخبر
أباهن ، فلما كانت الليلة الثالثة عاودنه بمثل ذلك ، فلما أصبح لم يخبر أباهن ، فأقبل
بعضهن على بعض فقلن : ما جعل الله هذا العبد الأسود أوّلئ بهذا الخير منا ،
قال : فتسكن نسكاً لم يكن في بني إسرائيل أفضل منهن .

عبد الله بن دينار ، قال : قدّم لقمان من سفر ، فاستقبله غلام له في الطريق ،
فقال له لقمان : ما فعل أبي ؟ قال : مات ، قال : الحمد لله ملكت أمري ، قال :
ما فعلت أمي ؟ قال : ماتت ، قال : الحمد لله ، ذهب همي . قال : ما فعلت امرأتي ؟
قال : ماتت ، قال : الحمد لله جدّد فراشي ، قال : ما فعلت ابنتي ؟ قال : ماتت ،
قال : الحمد لله سترت عورتى ، قال : ما فعل ابني ؟ قال : مات ، قال : إنّنا لله
ولمّا إليه راجعون ، انتطع ظهري !

وقيل له : ما أقبح وجهك ! قال : أتعيب على هذا النقش أم على النقاش !
وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سادة السودان أربعة : لقمان والنجاشي
وبلال ومنهجم » .

وتمَّ لقمان آخر وهو لقمان بن عاد ، وهو تذكره العرب في أخبارها ،
وكان أيضاً حكيماً ، وكانت له أخت محمقة فقالت لامرأته : هذه ليلة طهوري ،
فهبي لي ليلتك ، طمعاً في أن تعلق من أخيها ينجيب ، ففعلت فولدت لقنم بن
لقمان ، وفيه يقول النمر بن تولب :

لُقْنَمُ بن لُقْمَانَ من أُخْتِهِ فكان ابنَ أُخْتَيْهِ وابْنَمَاً^(١)
وقال المسيب يذكره :

أَنْتَ الرَّئِيسُ إِذَا هُمْ نَزَلُوا وتَوَاجَهُوا كَالْأَسَدِ وَالنَّمْرِ
وَلَأَنْتَ أَبِينِ حِينَ تَنْطِقُ مِنْ لُقْمَانَ لَمَّاعِي بِالْفَكْرِ
وقالت بنت عثمان بن وثيمة ترضى أباه :

الْوَاهِبُ الْمَائَةِ التَّلَا دَلَّنَا وَيَكْفِينَا الْعَظِيمَةَ
وَالدَّفَاعُ الْخَصْمَ الْأَلَدَ إِذَا تَفَوَّضَ فِي الْخَصُومَةِ
بِلِسَانِ لُقْمَانَ بْنِ عَا دَ وَفَصَّلَ خُطْبَتَهُ الْحَكِيمَةَ
أَجْلَتْهُمْ بَعْدَ التَّجَا ذُبَّ وَالتَّدْفَعُ فِي الْحُكُومَةِ

* * *

قوله الملاحم : مواضع الحروب التي تلتجِم فيها الجموع ، وتختلط عند القتال
وتسمى أخبار الوقائع والحروب ملاحم . جيلك : أهل عصرك . الأوان :
الحين والعصر . يُمِيج : يعطى معروفاً ؛ ويحتمل أن يريد يسقيك ماء ، والماتح :
النازل في قعر البئر ، يخرج ماءها ، وقد ماح الماء ، إذا استقاه . صَنِيع : صنعة .
يُجِيرُ : يُعْطَى الجائزة . يُغِيثُ : يتكرَّم ويحود ، وهو من الغيث . يَمِيرُ :

(١) اللسان (لقم) من غير نسبة .

يُعْطَى الميرة . والميرة : الطعام المجلوب . والرَّبع : المنزل . الجديب : الذي لا يُمْطَر . ديمة : مَطَرٌ دَائِمٌ . دانته : قاربتَه . يعصَّده : يقويه . نشب : مال . نَصَب : تعب . حِزْبُه : أهله . والحَصَب : هو الحطب الملقى في النار ، وكلَّ ما تطعمه النار فهو حَصَب ، وهو من حَصَبْتُهُ بالحصباء ، أى رميته بها . انسَدَر : جرى وانصبَّ في جريه ، وانسدر البازي ، إذا انحطَّ . يَعْدُو : يسرع . يحدو : يتابع الجري ، وكل شيء اتبعته فقد حَدَوْنَهُ .

* * *

فقال لى أبو زيد : أَعْلِمْتَ أَنَّ الْأَدَبَ قَدْ بَارَ ، وَلَّتْ أَنْصَارُهُ الْأَذْبَارَ ؛ فَبَوَّتْ لَهُ بِحُسْنِ الْبَصِيرَةِ ، وَسَلَّمَتْ بِمُحْكَمِ الضَّرُورَةِ . فقال : دَعْنَا الْآنَ مِنَ الْمِصَاعِ ، وَخُضْ فِي حَدِيثِ الْقِصَاعِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَسْجَاعَ ، لَا تُشْبِعُ مَنْ جَاعَ ؛ فَالتَّديِيرُ فِيمَا يُمَسِّكُ الرَّمَقَ ، وَيُطْفِئُ الْحَرَقَ ؟ فقلت : الْأَمْرُ إِلَيْكَ ، وَالزَّمَامُ بِيَدَيْكَ ، فقال : أَرَى أَنْ تَرَهْنَ سَيْفَكَ ، لَتُشْبِعَ جَوْفَكَ وَضَيْفَكَ ، فَنَاوِلْنِيهِ وَأَقِمْ ، لِأَنْتَقِلَ إِلَيْكَ بِمَا تَلْتَقِمُ .

فأَحْسَنْتَ بِهِ الظَّنَّ ، وَقَلَّدْتَهُ السَّيْفَ وَالرَّهْنَ ، فَالْبَثُ أَنْ رَكِبَ النَّاقَةَ ، وَرَفَضَ الصَّدْقَ وَالصَّدَاقَةَ ؛ فَكَثَّتْ مَلِيًّا أَتْرَقِبُهُ ، ثُمَّ نَهَضَتْ أَتَعَقِبُهُ ؛ فَكَثَّتْ كَمَنْ صَيَّعَ اللَّبَنَ فِي الصَّيْفِ ، وَلَمْ أَلْقَهُ وَلَا السَّيْفَ .

* * *

بَارَ : هَلَكَ ، وَمِنْهُ بَارَ الطَّعَامُ ؛ إِذَا كَسَدَ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ بَوَرٍ الْأَيْتِمِ » أَيْ مِنْ كَسَادِهَا . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ ^(١) أَيْ لَنْ

تَكْسَدُ ، وقال تعالى : ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى هالكين . قال الفراء :
البُور يكون للمذكر والمؤنث والائنين والجمع بلفظ واحد . أبو عبيدة رحمه الله :
هو جمع بائر كعائذ وعوذ ، ويدل على صحة قول الفراء قول ابن الزبير :
يا رسول الملوك إنَّ لساني راتق ما فتقتُ إِذْ أَنَا بُورٌ^(١)

بُوت : رجعت . البصيرة : اليقين والاعتماد الصحيح . المِصاع : مراجعة
الكلام . والمِصاع فى الأصل : القتال والدِّفاع وكل ما عانته بشدة وجدَّ فقد
ماصعته . القِصاع فى الأصل : صحاف الطعام . الأسجاع : الكلام المقفر . الرَّمق :
بقية النفس . والحرق : جمع حُرقة ، وأراد بطفء الحرق تسكين ألم الجوع .
ما لبث : ما أقام ولا استقر . رَفَضَ : ترك . الصدق : قول الحق ، والصدّاقة :
الصحة . مكثت ملياً : أمت زماناً . أترقبه : أنتظر مجيئه . أتعقبه : أمشى
فى أثره وأطلبه .

[أصل المثل : الصَّيْفُ ضِيَعَتِ اللَّبَنُ]

وضيَع اللَّبن فى الصيف ، مثل يُضرب لكل مَنْ ضَيَّع أمره ، ثم تعرض
لاستدراكه بعد فوته ، قاله عمرو بن عُدَس التميمي ، وكان تزوّج دَخَنُوس
بنت لقيط بن زُرارة - وكان شيخاً مُسِنَّاً ذا مال كثير - فأبغضته بسبب كِبَره
وسأله طلاقها ، فطلقها وتزوَّجها عمير بن مَعْبِد بن زُرارة - وكان شاباً معدِّماً -
فبينما هو معها جالس إذ مرَّت بهما إبل عمرو بن عمرو بن عُدَس كالليل
لكثرتها ، فقال لها عمير : ابعنى إلى عمرو يعطيك لبناً أو حلوبة ، فأرسلت إليه
رسولاً بذلك ، فقال لرسولها قل لها : الصَّيْفُ ضِيَعَتِ اللَّبَنُ^(٢) ، فلما بلغها ذلك
ضربت على كتف ابن عمها ، وقالت : هذا ومذقه خير ، فيريد أنه طلقها فى
الصَّيْف فضاع لبنها فى ذلك الوقت . وقال فى الدرة : خصَّ الصَّيْف بالذكور
لأنها كانت سألته الطلاق فيه ، فكأنها يومئذ ضيَعَت اللَّبن . والله تعالى أعلم .

(١) طبقات الشعراء ٢٠٢

(٢) جمهرة الأمثال ١ : ٥٧٥

المفامة الرابعة والأربعون وتعرف بالشتوية

حَكَى الْحَارِثُ بْنُ هَامٍ قَالَ : عَشَوْتُ فِي لَيْلَةٍ دَاجِيَةِ الظُّلَمِ ،
فَاجِحَةِ اللَّامِ ، إِلَى نَارٍ تَضْرُمُ عَلَى عِلْمٍ ، وَتُخْبِرُ عَنْ كَرَمٍ ، وَكَانَتْ لَيْلَةً
جَوُّهَا مَقْرُورٌ ، وَجَنِبُهَا مَزْرُورٌ ، وَنَجْمُهَا مَغْمُومٌ ، وَغَيْمُهَا مَرَكُومٌ ،
وَأَنَافِهَا أَصْرَدُ مِنْ عَيْنِ الْحَرْبَاءِ ، وَالْعَنَزِ الْجَرْبَاءِ ، فَلَمْ أَزَلْ أَنْصُ عَنْسِي ،
وَأَقُولُ : طُوبَى لَكَ وَلِنَفْسِي ، إِلَى أَنْ تَبْصُرَ الْمَوْقِدَ آلِي ، وَتَبَيَّنَ إِرْقَالِي ،
فَاتَحَدَّرَ يَعْدُو الْجَمْزَى ، وَيُنْفِثُ مُرْتَجِزًا !

* * *

دَاجِيَةٌ وَفَاجِحَةٌ : شَدِيدَةُ السَّوَادِ . وَاللَّامُ : جَمْعُ لَيْلَةٍ ، رُبُّ مُجْمَعَةِ الشَّعْرِ الَّتِي
أَلَمَّتْ بِالْمَسْكِبِ ، أَيْ قَارِبَتِهِ . وَجَعَلَ لِلَّيْلَةِ لَيْلَةً مُجَازًا ، وَهُوَ يَرِيدُ شِدَّةَ سَوَادِهَا .
تَضْرُمُ : تُوقَدُ . عِلْمٌ : جَبَلٌ . جَوُّهَا : نَاحِيَةُ سَمَائِهَا . مَقْرُورٌ : بَارِدٌ ، وَأَرَادَ
أَنْ مَا يَحْيَى مِنْ جَوِّهَا مِنَ الرِّيحِ وَالْهَوَاءِ بَارِدًا جَدًّا . مَزْرُورٌ : مُشْدُودٌ بِالْأَزْرَارِ ،
وَهِيَ أَطْوَاقُ الثِّيَابِ ، وَهَذَا يَكُونُ فِي طَوِّقِ الصَّغِيرِ يُشَقُّ فِي صَدْرِ الثَّوبِ عَوَضًا
عَنِ الْجَنْبِ ، وَيُتْرَكُ مِنَ الطَّوِّقِ طَرَفَانِ عَلَى ذَلِكَ الشَّقِّ ، فَإِذَا لَبَسَ الثَّوبَ شَدَّ
الطَّرَفَيْنِ ، فَيَقَالُ عِنْدَ ذَلِكَ : قَدْ زَرَرْتُ الثَّوبَ ، يَرِيدُ أَنْ السَّحَابُ قَدْ تَكَاثَفَ
فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَلَا تَبْصُرُ الْعَيْنُ فِيهَا لَشِدَّةَ ظِلَامِهَا ، لِأَنَّ الثَّوبَ إِذَا شَدَدْتَ
أَزْرَارَهُ ، لَمْ يَجْدِرْ أَسُ الْإِنْسَانِ مِنْ أَيْنَ يَخْرُجُ ، فَلَمَّا جَعَلَ لِلَّيْلَةِ ثَوْبًا مِنَ الظَّلَامِ
وَالسَّحَابِ جَعَلَهُ مَرْبُوطًا مُشْدُودًا مَغْمُومًا مُسْتَوْرًا . غَيْمُهَا : سَحَابُهَا . مَرَكُومٌ ،
أَيْ مَتْرَاكِبٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ . أَنْصُ عَنْسِي ، أَيْ أَجْهَدُ نَاقَتِي وَأَتَعَبُهَا ، وَالتَّنْصَ
رَفْعُ السَّيْرِ ، وَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : مَا كُنْتُ قَائِلَةً لَوْ أَنَّ

رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك ببعض الفلوات ناصّة قُلُوصاً من منهل
إلى آخر ، ومنه نصّ الحديث إلى فلان ، أى رفعه إلى شخص . وإِرْقَالِي :
سُرْعَتِي . يعدو : يُسْرِع . الجزى : عدو شديد .

* * *

حَيِّتَ مَنْ خَاطِلَ لَيْلِ سَارِي	هَدَاهُ بَلْ أَهْدَاهُ ضَوْءَ النَّارِ
إِلَى رَحِيبِ الْبَاعِ رَحْبِ الدَّارِ	مُرْحَبٍ بِالطَّارِقِ الْمُتَّارِ
تَرْحَابَ جَعْدِ الْكَفِّ بِالذِّينَارِ	لَيْسَ بِمَزُورٍّ عَنْ الزُّوَارِ
وَلَا يَمْتَنِمُ الْقِرَى مِثْخَارِ	إِذَا اقْشَعَرَّتْ تَرْبُ الْأَقْطَارِ
وَضَنْتِ الْأَنْوَاءُ بِالْأَمْطَارِ	فَهُوَ عَلَى بُؤْسِ الزَّمَانِ الضَّارِ
جَمُّ الرَّمَادِ مُرْهَفُ الشَّفَارِ	لَمْ يَخْلُ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارِ

* من نَحَرَ وَارٍ وَاقْتَدَحَ وَارِي *

* * *

قوله : سَارِي ، أى آتٍ بالليل . واخْطِطَ : الماشى على غير عِلْمٍ بالطريق .
هداه ، من الهداية . وأهداه ، من الهدية . رحيب الباع : كثير البر . واسع
العطاء : واسع البر . والرحب : التسع . مرْحَبٌ ؛ يقول : مرحباً بك . والطَّارِقُ :
الآتِي بالليل . المتَّار : طالب الميرة ، وهى الطعام يُجَلَّبُ من بلد إلى بلد . جَعْدُ
الكف ، هو البخيل أى يَرْحَبُ بالضيف كما يَرْحَبُ البخيل بالدينار إذا وقع
في كَفِّهِ .

نظر أعرابيٌّ إلى درهم في يد رجل ، وأدام التَّنَظَّرَ إليه ، فقال له الرجل :
لو كان لك ما كنت صانعاً ؟ قال : كنت أنظر إليه نظرة ثم تكون آخر
عهده باليد .

وكان بعضُ البخلاء إذا وقع الدرهم في يده يخاطبه ويقول له : أنت عَقْلِي
ودينِي وصلاتِي وصيامِي وجامع شَمْلِي وقرّة عيني وأنسى ، وقوتِي وعُدَّتِي وعمادِي
ثم يقول له :

أَهْلًا وَسَهْلًا بَكَ مِنْ زَائِرٍ كُنْتُ إِلَى وَجْهِكَ مُشْتَاقًا

ثم يقول : يَا نَوْرَ عَيْنِي وَحَبِيبَ قَلْبِي ، قد صرْتَ إلى من يصونك ، ويعرف
قدرَكَ ، وَيُعْظِمُ حَقَّكَ ، ويرعى قِيَمَتَكَ ، ويشفق عليك ، وكيف لا تكون
كذلك وَأَنْتَ تَعْظِمُ الْأَقْدَارَ وتَعْمُرُ الدِّيَارَ ، وتُفْتَضُّ بِكَ الْأَبْكَارَ ، وتسمو
على الْأَشْرَافِ ، وترفع الذِّكْرَ ، وتُعْلِي الْقَدْرَ ، وتؤنس من الوحشة ، ثم يطرحه
في الْكَيْسِ ، ويقول :

بِنَفْسِي مُحِبُّوبٌ عَنِ الْعَيْنِ شَخْصُهُ وَمَنْ لَيْسَ يَحُلُو مِنْ لِسَانِي وَلَا قَلْبِي
وَمَنْ ذَكَرَهُ حَظِيٌّ مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَأَوَّلُ حَظِيٍّ مِنْهُ فِي الْبَعْدِ وَالْقَرَبِ

مُزَوَّرٌ : مُنْقَبِضٌ . معتام : مؤخَّر مبطيء . والقَرَى : طعام الضيف ،
معناه أنه لا يؤخَّر طعامه ، ويقال : أَعْتَمَ يَابِلُهُ إِذَا أُخِّرَ حَلْبُهَا ، ومنه الْعَتَمَةُ
للتأخُّر وقتها . منخار : كثير التأخُّر . اقشعرت : انقبضت من شدة البرد .
تُرَبٌ : جمع تُرْبَةٍ وهي وجه الأرض . والأقطار : البلاد والنواحي . صَنَّتْ
الأنواء : بجلت النجوم ، وكانوا يستمطرون بها . بؤس : شدة . الضَّارِي :
المعتاد ، أي الذي عادته ألا يكون فيه غير بُؤس . جمٌ : كثير ، وإذا كثرت
الرماد كان عن كثرة النار ، وكثرة ما يُطْبَخُ عليها . مُرَهَفٌ : قاطع . اقتداح :
ضرب بالزند . وارٍ : بعير سمين ، ووَرِيَّ المَخْ : اكتنز فهو وارٍ ، ووَرِيَّ الزند
فهو وارٍ ، أي مبيد للنار .

ثُمَّ تَلَقَّانِي بِمَحِيَّا حَيٍّ ، وَصَاحَنِي بِرَاحَةِ أَرْيَحِيٍّ ، وَاقْتَادَنِي إِلَى
بَيْتِ عِشَارِهِ تَحُورٌ ، وَأَعْشَارُهُ تَقُورٌ ، وَوَلَائِدُهُ تَمُورٌ ، وَمَوَائِدُهُ تَدُورٌ ،
وَبَأْكَسَارِهِ أَضْيَافٌ قَدْ جَلَبَهُمْ جَالِي ، وَقُلُوبُوا فِي قَالِي ، وَهُمْ يَحْتَنُونَ
فَاكْهَةَ الشِّتَاءِ ، وَيَمْرَحُونَ مَرَحَ ذِي الْفَتَاءِ ، فَأَخَذْتُ مَا خَذَهُمْ فِي
الْاضْطِلَاءِ ، وَوَجَدْتُ بِهِمْ وَجْدَ الثَّمِيلِ بِالطَّلَاءِ .

* * *

مُحِيَّا : وَجْه . صَاحَنِي : وَاجَهْنِي وَقَابِلْنِي . رَاحَةُ : بَكَفٌ . أَرْيَحِيٍّ : كَرِيمٌ
يَهْتَزُّ لِلْكَرَمِ . اقْتَادَنِي : سَاقَنِي . وَلَائِدُهُ : خَدَمُهُ . تَمُورٌ : تَسِيرُ وَتَخْتَلِفُ .
بِالطَّعَامِ مَوَائِدُهُ : جَمْعُ مَائِدَةٍ .

أَبُو عُبَيْدٍ : سُمِّيَتْ مَائِدَةٌ لِأَنَّهَا مِيدَ بِهَا صَاحِبُهَا ، أَيْ أُعْطِيَهَا وَتُقْضَى عَلَيْهِ
بِهَا ، وَالْعَرَبُ يَقُولُ : مَا دَنِي فَلَانٌ يَمِيدُنِي ، إِذَا أَحْسَنَ إِلَيَّ ، فَكَأَنَّ الْمَائِدَةَ تَمِيدُ
مِنْ حَوَالِيهَا مِمَّا أُخْضِرَ عَلَيْهَا ، قَالَ رُوَيْبَةُ :

* إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَاذِ *^(١)

أَيُّ الْمُسْتَعْطَى غَيْرُهُ ، سُمِّيَتْ مَائِدَةٌ لِأَنَّهَا تَمِيدُ بِهَا عَلَيْهَا ، أَيْ تَتَحَرَّكُ ، وَمَادَ
الْفَصْنُ يَمِيدُ : مَالٌ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ ﴾ .
الْجَرْمِيُّ يَقَالُ : مَائِدَةٌ وَمَيْدَةٌ وَأَنْشَدَ :

وَمَيْدَةٌ كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ تُصْنَعُ لِلْإِخْوَانِ وَالْجِيرَانِ

وَذَكَرَ الْقَوْلِينَ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي دُرَةِ الْفَوَاصِ^(٢) وَزَادَ أَنَّهُ لَا يَقَالُ لَهَا مَائِدَةٌ
إِلَّا أَنْ يُخْضَرَ عَلَيْهَا طَعَامٌ ، وَإِلَّا فَهِيَ خِوَانٌ ، وَاسْتَدَلَّ بِأَنَّ الْخَوَارِثِينَ لَمَّا اقْتَرَحُوا

(١) ديوانه ٢٠

(٢) دُرَةُ الْفَوَاصِ ١٠

على عيسى عليه السلام أن يُنزل عليهم مائدة ، قالوا نريد أن نأكل منها .
 قال : وحكى الأصمعي قال : غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لي ، فلقيني
 أبو عمرو بن العلاء فقال لي : إلى أين يا أصمعي ؟ قلت : إلى صديق لي ،
 فقال : إن كان لفائدة أو لعائدة أو لمائدة ، وإلا فلا ، وهذا باب يتسع كثيراً ،
 وسأسوق جملة تأتي على أكثره .

[فصل فيما قيل في الكرم وإيقاد النار للضيف]

وهذه الحالة التي وصف من إيقاد النار هي التي كان يفعل حاتم . وكان إذا
 اشتد البرد وكتب الشتاء أمر غلامه ، فأوقد ناراً في فِئاعٍ من الأرض ، لينظر
 إليها مَنْ أضلَّ الطريق ليلاً فيهندي إليها ، وقال في ذلك :

أوقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرُوءٌ وَالرِّيحُ يَا مَوْقِدُ رِيحٌ صِرُوءٌ^(١)
 عَلَّ يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُّ إِنْ جَلَبْتَ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرٌّ

ولابن هرمة في هذا أشعار مُسْتَحْسَنَة منها :

أَغْشَى الطَّرِيقَ بَقَبَتِي وَرَوَّاقِيهَا وَأَحْلُ فِي قُلَلِ الرُّبَا وَأَقِيمُ^(٢)
 إِنْ امْرَأٌ جَعَلَ الطَّرِيقَ لَيْتَهُ طُنْبًا وَأَنْكَرَ حَقَّهُ لِلتَّيْمِ
 وقال مهيَّار :

ضَرَبُوا بِمَدْرَجَةِ الطَّرِيقِ قِبَابَهُمْ يَتَقَارَعُونَ عَلَى قَرَى الضَّيْفَانِ^(٣)
 وَيَكَادُ مَوْقِدُهَا يَجُودُ بِنَفْسِهِ - حُبُّ الْقَرَى - حَطَبًا عَلَى النَّيْرَانِ

(١) ديوانه ٦٠

(٢) ديوانه ١٩٤

(٣) ديوانه ٢ : ٥٩

ولابن هرمة أيضاً :

ومستنجح تستكشط الرِّيح ثوبه
عوى في سواد الليل بعد اعتساقه
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً
ليسقط عنه وهو بالرمل مُعصم^(١)
لينبح كلب أو ليفزع نوم
له عند إنياف الملين مطعم
يكلمه من حبه وهو أعجم

وقال بعض المحدثين :

ويدل ضيفي في الظلام على القرى
حتى إذا واجهته ولقيته
وتكاد من عرفان ما عودته
من ذاك أن يفصح بالترحاب
إشراق ناري أو نباح كلابي
حينئذ يبصائص الأذنان

ولابن هرمة في ذلك أيضاً :

كيف احتيالي لبسط الضيف من حصري
عند الطعام قد ضاقت به حيلي^(٢)
أخاف تردد قولي : « كل » فأقطعه
والسكت ينزله متى على البخل
كيف احتيالي لبسط الضيف من حصري

وقال حاتم :

سلي الطارق المتار يا أم مالك
أيسفر وجهي إنه أول القرى
إذا ما عتراني بين قدري ومجزري^(٣)
وأبدل معروف له دون منكري

(١) ديوانه ٤٩

(٢) ديوانه ١٨٢

(٣) الفهر لمروء بن الررد ، ديوانه ٩٩

وقال أيضاً :

أما والذي لا يعرف السرَّ غيره
لقد كنت أختار القرى طاوياً الحشى
وإني لأستحيي عيني وبينها
ويحيى العظام البيض وهي رميم^(١)
محافظة من أن يقال لئيم
وبين في داجي الظلام بهم

وقال أيضاً :

أكفُّ يدي من أن تنال النيامها
أيت مضم الكشح مضطرم الحشى
وإني لأستحي رفيقي أن يرى
وإنك إن أعطيت بطنك سؤله
أكفُّ صحابي حين حاجتنا ممة^(٢)
من الجوع أخشى الدم أن أنضلاً
مكان يدي من جانب الزاد أقرعاً
وفرَجك نالاً مُنتهى الدم أجمعا

وقال أبو زياد الأعرابي :

له نارٌ تُشبَّ على يفاع
فلم يك أكرَّ الفتيانِ مالا
إذا النيران ألبستِ الفئاعا
ولكن كان أرحبهم ذراعاً

وقال آخر :

لعلَّ عاراً إذا ضيفَ تأوَّبي
ما كان عندي إذا أعطيت مجهودى
جهد المقل إذا أعطاك نائله
ومكث في الغنى سيَّان في الجود

وقال آخر :

تركت ضائي تود الذئب راعيها
وأنها لا تراني آخر الأبد

(١) ديوانه ٨٧

(٢) ديوانه ٦٩

الذئب يطرقُها في الدهر واحدة وكلّ يوم ترانى مديّة بيدي
وقال آخر :

وسّع بمدك ماء اللحم تقسيمه وأكثر الشؤب إن لم يكثر اللبن
وسّع به وتلفت نحو حاضره إنَّ الكريم الذي لم يخله الفطن
وقال الغنوى :

لحافٍ لحاف الضيف والبيت يته ولم يلهني عنه غزالٌ مُقنّع
أحدثه إن الحديث من القرى وتكلأ عيني عينه حين يهجع
وقال آخر :

وإنّا لمشايون بين رحالنا إلى الضيف منا لاحفٌ ومُنيم^(١)
قدو الحلم منا جاهل دون ضيفه وذو الجهل منا عن أذاه حلیم
وقال آخر :

سأقذح من قدرى نصيباً لجارتى وإن كان ما فيها كفافاً على أهلي
إذا أنت لم تُشرك رفيقك في الذي يكون قليلاً لم تشاركه في الفضل
ولبعض أصحابنا :

وسارٍ تحلى أنجم الليل زينةً ويلبس من ظلماتها ثوباً ثاكل
رفعت له نارى فأنس ضوءها كما آنس الظمان برْدُ المناهل
أتانا خفيّاً فكان جوابه صليل سفار السيف في ساق بازل
وما أنا من سؤاله ممّ الفتى وتلك سحاباً كلّ أطلس بالي
فذاك الذي أودى بما اكتسبت يدي وإن عاد وفري عُدتُ غير مواكل

[ما قيل في البخل]

وقال آخر في ضد ما قلناه :

أراني من بني حَكَمٍ غريباً على قترٍ أُرُورٍ ولا أزارُ
أناسٌ يأكلون اللحم دوني ويأتيني العاذِرُ والقَتَارُ

القدر والقطر : الجانب .

وقال آخر :

مات في عُرْسٍ سُلَيْمًا نَ من الجُوعِ جَمَاعَةً
مات أقوامٌ وقومٌ حملوا فيه القَنَاءَةَ
لم يكن يوجد فيه الخبز إِلَّا بِشَفَاءِهِ

آخر :

وما تُنْسِي الأيَّامَ لا أنسَ جوعنا بدار بني بَدْرٍ وطولَ التَّلَدِّ
ظللنا كأننا بينهم أهلُ ماتمٍ على مَيِّتٍ مستودع بطنَ مَلَحَدٍ
يحدث بعضٌ بعضنا عن مصابه ويأمر بعضٌ بعضنا بالتَجَلُّدِ

وفي هذا طرف من قول الآخر :

إذا ما عراكمُ حادثٌ فتحدّثوا فإنَّ حديثَ القومِ يُنْسِي المَصَائِبَا
وأهلُ الحُزْنِ يستعملون الحديثَ اشتغالاً عن المصيبة .

وقال بشار :

أبناء عمرو ولقي خفضٍ وفي دعةٍ وفي عطاءٍ لعمري غيرَ مَمْنُوعِ
وضيف عمرو وعمرو ساهرانِ معاً عمرو لبطنته والضيفُ لِلْجُوعِ

آخر :

ما كنت أحسب أن الخبزَ فأكهة حتى نزلتُ على قومٍ بِمَيْسَانِ

قوم إذا حلَّ ضيفٌ بين أظهرهم لم يُنْزِلُوهُ ودلُّوه على الخانِ
آخر :

والناس في فِطْرِ سَوى شهرهم ودهر أضيافك شهر الصيام
آخر :

كُتِبَتْ لَهُ صِيْفَا فِظْنٍ بِأَنِّي كُتِبْتُ لَهُ ضِيْفَا فِقَامٍ إِلَى السَّيْفِ
قُلْتُ خَيْرًا فِظْنٍ بِأَنِّي ذَكَرْتُ لَهُ خَيْرَ أَفْهَاتٍ مِنَ الْخَوْفِ

وإن ابنَ هَرَمَةَ الْأُمِّ النَّاسُ مع ادَّعائه في شعره الكرم ، قال رجل :
أَتَيْنَاهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَرِيشٍ أَحْبَبْنَا أَنْ يَتَنَزَّهَ عِنْدَنَا ، وَمَشِينَا بِزَادٍ كَثِيرٍ ، فَخَرَجَ
عَلَيْنَا ، وَقَالَ : مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ قُلْنَا : شَعْرُكَ حَيْثُ قُلْتَ : إِنْ أَمْرًا جَعَلَ الطَّرِيقَ
لَيْتَهُ ... ، وَقَوْلُكَ أَيْضًا :

وَإِذَا تَنَوَّرَ رَاكِبًا مُسْتَنْبِحٌ نَبَحَتْ فَدَلَّتْهُ عَلَى كَلَابِى (١)
وَعَوَيْنَ يَسْتَعْجِلْنَهُ فَلَقَيْنَهُ يَضْرِبْنَهُ بِشَرَّاسِفِ الْأَذْنَابِ (٢)
وسمعناك تقول :

كَمْ نَاقَةٍ قَدْ وَجأتُ مُنَحَرِّهَا بِمَسْتَهْلٍ الشُّؤْبُوبِ أَوْ بَجَلِ (٣)
لَا أُمْتِيعَ الْعُوذَ بِالْفَصَالِ وَلَا أَتْبَاعَ إِلَّا قَرِيبَةَ الْأَجْلِ

فَنَظَرَ إِلَيْنَا وَقَالَ : مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ عَصَبَةٌ أَسْخَفُ عَقُولًا مِنْكُمْ ،
أَمَّا سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فِي الشُّعْرَاءِ ،
وَاللَّهُ إِنِّي لَا أَقُولُ مَا لَا أَفْعَلُ ، وَأَنْتُمْ تَرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَ مَا أَقُولُ ، وَاللَّهُ لَا أَغْضِبُ
رَبِّي فِي رِضَاكُمْ . فَضَحَكْنَا مِنْهُ وَأَخْرَجْنَاهُ مَعْنَا يَتَنَزَّهَ حَتَّى فَنِيَ الزَّادُ .

(١) ديوانه ٧٣

(٢) في الديوان : « وَفَرَحْنَا إِذْ أَبْصَرْنَاهُ فَلَقَيْنَاهُ »

أتى الحطيئة رجلٌ وهو في غنمه ، وقال : يا صاحبَ الغنم ، سلام عليك ،
 قرفع الحطيئة العصا ، وقال : إنها عجّراء من سَلَمٍ ، فقال الرجل : إني ضيف ،
 هال : للضيفان أعددتُها ، فأعاد السلام ، فقال : إن شئتَ قمتُ بها إليك .

ومرّ به ابن حمامة وهو جالس بفناء بيته ، فقال : السلام عليكم ، فقال :
 قد قلتَ مالا ينكر .

وقال : خرجت من أهلى بغير زاد ، قال : ما ضمنتُ لأهلك قراك ، قال :
 أفتأذن لى أن آتى ظلَّ بيتك ؟ قال : دونك الجبل بنىء عليك ، قال : أنا
 ابن حمامة ، قال : انصرف وكن ابن أوى طائرٍ شئت . يروى هذا عن
 أبى الأسود الدؤلى .

ونزل الغضبانُ بن القَبَعَثْرِ خارجَ كِرْمان وهو قرية كثيرة الرّمضاء ،
 فضرب قَبَتَه ، فورد عليه أعرابى من بكر ، فقال : السّلام عليك ، قال : السّلام
 عليك كثير ، وهى كلمة مقولة ، قال الأعرابى : ما اسمك ؟ قال : آخذ ، قال أو
 تعطى ؟ قال : ما أحبّ أن يكون لى اسمان ، قال : ومن أين جئت ؟ قال : من
 الدّلّول ، قال : وأين تريد ؟ قال : أرضنا أمشى فى مناكبها ، قال : ومن غرض
 اليوم ؟ قال آل فرعون على النّار ، قال : فمن بُشّر ؟ قال : الصّابرون ، قال : فمن
 غلب ؟ قال : حزبُ الله قال : أفتقرض ؟ قل : إنما تقرض الفأرة ، قال : أفتُسَمِع
 قال : إنما تُسَمِع القينة ، قال : أتنشد ؟ قال : إنما تُنشد الضّالة ، قال : أفتقول ؟
 قال : إنما يقول الأمير ، قال : أتنسجّع ؟ قال : إنما تسجع الحمامة ، قال :
 أفتنطق ؟ قال : كتاب الله ينطق ، قال : إنك لمنكر ، قال : إني لمعروف ،
 قال : ذلك أريد ، قال : وما إرادتك ؟ قال : الدُّخول عليك ، قال : وراءك
 أوسع ، قال : قد أضرّتنى الشّمس ، قال : الساعة يأتىك النّىء ، قال : الرّمضاء
 أحرقت قدمى ، قال : بُلّ عليهما تبرداً ، قال : قد أوجعتنى الحرّ ، قال : ليس لى

عليه سلطان ، قال : إني لا أريد طعامك ولا شرابك ، قال : أتعرض بهما ؟
والله لا تذوقهما عندي ، قال : سبحان الله ! قال : قبل كوكبك ، قال : ما أرى
عندك ؟ قال : هراوة أرزن ، أدق بها رأسك . فتركه وانصرف .

الأصمعيّ: عَذَلْتُ أعرابية أباهَا في إتلاف ماله ، فقالت : يا أبتِ ، حبس المال
أنفع للعيال من بذل الوجه للسؤال ، وقد أتلقت التلاد ، وبقيت ترقب ما بأيدي
العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه يُوشك أن يقع فيما يضره ، أخذه ابن المعتز فقال :

يا ربَّ جودٍ جرَّ قترِ امرئٍ فقام للناس مقامَ الذليل^(١)
فاشددْ عُرَا مالك واستبقه فالبخل خيرٌ من سؤال البخلِ
وقال بعض البخلاء :

أَعَدَدْتُ للأضياف كلباً ضارياً عندي وفضل هراوة من أرزنِ
ومعاذيراً كذباً ووجهاً باسراً وتشكياً عضَّ الزمان الأذنِ
الأذن : المضيق .

محمد بن الجهم : وِدَدْتُ أَنْ عَشْرَةَ من الفقهاء ، وعشرة من الشعراء ،
وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الأدباء ، تَوَاطَعُوا على ذمِّي حتى ينتشر ذلك
عنهم في الآفاق ، فلا يمتدَّ إلى أمل أمل ، ولا يَنْبَسِطُ نحوِي رجاء لراجٍ .

وكان يقول : مَنْ وَهَبَ في عمله فهو مخدوع ، ومن وَهَبَ بعد العزل فهو
أحمق ، ومن وَهَبَ في جوائز سلطانه ، أو عمل لم يتعب فيه فهو مخدول ،
ومن وَهَبَ من كسبه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه ، المختوم على
سمعه وبصره .

وقال : مَنْعُ الجميع ، أرَضَى للجميع . وهذا كتول الأصمعي ! لو قسمت في

التاس ألف ألف لكان أكثر للأثمي من لو أخذتها منهم ، قالوا : ولم يُرد البخل ؛ ولكن إذا تعذر عليه أن يعم فلا يخص .

وقال آخر : قول « لا » يدفع البلاء وقول « نعم » يزيل النعم .

دعبل كنّا يوماً عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضرّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فإذا بصحفة فيها مَرَقٌ ولحم ديك ، قد هَرِمَ ، لا تحزّ فيه سكين ، ولا يؤثر فيه ضرس ، فأخذ قطعة من خبز فقلع بها جميع المرق ، وفقد الرأس ، فبقى مطرقاً ساعة ثم رفع رأسه إلى الغلام وقال : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولم ظننت ذلك ؟ فوالله إنّي لأمقت مَنْ يرمى برجله فضلاً عن رأسه ، والرأس رئيس الأعضاء وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، وفيه عيناها اللتان يُضرب بهما المثل في الصفاء ، فيقال : شراب مثل عين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلى ، فإن كان بلغ من جهلك أبقى لا آكله ، فإنّ عندنا مَنْ يأكله ، انظر أين هو ؟ قال : والله لا أدرى أين رميتُ به ، قال : لكني والله أدرى ، رميتُ به في بطنك .

ولسهل هذا رسالة مدح فيها البخل وفضله على السخاء ، ليرى في ذلك بلاغته ، وأهداها إلى الحسن بن سهل في وزارته للأموّن فوقّع عليها : لقد مدحت ما ذمّه الله ، وحسّنت ما قبح ، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معنأك ، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول ما فضلت فيها ، وتنادّب فيها بأدبك . ولم يعطه شيئاً .

وقيل : إنّ الذي أهدى إليه كتابُ ألفه ، مدح فيه البخل ، وذمّ الجود فوقّع عليه بما تقدم . قال دعبل :

صدّق أليته إن قال مجتهداً لا والرغيف فذاك البرّ من قسمة^(١)
فإن همّت به فافتك بخبزته فإن موقعها من لحمه ودمه

تمد كان يعجبني لو أن غيرته
أبو نواس في البؤبؤ الزنديق :
لقيت في آل زياد فتى
ينزل للضيف بنياته
وإن في النيك مستمتعا
آخر :

أما الرغيف لدى الخوا
ما إن يُحسُّ ولا يمسُّ
فتراه أخضر يابسا
ن فمن سخامات الحرَم
ولا يذاق ولا يشمُّ
بالي النقوش من الهرم

آخر :

أبو نوح دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا
وَقَدَّمْ يَسَنَّا لَحْمًا سَمِينًا
فَلَمَّا أَنْ رَفَعْتُ يَدِي سَقَانِي
فَكَانَ كَمَنْ سَقَى الظَّمآنَ آلًا
وَقَالَ فِي أَبِي نُوحٍ أَيْضًا :

لأبي نوح رغيف
فهو تحميه مدى الده
وله كاتب صدق
فسيكفيكم الله
أبدًا في حِجْر دابة
مر بكم ووقاية
خط فيه بعناية
إلى آخر الآية

(١) الجرائق : نوع من الخبز .

(٢) المعقد ٦ : ٨

آخر :

استبقي ودّ أبي المصا
سَيَّان كسرُ رَغِيفِهِ
فَارْفَقَ بِكسرِ رَغِيفِهِ
وتراه من خَوْفِ النَّزْوِ
تل حين تأكلُ من طَعَامِهِ^(١)
أو كسرُ عَظْمٍ من عِظَامِهِ
إن كنتَ ترغِبُ في كَلَامِهِ
ل به يروّع في مَنْصَامِهِ

آخر :

خان عَهْدِي عمرو وما خُنتُ عَهْدَهُ
ليس لي مُذْ حَيَّيتُ ذَنْبًا إِلَيْهِ
وجفاني وما تَفَيَّرْتُ بَعْدَهُ
غيرَ أُنِّي يَوْمًا تَفَدَّيْتُ عَنْدَهُ

آخر :

أبو جعفر رجل عالم
تخوفُ تَحْمُةَ أَضْيَافِهِ
بما يُصْلِحُ المَعْدَةَ الفَاسِدَةَ
فعودهم أَكَلَةً وَاحِدَةً

أبو نواس :

فَتَى لِرَغِيفِهِ قُرْطٌ وَشَنْفٌ
ودون رَغِيفِهِ قَلْعُ الثَّنَايَا
وإن كَسِرَ الرَّغِيفَ بَكَى عَلَيْهِ
ولؤلؤتان من خَرَزٍ وَشَذَرٍ
وحربٌ مثل وقعة يومِ بَدْرٍ
بكا الخنساء إِذْ فُجِعَتِ بِصَخْرٍ

آخر :

رَغِيفَ أَبِي عَلِيٍّ حَلَّ خَوْفًا
إذا كسروا رَغِيفَ أَبِي عَلِيٍّ
من الأضيافِ مَنْزِلَةَ السَّمَاءِ
بَكَى يَبْكِي بُكَاءَ فَهْوٍ بِالْكَ

(١) من أبيات في عيون الاخبار ٢ : ٣٦ ورواية البيت الاول فيه

ارفقُ بحفص حين تأكلُ يا معاوي من طَعَامِهِ

آخر :

إِنَّ هَذَا الْفَتَى يَصُونُ رَغِيفًا مَا إِلَيْهِ لِنَظَرٍ مِنْ سَبِيلِ
هُوَ فِي قُفَّتَيْنِ مِنْ أَدَمِ الطَّا تُفْ فِي سَلَّتَيْنِ فِي مِندِيلِ
فِي جِرَابٍ فِي جَوْفِ تَابُوتِ مُوسَى وَالْمَفَاتِيحِ عِنْدَ مِيكَائِيلِ

ابن بسام :

أَنَا بَخْبَزٍ لَهُ يَابِسٌ كَمَلِ الدَّرَاهِمِ فِي خَلْقَتِهِ
إِذَا مَا تَنَفَّسْتُ عِنْدَ الْخَوَانِ تَطَايَرُ فِي الْبَيْتِ مِنْ خِفَّتِهِ

وقال عباس الخياط :

رَغِيفُهُ النِّجْمُ لِمَنْ رَامَهُ يَرَى وَلَا يُطَامَعُ فِي لَمَسِهِ
كَأَنَّهُ فِي جَوْفِ مِرَاثِهِ يَبْدُو وَلَا يُطْمَعُ فِي جَسِّهِ
وَقَلَسُهُ الْأَمْسُ الَّذِي قَدْ مَضَى بَلْ أَمْسُهُ أَوْجَدُ مِنْ قَلَسِهِ

آخر :

رَغِيفٌ فِي الْحِجَالِ عَلَيْهِ قُفْلٌ وَخَزَانٌ وَأَبْوَابٌ مَنِيعَةٌ
رَأَى فِي يَتِهِ يَوْمًا رَغِيفًا فَقَالَ لَضِيفِهِ هَذَا وَدِيعَةٌ
اعْتَلَّ أَبُو هِفَّانٍ فِي مَنْزِلِ ابْنِ أَبِي طَاهِرٍ فَأَبْطَثُوا عَلَيْهِ بِالْعَدَاءِ فَقَالَ :

أَنَا فِي مَنْزِلِ خِلٍّ مَشْفُوقٌ بِي وَرَفِيقِي
رَجُلٌ أَعْمَرُ مِنْ مَنْزِلِهِ ظَهَرَ الطَّرِيقِي
لَيْسَ لِي أَكْلٌ سِوَى لَحْمِي وَشَرِبْتُ غَيْرُ رَيْقِي

ولجحظة يهجو رجلاً :

لَا تَعْدِلُونِي إِنْ هَجَرْتُ طَعَامَهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِي مِنَ اللَّأْكُولِ
فَتَى أَكَلْتُ قَتْلَتَهُ مِنْ بَحْلِهِ وَمَتَى قَتَلْتُ قَتِلْتُ بِالْمَقْتُولِ

وله أيضاً يذم بخيلاً :

تَبَرَّمَ إِذْ جُنْتُهُ لِّلسَّلَامِ وَأَبْدَى لِي الْكُرَّةَ لَمَّا دَخَلْتُ
قُلْتُ لَهُ : لَا يَرُغِّكَ الدُّخُولُ فَوَاللَّهِ مَا جُنْتُ إِلَّا أَكَلْتُ

أين هذا من قول إبراهيم بن العباس الصولي :

لَنَا إِبِلٌ كَوْمٌ يَضِيقُ بِهَا الْفَضَا وَتَقْتَرُّ عَنْهَا أَرْضُهَا وَسَمَاوُهَا^(١)
فَمِنْ دُونِهَا أَنْ تَسْتَبَاحَ دِمَاؤُنَا وَمِنْ دُونِنَا أَنْ تُسْتَدَمَّ دِمَاؤُهَا
حِمَى وَقِرَى فَاَلْمُوتُ دُونَ مَرَامِهَا وَأَهْوَنُ خُطْبٍ فِي الْحَقْوَقِ بِنَاؤُهَا^(٢)

وقوله :

لَا تَلُومِي فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَنْ تُثْرِيَ وَهِيَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ^(٣)
كَيْفَ يَسْتَطِيعُ حِفْظَ مَا جَمَعْتَ كِفَاهَ مَنْ ذَاقَ لَذَّةَ الْإِنْفَاقِ

وقوله :

تَلِجُ الضُّيُوفُ بُيُوتَهُمْ وَتَرَى لَهَا عَنْ جَارٍ يَتَمُّهُمُ ازْوَارَ مَنْكَبٍ^(٤)
وَتَرَاهُمْ بِسُيُوفِهِمْ وَشَفَارِهِمْ مُسْتَشْرِفِينَ لِرَاغِبٍ أَوْ رَاهِبٍ
حَامِينَ أَوْ قَارِينَ حَيْثُ لَقِيَتَهُمُ نَهَبَ الْعَفَاةِ وَنَهْزَةً لِلرَّاغِبِ

وجلس هارون بن محمد بن الزيات في مجلس عبد الله بن سليمان ، فجعل هارون يُنشد من شعر أبيه محاسنه ، فقال له ابن برد الخباز : إن كان لأبيك مثل قول إبراهيم :

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا هَجَّتْهُ وَأَبٌّ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا^(٥)
يَعْرِفُ الْأَبَدُ إِنَّ أَثَرِي وَلَا يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا افْتَقَرَا

(١) ديوانه ١٥٣

(٢) رواية الديوان « وأيسر خطب يوم حق فنالها » .

(٣) ديوانه ١٨٦

(٤) ديوانه ١٢٩

(٥) ديوانه ١٣٣

أو مثل قوله : « تلج الضيوف » البيتین فاذْكُرْهٗ وفاخرْ به ، وإلا فَأَقْلِلْ
من الفخار والتطاوُل بما لا طائل فيه ، نخجل هارون .
وإبراهيم هذا أشعر الكتاب بلا خلاف .

[في وصف القدور]

وذَكَرَ الحريرى القدور ، ومن وصفها ، فأحسن الفرزدق حين قال :
وقد علم الجيرانُ أنَّ قَدُورَنَا ضَوا مَنُ لِلأرزاق والريح زَفَزَفُ^(١)
تُفَرِّغُ في شيزى كأنَّ جفانهم حياضُ المَلَأَ منها ملاءً وَنُصِفُ^(٢)
ترى حولنَ المعتفينَ كأنهم على صَمِّ في الجاهلية عُكْفُ
وقال أمية بن أبى الصلت :

وكانها بِفِنَاءِ للضيف مترعة زواخر^(٣)
وكانهنَّ بما شحْنِ وما حَمِنَ به ضَرَائِرُ
زبد وقرقرة كقر قرة الفحول إذا تُخَاطِرُ

وقال النابغة في مثله :

له بِفِنَاءِ البيتِ سَوْدَاءُ فَحَمَّةٌ تَلَقُّمُ أعضاء الجزورِ العراعرِ^(٤)
بقية قَدَرٍ من قَدُورٍ تَوُرَّتْ لآلِ جُلَاحٍ كَابِراً بعد كَابِرٍ
يظُلُّ الإمامُ يبتدرن قَدِيحَهَا كما ابتدرت سعدٌ مِياه قَراقرٍ
- قديحها : مرقها لأنه يقدح ، أى يؤخذ بالمقدحة ، وهى المرفة -

وقال آخر :

وسوداء لا تكسى الرقاعَ نَبِيلَةً لها عند قراتِ العشياتِ أَرْمَلُ

(١) ديوانه ٥٦٠

(٢) الشيزى : قِصاع من خشب الجوز .

(٣) ديوانه ١٧٣ . (نشرة البكور شكرى بمصل) .

(٤) ديوانه .

إِذَا مَا قَرَيْتَاهَا قَرَاهَا تَضَمَّنْتَ قَرَى مَنْ عَرَانَا أَوْ تَزِيدُ فَتَفْضِلُ

وقال مسكين الدرايم :

كَأَنَّ قُدُورَ قَوْمِي كُلِّ يَوْمٍ قَبَابُ التَّرْكِ مَلْبَسَةُ الْجِلَالِ
بَأَيْدِيهِمْ مَغَارِفُ مِنْ حَدِيدٍ أَشْبَهَهَا مَقِيرَةُ الدَّوَالِي^(١)

الدَّالِيَّةُ : الْخَطَّارَةُ .

وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ لِأَبِي نَوَاس :

رَأَيْتُ قُدُورَ النَّاسِ تَبْلَى عَلَى الصَّلَى

وَقَدَّرَ الرَّقَاشِيَيْنِ بِيضَاءَ كَالْبَدْرِ^(٢)

يَضِيقُ بِحَيْرُومِ الْبَعُوضَةِ صَدْرُهَا وَيُخْرِجُ مَا فِيهَا عَلَى طَرَفِ الظُّفْرِ
إِذَا مَا تَنَادَوْا لِلرَّحِيلِ سَعَى بِهَا أَمَامَهُمُ الْحَوْلَى مِنْ وَلَدِ الذَّرِّ

وقال الفرزدق :

لَوْ أَنَّ قَدِرًا بَكَتْ مِنْ طَوْلِ مَا جَهَشَتْ

عَلَى الْجُفُوفِ بَكَتِ قَدِرُ بْنُ عَمَّارٍ^(٣)

مَا مَسَّهَا دَسَمٌ مَذْفُضٌ مَعْدِنُهَا وَلَا رَأَتْ بَعْدَ نَارِ الْقَيْنِ مِنْ نَارِ

وَتَسْمَى النَّارُ فَكَلِمَةُ الشِّتَاءِ لَمَّا يُجْتَنَى مِنْ تَسْخِينِهَا .

وَقَدْ أَحْسَنَ ابْنُ صَارَةَ فِي وَصْفِهَا حَيْثُ قَالَ :

هَاتِ التِّي لِلْأَيْكِ أَصْلُ وَلَادِهَا وَلَهَا جِبِينُ الشَّمْسِ فِي الْأَشْمَاسِ

يَتَقَشَّعُ الْيَاقُوتُ مِنْ لَبَّائِهَا يَوْسَاسُ تَشْفِي مِنَ الْوَسَاسِ

(١) البيت في اللسان (ولا) وقال : الدَّالِيَّةُ : النَاعُورَةُ .

(٢) ديوانه ١٧٧

أنسُ الوحيد وصبح عين المحتلّي ولباس مَنْ أُمسى بغير لباسِ
حمراءَ زَفُلْ في السواد كأنها ضَرَبَتْ بعِرْقٍ من بنى العباسِ
وقال آخر :

لا بُنْفَ الزَّندِ في الكوانين جَمْرٌ كالذَّارِرى في اللَّيلةِ الظَّلماءِ
خَبَرُونِي عنها ولا تكذبوني أَلَدِيهَا صِنَاعَةُ الكِيمِيَاءِ
سبكت فحمها سبائك تَبَرٍ رَصَعَتْهَا بِالْفِضَّةِ البِيضَاءِ
كَلَّمْنَا وَلَوْلَ النَّسِيمِ عَلَيْهَا رَقَصَتْ في غِلَالَةِ حَمْرَاءِ
سُفِرَتْ عَنْ جِينِهَا فَأَرْتَنَا حَاجَبَ الشَّمْسِ طَالِعًا في العِشَاءِ
لَوْ تَرَانَا مِنْ حَوْلِهَا قَلْتُ شَرِبْ يَتَعَاطُونَ أَكُوسَ الْعَهْبَاءِ

وقال الفقيه الأديب ابنُ لبّال رحمه الله :

فَحْمٌ ذَكَتْ في حِشَاءِ نَارٍ قَلْتُ مَسْكٌ وَجَلَنَارُ
أَوْ خَدَّ مَنْ قَدْ هَوِيَتْ لَنَا أَظْلَلَّ مِنْ فَوْقِهِ الْعِدَارُ
وقال البحترى يصف كانوا :
وَذَى أَرْبَعٍ لَا يَطِيقُ النُّهَى ضَا وَلَا يَأْلَفُ السَّيْرَ فَيَمْنُ مَرَى^(١)
تَحْمَلُهُ سِجَا أَسْوَدَا وَيَقْلِبُهُ ذَهَبَا أَحْمَرَا

* * *

قوله : قَلْبُوا في قَالِي ، أى هم أمثالى لأن قالب الشيء كل ما يُجْعَل فيه
ليجىء مثله ، وَقَلَّبُوا : جُعِلُوا في القَالِبِ . يمرحون : ينشطون ويطربون . ذوى
الفتاء : أهل الفتوة . والفتاء : الحداثة والشباب ، يقال منه : فتوا فتاءً ،
ويقال أيضاً : بَكَرُ فِتَى بَيْنَ الْفَتَاءِ ، وفتى من الناس : بَيْنَ الْفُتُوَّةِ ، والفتى

والفتية : الشاب والشابة . الاصطلاء : التسخن بالنار . الثمل : السكران .
والطلاء : الخمر ، وأصل الطلاء الرطب التخين الأسود ، فسميت الخمر الصافية
طلاء بضد صفتها ، كما سُمي اللديغ سليماً ، والأسود أبا البيضاء ، والذئب أبا جمعة ،
وجمعة اسم الشاة .

* * *

ولما أن سرى الحصر ، وأنسرى الحصر ، أتينا بموائد كالهالات
دوراً ، والروضات توراً ، وقد شجن بأطعمة الولائم ، ومحين من
العائب واللائم ، فرفضنا ما قيل في البطنة ، ورأينا الإمعان فيها
من الفطنة ، حتى إذا اكتلنا بصاع الحطم ، وأشفينا على خطر الثم ،
تعاورنا مشوش العمر ، ثم تبوأنا مقاعد السمر ، وأخذ كل واحد
منا يشول بلسانه ، وينشر ما في صوانه ، ما عدا شيخاً مشتهراً فوداه
مخلوقاً بزداه ؛ فإنه ربح حجرة ، وأوسعنا هجرة ، ففاظنا بحببه ،
الملتبس موجبه ، المذخور فيه مؤببه ، إلا أننا أئله القول ، وخشينا في
المسألة العول ، وكلما رُمنا أن يفيض كما فضنا ، أو يفيض فيما أفضنا
أعرض إعراض العلية الأزدلين ، وتلا ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .
ثم كأن الحمية حاجته ، والنفس الآية ناجته ، فدلف ، وازدلف ، وخلع
الصلف ، وبدل أن يتلافى ما سلف ، ثم استرعى سمع السامر .
واندفع كالسيل الهامر وقال :

* * *

مَرَى الْخَصَرِ ، أى زال السكوت ، والخصر : انقطاع الكلام ، وهو العى ، وخصر يخصر : عى ، والخصر أيضاً : ضيق الصدر . انسرى الخصر : ذهب البرد ، والخصر : البارد ، وخصر الرجل : إذا آذاه البرد وآلمه فى أطرافه . والروضات نورا ، أى هى فاعمة بكثرة الطعام وأنواع الألوان . شُجِنَ : ملئ . الولاثم : الأعراس . مُحِين : مُنِعِن . العائب : الذى يعيب الطعام . واللاثم : الذى يقف على رموس أضيافه ، فيقول : ما أكلتم ، استعملوا ، زِدْ يا فلان ، فيخجل أضيافه لذلك ، فلا يتمكنون من الطعام . رفضنا : تركنا .

[مما قيل فى البطنة]

البطنة : الامتلاء من الطعام ، والذى قيل فى البطنة : البطنة تُذهب الفطنة ، فقال تركنا هذا المعنى وخالفناه ، ورأينا أَنَّ البطنة وهى امتلاء البطن من الطعام والإمعان فيه ، أى المبالغة فى الأكل يقوِّى الفطنة ، ويولدها لا أنه يُذهِبُها . والفطنة : الذكاء وحدة الذهن .

معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحلَّ الله حلالاً أبغض إليه من بطنٍ ملىء طعاماً ، فقصَّروا من الطعام تملثوا من الحكمة » .

المقدام بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم أكالات يُقِمِّنْ صُلْبُهُ ، فإن كان لا محالة ، فثأث لطعامه ، وثأث لشرايه ، وثأث لنفسه » .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يأبى الناس ، إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة عن الصلاة ، مفسدة للجسد ، مورثة للسقم .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : إياكم والبطنة فإنها مفسدة للقلب الأصمعى قال أعرابى : إذا كنت بطينا فعد نفسك زمينا .

وقال الحارث بن كلدة : أربعة أشياء يُهْرَمَنُ البدن : الغشيان على البطننة ، ودخول الحُمَامِ على الامتلاء ، وأكل القديد ، ومجاعة العجوز .

وقال الأصمعي : كنت عند هارون الرشيد فقدمت إليه فالودجة فقال : يا أصمعي ، حدثني بحديث مزرد أخى السماخ ، قلت : إنَّ مزرداً كان رجلاً جسيماً ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد ، وكان يُحْفِظُهُ ذلك منها ، فذهبت يوماً في بعض حقوق أهلها ، وخلفته في يديها ، فدخل خيمتها فأخذ صاعين من دقيق ، وصاعاً من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضه ببعض وأكله ثم أنشأ يقول :

وإنما مضت أُمِّي تزور عيالها أغرت على العك الذي كان يُمنَعُ
خلطت بصاعِي حنطة صاعَ عجوة إلى صاع سمن فوقها يترَبَّعُ
ودليت أمثال الأثافي كأنها رءوس لعمادٍ قُطِّعت لا تجمَعُ
وقلت لبطنى أيسر اليوم إنه حمى آمنٌ مما يُغِيرُ ويُفزعُ
فإن مصفوراً فهذا داوؤه وإن كنت غرنائاً فذا اليوم تشبَعُ

فاستضعك منه حتى أمسك بطنه ، واستلقى على ظهره ، ثم قدم يده بمال ، وقال : خذ ، فهذا يوم تشبع يا أصمعي .

قوله الحُطَم ، أى الذى يحطَم ويكسِر ، ورجل محطَمٌ وحُطمة ، إذا كان قليل الرحمة للماشية ، وفي المثل : شرُّ الرِّعَاءِ الحُطمة . وقال الزَّاجِر :

* قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطَمَ *

فمضى اكتلنا بصاع الحُطَم ، أى أكلنا أكل أ كول لا يُشْفِقُ على نفسه من السَّقَم . وأشفينا : أشرفنا . حَطَر : غَرَّر التَّخَم : جمع نُخْمة بفتح الخاء ، وهو أن يثقل الطعامُ على المعدة ويتغيَّر ، والعامَّة تسكُن الخاء ، وقد يحىء ذلك في الشعر قال أعرابي :

وإذا المعدة جاشت فارمها بالمنجنيق
 بثلاث من نبيذ ليس بالحلو الرقيق
 تهضم التخممة هضمًا حين تجري في العروق

وتعاوننا الشيء : تداولناه ، وأخذه بعضنا من بعض ، وأزلناه من موضع إلى موضع . وَعَوَّرُ العين : زوالها . وَالْقَمَر : ربح اللحم وزكَّهه . تَبَوَّأنا : أخذنا ونزلنا . السَّمَر : الحديث يُسَمَّر عليه . يشول بلسانه ، أى يضرب به فى كل كلام ، وشال : رفع . والصَّوان : وعاء يُصان فيه الشيء . فواده : ناحيتا رأسه ، والقَوْد : ما بين طرف الجبهة والأذن . مخلولًا : كثير البلى . بُرْداه : ثوباه . رَبَض : جلس ، وفى المثل : فلان يَرْبِضُ حَجْرَةً ، ويرتقى وسطًا ، يضرب مثلاً لمن يساعدك ما دمت فى خير ، فربض حَجْرَةً ، أى جلس ناحية وبرك . أَوْسَمَّنا : كثر لنا . الهجرة : المباحدة والمقاطعة ، يريد أنه اعتزلهم وجلس ناحية ولم يكلمهم بكلمة . تجنَّبه : تباعده ، يقال : تجنَّبْتُكَ وتجنَّبتُكَ ، أى تباعدت عنك ، والجار الجُنُب : البعيد . وما زاره إلا عن جَنَابَةٍ ، أى عن بعد . المتلبَّس موجب ، أى الذى التبس علينا ما أوجبه . مؤنَّبه : لأمه . العول : الزيادة . رُمْنَا : طلبنا . يفيض كما فِضْنَا : يتكلم كما تكلمنا والفيض زيادة الماء ، ويُفيض فيما أفضنا ، أى يأخذ معنا فى النوع الذى أخذنا فيه . أعرض : لوى وجهه . للعلية : الأشراف . الأرذلين : الأدنياء . أساطير : تأليف وكتب . الحمية : عزة النفس . حاجته : حرَّكته . الأبية : العزيزة . نأجته : حَدَّثْتُهُ . دلف : مشى إلينا ، وازدلف : تقرب . خلع : أزال . الصلف : مجاوزة قدر الظرف حتى يفضى به ذلك إلى أن تأخذ به بابًا ما فيخالفك ولا يعبا بك . يتلاقى : يتدارك . سلف : مضى . استرعى : دعاهم للاستماع يقال : أرعيت سمعك أى أسمع منى . الهامس : الكثير الانصباب .

عندى أعاجيبُ أزويها بلاَ كذبٍ

عن العيان فكنونى أباَ العَجَبِ
رأيتُ يا قومٍ أقوامًا غِذاؤُهُمْ بولُ العجوزِ وما أعْنى ابنةَ العنَبِ

— بولُ العجوزِ : لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الحمر —

ومُسْنِتَيْنِ من الأعرابِ قـوتَهُمُ
أَنْ يَشْتَوُوا خِرْقَةً تُغْنِي من السَّعْبِ

— الخِرْقَةُ : القطعة من الجراد —

وقادرين متى ما ساء صنعُهُمُ
أو قصَّروا فيه قالوا الذَّنْبُ لِلْحَطَبِ

— القادر : الطَّابُخُ في القِدْر ، والقَدِيرُ : المطبوع فيها .

وكاتبين وما خطَّتْ أناملُهُمُ حرفاً ولا قرءوا ما خُطِّ في الكتبِ
— الكاتبون الخزازون ؛ يقال : كتب السقاء والمزادة ؛ إذا خرَّزَها
وكتب البغلة أو الناقة ، إذا جمع بين شفرها وخاطهما ، قال الشاعر :

لا تأمننَ فزاريتاً خَلَوَتْ به على قَلوصك واكتبها بأسيار

وتابعين عقاباً في مسيرِهِمُ على تكْمِيهِمُ في البَيْضِ وَالْيَلْبِ

— العُقَاب : الراية ، وكانت راية النبي صلى الله عليه وسلم تسمى العُقَاب .

* * *

العيان ، أى المشاهدة بالعين . مسنتين : أصابتهن السنة ، أى اشتدَّ عليهن .
يَشْتَوُوا : يتخذوا شواء . السَّعْب : الجوع . تَكْمِيهِم : تسترهن . البَيْض :
ما يجعل في الرءوس في الحرب .

ومتدّين ذوى نُبلٍ بدتْ لهمْ نبيلةٌ فاثنّوا منها إلى الهربِ

— النبيلة : الجيفة ، ومنه تنبّل الأميرُ ؛ إذا مات وأزوح ، يعنى تن .

وعُصبةٌ لم ترَ البيتَ العتيق وقد حجتْ جثيًا بلاشكٍّ على الرّكبِ

— معنى حجتْ جثيًا ، أى غلبت بالحجة مجادلين جاثين على الرّكب ،

وجثيّ : جمع جاثٍ .

ونسوةٌ بعدما أدلجنَ من حلبٍ صبحنَ كاظمةً من غير ما تعبِ

— كاظمة فى هذا الموضع من كظم الغيظ —

ومُدلّجينَ سرّوا من أرضِ كاظمةٍ

فأصبحوا حينَ لاح الصّبحُ فى حلبِ

— فى حلب ، أى أصبحوا يحلبون اللبن —

ويافعاً لم يلامس قطّ غانيةً شاهدتهُ وله نسلٌ من العقبِ

— النسل هاهنا : العدو قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .

والعقب : مؤخر القدم .

* * *

متدّين : مجتمعين . اثنوا : رجعوا . والنبيلة : الحاذقة فى فعلها . عُصبة :

جماعة . أدلجنَ : سرن بالليل ، ومثله سرّوا . لاح : ظهر . يافعاً : شابّا .

يلامس : يلاعب ، ويمسها بيده . غانية : امرأة جميلة غنّيت بحسنها عن الزينة .

صبحن كاظمة ، أى سقّين الصبوح كاظمة غيظها . وصبحه . سقاه صبوحاً ،

وكظم غيظه : تجرعه ، وهو قادر على الإيقاع بعدوه ولم يمضه ، وكظم خصمه :

أجابه بالمسكت فأخفه ، وأصل الكظم للبعير ، وهو أن يردّد جريته فى حلّقه

ولا يمتزها : وكاظمة : موضع على سيف البحر ، أى على ساحله على مرحلتين

من البصرة ، وفيه ركايا كثيرة ، وماؤها شروب .

* * *

وشائبًا غَيْرَ مُخَفٍّ لِلْمَشِيبِ بَدَا فِي الْبَدْوِ وَهُوَ فِتْنُ السَّنِّ لَمْ يَشِبِ
— الشائب هاهنا : مازج اللبن ، والمشيب : اللبن المزوج ، ويقال فيه
مَشِيبٌ وَمَشُوبٌ .

وَمُرْضَعًا بِلَبَانٍ لَمْ يَفْهَ فَمُهُ رَأَيْتُهُ فِي شَجَارٍ بَيْنَ السَّبَبِ
— الشَّجَار : الحفّة ما لم تكن مُظَلَّلَةً فَإِنْ ظَلَّتْ فَهُوَ الْمَوْجِج . والسَّبَب
هاهنا : الخبل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ —

وَزَارِعًا ذُرَّةً حَتَّى إِذَا حُصِدَتْ
صَارَتْ غُيَيْرَاءَ يَهَوَاهَا أَخُو الطَّرَبِ
— الْغُيَيْرَاء : الْمُسْكِرُ الْمُتَخَذُ مِنَ الذُّرَّةِ وَيُسَمَّى أَيْضًا الشُّكْرَكَ .
وفي الحديث : « إِيَّاكُمْ وَالْغُيَيْرَاءَ فَإِنَّهَا خَمْرُ الْعَالَمِ » .

وَرَاكِبًا وَهُوَ مَغْلُولٌ عَلَى فَرَسٍ قَدْ غُلَّ أَيْضًا وَمَا يَنْفَكُ عَنْ خَبَبٍ
— الْمَغْلُولُ هَاهُنَا الْمَطْشَانُ ، وَغُلَّ ، أَيْ عَطَشَ .

وَذَا يَدٍ طُلُقٍ يَقْتَادُ رَاحِلَةً
مُسْتَعْجِلًا وَهُوَ مَأْسُورٌ أَخُو كُرْبٍ
— الْمَأْسُور : الَّذِي يَجِدُ الْأَسْرَ ، وَهُوَ احْتِبَاسُ الْبُولِ .

* * *

الْبَّان : لَبَن الْأَدْمِيَّاتِ . يَفْهَ : يَنْطِقُ . يَهَوَاهَا : يُحِبُّهَا . أَخُو الطَّرَب :
صَاحِبُهُ الْمَوْلَعُ بِهِ . يَنْفَكُ : يَزُولُ . خَبَب : نَوْعٌ مِنَ السَّيْرِ . طُلُقٌ : سَارِحٌ .
كُرْب : مَمَّ .

* * *

وجالسا ماشياً تهوى مطيئته به وما في الذي أوردت من ريب

— الجالس : الآتى بجداً ، والماشي : الذي كثرت ماشيته ، وعليه فسر

بعضهم قوله تعالى : ﴿ أَنْ امشُوا ﴾ ؛ كأنه دعاء عليهم بكثرة الماشية والنماء والبركة

وحائكاً أجدم الكفين ذا خرسٍ فإن عجبتم فكم في الخلق من عجب

— الحائك ها هنا : الذي إذا مشى حرك منكبيه وفجج بين ركبتيه .

وذا شطاطٍ كصدّر الرُمح قامته صادقته يئني يشكو من الحذب

— الحذب : ما ارتفع من الأرض —

وساعياً في مسرات الأنام يرى إفراحهم كالأظلم والكذب

— إفراحهم : إفتاحهم بالدين ، ومنه قوله عليه السلام : « لا يُترك في

الإسلام مُفرح » أي مُفعلٌ من الدّين أو يقضى عنه دينه —

ومُغرماً بمناجاة الرجال له وما له في حديث الخلق من أرب

— اخلق ها هنا : الكذب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ

الْأَوَّلِينَ ﴾ —

وذا زمامٍ وقّت بالعهد ذمّته ولا ذمّام له في مذهب العرب

— الذمام الثاني : جمع ذمة ، وهي البئر القليلة الماء . وعنى بالمذهب المسلك .

أي ماله آبار قابلة الماء في البدو .

* * *

تهوى : تسقط وتسرع . ريب : شكوك . أجدم : مقطوع . خرس :

بكم . شطاط : طول . مُغرماً : شديد الحب . مناجاة : محادثة . أرب : حاجة .

* * *

وَذَا قُوًى مَا اسْتَبَانَ قَطُّ لِينَتُهُ وَلَبْنُهُ مُسْتَبِينٌ غَيْرُ مُحْتَجِبٍ

— اللين : نخيل الدَّفَل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ﴾ .

وَسَاجِدًا فَوْقَ خَلٍ غَيْرَ مَكْتَرٍ بِمَا أَتَى بَلَّ يَرَاهُ أَفْضَلَ الْقُرْبِ

— الفحل : الحَصِيرُ المَتَّخِذُ مِنْ خُحَالِ النَخْلِ .

وَعَازِرًا مَنْ ظَلَّ يَنْفِذِرُهُ مَعَ التَّلَطُّفِ وَالْمَعْذُورُ فِي صَحْبٍ

— العاذر : الخائن . والمعذور : المَخْتُون .

وَبَلَدَةٌ مَا بَهَا مَاءٌ لِمَفْتَرٍ وَالْمَاءُ يَجْرِي عَلَيْهَا جَرًى مُنْسَرِبٍ

— البلدة : الفُرْجَةُ بَيْنَ الْحَاجِبِينَ ، وَتَسْمَى أَيْضًا الْبَلْجَةُ —

وَقَرْيَةٌ دُونَ الْخَوْصِ الْقَطَا شُحِنَتْ

بِدَيْلِمٍ عَيْشُهُمْ مِنْ خُلْسَةِ السَّلْبِ

— القرية : بَيْتُ النَّمْلِ . والدَيْلِمُ النَّمْلُ الْكَثِيرُ . وَخُلْسَةُ السَّلْبِ :

لِحَاءُ الشَّجَرِ .

وَكَوْكَبًا يَتَوَارَى عِنْدَ رُؤْيَتِهِ الْإِنْسَانُ حَتَّى يُرَى فِي أَمْنَعِ الْحُجُبِ

— الْكَوْكَبُ : النُّكْتَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْعَيْنِ . وَالْإِنْسَانُ هَاهُنَا :

إِنْسَانُ الْعَيْنِ .

* * *

مَكْتَرٍ : مَنْكَسَرُ مِنَ الْهَمْ . الْقُرْبُ : جَمْعُ قُرْبَةٍ ، وَهِيَ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى

اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ . عَازَرُ : قَابِلُ الْعُذْرِ . مُؤَلِّمًا : مُوجِّعًا . التَّلَطُّفُ :

الرَّفْقُ وَاللِّينُ . الصَّخَبُ : الصِّيَاحُ ، وَتَفْسِيرُ ظَاهِرِ الْبَيْتِ أَنْ تَقُولَ : رَأَيْتُ عَازِرًا

يُوجِعُ الَّذِي يَعْتَذِرُ لَهُ مَعَ تَلَطُّفِ الْعَازِرِ لِلْمَعْتَذِرِ وَتَكْلِينِهِ الْقَوْلَ لَهُ ، وَالْمَعْتَذِرُ فِي

صِيَاحٍ مِنْ شِدَّةِ ضَرَرٍ لَعَاذِرْ لَهُ ، فَتَقَابِلْ هَذِهِ الْأَضْدَادَ ، فَإِذَا فَسَّرْتَ بِتَفْسِيرِ
الْحَرِيرِيِّ صَحَّ الْمَعْنَى . وَمُنْشَرَبٌ : دَاخِلٌ فِي السَّرْبِ وَهُوَ الْحَفِيرُ فِي الْأَرْضِ .
قَرْيَةٌ : مَدِينَةٌ ، وَأَخْرُوصُ الْقَطَا : مَرْقَدُهَا وَهِيَ تَفْحَصُهَا : بِرَجْلَيْهَا تَوْسَعُهُ . شُحِنَتْ :
مَلِئَتْ . وَالذَّلِيمُ : أَمَةٌ مِنَ الْعَجَمِ . خُلْسَةٌ : سَرَقَةٌ . وَالسَّلْبُ : الْمَالُ الْمُسْلُوبُ .
يَتَوَارَى : يَتَغَطَّى ، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ فِي صِفَةِ الْكُوكَبِ الَّذِي هُوَ النَّكْتَةُ
عَلَى إِنْسَانِ الْعَيْنِ :

أَعْوَرُ الْقَلَّةِ مِنْ غَيْرِ عَوَجٍ لَوْ عَدَاهُ عَوَرُ الْعَيْنِ انْتَمَجَ^(١)
تَحْسِبُ النَّكْتَةَ فِي نَاطِرِهِ دَرَّةً بِيضَاءٍ فِي فَصٍّ سَبَجٍ

* * *

وَرَوْنَةٌ قُوِّمَتْ مَالًا لَهُ خَطَرٌ وَنَفْسٌ صَاحِبُهَا بِالْمَالِ لَمْ تَطِيبِ
— الرُّوْنَةُ : مَقْدَمُ الْأَنْفِ —

وَصِفَّةٌ مِنْ نُضَارٍ خَالِصٍ شَرِيَتْ بَعْدَ الْإِمْكَاسِ بِقَيْرَاطٍ مِنَ الذَّهَبِ
— النُّضَارُ هَاهُنَا : شَجَرُ النَّبْعِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِ التَّابِعِينَ : لَا بَأْسَ أَنْ
يُسْرَبَ فِي قَدَحِ النُّضَارِ ؛ عَنَى بِهِ هَذَا .

وَمُسْتَجِيشًا بِخَشَاشٍ لِيَدْفَعَ مَا أَظْلَهُ مِنْ أَعَادِيهِ فَلَمْ يَخْبِ
— الْخَشَاشُ : الْجَمَاعَةُ عَلَيْهِمْ دُرُوعٌ وَأَسْلِحَةٌ —

وَطَالَمَا مَرَّ بِي كَلْبٌ وَفِي فِيهِ ثَوْرٌ ، وَلَكِنَّهُ ثَوْرٌ بِلَا ذَنْبِ
— الثَّوْرُ : الْقِطْعَةُ مِنَ الْأَقِطِ ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ الْجَبَنِ .

وكم رأى ناظري فيلاً على جملٍ وقد تورك فوق الرّحلِ والقَتَبِ
— الفيل : الرّجل القائل الرأى .

وكم لقيتُ بعُرضِ اليدِ مُشْتَكِيًا وما اشتكى قطُّ في جدٍّ ولا تعبٍ
— المشتكى : المتخذ شكوةً وهى القربة الصغيرة .

* * *

قوله : خَطَرٌ ، أى حظ كثير ، والخطير : الرفيع القدر ، نُضار : ذهب
أحمر . المِكَاسُ : المأماكة بين المتبايعين ، وهو أن يطالب صاحب السلعة من
المشتري سَوَمًا ، فلا يزال المشتري يراجعه وينقص له ممّا طلب شيئاً حتى يتفقا
على ما يتراضيان عليه . والمستجيش : الجامع للجيش . والخشخاش : بنت معروف ،
وقال ابن وكيع يصفه :

وخشخاش كأنّا منه نفرى قميصَ زَبَرَجَدٍ عن جسمٍ دُرٍّ^(١)
كأقداح من البلور صيغتُ وأغشية من الدِّياج خُضِرِ
أظله : قَرُب منه ، وكأنه أغشاه ظله . القَتَب : خشب الرّحل ، والرّحل
برذعة البعير . بعُرض اليد : بجانب القفار .

* * *

وكنت أبصرتُ كرازاً لراعيةٍ بالدَّوِّ ينظر من عينين كالشَّهْبِ
— الكراز : كبش يحمل عليه الراعى أدانه .

وكم رأتُ مقلتي عينيّ ماؤهما
يجرى من الغربِ والعينانِ في حَلَبِ
— الغرب : مجرى الدمع . والعينان : المقلتان .

وصادعاً بالقنا مِنْ غَيْرِ أَنْ عَلِقَتْ كَفَّاهُ يَوْمًا بِرَمَحٍ لَا وَلَمْ يَثْبُ
— القنأ : ارتفاع الأنف وتحْدُبِ وسطه ، وصَدَعَ به ، أى كشفه .

وكم نزلت بأرضٍ لَا تُخِيلَ بِهَا
وَبَعْدَ يَوْمٍ رَأَيْتُ الْبُسْرَ فِي الْقُلْبِ
— البُسْرُ : جمع بُسْرَةٍ ، وهو الماء الحديث العهد بالمطر . والقُلْبُ :
جمع قَلْبٍ —

وكم رَأَيْتُ بِأَقْطَارِ الْفَلَا طَبَقًا يَطِيرُ فِي الْجَوِّ مُنْصَبًّا إِلَى صَبَبٍ
— الطَّبَقُ : القطعة من الجراد .

وكم مِنْ مَشَائِخَ فِي الدُّنْيَا رَأَيْتُهُمْ مُخَلَّدِينَ ، وَمَنْ يَنْجُو مِنَ الْعَطْبِ
— المخلد : الذى أَبْطَأَ شَيْبُهُ —

وكم بدا لِي وَحْشٌ يُشْتَكِي سَعْبًا بِمَنْطِقٍ ذَلِقَ أَمْضَى مِنَ الْقُضْبِ
— الوحش : الرَّجُلُ الجائع .

وكم دَعَانِي مُسْتَنْجٍ فَحَادَنِي وَمَا أَخَلَ وَلَا أَخْلَلْتُ بِالْأَدَبِ
— المستنجى : الجالس على نَجْوَةٍ ، وهو المكان المرتفع .

* * *

كَرَّازٍ : إِنْاء . والدَّوْ : الصحراء ، والغَرْبُ : الدَّوْلُو العظيمة . فى حَلَبَ :
فى سَيْلَانٍ وَجَرِيٍّ . الْبُسْرُ : التمر الذى لم يَطْبُ . القليب البئر ، والجمع الْقُلُبُ .
أَقْطَارِ الْفَلَا : نَوَاحِي الْقِفَارِ . والصَّبَبُ : الانحدار . العطب : الهلاك . السَّعْبُ :
الجوع . ذَلِقَ : حَادَ . أَمْضَى : أَقْطَعَ . الْقُضْبُ : السيوف . أَخَلَ : نَقَصَ .
المستنجى : الجالس لقضاء حاجة الإنسان .

* * *

وكم أَنَحْتُ قُلُوصِي تَحْتَ جُنْبَذَةٍ تُظِلُّ مَا شِئْتَ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عُرْبٍ
— الجُنْبَذَةُ : القَبَّةُ . والعُرْبُ : جمع عَرُوبٍ ؛ وهى المتحَبِّبة إلى زوجها ،
من قوله تعالى : ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ .

وكم نظرتُ إِلَى مَنْ سُرَّ سَاعَتُهُ وَدَمَعُهُ مَسْتَهْلُ الْقَطْرِ كَالشُّحْبِ
— سُرَّ ، أى قطع سَرَرُهُ ، ويسمى ما يَبْقَى بعد القطع الشَّرَّةُ —

وكم رأيتُ قَيْصًا ضَرَّ صَاحِبَهُ حَتَّى انْتَنَى وَاهِيَ الْأَعْضَاءُ وَالْعَصَبِ
— القَيْصُ : الدَّابَّةُ الكَثِيرَةُ الْقِمَاصِ ، وهو الوَثُوبُ وَالْفَقْزُ .

وكم إِزَارٍ لَوَانِ الدَّهْرِ أَتْلَفَهُ
لَجَفَّ لِبْدُ حَيْثِ السَّيْرِ مُضْطَرَبِ
— الإزار : المرأة ، ومنه قول الشاعر :

* فَدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةً إِزَارِي *

هَذَا وَكَمْ مِنْ أَفَانِينَ مُعْجِبَةٍ عِنْدِي وَمِنْ مُلَحٍ تُلْهِي وَمِنْ نُجْبِ
فَإِنْ فَطِنْتُمْ لِلْحَنِ الْقَوْلِ بَانَ لَكُمْ صَدَقِي وَذَلِكَ طُلَعِي عَلَى رُطْبِي
وَإِنْ شُدِّهْتُمْ فَإِنَّ الْعَارَ فِيهِ عَلَى مَنْ لَا يُعَيِّزُ بَيْنَ الْعُودِ وَالْخَشَبِ

* * *

أَنَحْتُ : أَبْرَكَتُ . قُلُوصِي : نَاقَتِي الْفَتْيَةُ . تَظِلُّ : تَسْتَرُ . سُرَّ : أَدْخَلَ
عَلَيْهِ السَّرُورَ ، وَقَدْ بَيَّنَّ هُوَ أَنَّهُ الْمَقْطُوعُ السَّرَّةُ ، وَقَالَ فِي الدَّرَةِ فِيمَا يَكْنَى فِي
الْمَعَارِضِ . الْمَقُولُ : الَّذِي ضُرِبَتْ قَلْتُهُ ، أَيْ أَعْلَاهُ ، وَالْمَرْكُوبُ : الَّذِي
ضُرِبَتْ رِكَبَتُهُ ، وَالْمَذْكُورُ : الَّذِي قُطِعَ ذِكْرُهُ . وَالسَّرُورُ : الَّذِي قُطِعَتْ سَرَّتُهُ ،
قَالَ : وَمِنْ الْأَحَاجِي بِأَيِّاتِ الْمَعَانِي :

نَسَرَّمُ وَإِنْ هُمْ أَقْبَلُوا وَإِنْ أَدْبَرُوا فَهُمْ مِنْ سَبَبِ
أَي نَظْعُهُمْ إِذَا أَقْبَلُوا فِي السَّرَّةِ ، وَإِذَا أَدْبَرُوا فِي الشُّبَّةِ وَهُوَ الْإِسْتِ .
وَأَنْشُدْ أَيْضًا :

ذَكَرْتُ أَبَا عَمْرٍو فَمَاتَ مَكَانَهُ فَوَاجِبًا هَلْ يَهْلِكُ الْمَرْءُ مِنْ ذَكَرٍ
وَزُرْتُ عَلِيًّا بَعْدَهُ فَرَأَيْتُهُ فَفَارَقَ دُنْيَاهُ وَمَاتَ عَلَى صَبْرٍ
ذَكَرْتُهُ : قَطَعْتُ ذَكَرَهُ ، وَرَأَيْتُهُ : قَطَعْتُ رِثَتَهُ . مُسْتَهْلٌ : سَائِلٌ . الْقَطْرُ :
مصدر قطر ، إِذَا سَقَطَ ، وَلَا يُقَالُ : اسْتَهَلَ حَتَّى يَكُونَ مَعَ انْصِبَابِهِ صَوْتٌ . وَاهِيٌ :
ضَعِيفٌ . الْعَصَبُ : حَبَالُ الْجَسَدِ . الْإِزَارُ ، هُوَ الْمُنْزَرُ الَّذِي يُجْعَلُ عَوَضًا مِنْ
السَّرَاوِيلِ . حَنِيثٌ : مُسْرِعٌ أَرَادَ بِهِ ذَكَرَ الْإِنْسَانِ فِي حَالِ نِكَاحِهِ الْمَرْأَةَ إِنَّهُ
مُضْطَرَبٌ سَرِيعُ السَّيْرِ وَالِدَفْعِ فَيَقُولُ : إِنْ الْمَرْأَةَ الَّتِي كَانَتْ تَبْلُ الذَّكَرَ عِنْدَ
الْجَمَاعِ لَوْ هَلَكْتَ لَبَقِيَ جَافًا وَأَرَادَ بِاللَّبْدِ مَوْضِعَ اللَّبْدِ وَهُوَ الظَّهْرُ ، الْفَنْجَدِيهِى
يَقُولُ : كَمْ مِنْ امْرَأَةٍ لَوْ مَاتَتْ لَتَرَكَ زَوْجُهَا كَثْرَةَ الْحَرَكَةِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ مَرْضَاةً
لَهَا ، وَجُفُوفَ الْعِرْقِ قَدْ يَكُونُ مِنَ السَّكُونِ ، وَالتَّفْسِيرُ الْأَوَّلُ أَكِينٌ ، وَهَذَا
الثَّانِي يُحْتَمَلُ إِمَّا وَصْفَهُ بِالسَّرْعَةِ وَالِاضْطِرَابِ ، وَهُوَ صِفَةُ فَرَسٍ جَعَلَ لَهُ لَبْدًا
فَالْفَرْزُ بِذَلِكَ ، وَقَالَ أَغْرَابِي مَاتَتْ امْرَأَتُهُ :

وَكُنْتُ فَرَسِيَّ وَغِلَافَ بُضْعِي فَأَمْسَى الْبُضْعُ لَيْسَ لَهُ غِلَافٌ
وَمِنَ اللَّغْزِ فِيهِ قَوْلُ الْآخِرِ :

وَصَاحِبِ مُعْجَبٍ فِي طَوْلِ حُجْبَتِهِ لَا يَنْفَعُ الدَّهْرُ إِلَّا وَهُوَ مَحْمُومٌ
تَأْتِيكَ فِي نَافِضِ الْحُمَى مَنَافِعُهُ وَإِنْ أَفَاقَ يُرَى فِي وَجْهِهِ اللَّوْمُ
وَقَالَ الْأَقْبِشَرُ : وَكَانَ عَيْنِيًّا ، فَغَالَطَ فِي شَعْرِهِ بِالضَّدِّ :

وَلَقَدْ عَدَوْتُ بِمَشْرِفٍ يَا فَوْحُهُ عَسِرَ الْمَكْرَةُ مَآؤُهُ يَتَدَفَّقُ

أَرَنْ يَسِيلَ مِنَ النِّشَاطِ لِعَابِهِ وَيَكَادُ جِلْدُ إِهَابِهِ يَتَمَزَّقُ
 حَتَّى عُلُوتُهُ بِهِ مَشْقُ تَذِييَةٍ طَوْرًا يَفُورُ بِهَا وَطَوْرًا يَفْرَقُ
 قَوْلُهُ : أَفَانِينَ ، أَيْ ضُرُوبٌ وَأَنْوَاعٌ ، وَالْأَفَانِينَ : الْأَسَالِيبُ وَهِيَ أَجْنَاسُ
 الْكَلَامِ وَطَرَقُهُ ، الْأَزْهَرِيُّ : أَفَانِينَ : جَمْعُ أَفْنَانٍ : جَمْعُ فَنَنٍ ، وَهُوَ الْفَصْنُ
 وَالْخُصْلَةُ مِنَ الشَّعْرِ ، وَقِيلَ : الْأَفْنُونُ الْفَنُّ ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ ، وَالْحَبَالُ ،
 وَالْجَمْعُ أَفَانِينَ . مُلَحَّحٌ : مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ حُلُومِ الْكَلَامِ وَالْفَاوِزِ . تُلَمِّحِي : تَشْفَلُ
 تُحِبُّ : مَخْتَارَةٌ . لَحْنُ الْقَوْلِ : مَعْنَاهُ وَمَذْهَبُهُ ، وَاللَّحْنُ التَّوْرِيَّةُ ، وَهِيَ أَنْ تُظْهَرَ
 خِلَافَ مَا تَضُمُّرُ . الطَّلَعُ : أَوَّلُ مَا يَخْرُجُ مِنَ الثَّمَرِ . وَالرُّطَبُ : الطَّيِّبُ مِنْهُ .
 شُدِّقْتُمْ : تَحْيَرْتُمْ .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَامٍ : فَطَفِقْنَا نَحْبِطُ فِي تَقْلِيلِ قَرِيضِهِ ، وَتَأْوِيلِ
 مَعَارِيضِهِ وَهُوَ يَلْهُو بِنَا لَهَوِ الْخَلْيِ بِالشَّجِيِّ ، وَيَقُولُ : لَيْسَ بُعْثُكَ
 فَادْرُجِي ، إِلَى أَنْ تَعَسَّرَ النَّتَاجُ ، وَاسْتَحْكَمَ الْأَرْتِنَاجُ ؛ فَالْقِينَا إِلَيْهِ الْمَقَادَةَ ،
 وَخَطَبْنَا مِنْهُ الْإِفَادَةَ ؛ فَوْقَفْنَا بَيْنَ الْمَطْمَعِ وَالْيَأْسِ ، وَقَالَ : الْإِيْنَا سُ قَبْلَ
 الْإِنْسَاسِ ؛ فَعِلْمُنَا أَنَّهُ مِمَّنْ يَرْغَبُ فِي الشُّكْمِ ، وَيَرْتَشِي فِي الْحُكْمِ ،
 وَسَاءَ أَبَا مَثْوَانَا أَنْ نُمْرِضَ لِلْعُرْمِ ، أَوْ نَحْيَبَ بِالرُّغْمِ ؛ فَأَحْضَرُ صَاحِبُ
 الْمَنْزِلِ نَاقَةَ عَيْدِيَّةَ ، وَحُلَّةَ سَعِيدِيَّةَ ، وَقَالَ لَهُ : خُذْهَا حَلَالًا وَلَا تَرْزَأْ
 أَضْيَافِي زِبَالًا ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّهَا شِنْشِينَةٌ أَخْزَمِيَّةٌ ، وَأَرْيَحِيَّةٌ حَاتِمِيَّةٌ .

* * *

طَفِقْنَا : أَخَذْنَا نَحْبِطُ : نَتَكَلَّمُ بِالزَّائِدِ وَالنَّاقِصِ . تَأْوِيلُ : تَفْسِيرُ .
 مَعَارِيضُهُ : مَا عُرِّضَ بِهِ وَلَمْ يَتِمَّ . الْخَلْيُ : الَّذِي لَا مَمَّ لَهُ ، وَالشَّجِيُّ : الْحَزِينُ
 وَيَاءُ الْخَلْيِ مُشَدَّدَةٌ وَيَاءُ الشَّجِيِّ مُخَفَّفَةٌ ، وَقَدْ شُدِّدَتْ يَاءُ الشَّجِيِّ فِي الشَّعْرِ إِتِبَاعًا

لياء انْخَلَى ، وقالوا: إني لآتيه بالغدايا والعشايا ، فحملوا الغدايا على العشايا ، وحكى ثعلب في غير الفصيح عن الأصمعيّ تثقيل الياء فيهما ، وَمَنْ جعل شَجِي فَعِل كخذر خَفَف ، ومن جعله فعيل مثل غنى شَدَّد ، وفعل بغير ياء أقيس ، والتشديد في المثل أحسنُ للازدواج . تَعَسَّر : صَعُب . النَّتَاج : ما ينتج لهم من المعاي . استحکم : توثق . الارتجاج : الانفلاق ، وأُرْجِح على القاريّ وارتجج ، إذا لم يقدر على القراءة كأنه أُطْبِق عليه . ويرثى : يأخذ الرِّشوة . وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله الراشئ والمرثى والرائش » ، قفيل : وما الرأش ؟ قال : الذي يمشى بينهما .

ألقينا إليه المقادة : أى انقدنا له ، ورزأتُ الرَّجْل أرزؤه ؛ إذا أصبت منه خيراً ، ورزأته ماله : قصته والزُّبال بالكسر : ماتحملة النملة فيها . والأريحية : الاهتزاز للوجود . ساء : حزن . والرغم : الذلة والهوان . شِنْشِنَة : طبيعة حاتمية منسوبة إلى حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج أحد بني ثعل بن عمرو بن الفوث بن طيء .

[ذكر حاتم الطائي]

يكنى أبا سَفَّانة وأبا عدى . فارس شاعر جاهليّ ، أحد الأجواد الذين يُضْرَب بهم المثل ، بل هو أشهر منهم ، وهم : كعب بن مامة ، وهريم بن سنان ، وحاتم ، وكان إذا قاتل غلب ، وإذا غنم نَهَب ، وإذا سئل وَهَب ، وإذا قامَرَ سَبَق ، وإذا أَسْر أطلق ، وإذا أُنْفَق . ويقال : إنه لا يُعرف ميت قرى أضيافه إلاّ هو ، وذلك أن ركبا من العرب نزلوا بموضع قبره ، وقد نفد زادهم ، وفيهم رجلٌ يكنى أبا خبيريّ ، فجعل يقول : أبا سَفَّانة ، أما تقرى أضيافك أبا سَفَّانة ، إن أضيافك جياع ، يعيدها ، فلما نام ثار من نومه ، وهو يقول : وارا حلتاه ! عُقِرْت والله ناقتي ، فقال له أصحابه : وكيف ؟ قال : رأيت أبا سَفَّانة قد انشق عنه قبره ، فاستوى قائماً ينشدني :

أبا خيبريَّ لأنَّتَ اسرؤْ ظلومُ العشيِّرةِ لَوَّامُها
وماذا تريدُ إلى رَمَّة بدويَّةِ صخبِ هامُها
تبغى أذاها وإسعارها ودُونك طيٌّ وأنعامها

ثمَّ عمد إلى سيفي ، فانتضاه من غِده ، وعَقَرَ ناقتي ، وقال : دونكم فما أيقظني إلا رغاؤها ؛ وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث ، فقالوا : قد والله قرأك حاتم فحروها ، وأكلوا وتزودوا واقتسموا متاع أبي خيبري ، واسنبروا لوجهتهم ، فلما صاروا في الظَّهيرة وَضَحَ لهم راكبٌ يحْنُبُ بعيراً يؤمُّ سمتهم ، حتى التقوا فقال لهم : أفياكم أبو خيبري ؟ قالوا : نعم ، فقال : فإن عدى ابن حاتم رأى أباه البارحة ، وهو يقول : إنَّ أبا خيبري وأصحابه استقرُّوني ، فقرئتهم ناقته ، فعوضه منها ، وزدّه بَكْرًا يحمل عليه متاعه ؛ وهذه الناقة وهذا البكر ، فارتحل أبو خيبري الناقة ، وتحفَّف هو وأصحابه من أزوادهم ، على البكر ، ومضوا بأنَّهم قرئ .

وأدرك عدى ابنه النبيَّ صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، وكان يحدث أصحابه بهذا الحديث بعد إسلامه وقال الشاعر في عدى :

أبوكَ أبو سَفَّانةَ الخيرِ لم يزلْ لدنْ شَبَّ حتى مات في الخيرِ راغباً
قرى قبره الأضيافُ إذ نزلوا به ولم يقرِ قبرٌ قبله الدَّهرَ راكباً

وكانت سَفَّانة بنته من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصَّرمَةَ من إبله فتهبُّها وتعطيها الناس . فقال لها أبوها : يا بنيَّةُ إن الغويَّين إذا اجتمعوا في المال أتلُفاه ، فإذا أن أعطى وتُمسِكى ، وإمَّا أن أُمسِكَ وتُعطى أنت ؛ فإنه لا يبقى على هذا شيء ، فقالت : والله لا أُمسِكَ أبداً ، قال : وأنا لا أُمسِكَ أبداً قالت : فلا تتجاوز ، فقامهما ماله وتبائنا .

وحكى أن أمه كانت مِنْ أسخى الناس ، وأقراهم للضيف ؛ وكانت

لا تجلس شيئاً تملكه ، وهى عُتْبَةُ بنت عُقَيْف بن عمرو بن عبد القيس ، فلما رأى إخوتها إتلافها ، حجروا عليها ومنعوها مالها ؛ حتى إذا ظنوا أنها قد وجدت ألم ذلك أعطوها صِرمَةً من إبلها ، فجاءتها امرأة من هوازن تسألها ، فقالت : دونك الصِرمة ، نخذيها ، فوالله لقد عضّني من الجوع ما لا أمنع بعده سائلاً أبداً ، ثم أنشأت تقول :

لَعَمْرِي لَقَدْ مَا عَضَّنِي الْجُوعُ عَضَّةً فَالَيْتُ أَلَا أَمْنَعُ الدَّهْرَ جَانِئاً^(١)
 فقولاً لهذا اللائم : اليوم أعفني فإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابعاً
 فإذا عسيتم أن تقولوا لأخُتكمُ

سوى عذلكم أو عذلي من كان مانعاً
 وهل ما ترون اليوم إلا طبيعة وكيف بتركي يا بن أمّ الطّبائعا
 قد اكتنفه الجود من أمه وأبيه .

وقالت امرأتها التوار : أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض واغبرّ أفق السماء ، وضنت المراضع عن أولادها فما تبضّ بقطرة ، فأيقنا بالهلاك ، فوالله إني لفي ليلة صَبِيْرَةٍ^(٢) بعيدة الطرفين ، إذ تضاغى صبيئنا جوعاً : عبد الله وعدى وسفانة ، فقام إلى الصبيّين وقت إلى الصبية ، فوالله ما سكتوا إلّا بعد هدأة من الليل ، وأقبل يعلّاني بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تفوّرت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ، فقال : من هذا ؟ فقالت : جاريتك فلانة أتيتك من عند صبية يتعاونون من الجوع غواء الذئاب ، فما وجدتُ معوّلاً إلّا عليك أبا عدى ، فقال : أعجلهم فقد أشبعك الله وإياهم ، فأقبلت تحمل اثنين ، ويمشى إلى جانبها أربعة ، كأنها نعامه حولها رثالها ، فقام إلى فرسه فوجأ لبتّها بمديّة ،

(١) الخبر والشعر في طبقات الشعراء ٢٤٢

(٢) صبيرة : شديدة البرد .

تَفَرَّتْ ، ثُمَّ كَشَطَ الْجِلْدَ ، وَدَفَعَ الْمُدِيَّةَ إِلَى الْمَرْأَةِ وَقَالَ شَأْنُكَ ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَى
اللَّحْمِ نَشْوِي وَنَأْكُلُ ، ثُمَّ جَعَلَ يَأْتِيهِمْ يَتًا يَتًا ، وَيَقُولُ : هُبُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ ،
عَلَيْكُمْ بِالنَّارِ ، فَاجْتَمَعُوا وَالتَفَّ فِي ثَوْبِهِ نَاحِيَةً يَنْظُرُ إِلَيْنَا ، وَاللَّهِ إِنْ ذَاقَ مِنْهَا
مُرْزَعَةً ، وَإِنَّهُ لَأُحَوِّجُ إِلَيْهَا مِنَّا ، فَأَصْبَحْنَا وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْهَا إِلَّا عِظٌ
وَحَافِرٌ ، فَأَنشَأَ يَقُولُ :

مَهْلًا نَوَارِ أَقْلَى اللُّوْمَ وَالْعَذْلَا وَلَا تَقُولِي لَشَيْءٍ فَاتَ مَا قَعَلَا^(١)
وَلَا تَقُولِي لَشَيْءٍ كُنْتُ مَهْلَكِيهِ
مَهْلًا وَإِنْ كُنْتُ مَعْطَى النَّعْسِ وَالْجَلَا
يَرَى الْبَخِيلُ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً إِنْ الْجَوَادِ يَرَى فِي مَالِهِ سُبُلًا
وَلَمْ يَكُنْ يَمْسُكُ شَيْئًا مَا عَدَا فِرْسَهُ وَسِلَاحَهُ ، فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَجُودُ بِهِ .
وَذَكَرَ الْحَرِيرِيُّ أَنَّ عُقَيْلًا تَمَثَّلَ يَقُولُ حَاتِمٌ :

* شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ *

وَكَانَ عُقَيْلُ^(٢) بَنَ عُلْفَةَ الْمَرْيِّ غَيْرَ أَخَوْرًا وَكَانَتْ اخْلِفَاءُ تُصَاهِرُهُ ،
فَخَطَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ ابْنَتَهُ لِبَعْضِ وَلَدِهِ ، فَقَالَ : أَمَّا إِنْ كَانَ وَلَا بَدَّ ، فَجُنَّبْنِي
هُجْنَاءَ وَلَدِكَ ، وَخَرَجَ يَمْتَارُ وَمَعَهُ ابْنُهُ وَابْنَتُهُ الْجَرْبَاءُ فَنَزَلُوا بِالشَّامِ بِدَيْرِ سَعْدٍ ،
فَلَمَّا ارْتَحَلُوا قَالَ عُقَيْلُ :

قَضَتْ وَطْرًا مِنْ دَيْرِ سَعْدٍ وَرَبَّمَا عَلَى عُرْضٍ نَاطَحَتَهُ بِالْجَا حِمِ^(٣)
ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ أَجْزِيَا عَمَلَسَ ، فَقَالَ^(٤) :

(١) ديوانه ٧٤

(٢) الأفعى ١٢ = ٢٥٦

(٣) دير سعد : موضع بين بلاد فلسطين والشام ، ويعدّه في الأفعى :

إِذَا هَبَطْتَ أَرْضًا يَمُوتُ غَرَابُهَا بِهَا عَطَشًا أُعْطِينَهُمْ بِالْخَزَائِمِ

(٤) في الأفعى : « اتفد يا ملعة » .

فأصبحن بالمومة يحملن فتية^(١) نساوى من الإدلاج ميل العام^(٢)
ثم قال لابنته الجرباء : أجزى ، فقالت^(٣) :
كان الكرى أسقام صرخدية^(٤) عقرأ تمشت في المطا والقوائم^(٥)
فقال لها : وما يدريك ما نعت الحمر ؟ ثم سلّ السيف ، فاستغاثت بأخيها
فاختبل فحذيه بسهم ، فبرك ومضوا وتركوه حتى بلغوا المياه الدانية إليهم ، فقالوا
لأهل المياه : إنا أسقطنا جزوراً ، فأدركوها فوجدوا عقيلاً باركاً ، وهو يقول :
* إن بنى ضرجوني بالدم *^(٦) الأبيات

* * *

ثم قابلنا بوجه بشره يشفّ ، ونضرته ترفّ ، وقال : يا قوم ؛ إن
الليل قد اجلودّ ، والنعماس قد استخوذ ، فافزعوا إلى المراقد ، واغتنيوا
راحة الرقاد ، لتشربوا نشاطاً ، وتبعثوا نشاطاً ، فتعوا ما أفسر ،
وبتسهل لكم المتعسر ، فاستصوب كل ما رآه ، وتوسّد وسادة كراه .
فلما وسنت الأجفان ، وأغقت الضيفان ، وثب إلى الناقة فرحلها
ثم ارتحلها ، وقال مخاطباً لها :

(١) بعده في الاغاني :

إذا علم غادرته بقتوفه تدارعن بالأيدي لآخر جاميم

(٢) في الاغاني : « ثم قال أنفذ بي يا جرباء ، فعلت : « وأنا آمنة ؟ قال : نعم ،
فقلت »

(٣) الصرخدية نسبة الى صرخد : بلد قريب من دمشق ، والعقار : الضر . والمطا :
للظهر .

(٤) رواية الاغاني للابيات :

إن بنى صرجوني بالدم من يلق أبطال الرجال يكلم
ومن يك ذا أود يقوم شنشنة أعرفها من أخزم

وأخزم فعل كان لرجل من العرب وكان منجبا فضرب في ابل رجل آخر — ولم يعلم
صاحبه — فرأى بعد ذلك من نسله جيلا فقال : شنشنة أعرفها من أخزم .
وانظر الاغاني واللسان — خزم .

سَرُوجُ يَا نَاقُ سِيرِي وَخِدِي وَأَذْلِي وَأَوْبِي وَأَسْـئِدِي
 حَتَّى تَطَا خُفَّاكَ مَرَعَاها النَّدِي فَتَنَعَمِي حَيْفُئْـذِ وَتَسْعَدِي
 وَتَأْمَنِي أَنْ تُتْهِمِي وَتُنْجِدِي إِلَيْهِ فَدَتْكَ النُّوقُ جِدِّي وَاجْهَدِي
 وَافْرِى أَدِيمٍ فَدَقْدٍ فَقَدَفِدِ وَاقْتَنَعِي بِالنَّشِجِ عِنْدَ الْمُورِدِ
 وَلَا تَحْطِى دُونَ ذَاكَ الْمُقْصِدِ فَقَدْ حَلَفْتُ حَلْفَةَ الْمُجْتَمِـدِ
 بُحْرَمَةِ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْعُمْدِ إِنَّكَ إِنْ أَحْلَلْتَنِي فِي بَلَدِي
 * حَلَلْتِ مَنِي بِمَحَلِّ الْوَلَدِ *

* * *

قوله : بشره ، أى طلاقته . يشف : يتلأأ ويرق حتى يكاد يصف ما وراءه .
 من الشرور . نُضْرَتُهُ : نعمته وروقه . تَرَفٌ : تَذَى . استحوذ : غلب
 واستولى . افزعوا : الجئوا . لتشربوا نشاطاً ، أى يتمشى النشاط فى أجسادكم
 حتى تروا به . تُبْعَثُوا : تنتهبوا . نِسَاطًا : جمع نَشِيط ككريم وكرام ، وَنَشِطٌ
 ينشط فهو نشيط ، إذا كان طيب النفس للعمل . تعوا : تحفظوا . المتعسر :
 الصعب . كراه : نومه . سَنَتْ : خالطها الوسن ، وهو النوم . أغفت : نامت .
 قوله : خِدِي ، أى أسرعى . تُتْهِمِي وَتُنْجِدِي : تقصدى تِهامةً وَتَجْدَأُ .
 إِلَيْهِ ، معناه زىدى فى سيرك . اجهدى : اتعبى . افرى : اقطعى . أديم : جلد .
 فدقد : أرض صلبة ، وقيل مستوية ، وقيل فلاة ، وأراد بالأديم وجه الأرض .
 وَنَشَحَ يَنْشَحُ نَشْحًا : شرب قليلاً قليلاً . تَحْطِى : تنزلى . العُمد ، والعمود :
 ما يقوم عليه الخباء .

وقوله يخاطب ناقته :

إِنَّكَ إِنْ أَحْلَلْتَنِي فِي بَلَدِي حَلَلْتِ مَنِي بِمَحَلِّ الْوَلَدِ

قد جاء في كلامهم نظيره وضده ، وكلاهما في بابهِ حسن . قال الشماخ في
ضده من مجازاة الناقاة على إحسانها بالسوء :

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي عَرَابَةً فَأَشْرِقِ بِدَمِ الْوَتِينِ^(١)
وَنَاقِضَهُ الْآخِرُ فَقَالَ :

أَقُولُ لِنَاقَتِي إِذَا بَلَّغْتَنِي لَقَدْ أَصْبَحْتَ مَنَى بِالْيَمِينِ
فَلَمْ أَجْعَلْكَ لِلْقُرْبَانِ طَعْمًا وَلَا قَلْتُ أَشْرُقِ بِدَمِ الْوَتِينِ
وَتَبِعَهُ ذُو الرُّئْمَةِ فَقَالَ :

أَقُولُ لَهَا إِذَا شَمَّرَ اللَّيْلُ وَاسْتَوَتْ بِهَا الْبَيْدُ وَاسْتَتَّتْ عَلَيْهَا الْحَزَاوِرُ^(٢)
إِذَا ابْنُ أَبِي مُوسَى بَلَالًا بَلَّغْتِهِ فِقَامُ بَقَاسٍ بَيْنَ رَجْلَيْكَ جَازِرُ

وتوجيه الحسن في هذا المذهب على شناعة ظاهره أنه لا يبالي بفقدها ، لأن
الممدوح يحمله ، ويعطيه فهو في غنى عنها . ومن يعيب هذا يقول مجازاة الحسن
بالسوء قبيح ، وقد قال رسول الله عليه وسلم للمرأة التي قالت وقد نجت على
ناقته : نذرتُ إن نجاني الله عليها أن أنحرها : « بنس ما جازيتها ، ولا نذر لك
في مال غيرك » والمذهب الأحمد في ذلك قولُ عبد الله بن رواحة رضى الله عنه
حين خرج في جيش مؤتة يخاطب ناقته :

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتَ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعٍ بَعْدَ الْحِجَاءِ^(٣)
فَشَأْنُكَ فَانْعِمِي وَخَلَاكِ ذِمٌّ وَلَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَأْيِي

ولهذا تبعه الحريري في شعره .

وقال الحسن :

(١) ديوانه ٣١٩ .

(٢) ديوانه ٢٥٣ .

(٣) الحساء : موضع وانظر معجم البلدان ٢ : ٢٧٤ .

وإذا المطى بنا بلفن محمداً فظهورهن على الرجال حرام^(١)
 قرّبنا من خير من وطىء الثرى فلها علينا حرمة وذمام
 وقال داود بن أسلم يمدح قثم بن العباس رضى الله عنهما :

نجوت من حلٍّ ومن رِحلةٍ يا ناق إن بلغتنى من قثم^(٢)
 إنك إن بلغتنى غداً عاش لنا الخير ومات العدم

* * *

قال : فعلت أنه السروجى الذى إذا باع أنباع ، وإذا ملأ
 الصاع أنصاع .

ولما انبلج صباح اليوم ، وهب النوام من النوم ، أغلضهم أن
 الشيخ حين أغشاهم الشبات ، طلقهم البتات ، وركب الناقة وفات ؛
 فأخذهم ما قدّم وما حدث ، ونسوا ما طاب منه بما خبث ؛ ثم انشعبنا
 فى كل مشعب ، وذهبنا تحت كل كوكب .

* * *

قوله : أنباع ، أى جرى ومدّ باعه ، ومعناه هرب منه فى سيره .

يقال : صغت الشيء فانصاع ، أى فرقته ففترق ، ومعناه إذا ملأ كيسه من
 عطاء قوم راح عنهم . انبلج : أضاء . هبّ : انتبه . أغشاهم : غطاهم . الشبات :
 النوم الخفى كالنفسية . ثعلب : الشبات ابتداء النوم فى الرأس حتى يبلغ القلب ،
 وسبت الرجل فهو مسبوت : نفس . والبتات : القطع البائن . فات ، أى فرّ
 فلا يُلحق .

(١) ديوانه ٦٤

(٢) الكامل للبرد ٢ : ٢٩٦ ونسبها الى سليمان بن قنة من الاخفش .

وذكر الحريري في درة الفواص : أن قولهم : حَدَّثَ أمر بضم الدال قياساً على أخذهم ما قَدَّم وما حَدَّث خطأ ، وإنما ضُمَّت الدال من حَدَّث حين قرن بَقَدَّم للمحافظة على الموازنة ، فإذا أفردت لفظة حَدَّث زال موجب الضم ، ووجب الرد إلى الأصل . قال : وأنشدني بعض أدباء خراسان لأبي الفتح البستي :

جزعت من أمرٍ فظيعٍ قد حَدَّثَ أبو تميم وهو شيخ لا حَدَّثَ

* قد حبس الأصل في بيت الحدِّث *

* * *

لم نتعرض في شرح هذه المقامة ، لما ثبت في كتاب المقامات من شرح مُنْشِئِهَا ، بل نُعَقِبَ ما أهمله ، وكان الأولى إثبات ما شرح بنصه ؛ إذ هو وَفَّقَ لِعَرْضِهِ .

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن علي رحمه الله تعالى :
قد قسرتُ سرّاً كلَّ لغزٍ تحته ، ولم أبعد على مَنْ يقرؤه كشفه ، وقد بقيتُ
أليفاًظ اشتملت عليها هذه المقامة ربّما التبس تفسيرُها على بعض مَنْ تقع إليه ،
فأحببتُ إيضاحها له ليكني حَيرةَ الشبهة وكلفةَ الفكرة ، ووضحةَ البحث والمساءلة ،
وبالله تعالى الاستعانة والقوّة .

قوله : « عشوتُ إلى نار » يعني تنوّرتها فقصّدتُها فإن لم تقصدها قلت :
عشوتُ عنها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى يُعْرِض .
وقوله : « وأنا أضرد من عينِ الحرباء والعنزِ الجرباء » هذان مثَلاَن
يُضربان لمن يبلغ منه البرد ، وذلك لأنَّ الجرباء تدور أبداً مع الشمس وتستقبلها
بعينها ، ولذلك شبه ابنُ الرومي الرقيب بالجرباء في قوله ^(١) :

ما بالها قد حُسّنت ورقبها أبداً قبيحٌ ، قبحَ الرقيباء
ما ذاك إلا أنها شمّ الضحّا أبداً يكون رقيبها الجرباء

والعنز الجرباء لا تدفأ في الشتاء لقلة شعرها . وذكر بعضهم أن العنز الجرباء
تصحيف المثل الأول .

وقوله : « من نحر وارٍ » يعني الجمل المكتنز شحمًا ، الكثير نحّا .

وقوله : « عِشاره تخورُ وأعشاره تفور » العِشار : الثُّوق الحوامل .
والأعشار : البُرمة العظيمة ، كأنها شُعِبت لِعَظَمها ، يقال : بُرمةٌ أعشار
وجَفَنَةٌ أكسار ونَوْبٌ أسمال وبُرْدٌ أخلاق وحبل أرمام ، ووصف الجماعة
منها كوصف الواحد .

وقوله : « فأكهة الشتاء » كفى بها عن النار ، ومنه قول بعض المحدثين :

النار فأكهة الشتاء فمن يُرَدُّ أكل الفواكه شاتياً فليضطلِ
 إِنَّ الفواكه في الشتاء شَهِيَّةٌ والنار للمقرور أَفْضَلُ مَا كَلِ
 وقوله : « موائد كالهالات » يعنى دارات القمر ، ودائرة الشمس تسمى
 الطفاوة

وقوله : « مَشَوْش الغمر » يعنى المندبل ، يقال : مشَّ يده بالمندبل ، أى
 مَسَحَهَا ، ومنه قول امرئ القيس :
 نَمَشْتُ بِأَعْرَافِ الْجِيَادِ أَكْغَفًا إِذَا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءِ مُصَهَّبٍ^(١)
 وقوله : « مشتهباً فوداه ، أى صاراً من الشَّيب في لون الأشهب ، ومنه
 قول امرئ القيس :

قَالَتِ الْخُنْسَاءُ إِنَّمَا جِئْتُهَا شَابَ بَعْدِي رَأْسُ هَذَا وَاشْتَهَبَ^(٢)
 وقوله : « رَبَضَ حَجْرَةٌ » يعنى ناحية ، ويقال في المثل لمن يشارك في
 الرِّخَاءِ ويحانب عند البلاء : يَرْتَعُ وَسطاً وَيَرْبُضُ حَجْرَةً .

وقوله : « فَاسْتَرْعَى السَّامِرَ » يعنى الثَّمَارَ ؛ لِأَنَّ السَّامِرَ اسْمٌ لِلْجَمْعِ
 كَالْحَاضِرِ اسْمٌ لِلْحَيِّ النَّازِلِينَ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَالْبَاقِرِ : اسْمٌ لِلْجَمَاعَةِ الْبَقَرِ .
 وقال بعض أهل اللغة : هو اسم للبقر مع رُعَاتِهَا ، وَاشْتِقَاقُ السَّامِرِ مِنَ السَّمَرِ ،
 وَهُوَ ظِلُّ الْقَمَرِ مَا خُوِذَ مِنَ السَّمَرَةِ ، فَلَمَّا كَانَ غَالِبَ أَحْوَالِ السَّامَرِ أَنَّهُمْ
 يَتَعَدُّونَ فِي ظِلِّ الْقَمَرِ اشْتَقُّ لَهَا اسْمٌ مِنْهُ ، وَإِلَى هَذَا يَرْجِعُ قَوْلُهُمْ : « لَا أَكَلَّمَهُ
 الْقَمَرَ وَالسَّمَرَ »

وقوله : « لَيْسَ بُعْثُكَ فَادْرُجِي » هذا مثل يضرب لمن يتعاطى ما لا ينبغي
 له . وَالشُّشُّ : مَا يَكُونُ فِي شَجَرَةٍ ، فَإِذَا كَانَ فِي حَائِطٍ أَوْ كَهْفٍ جَبَلٍ فَهُوَ وَكْرٌ .
 وقوله : « الْإِنْسَانُ قَبْلَ الْإِبْسَاسِ » هذا مثل أيضاً ، ومعناه أَنَّهُ يَنْبَغِي
 أَنْ يُؤْنِسَ الْإِنْسَانُ ثُمَّ يَكْلَفُ ، وَأَصْلُهُ أَنَّ حَالِبَ النَّاقَةِ يُؤْنِسُهَا حِينَ يَرُومُ حَلَّابَهَا ،

ثم يبسّ بها للحلب ، والإبسّاس أن تقول لها : بس بس ، لتسكن وتدرّ ،
وتستى الناقة التي تدرّ على الإبسّاس : البسوس .

وقوله : « يرغب في الشكّم » الشكّم ما أعطيته على سبيل المجازاة ، فإن
أعطيته مبتدئاً فهو الشكّد .

وقوله : « ساء أبا مثوانا » يعنى المضيف الذى أووا إليه وثووا عنده .

وقوله : « ناقة عيدية » قيل إنها منسوبة إلى فحل منجب اممه عيد ،
وقيل : هى منسوبة إلى فخذ من مَهرة اسمه عيد بن مَهرة ، وكانت مَهرة وعيد
تتخذان نجائب الإبل ، فنسبت إليهما .

وقوله : « حلة سعيدية » هى منسوبة إلى سعيد بن العاص ، وكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم كسّاه وهو غلام حلة فنسب جنسها إليه .

وقوله : « لاترزا أضيافى زبالاً » أى لاترزوهم شيئاً وإن قل ، والأصل
فى الزبال ما تحمله النملة بفيها .

وقوله : « شنشنة أخزمية » أشار به إلى المثل الذى ضربه جدّ حاتم بن
عبد الله بن سعد بن الحشرج بن أخزم الطائى ، حين نشأ حاتم وتقبّل أخلاق
جدّه أخزم فى الجود ، فقال : « شنشنة أعرفها من أخزم » وتمثّل عُقيل بن
علقة به حين قال :

إِنْ بَنَى ضَرْجُونِي بِالْدمِ مَنْ يَلْمُ آسَادَ الرَّجَالِ يُكَلِّمُ
* شِنْشِنَةً أَعْرِفَهَا مِنْ أَخْزَمِ *

ومن ادعى أن المثل له فقدمها فيه .

وقوله : « اجلوذ » أى أسرع فى الدّهاب ومثله اخرّوط .

وقوله : « وثب إلى النّاقة فرحلها » يعنى شدّ عليها الرّحل ، وبه سُميت
الراحلة ، لأنها فاعلة بمعنى منحوه كقوله تعالى : ﴿ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ، أى مرضية .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ أَيْ مَدْفُوقٌ ، وَالرَّاحِلَةُ تَقَعُ عَلَى النَّاقَةِ وَالْجَلُّ وَدُخُولُ الْمَاءِ فِيهَا لِلْمَبَالِغَةِ ، مِثْلُ دَاهِيَةٍ وَرَاوِيَةٍ .

وَقَوْلُهُ : « ارْتَحِلْهَا » أَيْ رَكِبْهَا ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَجَدَ ، فَرَكِبَهُ الْحَسَنُ فَأَبْطَأَ فِي سَجُودِهِ ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ : « إِنْ أَبْنَى ارْتَحِلْنِي فَكِرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ » .

وَقَوْلُهُ : « وَرَحَلْهَا » أَيْ أَرْعَجْهَا وَأَشْخَصْهَا وَأَجِدَّ بِهَا فِي الرَّحِيلِ ، وَمِنْهُ الْخَبَرُ : « تَخْرُجُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ نَارٌ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَرَحَّلُ النَّاسَ » .

وَقَوْلُهُ : « فَأَذْلَجِي وَأَوْبِي وَأُسْنَدِي » . الْإِدْلَاجُ : أَنْ تَسِيرَ اللَّيْلَ كُلَّهُ وَالْأَسْمُ مِنْهُ الدَّلْجَةُ بِفَتْحِ الدَّالِ وَالْإِدْلَاجُ بِالْقَشْدِيدِ : أَنْ تَسِيرَ مِنْ آخِرِهِ وَالْأَسْمُ مِنْهُ الدَّلْجَةُ ، بَضْمُ الدَّالِ . وَقِيلَ فَتَحَهَا وَضَمُّهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ . وَالتَّأْوِيبُ : سَيْرُ النَّهَارِ وَحْدَهُ . وَالْإِسْنَادُ : أَنْ تَسِيرَ لَيْلًا وَنَهَارًا . وَالذَّشْحُ : أَنْ تَشْرَبَ دُونَ الرِّتْيِ .

وَقَوْلُهُ : « مَا قَدُمُ وَمَا حَدُثُ » ، يُقَالُ ذَلِكَ لِمَنْ تَسْتَوِي الْمُهْمُومُ عَلَيْهِ وَتَتَلَاعَبُ بِهِ . وَتَضَمُّ الدَّالِ مِنْ « حَدُثُ » فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ وَحْدَهُ ، لِيُوَافِقَ لَفْظَهَا لَفْظَ « قَدُمُ » ؛ فَإِنْ أَفْرَدْتَ « حَدَثَ » عَنْ قَدُمٍ وَجِبَ فَتَحُ الدَّالِ مِنْ « حَدَثَ » ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ : هُنَائِي وَمِرَائِي بِحَذْفِ الْأَلْفِ مِنْ أَمْرَائِي إِذَا ذَكَرَ مَعَ « هُنَائِي » فَإِنْ أَفْرَدْتَهُ قُلْتَ : أَمْرَائِي الشَّيْءَ .

وَقَوْلُهُ : « ذَهَبْنَا تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ » هَذَا الْمَثَلُ يَضْرِبُ لِمَنْ تَخْتَلَفُ فِي السَّفَرِ طُرُقُهُمْ وَتَقْبَايُنَ سَبِيلَهُمْ .

المقامة الخامسة والأربعون وهي الرملية

حكى الحارث بن همام قال : كنتُ أخذتُ عن أولي التجارِيب ،
أن السَّفرَ مرآةُ الأعاجيب ، فلم أزل أجوبُ كلَّ تنوِّفة ، وأقتحم كلَّ
مُخوِّفة ، حتى اجتلبتُ كلَّ أطروفة ؛ فن أحسن ما لمَحَّتْهُ ، وأغرب
ما استَمَلَحَتْهُ ، أن حَضَرْتُ قاضي الرَّملة ، وكان من أرباب الدولة
والصَّولة ، وقد ترفع إليه بال في بالٍ ، وذاتُ جمالٍ في أشمال ، فهمم
الشيخُ بالكلام ، وتبين المرام ؛ فنغته الفتاة من الإفصاح ، وخسأتَه
عن الثَّباح ، ثم نَضَتْ عنها فَضْلة الوِشاح ، وأنشدته بلسان
السَّليطَةِ الوقَّاح :

* * *

أولى التجارِيب ، أى أصحابها وأهلها . أجوب : أقطع . تنوِّفة : قفرة .
أقتحم : أدخل . اجتلبت : رأيت . أطروفة : عجيبه . لمَحَتْهُ : نظرتَه . استمَلَحَتْهُ :
وجدته مليحاً . الصَّولة : الاستطالة . وقد صال إذا استطال وهدد . ترفع ،
أى تداعى للحكومة ، ورفع كلَّ واحد صاحبه . بال : شيخ كبير . فى بالٍ :
فى ثوب خَلَق ، وأشمال : ثياب خَلَقَة ، واحدها سَمَل ، وسمل الثوبُ وأَسْمَل ،
ويقال أيضاً : ثوب أشمال ، فيُوصف بالجمع ، كما يقال : رمح أقصاد ، وبُرْمة
أعشار . تبيان المرام : تبين مراده ، وإظهار حجته . الإفصاح : التبيين . خسأته :
أبعدته وطردته . الثَّباح : الكلام هنا ، وخسأ ونبح أصلهما فى الكلب ، ويقال :
خسأتُ الكلب خَسْناً : طردته وأبعدته ، وخسأ الكلب بنفسه ، أى انخسأ ،

يَتَعَدَّى وَلَا يَتَعَدَّى ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ اخْسَأُوا فِيهَا ﴾ أَى تَبَاعَدُوا تَبَاعَدَ سُخْطَ .
نَضَّتْ : جَرَدَتْ . الْوِشَاح : الْحَزَام ، وَهُوَ الْمَنْطِقَةُ . الْفَنْجْدِيهِى : الْوِشَاح شَبَه
قِلَادَةَ تَنْسَجُ مِنْ أَدَمَ عَرِيضَةً وَتُرَصَّعُ بِالْجَوَاهِرِ وَغَيْرِهَا . السَّلِيلَةُ : الْمُسْتَطِيلَةُ
بِلِسَانِهَا . الْوَقَاح : الَّتَى لَيْسَ فِي وَجْهِهَا حَيَاءٌ ، فَهِيَ تَقُولُ مَا شَاءَتْ .

* * *

يَا قَاضِيَ الرَّمْلَةِ يَا ذَا الَّذِي	فِي يَدِهِ التَّمْرَةُ وَالْجُمْرَةُ
إِلَيْكَ أَشْكُو جَوْرَ بَعْلِ الَّذِي	لَمْ يُحْجِجِ الْبَيْتَ سِوَى مَرَّةٍ
وَلَيْتَهُ لَمَّا قَضَى نُسْكَهُ	وَخَفَّ ظَهْرًا إِذْ رَمَى الْجُمْرَةَ
كَانَ عَلَى رَأْيِ أَبِي يُوسُفٍ	فِي صِلَةِ الْحِجَّةِ بِالْعُمْرَةِ
هَذَا عَلَى أَنِّي مُذْ صَمَّنِي	إِلَيْهِ لَمْ أَغْصِ لَهُ أَمْرَةَ
فَمَرَّةٍ إِمَّا أَلْفَةً حُلُومَةً	تُرْضِي وَإِمَّا فُرْقَةً مَرَّةٍ
مَنْ قَبْلَ أَنْ أَخْلَعَ ثَوْبَ الْحَيَا	فِي طَاعَةِ الشَّيْخِ أَبِي مُرَّةٍ

* * *

الرَّمْلَةُ : قَرْيَةٌ بِالشَّامِ ، وَقَسَمَ الشَّامَ خَمْسَةَ أَقْسَامٍ ، فَخُمُسُ مِنْهُ فَلَسْطِينَ
وَمَدِينَتُهُ الْعُظْمَى الرَّمْلَةُ ، وَالرَّمْلَةُ أَرْبَعَةُ آلَافِ ضَعِيعَةٍ ، وَمِنْ مَدَنِ فَلَسْطِينَ إِبِلْيَاءُ
مَدِينَةُ بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّمْلَةِ ثَمَانِيَةُ عَشَرَ مِيلًا . وَقَالَ ابْنُ ظَفَرٍ : عَشْرُونَ
فَرَسِيخًا . التَّمْرَةُ وَالْجُمْرَةُ : الْخَيْرُ وَالشَّرُّ ، وَالنَّفْعُ وَالضَّرُّ ، وَيُضْرَبُ بِهِمَا الْمَثَلُ فِي هَذَا
الْمَعْنَى ، وَمَنْ قَضَى لَهُ الْقَاضِي بَشْيءَ فَكَأَنَّهُ قَدْ أَعْطَاهُ . وَالْبَيْتُ ، عَمَّتْ بِهِ فَرْجَهَا
يُحْجِجُ : يَقْصِدُ إِلَيْهِ بِالْجَمَاعِ ، وَقَوْلُهَا . سِوَى مَرَّةٍ ، تَرِيدُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَطُفْئَهَا وَافْتَرَعَهَا
وَلَمْ يَعُدْ لَهَا بَعْدَ تِلْكَ الْمَرَّةِ ، وَتَعْنِي بِالتَّسْكِ افْتَرَعَهَا وَمَا هُنَاكَ مِنَ الدَّمِ . وَعَمَّتْ
بِرْمَى الْجُمْرَةِ إِتْيَانَهُ لَهَا ، وَجَمَعَ الْجَرَّ جَمَارًا ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الصَّغِيرَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَجَمَّرَ
الرَّجُلُ تَجْمِيرًا : رَمَى جَمَارَ مَكَّةَ ، قَالَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ :

فلم أر كالتجمير منظرَ ناظرٍ ولا كالميل إلى الحج أفلتن ذا هوى
ومنه الحديث: « وإذا استجمرت فأوتر » معناه تمسّحت بالحجارة .

[ذكر أبي يوسف صاحب أبي حنيفة]

أبو يوسف ، هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصاري .
وأبو يوسف كوفي صاحب أبا حنيفة فغلب عليه ؛ حتى قالوا : أبو يوسف
أبو حنيفة ، أي يسدّ مسدّه ويقف عنده ، وروى عن أبي حنيفة والمطرف والمغيرة
وهشام بن عروة الشيباني . وكان صدوقاً من أهل الدين والعلم ، وكان قاضي
القضاة ببغداد لثلاثة خلفاء : المهدي والهادي والرشيد ، وكانت أم جعفر قد استفتته
في مسألة ، فأفتاها بما أوجبه العلم عنده ، فوافق بذلك مرادها ، فأهدت له حُقّاً
من فضة فيه طيب وجام فضة فيه دنانير ، فقال له بعض مَنْ حضره :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَهْدَيْتَ لَهُ هَدِيَّةً فُجِّلَ سَاوَهُ شَرَكَاؤُهُ
فِيهَا » ، فقال أبو يوسف تأولت الخبر على ظاهره ، والاستحسان قد منع من
إمضائه ، فإن ذلك إذ كان هدايا الناس التمر واللبن ، لا في هذا الوقت ، والهدايا
ذهب وورق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال أبو جعفر الطحاوي : ولد أبو يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة .

حماد : رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زُفَر ،
وهما يتجادلان في مسألة ، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده عليه زُفَر ،
ولا يقول زُفَر قولاً إلا أفسده عليه أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلما أذن
المؤذن رفع أبو حنيفة يده ، فضرَبَ بها فخذَ زُفَر ، وقال : لا تطمع في رئاسة
في بلد فيها أبو يوسف ، قَصَصَ لأبي يوسف .

على بن حرملة التيمي : قال أبو يوسف : كنت أطلب الحديث والفقه ، وأنا مُقِلُّ رثِّ الحال ، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال : يا بني لا تمدَّنْ رجلِك مع أبي حنيفة ، فإن خير أبي حنيفة مستور ، وأنت محتاج إلى المعاش ، فقصَّرت عن كثير من الطلب ، وآثرت طاعة والدي . فتفقَّدني أبو حنيفة ، وسأل عني ، فجعلت أتعهد مجلسه ، فلما كان أوَّل يومأتيه بعد تأخُّري عنه ، قال لي : ما يشغلك عنا ؟ قلت : الشَّغل بالمعاش ، وطاعة والدي ، فلما انصرف الناس دفع إليَّ صُرَّة ، وقال : استمتع بهذه ، وإذا فيها مائة درهم ، وقال لي : الزم الجماعة ، فإذا نفدت فأعلمني ، فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدَّة يسيرة دفع إليَّ مائةً أخرى ، ثم كان يتعهَّدني كذلك ، وما أعلمته بنفادها قطُّ ، وكأنه كان يخبر بنفادها ، حتى استغفيت وتموت .

على بن الجعد : حدَّثني أبو يوسف ، قال : توفيَّ أبي إبراهيم ، وخلفني صغيراً في حجر أُمِّي فأسلمتني ، إلى قصَّار أخذُمه ، فكنت أدعُ القصَّار وأمرَّ على حلقة أبي حنيفة فأجلس وأستمع ، فتجىء أُمِّي فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصَّار . وكان أبو حنيفة يُعَيِّني لما كان يرى من حرصي على التعلُّم ، فلما طال ذلك على أُمِّي وكثُر عليها هربي ، قالت لأبي حنيفة : ما لهذا الصبيِّ فساد غيرك ، هذا صبيٌّ يتيم لا شيء له ، وإنما أطعمه من مغزلي ، وآمل أن يكتسب دانقاً يعود به على نفسه . فقال لها أبو حنيفة : مرِّي يا رعناء ، هاهو ذا يتعلَّم أكل الفالودج بذهن الفستق ، فانصرفت عنه وهي تقول : أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك . قال : ثم لزمته ونفعني الله تعالى بالعلم ورفعني حتى تقلدت القضاء ، فكنت أجالس الرشيد ، وآكل معه على مائدته ، فلما كان في بعض الأيام قدَّم إليَّ الفالودجة . فقال لي : كلِّ يا يعقوب ، فليس في كلِّ يوم يُعمَل لنا مثلاً ، فقلت : وما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه الفالودجة بذهن فُستق ، فضحكت فقال لي :

مِمَّ تَصْحَكُ؟ فَقُلْتُ: خَيْرًا، أُبْقَى اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: لَتَخْبِرُنِي وَأُلْحَ عَلَيَّ، فَحَدَّثْتُهُ بِالْقِصَّةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ: لَعَمْرِي إِنَّ الْعِلْمَ لَيَنْفَعُ وَيَرْفَعُ دِينًا وَدُنْيَا، وَتَرَحَّمْ عَلَيَّ أَبِي حَنِيفَةَ، وَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بَعِينَ عَمَلَهُ مَا لَا يَنْظُرُهُ غَيْرُهُ بَعِينَ رَأْسِهِ. وَأَبُو يُوسُفَ أَوَّلُ مَنْ دُعِيَ بِقَاضِي النِّزَاةِ فِي الْإِسْلَامِ.

إِسْحَاقُ الْمَوْصِلِيُّ: حَدَّثَنِي بَشَرُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَسَأَلْتُهُ: مِنْ أَيْنَ جَاءَ؟ فَقَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي يُوسُفَ الْقَاضِي، وَكُنْتُ فِي حَدِيثٍ ظَرِيفٍ، فَقُلْتُ: حَدَّثَنِي بِهِ، فَقَالَ: قَالَ لِي أَبُو يُوسُفَ: كُنْتُ الْبَارِحَةَ قَدْ أُوتِيتُ إِلَى فَرَّاشِي، فَإِذَا دَاقُ يَدُكَ الْبَابَ بِشِدَّةٍ، فَأَخَذْتُ عَلَيَّ إِزَارِي، وَخَرَجْتُ، فَإِذَا هُوَ ابْنُ أُعَيْنٍ يَقُولُ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا حَارِثَةَ لِي بِكَ حُرْمَةٌ، وَهَذَا وَقْتُ كَمَا تَرَى، وَلَسْتُ أَمِنُ أَنْ يَكُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَعَانِي لِمَكْرُوهِ، فَإِنْ أَمَكْنِكَ أَنْ تَدْعَ الْأَمْرَ إِلَى غَدٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَحْدُثَ لَهُ رَأْيٌ! فَقَالَ: مَا لِي إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ، قُلْتُ: كَيْفَ كَانَ السَّبَبُ؟ قَالَ: خَرَجَ إِلَى مَسْرُورِ الْخَادِمِ، فَأَمَرَنِي أَنْ آتِيَ بِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقُلْتُ: أَتَأْذِنُ لِي أَنْ أَصُبَّ عَلَى مَاءٍ وَأَتَحَنَّطُ فَإِنْ كَانَ أَمْرُكَ كُنْتُ قَدْ أَحْكَمْتُ شَأْنِي، وَإِنْ رَزَقَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ فَلَنْ يَضُرَّ، فَدَخَلْتُ فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، وَتَطَيَّبْتُ ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ وَمَسْرُورٍ وَاقِفٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا هَاشِمٍ خِدْمَتِي وَحُرْمَتِي، وَهَذَا وَقْتُ ضَيْقِي، أَفَتَدْرِي لَمْ تَطْلُبْنِي؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: فَمَنْ عِنْدَهُ؟ قَالَ: عَيْسَى بْنُ جَعْفَرٍ وَحَدَّه، ثُمَّ قَالَ: مُرَّ فَإِذَا صَرْتَ فِي الصَّخْنِ فَحَرِّكْ رَجْلَيْكَ، فَإِنَّهُ فِي الرِّوَاقِ، فَفَعَلْتُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: يَعْقُوبُ، قَالَ: ادْخُلْ، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، وَقَالَ: أَظَلُّنَا رَوْعَنَاكَ؟ قُلْتُ: إِي وَاللَّهِ وَمَنْ خَلَقَنِي، قَالَ: اجْلِسْ، فَلَمَّا سَكَنَ رَوْعِي، قَالَ: يَا بَعْتُوبَ هَلْ تَدْرِي لِمَ دَعَوْتُكَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: لِأَشْهَدَكَ عَلَى هَذَا؛ إِنَّ عِنْدَهُ جَارِيَةً، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَهْبِهَا أَوْ يَبْدِعَهَا لِي

فأبى ، ووالله إني لم يفعل لأقتلته . فالتفت إلى عيسى وقلت : وما بلغ قَدْرُ الجارية ؟
أتمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة ؟ فقال لي : عجّلت القول قبل أن
تعرف ما عندي ، إن عليّ يمينًا بالطلاق والعَتاق وصدقة ما أملك ألا أبيعها
لأحدٍ ولا أهبها ، فالتفت إلى الرّشيد ، فقال لي : هل لك في ذلك مخرج ؟ قلت :
نعم ، قال : وما هو ؟ قلت : يهب لك نصفها ويبيعك نصفها ، فيكون لم يبيع
ولم يهب ، قال عيسى : ويجوز ذلك ؟ قلت : نعم ، قال : فأشهدك أني قد وهبتُ
له نصفها ، وبعث منه نصفها بمائة ألف دينار ، وأتيتُ بالجارية ، فقال : خذها
يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها ، قال : يا يعقوب ، وبقيت واحدة ، قلت :
يا أمير المؤمنين ، وما هي ؟ قال : هي مملوكة ولا بدّ . أن تُستبرأ ، ووالله إن
نفسى لتخرج إن لم أبت معها . فقلت : يا أمير المؤمنين تعتقها وتنزّوجها ، فإن
الحرّة لا تُستبرأ ، قال : فإني قد اعتقْتُها ، فدعا بمسرور وحسن ، وخطبت وحمدت
الله ثم زوّجت على عشرين ألف دينار ، ودفع المال إليها ، ثم قال : يا يعقوب
انصرف ، ثم قال : يا مسرور احمل إلى أبي يوسف مائتي ألف درهم وعشرين
تخمتًا ثيابًا ، فحمل معي ذلك ، قال بشر : فالتفتُ إلى يعقوب ، فقال : هل
رأيت بأسًا فيما فعلت ؟ قلت : لا قال : لحقك منها العُشر فشكرته ، وذهبت لأقوم
وإذا بمجوز دخلت ، فقالت : يا أبا يوسف ، بنتك تَقرئك السلام ، وتقول :
والله ما وصلني من أمير المؤمنين في ليلتي هذه إلّا المهر الذي قد عرفت ، وقد
جَعَلتُ إليك النصف منه ، وخلفت الباقي لما أحتاج إليه ، فقال : ردّيه ، فوالله
لا قبلته ، أخرجتها من الرّق وزوّجتها من أمير المؤمنين وترضيّني بهذا ، فلم نزل
نتلطّف إليه أنا وعمومتي يَقبلها فيقبلها وأمر لي بألف دينار .

وأما صلة الحج بالعمرة التي ذكر الحريري ، فإن أبا يوسف في ذلك مخالف
لمالك رضي الله عنهما في أن القرآن في الحج أفضل من الأفراد ، وهو مذهب

على بن أبي طالب رضى الله عنه وقوله : خَفَّ ظَهراً ، أى حَطَّ عن ظهره بعض الذنوب ، والذي أرادت أنه لم يأتها ولا جامعها غير مرة واحدة خَفَّفَ بها ظهره وبعض شهوته وليته فعل ذلك مرَّتين ، فوَرَّت بظاهر كلامها عن هذا المعنى .

وجاءت امرأة إلى المغيرة بن شعبة بزوجه تستعديه عليه ، وتذكر أنه عَنِين فقال الرجل :

الله يعلم يا مغيرة أننى قد دُسْتُهَا دَوْسَ الْحِصَانِ الْمُرْسَلِ
وأخذتها أخذ المعتف شاته عَجْلَان يذبُّها لقومٍ نُزِّلِ
فقال له المغيرة : إني لأرى ذلك فى شمائلك .

وخاصمت الدهناء بنت مسحل أحد بنى مالك بن سعد بن زيد مناة العجَّاج ، وكان من بنى عمها إلى وإلى اليمامة ، فكان أبوها يُعِينها على ذلك ، فقال له أهل اليمامة : ألا تستحي ، تطلب العُسْبَ لابنتك ! فقال : إني أحب أن يكون لها ولد ، فإن أفرطتهم أجرت ، وإن بَقُوا دعوا الله لها ، فدخلت على الوالى ، فقالت : إني منه بجمع ، فقال : لعلك تغارين الشيخ ؟ فقالت : إني لأرعى له بادى ، وأقيم صُلْبى ، فقال العجَّاج :

أظنت الدهناء وظن مسحل أن الأمير بالتضاء يعجل
عن كسلاتى والحصان يكسل عن السَّفاد وهو طرف هيكَل
فقال هي :

والله لولا خشية الأمير وخشية الشرطى والمشير
لجئت من شيخ بنى الفقير كجولان صَغْبَةٍ عسير

فأخذها وضما إليه يقبلها فقالت :

تالله لا تخدعني بالضمِّ إليك والتَّقبيل بعد الشَّمِّ
إلا بهزهازٍ يسلى همي ينزع عني فتحي في كمي

فذهب بها إلى أهلها ، فطلقها في تلك الليلة سرًّا . ولو استقبلها المعراج
بما وصف ابن الرومي حيث يقول :

ألا يا هند هل لك في مدِّ غليظٍ تفرحين به متين
يشدُّ به حشاك غلام نيكٍ من الفتيان منقطع القرن
فمن يره يولُ يقول : أتى بدا من فرجها ثلثا جنين
لرضيته ، ولم تحاكمه .

قوله : ألفة : مُحبة . أخلق : أزيل . وأبوسرة . كنية إبليس لعنه الله ، وكنى
بذلك لما تقدَّم أن أبغض الأسماء إلى الله تعالى مرة وحرب . تقول : إماما يصاحبني
صحبة يرضيني فيها بكثرة الجماع ، وإلا أزلت عني الحياء وخرجت أزني وأفسق .
في طاعة إبليس ، ولو عاجلها بما كان يعالج به رجل زوجته ، وكان إذا وقع
بينهما شرٌّ انحى عليها بالجماع ، فكانت تقول : لعنك الله ! كلما وقع بيننا شرٌّ
جئتني بشفيع لا أقدر على ردِّه ! فلو جاءها بهذا الشفيع لما رفعته إلى الوالى .

محمد بن يحيى بن حيان : عاتبت جدتي جدتي في قلة الباه ، فقال لها : أنا
وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قالت : وما قضاء عمر ؟ قال :
قال : إن الرجل إذا أتى امرأته في كلِّ طهرٍ مرة فقد أدَّى حقها ، قالت :
فكلُّ الناس تركوا قضاء عمر ، وأقتُّ أنا وأنت عليه !

وقال إعرابي كبير وعجز :

عجبت من أيرى كيف يصنَع أدنعه بإصبعي فيرجع
* يقوم بعد الشدِّ ثم يركع *

دخل عيسى بن موسى على جارية له فعجز ، فقال :
 النَّفْسُ تَطْمَعُ وَالْأَسْبَابُ عَاجِزَةٌ وَالنَّفْسُ تَهْلِكُ بَيْنَ الْعِجْزِ وَالطَّمَعِ
 خلا ثمامة بن أشرس بجارية له فعجز ، فقال : ويحك ! ما أوسع حرك !
 فقالت :

أنت الفداء لمن قد كان يملؤه ويشتكى الضيق منه حين يلقاه
 وكان عروة بن شَيْمٍ أوفرَ الناس أيزراً وأشدَّهم نكاحاً ، وكان إذا أنعظ
 يستاقى على قفاه فيأتى الفصيل الجرب فيحتك بأيره يظنه الجذل ، وهو عود في
 العنَّان يُنصَّب لحتك به الإبل الجربى .
 ويزعمون أنه أصاب أيره جنب عروس رُفَّت إليه ، فقالت له : أتهدنى بالركبة !
 وهو القائل :

أَلَا رُبَّمَا أَنْعَفْتُ حَتَّى إِخَالَهُ سَيْنَقْدَ لِلْإِنْعَاطِ أَوْ يَتَمَرَّقُ
 فَأَعْمِلُهُ حَتَّى إِذَا قُلْتُ : قَدَوْنِي أَبَى وَتَمَطَّى جَائِحاً يَتَمَطَّقُ
 وأقبل رجل على على رضى الله عنه فقال : إن لى امرأةً كلباً غشيتها ،
 تقول : قتلنى قتلنى ! فقال : اقتلها وعلى إثمها .
 وقع أعشى همدان أسيراً عند الديلم ، ثم إن ابنة العاليج الذى أسرَه عشقته ،
 فكنته ليلة من نفسها ، فأصبح وقد واقعها ثمان مرات ، فقالت له : يا معشر
 المسلمين ، أهكذا تعملون بنسائكم ! قال : هكذا نفعل كلُّنا ، فقالت :
 بهذا العمل نصرتم ، أفرايت إن خلصتُك تصطفينى ؟ فعاهدها ، فحلت قيودَه
 بالليل ، وأخذت به فى طريق تعرفها حتى تخلص ، فقال أسير شاعر فيه :

فمن كان يَفْدِيهِ مِنَ الْأَسْرِمَالِهُ فَهَمْدَانُ تَفْدِيهَا الْغَدَاةُ أَيُورُهَا
 كان عبدالله بن عمر من أنزه الناس نفساً ، وأبعدهم عن المزاح وذكر الفاحشة ،
 فجاءه ابنُ أبي عتيق يوماً ، وكان صاحبَ مُزَاحٍ وفكاهة ، وفى يده رُقعة فيها :
 (م — ١٣ شرح مقامات الحريرى ج ٥)

ذَهَبَ إِلَهِ بِمَا تَعِيشُ بِهِ وَقَمَرَتْ مَالِكُ أَيُّمَا قَمَرٍ

أَنْفَقَتْ مَالِكُ غَيْرَ مَكْتَرٍ فِي كُلِّ زَانِيَةٍ وَفِي الْحَرِّ

وكانت هجته بهما امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن الخزومي ، فقال :
يا أبا عبد الرحمن ، انظر هذه الرقعة وأشير عليّ برأيك فيها . فلما قرأها عبد الله
استرجع فقال : ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر ؟ قال : أرى أن تغفوا وتصفح ،
فقال : يا أبا عبد الرحمن ، لئن لقيتُ صاحبه لأنيكته نيكاً جيداً ، فأخذ ابن عمر
من قوله وأرعد وأزبد ، قال : مالك ؟ غضب الله عليك ! فقال : ما هو إلا
ما قلت لك ، وافترقا ، فلما كان بعد أيام لقيه ابنُ عمر ، فأعرض عنه ، فصاح :
يا أبا عبد الرحمن ، إني لقيتُ صاحبَ البيتِ فنكته والله نيكاً شافياً ، وأقسم
على ذلك ، فصعق ابنُ عمر ، فلما رأى ابنُ أبي عتيق ماحلاً به دنا منه ، وقال له
في أذنه : إنها والله امرأتي ، فقام ابنُ عمر وقد مُرّى عنه ، وهو يضحك ، فقبله
بين عينيه ، وقال أحسنت ، زده من هذا الأدب ، فلن يهجوكم بعدها أبداً .

* * *

فقال له القاضي : قد سمعتُ ما عزتك إليه ، وتوعدتك عليه ،
فجانب ما عرك ، وحاذر أن تُفرك ، وتُعرك ، فجأ الشيخُ على ثفناته ،
وفجّر يذبوع ثفناته ، وقال :

اسمعَ عَدَاكَ الذَّمُّ قَوْلَ امْرِئٍ	يُوضِحُ فِيهَا رَأْيَهَا عُدْرَةَ
وَاللَّهِ مَا أَعْرَضْتُ عَنْهَا قَلِيًّا	وَلَا هَوَى قَلْبِي قَضَى نَذْرَةَ
وَإِنَّمَا الدَّهْرُ عَدَا صَرْفُهُ	فَابْتَرْنَا الذَّرَّةَ وَالذَّرَّةَ
فَتَزَلِي قَفْرُهُ كَمَا جِيْدُهَا	عُطِلَ مِنْ الْجِزْعَةِ وَالشَّدْرَةَ
وَكُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَرَى فِي الْهَوَى	وَدِينِهِ رَأَى بَنِي عُدْرَةَ

فَمَذْنِبُ الدَّهْرِ هَجَرْتُ الدُّمَى هِجْرَانٌ عَفٌّ آخِذٌ حِذْرَهُ
وَمَلْتُ عَنْ حَرِّئِي لَا رَغْبَةَ عَنْهُ وَلَكِنْ أَتَّقِي بَذْرَهُ
فَلَا تَلَمْ مَنْ هَذَا حَالُهُ وَاعْطِفْ عَلَيْهِ وَاحْتِمِلْ هَذْرَهُ

* * *

قوله عَزَّتْكَ، أى نسبته. تَوَعَّدْتُكَ: هَدَّدْتُكَ. عَرَّكَ: شَانَكَ وعَابَكَ
وَلَطَّخْتُكَ بَشْرًا وسَاءَكَ، وَعَرَّ فلَانٌ قَوْمَهُ بَشْرًا: لَطَّخَهُمْ بِهِ. حَاذِرٌ: خَفَ.
نُفِّرَكَ: تُبَغِّضُ، وَفَرَكْتَ الْمَرْأَةَ زَوْجَهَا: أَبْغَضْتَهُ. وَتُعْرَكَ: تُدْلِكُ ذَلِكَ
شَدِيدًا مِثْلَ ذَلِكَ الْأَدِيمِ، وَعَرَكْتُ الْقَوْمَ فِي الْحَرْبِ قَاتَلْتُهُمْ. جَنًّا يَجْثُو جَثْوًا
وَجِثْيًا: جَلَسَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ. الثَّفِنَاتُ: مَا وَلَّى الْأَرْضَ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَعِيرِ وَغُلْظُ؛
إِذَا بَرَكَ عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ وَالْكَرْكِرَةِ كَرَةً. يَنْبُوعٌ: مَاؤُهَا النَّابِعُ. نَفْسَاتُهُ: كَلِمَاتُهُ.
عَدَاكَ: تَجَاوَزَكَ. يُبَيِّنُ: رَابِعًا: شَكَّكَهَا وَأَدْخَلَ عَلَيْهَا الرِّيْبَةَ.
أَعْرَضْتُ: صَدَدْتُ. قَالِي: بَغْضٌ. هَوَى: حَبٌّ. النَّذْرُ: أَنْ يَنْذِرَ الْإِنْسَانُ
عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا يَفْعَلُهُ، وَقَضَى نَحْبَهُ: اسْتَوْفَى غَرَضَهُ. عَدَا: ظَلَمَ. صَرَفَهُ: تَصَرَّفَهُ
بِالْإِنْفَادِ. ابْتَرَّنا: سَلَبْنَا. الدَّرَّةُ: اللَّوْلُؤَةُ. وَالذَّرَّةُ: اللَّابِنُ، وَمَالُ الْعَرَبِ الْإِبِلُ،
وَعِيْشُهُمْ مِنْ لَبْنِهَا، فَهَذَا جَنَسٌ بِالدَّرَّةِ مَعَ الدَّرَّةِ. جِيْدَاهَا: عُنُقُهَا. عُطِّلَ: خَالَ.
الْجَزْعَةُ: خَرَزٌ يَمَانِيٌّ، وَهِيَ الَّتِي فِيهَا بَيَاضٌ وَسَوَادٌ. وَالشَّدْرُ: قِطْعٌ مِنْ ذَهَبٍ،
يَفْصَلُ بَهَا بَيْنَ الْجَوَاهِرِ، وَقِيلَ: الْجَزْعُ: خَرَزٌ مُلَوَّنٌ، وَالشَّدْرُ: خَرَزٌ أَخْضَرٌ،
وَقِيلَ: الشَّدْرَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الذَّهَبِ تُلْتَقِطُ مِنَ الْمَعْدِنِ مِنْ غَيْرِ إِذَابَةِ الْحِجَارَةِ.
بَنَى عَذْرَةً، قَبِيلَةً يَغْلِبُ عَلَى قُلُوبِهِمْ حُبُّ النِّسَاءِ، فَكَلَّ مَنْ أَفْرَطَ فِي حُبِّهِنَّ
قِيلَ لَهُ: عَذْرِي، فَنَسَبَ إِلَيْهِمْ. وَسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ أَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ:
مِنْ قَبِيلَةِ إِذَا أَحْبَبُوا مَا تَوَا، فَسَمِعْتَهُ جَارِيَةً، فَقَالَتْ: عَذْرِي وَرَبَّ السَّكْبَةِ.

قوله: نَبَا، أى ارتفع وزال خيرُهُ. الدُّمَى: النِّسَاءُ الْمُشَبَّهَاتُ فِي بَيَاضِهِنَّ
وَصَفَائِهِنَّ بِصُورِ الرِّخَامِ، وَكَانَ الْعَاشِقُ مِنَ الْعَرَبِ إِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ الْعِشْقُ

والهَجْر ذهب إلى الأَمصار فاشتري صُورَةً من رُخام على صورة محبوبته ،
فإذا ركب بعيره أجاس الصُورة بين يديه يحدّثها ، ويستريح إليها ، نسّوا
النساء دُمى تشبيهاً بصور الرخام . عَفّ : عفيف . البَذْر : ما يزرع في الأرض
من الحبوب ، وحرثته نكاحه ، وأراد بالبذر ما يزرعه فيها من النُطفة . قدّره :
هذيانه ، وكلامه الفارغ .

* * *

قال : فَانْتَظَمَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ مَقَالِهِ ، وَانْتَضَتِ الْحُجَجَ لِحَدَاثِهِ ،
وقالت له : ويلك يا صرتمان ! يا مَنْ هو لاطِعُمانٌ ولاطِمانٌ ! أَنْضِيقَ بِالْوَلَدِ
ذَرْعًا ، وَلِكُلِّ أَكُولَةٍ مَرْتَنِي ؛ لَقَدْ ضَلَّ فِهْمُكَ ، وَأَخْطَأَ سَبْهُمُكَ ،
وَسَفِهَتْ نَفْسُكَ ، وَشَقِيتَ بِكَ عِرْسُكَ .

فقال لها القاضي : أَمَّا أَنْتِ فَلَوْ جَادَلْتَ الْخَنَسَاءَ ، لَا تَنُتِ عَنْكَ
خَرَسَاءٌ . وَأَمَّا هُوَ فَإِنْ كَانَ صَدَقَ فِي زَعْمِهِ ، وَدَعَوَى عُدُوِيهِ ، فَلَهُ فِي مِمِّ
قَبْقَبِهِ ، مَا يَشْنَعُهُ عَنْ ذُبْدِيهِ . فَأُطْرَقَتْ تَنْظَرُ ازْوَارَارًا ، وَلَا تَرْجِعُ حِوَارًا .
حتى قلنا قد راجعها الخُفَرُ ، أَوْ حَاقَ بِهَا الظُّفَرُ . فقال لها الشيخ : تَعَسَا
لَكَ إِنْ زَخَرَنْتِ ، أَوْ كَتَمْتَ مَا عَرَفْتِ . فَقَالَتْ : وَيْمُكَ ! وَهَلْ بَعْدَ
الْمَنَافَرَةِ كَتَمٌ ، أَوْ بَقِيَ لَنَا عَلَى سِرٍّ خَتَمٌ ! وَمَا فِينَا إِلَّا مَنْ صَدَقَ ، وَهَنَكَ
صَوْتُهُ إِذْ نَطَقَ ، فَلَيْتَنَا لَا فِينَا الْبَـكَمَ ، وَلَمْ نَلْقَ الْحَكَمَ ، ثُمَّ التَفَعَّتْ
بِوَسَاحِيهَا ، وَتَبَا كَتَّ لَا فِتْخَاحِيهَا ، وَجَمَلُ الْقَاضِي يَعْتَجِبُ مِنْ خَطْبِهَا
وَيُعْتَجِبُ ، وَيَلُومُ لَهَا الدَّهْرَ وَيُؤْتِبُ ، ثُمَّ أَخْفَرَ مِنَ الْوَرِقِ أَفْئِيزَ ، وَقَالَ :

أَرْضِيَا بِهِمَا الْأَجُوفَيْنِ، وَعَاصِيَا النَّازِعَ بَيْنَ الْإِلْفَيْنِ، فَشَكَرَاهُ عَلَى حَسَنِ السَّرَاحِ، وَانْطَلَقَا وَهَمَا كَالْمَاءِ وَالرَّاحِ.

* * *

النَّظَاتُ : حَمَدَتُ وَالتَّهَبْتُ غِيظًا . وَانْتَضَتُ : جَرَدَتُ : جَدَّاهُ : خَصَامُهُ . مَرَقَعَانُ : كَثِيرُ الرِّقَاعَةِ ، وَالرِّقَاعَةُ كَالْحِمَاقَةِ ، كَانَ عَمَلُهُ تَخْرُقُ فَرَقَّعَ . وَضُمْتُ بِالشَّيْءِ ذُرْعًا ، إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَيْهِ . ضَلَّ : تَحَيَّرَ . عِرْسُكَ : زَوْجُكَ . جَادَلْتُ : خَاصَمْتُ . اثْنَتُ : رَجَعْتُ . خَرَسَاءُ : بَكَاءُ . زَنَعَهُ : مَا أَدْعَاهُ . قَوْلُهُ : قَبْقَبَهُ ، الْقَبْقَبُ : الْبَطْنُ ، وَالْقَبْقَبَةُ : الصَّوْتُ الَّذِي يَدُورُ فِيهِ ، فَسُمِّيَ بِهِ .

وَالذَّبْذَبُ : الذِّكْرُ ، وَأَصْلُ الذَّبْذَبَةِ الْاهْتِزَازُ وَالِاضْطِرَابُ ، فَسُمِّيَ الذَّبْذَبُ لِحُرْكَتِهِ . وَنَظَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى شَابٍّ ، فَقَالَ : يَا شَابُّ إِنْ وُقِيتَ شَرٌّ ثَلَاثَ ، وَوُقِيتَ شَرُّ الشَّبَابِ : لِقَلْفِكَ ، وَذَبْذَبِكَ ، وَقَبْقَبِكَ . الْأَصْمَعِيُّ : اللَّالِقُ : اللِّسَانُ ، وَالْقَبْقَبُ الْبَطْنُ ، وَالذَّبْذَبُ : الذِّكْرُ .

قَوْلُهُ : أَطْرَقْتُ ، أَيُ سَكَنْتُ مِمْلَةً إِلَى الْأَرْضِ رَأْسَهَا حَيَاءً . اذْوَارًا : مَيَّلَانًا . وَالْحَوَارُ : مَرَاجِعَةُ الْكَلَامِ . الْخَفَرُ : الْحَيَاءُ . حَاقَ : لِحَقَ . وَالْغَفَرُ هُنَا : غَلْبَةُ حُجَّتِهَا وَظَفَرُهَا بِهِ . تَعَسَا : هَلَكَ . زَخَرَفْتُ هُنَا : زَيَّنْتُ الْبَاطِلَ . الْمَنَافَرَةُ : الْحَاكِمَةُ . خَتَمْتُ : رَبَطْتُ ، أَيُ قَدْ أَظْهَرْنَا جَمِيعَ أَسْرَارِنَا . هَتَكَ : خَرَقَ . صَوْنُهُ : صِيَانَتُهُ . لَا قِينَا الْبَسْكَمَ ، أَيُ أَصَابَنَا الْبَسْكَمُ وَخَلَقْنَا خُرْسًا ، فَلَمْ نَبْدِ مَا أَبْدَيْنَاهُ مِنَ الْقَبَائِحِ ، وَالْبَسْكَمُ : الْخُرْسُ مَعَ عَمَى . وَقَالَ ثَعْلَبُ : الْبَسْكَمُ : أَنَّ يُولَدُ الْإِنْسَانُ لَا يَنْطَلِقُ وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ ، وَبِكُمْ بَسْكَمًا وَبَسْكَامًا . وَالْحَسْكَمُ : الْحَاكِمُ . التَّقَعْتُ : التَّقَفْتُ . وَالْوَشَاحُ : الثَّرْبُ ، وَقَدْ تَوَشَّحَتْ بِثَوْبِهَا ، جَعَلَتْهُ مَوْضِعَ وَشَاحِهَا . لَا فِتْنَا حَا : لَا شَتَاهَا بِالْقَبَائِحِ . خَطَبْنَاهَا : أَمَرْنَاهَا . يَعْجَبُ : يَعْجَلُ غَيْرُهُ يُعْجَبُ مِنْهُ . يُونُبُ : يُونُوحٌ وَبُلُومٌ . الْوَرِقُ : الدِّرَاهِمُ . الْأَجُوفَيْنِ : الْبَطْنُ وَالْفَرْجُ . النَّازِعُ : الْمَاشِي بِالشَّرِّ الْمَفْسَدُ ، وَنَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمَا نَزَغًا ، أَعْوَى وَأَفْسَدَ . وَالْإِلْفَيْنِ :

الصّاحِبِينَ . السَّراح : الانصراف . والراح : الخمر ، وهى سريعة الامتزاج مع الماء ، فيضربُ بهما المثل فى امتزاج نفوس المتحابين .

وقد جاء من ذلك فى الشعر ما يُستحسن ، قال ابنُ أبى فَنَن : أحسن ما قيل فيه قولُ العباس بن الأحنف :

ما أنسى ما أنسى يُمنّاها مَطْفئةً على فؤادى ويسراها على رَاسِى^(١)
وقولها : لپته ثوبٌ على جَسدى وليتنى كنتُ سِرّاً لِعِباس
أوليتَه كان لى خمرأ وكنّت له من ماء مزنٍ فكنا الدَّهرَ فى كاس
قال الحاتى : وأحسن دعبل كل الإحسان فى قوله :

الله يعلم والأيام دائرةٌ والمرء ما بين إباحش وإيناس^(٢)
أنى أحبك حباً لو نضمتهُ سلمى سَمِيك دك الشاهق الرامى^(٣)
حباً تلبس بالأحشاء وامتزجا تمازج الماء بالصُهْباء فى الكاس
وقال البحتري فأحسن :

تهتزُّ مثل اهتزازِ الفعن حرّكه مرُورُ غيثٍ من الوسمى سَحاح^(٤)
إنى وجدتكَ من قلبى بمنزلةٍ هى المصافاةُ بين الماء والراح

* * *

ومطبق القاضى بعدَ مَسَرَحِهِمَا ، وتَنائى شَبَحِهِمَا ، يُثنى على أدبِهِمَا ، ويقولُ : هل من عارفٍ بهما ؟ فقال له عِنْ أَعوانه ، وخالصةُ خُلاصاته : أما الشيخ فالسُّروجى المشهودُ بفضلته ، وأما المرأةُ فقعيدة رَحْلِهِ ، وأما نَحْأُ كُهما فكيدةٌ من فِعله ، وأحبُّوهُ من حَبائل خَتْلِهِ ،

(١) ديوانه ١٥٦

(٢) ديوانه ٦٤

(٣) سلمى أحد جبل طبرى .

(٤) ديوانه ٤٤٢

فأحفظ القاضي ما سمع ، وتَلَهَّبَ كيف خُدِع . ثم قال للواشي بها :
 قُمْ فَرِّدْهُمَا ، ثم اقْصِدْهُمَا وَصِدْهُمَا . فتهض ينفض مِذْرُويهِ ، ثم عاد
 يَضْرِبُ أَصْدَرِيهِ . فقال له القاضي : أَظْهَرْنَا عَلَى مَا نَبَشَتْ ، وَلَا تُخَفِ عَنَّا
 مَا اسْتَخْبَثْتَ . فقال : مَا زِلْتُ أُسْتَقْرِى الطَّرِيقَ ، وَأُسْتَفْتَحِ الْعُلُقَ ،
 إِلَى أَنْ أَدْرَكَتَهُمَا مُصْحِرَيْنِ ، وَقَدْ زَمَّا مَطَى الْبَيْنِ ، فَرَعَبْتُهُمَا فِي الْعَلَلِ ،
 وَكَفَلْتُ لِهَمَا بَنِيْلَ الْأَمَلِ ، فَأَشْرَبَ قَلْبَ الشَّيْخِ أَنْ يِيَّاسَ ، وَقَالَ : الْفِرَارُ
 بُقْرَابٍ أَكَيْسَ ، وَقَالَتْ هِيَ : بَلِ الْعَوْدُ أَحْمَدُ ، وَالْفَرُوقَةُ يَكْمَدُ .

* * *

قوله طَفِقَ ، أَى جعل . مسرَّحهما : انصرافهما . تنأى شجعهما : بعد
 شخصهما . وعين الأعوان : مقدّمهم . والخُلْصَانُ : الأحباب . وخالصة : خيار ،
 فكأنه خيار خيارهم . قعيدة رَحْلِهِ : زوجته وصاحبة بيته . مكيدة : مكر .
 أحبولة : شبكة . ختله : خداعه . أحفظ : أغضب . تلهف : تندّم فصاح :
 يا لهفى ! رُدُّمَا : اطلبهما . مِذْرُويهِ : أطراف أليتيه . والأصدران : عرقان
 فى الصُّدْغَيْنِ ، وقيل : هما المنسكبان ، وقيل : العطفان ، ويقال : أتى فلان
 ينفض مِذْرُويهِ ، إِذَا جَاءَ غَاضِبًا يَتَهَدَّدُ . وَيَضْرِبُ أَصْدَرِيهِ ، إِذَا جَاءَ فَارِغًا
 بِلا حَاجَةٍ ، إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ قِيلَ : جَاءَ ثَانِيًا مِنْ عَنَانِهِ . وقال الحسن البصرى ،
 وَرَأَى النَّاسَ يَوْمَ عِيدٍ يَضْحَكُونَ ، فقال : تَلَقَّى أَحَدَهُمْ أَيْبُضٌ بَضًّا يَمْلُخُ فِي الْبَاطِلِ
 مَلْخًا ، ينفض مِذْرُويهِ ، وَيَضْرِبُ أَصْدَرِيهِ ، يقول : هَا أَنَا ذَا فَاعِرٍ فَوْنِي ، قد
 عَرَضْتُكَ ، مَقَّتَكَ اللَّهُ ، وَمَقَّتَكَ الصَّالِحُونَ . يَمْلُخُ : يُلْجُ ، وقيل يَنْثَقِي وَيَتَكَسَّرُ .
 استخبت : أصبته خبيثًا . أُسْتَقْرِى : أَتْبَعَ . الْعُلُقُ : جَمْعُ غُلْقَةٍ ، وَهِيَ الْمَغَالِقُ
 الَّتِي تَسَدُّ بِهَا الطَّرِيقَ وَغَيْرَهَا ، وَبَابُ غَلِقَ ، أَى مَغْلَقَ . مصحرين : ذاهبين فى

الصحراء . زَمًّا : شدة . والبَيْن : الفراق . والعلَل هنا : العطاء . كَفَلْتُ : ضمنت . نيل الأمل : درك الحاجة . أَشْرِب : دوخل وألقى في نفسه ، والفِرار بِقُرَاب أَكَيْس ، مثل ، وقُرَاب الشيء : ما يقاربه وأراد الهروب باليسير والقريب أَكَيْس من الرجوع إلى الطمع ، ويروى : الفِرار بِقُرَاب ، بكسر القاف ، وهو مصدر بمعنى المقاربة ، والمثل لجابر بن عمر المازني ، وكان سائرًا في طريق ومعه أَوْفَى بن مطر وشهاب بن قيس ، فترأى آثار رَجُلَيْن معهما فَرَسَان وبميران وكان قائفًا فقال : أرى آثار رَجُلَيْن شديد كَلْبُهُما ، عزيز سَلْبُهُما ، والفِرار بِقُرَاب أَكَيْس ، ثم مضى هاربًا ، والمعنى : فرارنا ونحن بقرب السَّلامة خير لنا من أن نتورط في المكروه . والعود أحمد ، أى أوفق وأحق أن يوجد محمودًا ، والعود أحمد مثل ، أى الرجوع أحسن ، وقال المرقش :

وأحسن فيما كان بيني وبينه فإن عاد بالإحسان فالعود أحمدُ
وأشد أبو الحسن لعارة :

بنى دارم إن يفن عُمرى فقد مَضَى حياتى لكم منى ثناءً مَحْلَدٌ^(١)
بدأنتم فأحسنتم وأثبتت جاهدًا وإن عدنتم أحسنتُ والعود أحمدُ
قوله : الفروقة ، أى الفزاع الكثير الفرق وهو الخوف . يكمد : يحزن
حزنًا لا يستطيع إمضاءه . تبين : علم . غرر : خطر .

* * *

فلمَّا تبين الشيخ سَفَه رأيها ، وغرر اجترائها ، أمسك ذلًا ذلها ،
ثم أنشأ يقول لها :

دونك نصحي فافتنى سُبُلَةً واغنى عن التفصيل بالجُمْلَةِ
طيرى متى نَقَرْتَ عن نُحْلَةٍ وطلّقيها بَتَّةً بَنَلَةٍ

وَحَاذِرِي التَّوَدُّ إِلَيْهَا وَلَوْ سَبَّلَهَا نَاطُورُهَا الْأَبْلَهَ
خَفِيرَ مَا لِلَّصِّ الْأَيُّرَى بِبُتْمَةٍ فِيهَا لَهُ عُثْلَةٌ

* * *

سَفَهَ : خَفَ ، والسفيه : الخفيف العقل . اجترأها : جسارتها وجراتها .
حَذَلَهَا : أطراف ثوبها ، وذلال القميص : ما يلي الأرض من أسافله ، الواحد
مَذْلَلٌ مثل قُمْقُمٍ وقَمَاقِمٍ . دونك : معناه قاربك ما تطلب فتناولهُ . اقْتَفَى :
اتبع . سُبِّلَ : طُرِقَ . تَقَرَّتْ : أَكَلَتْ ثمرتها بمنقارك ، وهو مثل ، وتَقَرَّتْ
أَيْضاً : بَحِثْ ، والتَّعْقِيرُ : البَحْثُ عن الشيء ، يقول : متى ما أَخَذْتَ من ثمر
نَخْلَةٍ بنصيبٍ ففارقها ولا ترجع إليها ، وفي حديث أبي سعيد قال النبي صلى الله
عليه وسلم : « خَلَقَتِ النَّخْلَةَ وَالرَّمَانَةَ وَالْعِنَبَ مِنْ فَعْلٍ طِينَةٍ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ » ،
وَالْبَتَّةُ الْبَتْلَةُ : التي لا رجعة فيها ، والْبَتُّ : الْقَطْعُ . سَبَّلَهَا : طَرَقَهَا وَأَصْلَهُ
لَا بِنَ السَّبِيلِ . النَاطُورُ : حَارِسُ النَّخْلِ خَاصَّةً ، بِطَاءٍ غَيْرِ مَعْجَمَةٍ ، وَقِيلَ :
هُوَ حَافِظُ الْكَرَمِ ، وَالْجَمْعُ التَّوَاطِيرُ . الْأَبْلَهَ : الْكَثِيرُ الْغَفْلَةُ . اللَّصِّ : السَّارِقُ .
وَعُثْلَةٌ : سَرِقَةٌ وَفَعْلَةٌ قَبِيحَةٌ .

* * *

ثُمَّ قَالَ لِي : لَقَدْ عُنَيْتَ ، فِيمَا وُلِّيتَ ، فَارْجِعْ مِنْ حَيْثُ جِئْتَ ،
وَقُلْ لِمُرْسَلِكَ إِن شِئْتَ :

رُؤَيْدُكَ لَا تُعْقِبُ جَمِيلَكَ بِالْأَذَى فَتُضْجِعِي وَتَمْلِكِ الْمَالَ وَالْحَمْدُ مِنْصَدِغٌ
وَلَا تَتْعَضَّبُ مِنْ تَزْيِيدِ سَائِلٍ فَمَا هُوَ فِي صَوْنِ اللِّسَانِ بِمَبْتَدِعٍ
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَ تَكُ مِثِّي خَدِيعَةٌ فَقَبْلَكَ شَيْخُ الْأَشْعَرِيِّينَ قَدْ خُدِيعُ

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : قَاتَلَهُ اللَّهُ ! فَمَا أَحْسَنَ شَجُونَهُ ، وَأَمْلَحَ فِتْنُونَهُ !

ثم إنه أُنْحَبَ رائده بُرْدَيْنِ، وَصُرَّةٌ مِنَ الْعَيْنِ، وقال له : سِرْ سِرّاً مِنْ
لَا يَرَى الْاَلْتَفَاتِ، إِلَى أَنْ تَرَى الشَّيْخَ وَالْفَتَاةَ، قُبُلَ يَدَيْهِمَا بِهَذَا الْحَبَاءِ،
وَيَبِّنْ لَهَا ائْتِدَاعِي لِلْأَدْبَاءِ .

قال الراوى : فلم أَرَفِ الاغتراب ، كَهَذَا الْعُجَابِ ، وَلَا سَمِعْتُ
بِمِثْلِهِ مِمَّنْ جَالَ وَجَابَ .

عُنِيَتْ : تعبت . وُلِّيت : كَلَّفْتُ . رُوَيْدُكَ : رَفَقَكَ ، أَيْ أَوْلَانَا مِنْكَ الرَّفَقَ
وَالْمَهْل . لَا تُعْقِب : لَا تُتَّبِع . الْأَذَى : الضَّرَر . وَتَمَثَّل : جَمَعَ . مُنْصَدِع :
مُفْرَق . صَوَّغَ اللِّسَانَ : كَذَبَهُ وَحَيَّلَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ « هَذِهِ كَذْبَةٌ صَاغَهَا
الصَّوَاغُ » ، أَيْ اخْتَلَقَهَا الْكَذَّابُ . مُبْتَدِع : أَوَّلُ فَاعِلٍ . سَاءَتْكَ : أَحْزَنْتَكَ .

شيخ الأشعرين ، هو أبو موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، واسمه عبدالله بن قيس ، من ولد الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب
ابن يعرب بن كهلان بن سبأ ، قدم مكة وأسلم بها ، ثم هاجر إلى أرض الحبشة ،
ثم قدم مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة ، والذي خدعه هو عمرو بن العاص
في قصة التحكيم بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما ، وهي قصة مشهورة في
كتاب العقد وفي كتاب المسعودي وغيرهما من كتب الأدب ، وفيهما أشياء مفأ كبر
في حق الصحابة رضي الله عنهم ، فلذلك أضربنا عن ذكرها .

رائده : طالبه . أُنْحَبَ : جعله في صُحْبَتِهِ . بُرْدَيْنِ : ثوبين : صُرَّةٌ : خُرقة
نُشِدَ فيها الدراهم . العين : الذهب والفضة . سِرْ مِنْ لَا يَرَى الْاَلْتَفَاتِ ، أَيْ سِرّاً
مَرِيحاً لَا يَلْتَفِتُ مَعَهُ إِلَى مَهْمٍ . قوله : بِلْ أَيْدِيهِمَا ، يقال : بَلَّتْ بِهِ أَيْ بَلَّ إِذَا خَلَفَتْ
بِهِ ، وَبَلَّتْ اللَّهُ بَابِنَ ، أَيْ رَزَقَكَ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « بُلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ » .
أَيْ صَلُّوْهَا ، وَبَلَّتْ رَجَحِي أَبْلَهَا بِلَلَاوٍ بِلَالاً ، إِذَا نَدَيْتَهَا وَوَصَلْتَهَا . الْحَبَاءُ : الْعِطَاءُ .
جَالَ : تَصَرَّفَ وَقَطَعَ الْبِلَادَ بِالْمَشْيِ .

المقامة السادسة والأربعون وهي الحلبية

روى الحارث بن همام قال : نَزَعَ بي إلى حَلَب ، شوقٌ غَلَب ،
وطلبٌ ياله مِنْ طلب ! وكنتُ يومئذٍ خفيفَ الحاذ ، حديث
النفاذ ، فأخذتُ أهبةَ السَّير ، وخفقتُ نَحْوَهَا خُفُوقَ الطَّيْرِ ؛ ولم أزل
مذ حَلَلْتُ رُبُوعَهَا ، وارتبعتُ ربيعَهَا ، أَفاني الأَيَّام ، فيما يشفي الغرام ،
ويُرَوِّى الأَوام ؛ إلى أن أقصر القلب عن وَلُوعه ، واستطار غرابُ
البين بعد وقوعه .

* * *

نَزَعَ بي ، أى شوقنى وحملنى .

[ذكر مدينة حلب]

حَلَب : مدينة عظيمة بالشام وقنسرين ، خمس من أخماس الشام ، ومدينته
العظمى حَلَب وساحلها أنطاكية . وذكرها شيخنا ابن جبير فقال : حلب
بلدةٌ قدرها خطير ، وذكرها في كل زمانٍ بطير ، خطَّابها من الملوك كثير ؛
كانت في القديم ربوة فيما يقال ، كان يأوى إليها إبراهيم الخليل عليه السلام
بغمنه ، فيحلبها هناك ويتصدق بلبنها ، فسميت حَلَب ، وبها مشهد كريم منسوب
إليه ، يتبرك الناس بالصلاة فيه ، ولها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة
الشبه والنظير في القلاع ، نَزَّهت حصانةً أن تُرام أو تُستطاع ، قاعدة كبيرة ،
ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال
واستواء ، فسبحان من أحكم تديرها وتقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها

وتدويرها . ومن كمال جمالها الزائد على المشرط لحصانة القلع أن الماء بها نابع ، وقد صنع عليها جفان ، والطعام يصير فيها الدهر كله ، وليس من شروط الحصانة أنهم من هاتين الخلقتين ، ويُطيف بجبلها سوران حصينان ، يعترض دونهما خندق بالماء ، فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه ، وسورها الأعلى مجلّ ، كله أبراج منتظمة فيها القلالي المنيع ، قد تفتحت كلّها طبقات ، وكل برج منها مسكون ، والبلد ضخم جدًا ، جميل الترتيب ، أسواقه متصلة الانتظام ، تخرج من سماط صفة إلى سماط أخرى ، وقيساريته وجامعها ومدارسها ما تُسمع بمثل وصفها في بلد من بلاد الله تعالى ؛ كل سوق من أسواقها مسقف بالخشب ، يقيد البصر حسنًا ويستوقف المستوفز تعجبًا . وقيساريته حديقة بستان نظافة وجمالاً ، مطيعة بجامعها . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ، قد اتصل السماط كله خزانة واحدة ، وتخللتها شرف حسنة ، بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت ، فجاءت في أجمل منظر ، وكلّ سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع .

ثم أخذ ابن جبير في وصف الجامع والمدارس والبيمارستان بأنواع من الأوصاف الحسان .

* * *

قوله : يا له ! معناه التعجب كأنه قال : ما أعجبه من طلب : خفيف الحاذ ، أى قليل العيال ، وتقدم الحاذ في السادسة . حيث النفاذ : سريع المعنى في أموره ، ورجل نافذ ونفوذ ونفاذ : ماض في جميع أموره . أهبة : عدة . خففت : ارتحلت بسرعة . حلت ربوعها : نزلت في بيوتها . ارتبعت ربيعها : التمت خبزها . أفانى : أقاطع ، وفنى الشيء ، تم وانقطع . والغرام : عذاب الحب . والأوام : العطش . وأقصر : كف ، وأقصرت عن الشيء : تركته وأنت عليه قادر . ولوعه : مصدر ولع به إذا أحبه ولزمه . استطار ، بمعنى انتشر . وقوعه : نزوله ، وهم يتشاءمون بالغراب لأنه يؤذن عندهم بالفراق ، وذلك أنهم لا يرون

الغراب عند منازلهم إلا إذا حطوا بيوتهم للرحيل ، ينزل يلمس ما يتركون .
 مما يُلقط ، ولذلك سموه غراب البين ، واشتقوا من اسمه الغريب والغربة .

* * *

فأغرائني البال الخلو ، والمرحُ الخلو ؛ بأن أقصد خمس
 لأصطاف ببقعتها ، وأستبر رقاعة أهل رُقعتها ؛ فأسرعتُ إليها إسراعَ
 التجم ؛ إذا انقضَّ للرَّجْم ، فحين خيَّمت برُسومها ، ووجدتُ روح نسيها ،
 ملح طرفي شيخاً قد أقبل هَريرُهُ ، وأدبر غريرُهُ ، وعند عشرة صبيان ،
 صنوانٌ وغيرُ صنوان ، فطاوَعْتُ في قصده الحِرْص ؛ لأخبر به أدباء خمس ،
 فبشَّ بي حين وافيته ، وحيّا بأحسن ممّا حيَّيته ، فجلستُ إليه لأبلوَجَنِي
 نُطقه ، وأكْتَنَه كُنْهَ مُحَقِّقه ، فما لبث أن أشار بِعَصِيَّتِهِ ، إلى كُبر
 أَصِيَّتِهِ ، وقال له : أنشد الأبيات العَواطِل ، واحذر أن تُماطل ، فجثا
 جثوةً ليث ، وأنشد من غير رَيْث ..

* * *

أغرائني : حَرَضَنِي وَسَلَطَنِي . الخلو : الفارغ . المرح : النشاط وخِفة النفس
 من الطرب .

[ذكر خمس]

حمص مدينة عظيمة ، بينها وبين دمشق مائة ميل ، وأرض حمص خمسُ من
 أخماس الشام ، وهي مدينة يقال إن لها سوراً وفي وسطها حصنها ، ولاتدخلها حية
 ولا عقرب ، وأول من ابتدع الحساب أهلها ، لأنهم كانوا تجاراً ياشبيلية وأحوازها ،
 نزل أهل حمص عند افتتاح الأندلس ، فلذلك سميت حمص ، أخذت من قولهم :
 حمص الجرح يحمصُ محوصاً ، وانحمص ينحمص انحصاصاً ، إذا ذهب وزمّه .

قال البيهقي : مدينة حص من أوسع مبان الشام ، ولها نهر عظيم ، منه يشرب أهلها ، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه . وفي حديث عمر رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لبيعتن الله تعالى من مدينة بالشام يقال لها حص سبعين ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم » .

ودخلها شيخنا ابن جبير سنة ثمانين وخمسمائة وقال : هي فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مصرها من النظافة والملاحة ، موضوعة في بسيط من الأرض ، عريض مداه ، لا يتخربته النسيم بمسراه ، ويكاد البصر يقف دون منتهاه ، وماؤها يجلب لها من نهرها العاصي ، وهو منها بنحو ميل ، ومنبعه في مغارة بسفح جبل بمرحلة منها ، بموصل يقابل بقلبك . وأهل حص موصوفون بالنجدة لمحاورتهم العدو ، وأسوارها في غاية العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة السود ، وأما داخلها فما شئت من بادية شعثاء ، خلقة الأرجاء لا إشراق لآفاقها ، ولا روثق لأسواقها ، وما ظنك ببلد حص الأكراد منه على أميال يسيرة ، وتجذ فيها عند اطلاعك عليها بعض شبه من مدينة إشبيلية يقع للحين في نفسك حبها ، ولذلك سميت باسمها في القديم ، ولهذا نزل إشبيلية بعض أعراب حص .

وقال الفنجديهي : بأهل حص يضرب المثل في الحماسة ، وكثرة الرقاعة ، وتنسب إليهم حكايات مضحكة ، حكى عن بعضهم أنه قال : دخلتها وفي فمي درهم لأشترى به بعض ما اشتبهه ، فإذا برجل بباب الجامع جالس على كرسي ، وعلى رأسه عمامة محنك بها على قانسوة ، وقد لبس فرّوة مقلوقة بلا سراويل ، وقد تقلد بسيف ، وفي حجره مصحف يقرأ فيه ، وعنده كلب رابض يمسكه بمقوده ، فسألت عليه ، فردّ السلام ، وقلت له : أترى القوم صلّوا ؟ فقال لي : أو أنت أعمى ! أما تراني قاعداً ! قلت : من أنت ؟ قال : أنا أبو خالد إمام الجامع ، قتل : ما هذه الحلية ؟ قال : ورد رجل زنديق يقرأ السبع الطوال ، ويشتم أبا بكر الصناديق وعمر القواريري وعثمان بن أبي سفيان ومعاوية

ابن أبي غَسَّان الذي هو من حملة العرش ، وزوجه النبي ابنته عائشة في زمن الحجاج بن يوسف ، فاستولدها الحسن والحسين ، قتلت : ما أعرفك بالمقالة والأنساب ! قال : وما خُفيَ عنك أكثر ، قلت : أتحفظ القرآن ؟ قال : نعم ، قلت : فاقراً شيئاً منه ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ، فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُؤْيَاكَ » ، فصنعت صفة سقطت عمامته ، وبقي التحنك في عنقه ، فصاح بالناس : قلنسوني ! وقال : احملوه إلى المحتسب ، فأوصلوني إلى رجل حاسر حافٍ ، قد لبس دراعة بلا سراويل ، فقال : ما صنع هذا ؟ قالوا : صنع إمام الجامع ، قال : يا مسكين ، أهلكت نفسك ، قلت : هذا حكم الله فصبراً عليه ؟ قال : أَيْمًا أحب إليك تميل عينيك ، أو قطع يديك ، أو تدفع نصف درهم ؟ قال : فرفعت يدي وصنعت المحتسب صفة ، ثم أخرجت الدرهم من فمي ، وقلت : يا سيدي خذ نصف درهم لك ، ونصف درهم لإمامك .

وقال فيهم بعض الشعراء :

لأنهم أهلُ حمص لا عقول لهم بهائم غير معدودين في النَّاسِ
ونزلها في القديم أهلُ المين ، ولم يكن فيها من مصر إلا ثلاثة أبيات *
وكان لهم إمام من مصر ، فغضبوا عليه وعزلوه ، فقال فيهم ديك الجن يهجوهم :
سمعوا الصلاة على النبي تَوَالِي فتفرقوا شيعاً وقالوا : لَا ، لَا (١)
ثم استمر على الصلاة إمامهم فتحزبوا ورعى الرِّجَالُ رجالاً
يا أهلَ حمص توقعوا من عارها خزيًا يحلُّ عليكم ووبالاً
شاهت وجوهكم وجوهاً طالبا رغمت معاطسها وساءت حالاً

* * *

(١) ديوانه ١١٠ ، وآخر بيت في هذه المقطوعة :

إِنْ يُثْنِ مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ كَرَامَةٌ فَاللَّهُ قَدْ صَلَّى عَلَيْهِ تَعَالَى

قوله : أصطاف ، أى أسكن فى العَصف . وأسبر : أختبر . والرقاعة :
نجاوز الحدّ فى الوقاحة وصلابة الوجه . والبقة : القطعة من الأرض ، وكذلك
الرقعة . وانقضّ النجم للرجم ، إذا استطار لرجم الشياطين ، وأراد أنه أسرع
إليها بسرعة الخيل كسرعة النجم المنقضّ ، قال خلف الأحمر :

كالنجم الدرى مبتهلاً سيراً يفوت الطرف أسرعه
وكانما جهدت أليته ألا تمس الأرض أربعه
وقال ابن الرومى :

خذها تبوعاً لمن أولى مسومة كأنها كوكب فى إثر عفريت^(١)
وما أحسن قول ابن المعتز فى هذا المعنى :

كأنما النجم والعفريت مسترقاً للسمع ينقضّ يُلقي خلفه لهبة
كفارس حلّ من عجب عمامته فردّها كلّها من خلفه عذبة
قوله : خيّمت ، أى أقمّت ، وأصله ضربت خيمة . رسومها : آثارها .
روح نسيما : لذة ريحها : لمح طرفي : أبصرت عيني . هريره : صياحه ، وقد هَرَ
الكلب هريراً ، إذا نبج وحل على من أنكره . وغريره : شبابه ، والغرة : صفر السن ،
ومعناه أقبل شرّه وسوء خلقه ، وأدبر صباه وحسن خلقه ، ولما كانت خليقته فى
هذه المقامة منبسطة مع صباه صار هذا التفسير فيه بُعد . وقال بعضهم : أقبل هريره ،
أقبل هَرَمَهُ ويُنْبه ، من هَرَ الشوك إذا اشتدّ ينسه حتى صار كأنياب الهرّ ،
وهذا يوافق الغرض ، فعناه أقبل هَرَمَهُ وكِبَرَهُ وأدبر صباه وصَغَرَهُ ، ومثله
كألبت الإبل شجر الشوك ، إذا رعت كأنها رعت فيه أنياب السكّلاب لصعوبته ،
والغرير أيضاً : الضامن ، ويكنى به هنا عن الشباب كأنه ضمن لصاحبه طول
الحياة المفقود منها فى الهرم . والصنو : الأخ الشقيق ، وأصل الصنوف النخيل
والشجر ، وهى التى تجتمع أصولها وتفترق أجسادها . الحرص : الرغبة والطمع .

أخبر : أجرب : بش . استبشر ، والبشاشة إظهار السرور وبسط الوجه .
وافيته . أتته . جنى نطقه : ما يجنى من كلامه ويحصل منه . أكتنه : أتعرف
وأتحقق . كنه . قدر وحققة . ابن الأنباري : الحق عند العرب الحمر ، ثم أخذ
منه الأحق وهو المتغير العقل .

[من نوادر المعلمين]

فمّا يحكى من حماقتهم : كان حمزة المعلم متقلّناً فأنشد فيه أبو جعفر الحاكم :
أرى على حمزة المقرى قلنسوة عساكر القمل تجرى في حواشيهَا
إن المعلم لا تخفى حماقته ولو تقلّنس بالدُّنيا وما فيها
تقلّس : لبس القلنسوة .

الجاحظ : عقل مائة معلم عقل امرأة ، وعقل مائة امرأة عقل حائك ، وعقل
مائة حائك عقل خصى ، وعقل مائة خصى عقل صبي ، قال الشاعر :
معلم صبيان وصاحب درة وليس له عقل بمقدار ذرة

الفجديهي : قال أبو طاهر : عقل امرأتين كاملتين عقل رجل ، وعقل
أربعة خصيان عقل امرأة ، وعقل أربعين حائكاً عقل خصى ، وعقل أربعين
معلمًا عقل حائك .

الزبير بن عبد الملك الهاشمي قال : مررت ببعض المعلمين ويعرف بكسرى ،
فرأيتَه يصلي بالصبيان صلاة العصر ، فلم أزل واقفاً أفكر فيه ، فلما أن ركع
أدخل رأسه بين رجليه ، لينظر ما يصنع الصبيان خلفه ، فرأى صبيّاً يلعب .
فقال له وهو راكع : يا بن البقال ؛ هوذا ؟ أدري ما تصنع !

الجاحظ : مررت بمعلم وقد كتب على لوح صبي : « وإذ قال لقمان لابنه
وهو يعظه . يا بني لا تَقْصُصْ رؤياك على إخوانك فيكيدوا لك كيداً ، وأكيدُ
(م ١٤ — شرح مقامات الحريري ج ٥)

كيداً فهل الكافرين أمهلهم رويداً». فقلت : ويحك ! أتدخل سورة في سورة ؟
 فقال : نعم عافاك الله ، إن أبا العاصِّ بَطْرَأمه يدخل أجرة شهر في شهر ، وأنا
 أيضاً أدخل آية في آية ، فلا أنا آخذ شيئاً ولا الصبي يتعلم شيئاً .

أبو بكر القبطي : عبرت على معلم وهو يَمْلِي على غلام بين يديه : « فريق
 في الجنة وفريق في السعيد » ، فقلت : يا هذا ما قال الله من هذا شيئاً إنما هو في
 السعير ، فقال : أنت تقرأ على حرف أبي عاصم بن العلاء الكسائي ، وأنا أقرأ
 على حرف أبي حمزة بن عاصم المدني فقلت : معرفتكم بالقراء أعجب إليّ ؛ وانصرفت .

وروى بعض الفضلاء قال : مررت في بعض قرى السواد ، وإذا معلم
 صبيان يقول : ويحكم يا صبيان ، تفسون افصاح به واحد منهم ، وقال : إنما فسا
 أخي ، فقال المعلم : إني لأعلم فسوته الخبيثة ، ولكن أعلل نفسي بالأباطيل ، ثم
 قال : إني لأعرف فساءكم كما أعرف أصواتكم ، وحلف على ذلك ثم أنشد :

معلم صبيان يروح وَيَغْتَدِي على أنفه ألوان ريح فُسَائِهِمْ
 وَقَدْ أَفسَدُوا منه الدِّماغَ بفسَوْهِمْ ورفعهم أصواتهم في سَحَائِهِمْ

الجاحظ : كان في المدينة رجلٌ معلمٌ صبيان ، يُفِرط في ضربهم ، فلاموه
 على ذلك ، فساءني حاله معهم ، فاستفتح صبي ، وقال : يا معلم ، وإنّ عليك
 اللعنة إلى يوم الدين ، ما بعده ؟ فقال : بل عليك وعلى والديك لعائن الله تترى .
 وجاء آخر فقال : يا معلم ، أخرج منها فإنك رجيم ، ما بعده ؟ قال : ذاك
 أبوك الكُشْحَان . وجاء آخر ، فقال : يا معلم مالنا في بناتك من حقٍّ ، ما بعده ؟
 فقال : لا ولا رأيتهن ، فقال : على هذا أضربهم ، أتعذرونني ؟ قلت : نعم .

العُتبي : كان ببغداد معلمٌ يشتم الصبيان فأخذت بيد المشايخ فدخلنا عليه ،
 فقلنا : يا شيخ ما يحمل لك أن تشتم هؤلاء الصبيان ؟ فقال : أنا مبتلى بهم ،
 ما شتمُ إلا مَنْ يستحق الشتم ، فاحضروا حتى تسمعوا بعض ما أنا فيه ، فحضرنا

معه ، فقرأ عليه صبيّ : « عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون » فقال : يا ماصّ بظراًمه ، فليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد شهروزور ، قال : فضحكنا والله حتى بال أحدنا في سراويله ، فقرأ عليه آخر : « لا تنفقوا إلاّ من عند رسول الله » وتردّد فقال : من عند أبيك القرآن أولى ، فإنه أكثر مالاً يا ابن الفاعلة ، أنكزيم النبي صلى الله عليه وسلم نفقة لا تجب عليه ؟ أأعجبك كثرة ماله ؟ فقال : فكنت بعد ذلك أترك أشغالي ، وأجلس عنده أتعجب .

الجاحظ : سرق صبيّ عثمانيّ مصحفاً ، فقال له المعلم : ماذا لقيت المصاحف منكم يا آل عثمان ! أبوك أحرقتها وأنت تسرقها !

قال أفلح التركي : خرجنا مرّة إلى حرب لنا ، ومعنا معلم كان يقول : أنا أتمنى أن أرى الحرب كيف هي ؟ فأخرجناه معنا ، فأول سهم جاء وقع في رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجا فنظر إليه ، وقال : إن خرج الزج وفيه شيء من دماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شيء من دماغه لم يكن عليه بأس ، فسبق إليه المعلم فقبّل رأسه ، وقال : بشرك الله بخير ، أنزعه فما في رأسى دماغ ، فقال الطيب : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى معلّم كتاب الله تعالى ، وما في رؤوس المعلمين ذرّة من دماغ ، ولو كان فيه ذرّة من دماغ ما كنت هاهنا .

وقال موسى بن حسان الكاتب : رأيت بالهيرة معلّماً قد أجلس أولاد الأغنياء للظلّ وأولاد المساكين للشمس ، وهو يقول لأولاد الأغنياء : يا أهل الجنة ، ابزّقوا على أهل النار - يعنى أولاد المساكين - قتل : يا هذا ، ما بال هؤلاء يبئخسون ؟ فقال : هؤلاء يبئخسون الأخطار .

أحمد بن دليل : مررت بمعلّم يضرب صبيّاً ، ويقول : والله لأضربنك حتى تقول لى : من حفر البحر ؟ فقلت : أعزّك الله ، والله لا أدرى أنا من حفر البحر ، قل لى حتى أنعم أنا ، فقال : حفر البحر كردم أبو آدم عليه السلام .

أبو العنابس : كان في دَرْبنا معلّم طويل اللحية ، فكنت أجلس إليه كثيراً وأتلمّهي به ، فجنّته يوماً وبين يديه صبيّ يقول له : ويلك ! الدجلة من حفرها ! قال : عيسى بن مريم ، قال : فالجبل من خلقه ؟ قال : موسى بن عمران ، قال : فالبحر ، من دَوَّره في است الجمل ، قال : شيطان يقال له الحَيّ ، قال : أحسنت ، فأدم من أبوه . قال : نوح ، قال : بنوح بنوح ، نجوت والله ! فقلت : يا سبحان الله ! أليس آدم أبا البشر ! قال : نعم ، قلت : فكيف يكون نوح أباه ! قال : ويلك أتعرفني بآدم وأنا أبو عبد الله المعلم ، يا صبيان كرفسوه فكرفسوني ، حتى صيروني مقيداً ، فخلعت ألا أقف على معلم أبداً .

الجاحظ : أنت امرأة إلى معلّم بآبن لها ، وكان المعلم طويل اللحية ، فقالت : إن هذا الصبي عاق لا يطيعني فأحب أن تفزّعه ، فأخذ المعلم لحيته وألقاها في فيه وحرك رأسه ، وصاح صيحة ، فضرطت المرأة من الفزع ، وقالت : إنما قلت لك : فزّع الصبي ، ليس إياي ، فقال لها : مرّتي يا حمتاء إن العذاب إذا نزل هلك الصالح والطالح .

الأصمعي : مررت بمعلّم بالبصرة يضرب صبيّاً ، ثم أقام الصبيان صفّاً ، وجعل يدور عليهم ، ويقول : اقرءوا ، فلما بلغ الصبيّ المضروب ، قال لآخر إلى جنبه : قل له : يقرأ فإني لا أكله !

[فصل في التأديب والأدباء]

ونذكر هنا في التأديب والأدباء ما يكون من شكل هذا الموضع ، ثم نقبع عند ذكر الغلمان الحسان من الأشعار ما يجري كالبيان والتفسير لأحوالهم بعون الله تعالى .

قالت الحكماء : من أدّب ولده صغيراً مُرّبه كبيراً ، ومن أدّب ولده أرغم حاسده .

وقال ابن عباس : مَنْ لَمْ يَجْلِسْ فِي الصَّغَرِ حَيْثُ يَسْكُرُهُ ، لَمْ يَجْلِسْ فِي الْكِبَرِ حَيْثُ يَحِبُّ .

وقالوا : أَطِيعُ الطَّيْنَ مَا كَانَ رَطْبًا ، وَأَغْرَزُ الْعُودَ مَا دَامَ لَدْنَا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ الَّذِي يَتَعَلَّمُ فِي صَغَرِهِ كَالنَّقْشِ عَلَى الصَّخَرِ ، وَالَّذِي يَتَعَلَّمُ فِي كِبَرِهِ كَالَّذِي يَكْتُبُ عَلَى الْمَاءِ » .

وسمع الأحنف : التَّعَلُّمُ فِي الصَّغَرِ كَالنَّقْشِ عَلَى الْحَجَرِ ، فَقَالَ : الْكَبِيرُ أَكْبَرُ عَقْلًا ، وَلَكِنَّهُ أَشْغَلُ قَلْبًا .

وقال علي رضي الله تعالى عنه : قَلْبُ الْحَدِّثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ إِذَا أُلْقِيَ فِيهَا شَيْءٌ قَبِلَتْهُ .

وقالوا : نَشَاطُ الْأَبْيَاحِ فِي عَمْرِ الشَّبَابِ ، وَالسَّوْدَدُ مَعَ السَّوَادِ ، وَشَوَاطِ الْفَارِ قَبْلَ الرَّمَادِ .

وقال الشاعر :

إِنَّ الْفُصَّاحِينَ إِذَا قَوْمَتْهَا اعْتَدَلَتْ وَلَنْ تَكُنْ إِذَا قَوْمَتْهَا الْخُشْبُ
وقال آخر :

إِنَّ الْكَبِيرَ إِذَا تَنَاهَى سِنُّهُ أُعْمِيَتْ رِيَاضَتُهُ عَلَى الرُّوَاحِ
فَإِذَا دَفَعَتْ إِلَى الصَّغِيرِ فَإِنَّمَا تَكْفِيكَ مِنْهُ إِشَارَةُ الْإِيمَانِ
وقال آخر :

* وَمَنْ الْعَنَاءُ رِيَاضَةُ الْمَرَمِ *

وَأَنشَدُوا :

* أَهْدُ شَيْبَكَ هَذَا تَبْتَغِيَ الْأَدْبَا *

وقال الشاعر في تدريج الصبي برفق :

سَدَدَ صِرَامي الطُفْلِ في شَأْنِهِ بلفظه تَشَدُّدُ بها أُرْزَرُهُ
واغْتَنَمَ اللَمَحَةَ من فَهْمِهِ إن المَبَادِي أبدأ نَزْرُهُ
كما تَرَبَّى النَّارُ من شِعْلَةٍ والذَّوْحَةُ الغَنَاءُ من يَذْرُهُ
وهذا ضدُّ ما قال المعري :

لا يَسْتَوِي ابْنَاكَ في خَلْقٍ ولا خُلُقٍ إن الحَديدَةَ أَمَّ السَّيْفِ والجَلَمِ
فأَضْرِبْ وَلِيَدِكَ وادْلِهِ على رَشْدٍ ولا تَقُلْ هو ظُفْلٌ غَيْرِ مُحْسِنٍ
قَرَبَ شِقِّ برَأْسٍ جَرَّ مَنفَعَةً وفَسَّ على نَفْعِ شِقِّ الرَأْسِ بالقَلَمِ
أشار إلى قوله تعالى : ﴿ يا بَحِي خذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ .

وقال صالح بن عبد القدوس :

وإنَّ مَنْ أدْبَقَهُ في الصَّبَا كالعود يُسْقَى الماءَ مِنْ غَرَسِهِ
حتى تَراه مَورِقاً ناضِراً بعد الَّذي أبصُرْتَ مِنْ بُنْسِهِ
والشَّيْخُ لا يَتْرُكُ أخلاقَهُ حتى يَوارِي في ثَرَى رَمْسِهِ
إذا ارعوى عاودَهُ جَهْلُهُ كَذِي الضُّغْنِ عادَ إلى نَكْسِهِ
ما يَبْلُغُ الأعداءُ من جَاهِلٍ ما يَبْلُغُ الجاهِلُ من نَفْسِهِ

وقال عتبة بن أبي سفيان اعلم ولده : ليكن أوَّلُ إِصْلاحِكَ لولَدِي إِصْلاحُكَ
لنَفْسِكَ ، فإنَّ عيوبَهُم مَعْتُودَةٌ بِعَيْبِكَ ، فَالْحَسَنُ عِنْدَهُم ما صَنَعْتَ ، وَالتَّقِيحُ عِنْدَهُم
ما تَرَكْتَ ، عَلَّمَهُم كِتَابَ اللَّهِ ولا تَهْلِهِم فِيهِ فَيَتْرَكُوهُ ، ولا تَتْرَكُهُمْ فِيهِ فَيَهْجُرُوهُ ،
وَرَوْعَهُم مِنَ الحَدِيثِ أَشْرَفُهُ ، وَمِنَ الشَّعْرِ أَعْفَى ، ولا تَنْقَلِبُهُم مِنْ عِلْمٍ إلى آخَرٍ
حتى يُنْكَرُوهُ ، فإنَّ ازْدِحامَ الكلامِ في السَّمْعِ مُشْغَلَةٌ في الفَهْمِ ، وَعَلَّامَةٌ سِيرَ

الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وهددهم في أدبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالتواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محادثة النساء ، واستزديني بزيادتك إيتاهم أزدك في برى ، وإياك أن تتشكل على عذر مئى ، فقد اتسكت على كفاية منك لى .

وأوصى الرشيد مؤدب ولده الأمين ، فقال : إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمره قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعت أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام ، وامنعه الضحك إلا في أوقاته ، ولا تمرر بك ساعة إلا وأنت مغتم فيها فائدة تفيدها له من غير أن تحرق به فتميت ذهنه ، ولا تمن في مساحته ، فيستحلى الفراغ ويألقه ، وقومه ما استطعت بالقرّب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة ، وبالله توفيقكما .

وقال للأصمعى : يا عبد الملك ، أنت أعلم منا ، ونحن أعقل منك ، لا تعلمنا في ملا ، ولا تسرع بتذكيرنا في خلا ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ؛ فإذا بلغت الجواب حسب الاستحقاق ، فلا ترد إلا أن نستدعى ذلك منك .

الماوردى : إذا كان لبعض الملوك رغبة في العلم ، فلا تجعل ذلك ذريعة للانبساط عليه والإدلال . وكتب شريح إلى معلم ولده :

تَرَكَ الْعَصْلَةَ لِأَكْلِيبِ يَسْمَى بِهَا	يَبْنَى الْمِرَاشَ مَعَ الْغَوَاةِ الرَّجَسِ ^(١)
فَإِذَا هَمَّتْ بِضَرْبِهِ فَبَدْرَةٍ	وَإِذَا بَلَغَتْ بِهِ ثَلَاثًا فَاحْبِسْ
وَإِذَا أَنَاكَ فَمَعْضُهُ بِمِثْلِ	وَعِظْنُهُ مَوْعِظَةَ الْأَدِيبِ الْأَكِيسِ
وَأَعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَتَيْتَ فَنَفْسُهُ	مَعَ مَا يَجْرَعْنِي أَعَزُّ الْأَنْفُسِ

[فنّ آخر في اللّهمين من المعلمين]

اتصل حماد بمجرد بالربيع يعلم ولده ، فكتب إليه بشار :

يا أبا الفضل لا تتم وقع الذئب في الغنم
إن حماد مجرد إن رأى غفلة هجم
بين نخديه حرمة نى غلاف من الأدم
إن خلا البيت ساعة تجتمع الميم بالقلم

فطرده الربيع .

واتخذ المهديّ قطرباً لتأديب بعض ولده ، وكان حماد يطمع في ذلك ، فلم يتم له لتهتكه وشهرته في الناس بما قال بشار ، فلما تمكن قطرب من موضعه ، صار حماد كالملقى ، فجعل يقوم ويقعد قلناً ، ثم دس إلى المهديّ رقعة فيها :

قل للإمام جزاك الله صالحاً لا تجمع الدهر بين السخل والذئب
السخل غير وهم الذئب فرصته والذئب يعلم ما في السخل من طيب

فقال المهديّ : انظروا لا يكون هذا المؤدب لوطياً ، ثم أخرجوه من الدار ، فبعث الضجر حماداً حيث حرّمه بشار هذه المراتب إلى أن قال فيه :

لقد صار بشارٌ بصيراً بدبره وناظره بين الأنام ضريب
له مقلّة عمياء وآستٌ بصيرة إلى الأيز من تحت الثياب تشير
على وده أن الحـمير تفيكه وأن جميع العالمين حمير

وقال فيه :

ألا من مبلغ عني الذي والده زود

إذا ما ذُكر الناس فلا قَبْلُ ولا بَعْدُ

وأعْمى يشبه القرد إذا ما عَمى القردُ

وقال فيه :

دُعِيتَ إلى بُرْدٍ وأنت لغيره

وهلك ابن برد نكت أمك من بُردٍ

وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد لوطياً زنديقاً ، وكان سعيد ابن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت جميل الوجه شاعراً ، فدخل على عبد الصمد فراوده في نفسه فسبّه ، وخرج مغضباً ، فدخل على هشام بن عبد الملك ، وهو يقول :

إنّه والله لولا أنت لم ينجُ مني سالماً عبد الصمد

فقال هشام : ولم ؟ قال :

إنّه قد رامَ مني خُطَّةً لم يرُها قبله مني أحد

قال : وما هي ؟ قال :

رامَ جهلاً بي وجهلاً بأبي يُدخل الأفعى إلى غيل الأسد

فضحك هشام ، وقال : لو فعلت به شيئاً لم أنكر عليك .

وكان سعيد يومئذ صغيراً في المكتب ومؤدب عبد الصمد هذا ، فلما راوده عن نفسه شكاه إلى هشام وأبدع في الكناية ، ورفق هذا المنكر الأكبر بلقظ يقابل به خليفة ، وغاية ذوى الحنكة من الخطباء محاكاة براعته واستعارته ، وليس ببديع ، فهو من بيت ثلاثة شعراء في نَسَق ، وكان هذا الشعر سبب إبعاد عبد الصمد من تأديب أولاد الخلفاء .

قوله : مالبت ، أى ما أقام ولا تأخر . كبر أصيبته ، أى أكبرهم ،
وكبر ولد الرجل أكبرهم من الذكور ، وكبر قومه : أقدمهم فى النسب ، أى
أقربهم إلى الجد الأكبر ، ومنه قيل : الولاء للكبر . أصيبته تصغير أصبية .
قال الجوهرى : الصبي : الغلام ، وجمعه صبية وصبيان وهو من الواو ، ولما
لم يقولوا : أصبية ولا أغلة استغنوا عنها بصبية وغللة ، وجاء فى الشعر أصيبية .
وقال سيبويه : تصغير صبية أصيبية ، وتصغير أصببة صبية وكلاهما على
غير قياس .

ابن سيده : عندي أن صبية تصغير صبية وأصبية تصغير أصبية ، ليكون
كل شيء منهما على بناء مكبره .

العواطل : التى لا تقطع فيها . تماطل : تؤخر إنشادها . جثا : برك .
ليث : أسد . ريث : بطة وتأخير .

* * *

أَعْدِدْ لِحَسَادِكَ حَدَّ السَّلَاحِ	وَأُورِدِ الْآمِلَ وَرَدَ السَّمَاحِ
وَصَارِمِ اللَّهِوِ وَوَضَلِ التَّهْمَا	وَأَعْمِلِ الْكُومَ وَتُتَمَّرِ الرَّمَاحِ
وَاسْعَ لِإِدْرَاكِ مَحَلِّ سَمَا	عَمَّادُهُ لَا لِأَدْرَاعِ الْمِرَاحِ
وَاللَّهِ مَا السُّودُودُ حَسَنُ الْغُلَا	وَلَا حَمْرَادُ الْحَمْدِ رُوْدُ رِدَاخِ
وَاهَا لِحَرٍّْ وَاسِعِ صَدْرِهِ	وَتَهْمُهُ مَا سَرَّ أَهْلَ الصَّلَاحِ
مُورِدُهُ حُلُوْ لِسَوَّالِهِ	وَمَا لَهُ مَا سَأَلُوهُ مُطَاحِ
مَا أَسْمَعَ الْآمِلِ رَدًّا وَلَا	مَا ظَلَّهُ وَالْمُطْلُ لُؤْمُ صَرَاحِ
وَلَا أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمَّا دَعَا	وَلَا كَسَا رَاحَالَهَ كَأْسَ رَاخِ

سَوْدَهُ إِصْلَاحُهُ سِرَّهُ وَرَدُّهُ أَهْوَاءُهُ وَالطَّمَّاحُ
وَحَصَلَ الْمَدْحَ لَهُ عِلْمُهُ مَا مُهِرُ الْعُورُ مَهْوَرُ الصَّحَّاحِ

* * *

أورد الآمل ، أى أعطى الراجى . ورد السماح : ماء الكرم . صارم : قاطع . لها : جمع مهارة وهى البقرة الوحشية ، وأراد النساء . الكوم : جمع كؤماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . اسع : اجر مسرعاً . محلّ سما : منزل ارتفع . والعماد : قائمة الخباء وإذا علت علا البيت . ادّراع : لبس الدروع . والمِراح : الطرب والنشاط ، كأنه يقول : لا تشغل باللهو واشتغل بكسب الشرف . حسو الطّلا : شرب الخمر . الشوّدّد : الفعل الذى يرجع به فاعله سيّداً . صراد ، بفتح الميم : مذهب وطريق ، وأصله موضع اختلاف الإبل مقبلة ومدبرة وهو المرعى . رُود : جارية ناعمة شابة . والرّدّاح : العظيمة العجوز ، وهو كما قال أبو نواس :

لئن خُلِقَ الأنامُ لحبِ كَأْمِسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وغُودِ
فلم يُخلَقْ بنو حَمْدانٍ إلّا لبأسٍ أو لجدٍ أو لجودِ

واهاً : عجباً . ما : بمعنى الذى . مطاح : هالك بالعطاء . صراح : ظاهراً .. راحاً : كفاً . راح الثانى : خمر . سؤدده : شرفه ، وجعله سيّداً . سرّه : باطنه . ردعه : كفه . أهواءه : شهواته . والعطاح : ارتفاع النظر . الثور : جمع عَوْرَاء وهى الفاقداء إحدى عينيها . مهوّر : جمع مهر ، وهو الصداق ، وأصل علمه فيما بعده من الكلام ، وضرب العور والصحاح مثلاً للأفعال الجميلة والذميمة . فأراد أن تميزه بين الأشياء المتضادة وعلمه أن مهر القبيحة العوراء لا يبلغ مهر المليحة الحسناء ، جعل ممدوحاً سيّداً . ومثل هذا الشعر الذى لم ينقطع ما أنشد أبو القاسم الزجاجى لأحمد بن الورد :

علم العـدو مـلامـة اللـوأمِ ودوام صدك وهو صدّ حمام
لولاك ما حـدّر السـهاد دموه ولما أطار كراه حرّ أوامِ
هل ما أسـرّ وما أوـمّل رادعُ هول المـموم وروعة الأحلامِ
رُدّ السلام وما أراك مسلماً وراك أهل هواك سرّ كلامِ
كم حاسد لك أو مسرّ وداده ومعلّل أهواه طول ملاهى

وهى قصيدة نحو الثمانين بيتاً وما زال المحدثون يظهرون اقتدارهم فى هذا الفن ، إلا أنه قلما يقع فى ذلك بيت مستحسن ، فذلك تركنا أن نمشى مع أشعار هذه المقامة فيما يماثلها ، وقد أكثر الناس القول فى ذلك ، وفائدته أن يقال : قدر على لزوم مالا يلزم لا أن يقال : قد أحسن فيما قال ، وقد أنشد أبو القاسم أيضاً ، أبياتاً لا تنطبق عليها الشفاء ، منها :

أُتيناك يا جَزَل العلية إننا رأيناك أهلاً للعضايا الجزائلِ
عقيل الندى يا حار عدنا عقيلةً نعدك انتجاعاً للحسان العقائلِ

* * *

فقال له : أَحَسَنْتَ يا بُدَيْر ، يا رَأْسَ الدَّيْرِ ، ثم قال لِتِلْوِهِ ، المُشْتَبِهِ بِصُنُوهِ : اذْنِ يا نُؤَيْرَه ، يا قَرَّ الدُّوَيْرَه ، فدنا ولم يَتَبَاطَأ ، حتّى حلّ منه مَقْعَدُ الْمُعَامَلِ ، فقال له : اجْلُ الأبياتِ العرائس ، وإن لم يكنْ نفائس ، فخيرى القلمَ وقط ، ثم احتجر اللّوح وخط :

فَتَنَّتْنِي فَجَنَّتْنِي تَجَنَّنِي بَتَجَنَّنِي يَفْتَنُّ غِيبَ تَجَنَّنِي
شَغَفَّتْنِي بِجَفْنِ ظُبِي غَضِيفِ غَنَجِ يَقْتَضِي تَغْيِضَ جَفْنِي
غَشِيَّتْنِي بِزَيْنَتَيْنِ فَشَفَّتْنِي بِزِيٍّ يَشِفُّ بَيْنَ تَشَتْنِي

فَتَطَنَيْتُ تَجَنُّدِي فَتَجَزِ نِي بِنَفْتِ يَسْفِي خَيْبَ ظَنِّي .
 ثَبَّتْ فِي غَشِّ جَيْبٍ بَزْزِيهِ نِ خَيْثِ يَنْغِي تَشْفِي ضِغْنِ
 فَزَرْتُ فِي تَجَنُّبِي فَكُنْتُ بِنَشِيحِ يُشْجِي بِنِّ فَكَنْ

* * *

قوله : أحسنت يا بدير : تصغير بذر ، صغره لصغر سنه ، على أنه قد زعم
 أنه كبير صباه . وفي مثل هذا البدر الذي قد نثر هذه الدرر قال الشاعر :

دُرَّانٍ مِنْ فَمِهِ شَفَا مَحْدَثُهُ لِلنَّثْرِ وَالنَّظْمِ مَسْمُوعٌ وَمُلْتَمِ
 فَدَقَلْتُ لَوْ قَبْلَ الْوَعْظِ الْمُبِينِ لَهُ خَفِ الْمُهَيْمِينَ فِينَا إِنَّا نَسَمُ
 فَقَالَ مَنْ ضَرَجَتْ خَدَى نَظَرْتُهُ فَإِنْ سِيفِ جُفُونِي مِنْهُ يَنْتَقِمُ

يا رأس الدير : يا عظيم القوم ، والدير : موضع القسيسين ، أراد به حلقة
 أصحابه . تلوه : التابع له ، أو الجالس إلى جانبه . صنوه : أخوه الذي على قدر
 سنه . اذن : اقرب . نؤيرة : تصغير نار ، شبه في حدته وذكائه بها ، أو في
 حسنه وبهائه . والدويرة : تصغير دارة ، وهي حلقتهم التي اجتمعوا فيها ،
 فكانه قال : يا قرأ في أصحابه .

[مَّا قِيلَ فِي الْعِلْمَانِ الْكِتَابِ]

ومما قيل في غلام كاتب : سأل الثعالبي أبا الفضل الدارمي أن يصف له
 غلاماً كاتباً حسن الخطأين : خطى اليد والوجه ، فقال :

وَكَاتِبٌ أَهْدَيْتُ نَفْسِي لَهُ فَهِيَ مِنَ الشَّوْءِ فِدَايَ نَفْسِهِ
 سَاطِئٌ خَدَّيْهِ عَلَى مُهَجَّتِي فَاسْتَأْصَلَاهَا وَهِيَ مِنْ غَرَسِهِ
 فَلَسْتُ أَدْرِي بَعْدَ مَا حَلَّ بِي بِمَسْكِهِ أَتْلَفُ أَمْ نَقْسِهِ

وقال في ذلك :

وشادن أسرف في صدّه وزاد في التيه على عبده
الحسن قد بثّ على خده بنفسجاً يربو على وزده
رأبته يكتب في طرسه خطأ يبارى الدرّ في عقده
نخلت ما قد خطّه كفّه للحسن قد خطّ على خده

ولابن رشيق :

كجبت ولو أننى أستطيعُ لإجلال قدرك دون البشر^(١)
قدّدت البراعة من أنملى وكان المداؤ سواد البصر

وله أيضاً :

عزيز يُبارى الضّبح إشراق خده وفي مفرق الظّلماء منه نسيب^(٢)
يزفّ إليه ضاحكاً أقحوانه ويهتزّ في برديه منه قضيب

ولابن المعتز في العذار المشبه بالحروف :

نبليت بشادن كالبدر حُسناً يُعذّبني بأنواع الدّلال
غلالة خده ورد جنى ونون الصّدغ معجمة بحال

وله أيضاً :

كأنّ خطّ عذارٍ فوق وجنته مَيّدانُ آسٍ على وزدٍ ونَمَرَيْنِ
وخطّ فوق حَبَابِ الدرّ شاربِه بنصف صاِدٍ ودار الصّدغ بالنون

وله أيضاً :

لهُ من عيون الوحش عَيْنٌ حَمِيضَةٌ ومن خضرة البستان خضرة شاربِ
كَأَنَّ غُلاماً حاذقاً خطّه لهُ فجاء كَنَصِفِ الصّاد من خط كاتب

(١) التّف ٣٧

(٢) التّف ٧

وقال آخر :

تعلّم العصف من صدغيه فانعطفاً وكان عادته ألا يفي فوقه
دبّ العذار على ميدان صفحته حتى إذا هم أن يسعى به وقفاً
كانه كاتب عزّ المداد به أراد يكتب لاماً فابتدى ألفاً

وقال أبو القاسم بن المغربي :

ولما احتوى بذر الدجى صحن خذه تحير حتى ما درى أين يذهب
كان انعطاف الصّدغ لأمّ أمالها أديب يجيد الخطّ أيّان يكتب

فهذه الأشعار المستعذبة التي بها تعلق بالغلماّن الذين يذكّر أنّهم كتّاب من جهة حسنهم واعتدال قدودهم وتوريد خدودهم ، وتطريزها بالعذار أحسن من ذكر شعر لزومى ليس فيه شيء من الأنس للنفس .

قوله تبّاكاً : أى تأخر وأصله الممز . المعاطى : الذى تعطيه كأس الخمر ويعطيها لك ، وقد عاطيته وعاطاني وقد تعاطى فلان كذا ، أى تناوله وأخذه ، من قولهم : عطّوت أعطو عطّواً ، أى تناولت . العرائس : جمع عروس ، وسماها عرائس لما فيها من التزيين بالنقط ، وكانت زينة العروس عند العرب أن تنقط في خديها نقطاً صفاراً بالزعفران ، فلذلك سُمّي هذه عرائس لنقطها ، وسُمّي التي قبلها عواطل لعدم نقطها . نفّاس : جمع نفيس ، وهو الرفيع القدر ، يريد أنه لما لزمها ما لم يلزم ضعفت ، وقد ذكرنا أن الغرض بمثل هذه الأشعار إظهار الاقتدار ، وعلى ما ذكر أنها غير نفّاس فهي أحسن مما عمل في بابها ، وما أحسن ما قال ديك الجن في جاريته :

انظر إلى شمس القصور وبدرها وإلى خزامها ونفحة زهرها^(١)

لم تَبْلُ عَيْنُكَ أَيْضاً فِي أَسْوَدَ جمع الجلال كوجهها في شَعْرِها
 وَرَدِيَّةُ الْوَجَنَاتِ يَخْتَبِرُ اسْمُهَا من ريقها من لا يحيط بخبرها
 وَتَمَائِلَتْ فَضَحَكْتُ مِنْ أُرْدَافِهَا عجباً ولكني بكيت لَخَضْرِها
 تَسْتَفِيكُ كَأْسُ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا وَرَدِيَّةُ وَمُدَامَةُ مِنْ ثَغْرِها
 ولابن الزَّقاق :

تَصَوَّرْتُ إِشْرَاقاً وَأَشْرَقَ أَوْجَهَا فهن منـيرات الصَّبَاحِ بَوَاسِمُ^(١)
 لَنْ كُنَّ زَهْرًا فَالْجَوَانِحُ أَرْجُ وإن كن زهراً فالقُلوبُ كَأَمُّ
 قوله : قَطْ : قطع ، وقيل : القَطْ القطع عِرضاً ، والقَدْ : القطع طولاً .
 احتجرت : جملة في حجره . خط : كتب . فتنتني ، أى عذبت قلبي . جَنَشْنِي :
 أى صيرتني مجنوناً . تجنى : اسم امرأة ، والتجنى الدلال والتهيه .
 وللبحترى :

إِذَا خَطَرْتُ تَارَّجَ جَانِبَاهَا كما خطرت على الأرض القَبُولُ^(٢)
 وَيَحْسُنُ دَلَّهَا وَالْمَوْتُ فِيهِ وقد يستحسن السَّيْفُ الصَّقِيلُ
 شَغَفْتَنِي : بلغ حبها شِغاف قلبي ، والشِّغاف حجاب القلب . ظبي : غزال .
 غَضِيضٌ : منكسر الطرف فاطر العينين . والفُئْج : تكسير الكلام وتخنيثه
 وهو الحِجَانَةُ . يَتَغَيَّضُ : يتَضَمَّنُ . تَغْيِضُ جَفْنِي : سيلان عيني .
 ومما قيل في مرض العينين وَحَسُنَ فِيهِ التَّشْبِيهِ قول البحترى :

غَدَاةٌ تَنْتَ لِلْوَدَاعِ وَسَلَّمْتُ بعينين موصولٍ يجفنيهما السَّخَرُ^(٣)
 تَوَهَّمْتُهَا أَلْوَى بِأَجْفَانِهَا الْكَرَى كَرَى النَّوْمِ ، أَوْ مَالَتْ بِأَعْطَافِهَا الْخُرَى

(١) ديوانه ٢٩٧ .

(٢) ديوانه ٨٢٢ .

(٣) ديوانه ٨٤٤ .

وقال ذو الرئمة :

لها بَشَرٌ مثل الحرير ومنطقٌ رخيماً الحواشي لا هُراء ولا تَزَنُ (١)
وعيمان قال الله كونا فكانتا فَمَوْلَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلِ الْخَمْرُ
وقد تقدّم جملة من هذا.

غشيتني : أتنى على غفلة . شفتني : أنحلت جسمي . والزّي : الهيئة الحسنة
من اللباس . يشفّ : يفضل . تننّ : اهتزاز وانعطاف . تظنّيت : حسبت .
تجبتيني : تختارني . بنفث : بلفظ وكلام . والجيب : القلب . يبغى : يطلب .
تشتى ضفّتي : إزالة عداوتي . نزت : وثبت . تجنّبي : بعدى . ثلثني : ردّتي .
نسيج : صوت البكاء . يشجى : يحزن . بفنّ فننّ : بنوع فنوع .
* * *

فلما نظر الشيخُ إلى ما حَبَّرَه ، وتصفّح ما زَبَّرَه ، قال له : بورك
فيك من طَلَا ، كما بُورِكَ في لا ولا . ثم هَتَفَ : اقْرُبْ ، يا قُطْرَبْ ،
فاقترب منه فتى يَحْكِي نَجْمَ دُجْيَةٍ ، أو تَمَثَالَ دُمْيَةٍ ، فقال له : اِرْقُمِ
الآيَاتِ الْأَخْيَافَ ، وتجنّبِ الْخِلَافَ ، فأخذ القلم ، ورَقَمَ :

اسْمَحْ قَبْتُ السَّمَاكِ زَيْنٌ وَلَا تَحِبْ آمَلًا تَضَيِّفُ
وَلَا تُجْزِدْ ذِي سَوْالٍ قَنَنْ أُمٍ فِي السَّوَالِ خَفَفُ
وَلَا تَظَنَّ الدُّهْوَ تَبْنِي مَالَ صَنِينٍ وَلَوْ تَقَشَّفُ
وَاحْلُمْ فَجَفَنَ الْكِرَامُ يُغْضَى وَصَدْرُهُمْ فِي الْعَطَاءِ تَفَنَّفُ
وَلَا تُحْنِ عَهْدَ ذِي وَدَادٍ ثَبَتِ وَلَا تَبْغِ مَا تَزَيِّفُ
* * *

حَبْرَه : زَيْتَه . زَبْرَه : كَتَبَه . طَلَا : غَزَالَ . لَاوَلَا ، يَعْنِي الزَيْتُون ، وَمِنْ
كَلَامِ الْعَامَةِ : بَوْرَكَ فَيْكَ كَمَا بَوْرَكَ فِي الزَّيْتِ ، وَأَرَادَ بَلَاوَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى :
﴿ تَوَقَّدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾^(١) ، فَأَخَذَ مِنَ الْآيَةِ
لَاوَلَا وَاكْتَفَى بِهِمَا .

الْفَجْدِيهِى : يَحْكِي أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ ظَهَرَتْ بِهِ عِلَّةٌ مَزْمَنَةٌ شَدِيدَةٌ أَعْيَا
الْأَطْبَاءَ عِلَاجُهَا ، فَلَمَّا أَيْسَرَ رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ فَشَكَا إِلَيْهِ
عِلَّتَهُ الْمَزْمَنَةَ ، فَقَالَ لَهُ : عَلَيْكَ بَلَاوَلَا ، فَقَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى ابْنِ سِيرِينَ ، فَقَالَ لَهُ :
إِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاكَ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَكَ بِتَنَاوُلِ الزَيْتُونِ ، فَتَنَاوَلَهَا
الرَّجُلُ فَبَرِئَ مِنْ عِلَّتِهِ ، فَقَالَ لَابْنِ سِيرِينَ : مَنْ أَيْنَ قَلْتَهَا ؟ قَالَ : مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :
﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ ، الْمَعْنَى مِنْ زَيْتِ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَا شَرْقِيَّةٍ ، أَيْ لَيْسَتْ تَطْلُعُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ أَوَّلَ النَّهَارِ فَقَطْ ، وَلَا غَرْبِيَّةٍ أَيْ عِنْدَ
الْغُرُوبِ فَقَطْ ، أَيْ لَا يَسْتَرُهَا مِنَ الشَّمْسِ فِي وَقْتٍ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ ، فَهُوَ أَنْضَرُ
لَهَا وَأَجُودُ لَزَيْتِهَا ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ
يَخْرِجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ » .

قَوْلُهُ : هَتَفَ : صَاحَ . قَطَرَبَ : خَفِيفَ النَّوْمِ ، وَالْقَطَرَبُ : دَوْبِيَّةٌ تَمْشِي بِاللَّيْلِ .
وَجَنِّيَّةٌ : تَبْرَكَ عَلَى الْإِنْسَانِ فَيَجِدُ لَهَا ثِقَلًا ، وَالْعَامَةُ تَبْدُلُ طَاءَهَا تَاءً ، وَالْعَرَبُ
تَسْمِيهَا الْقُنْدَلَانِ ، وَالْكَابُوسُ وَالْجَانُومُ ، وَيَسْمِيهَا أَهْلُ بَغْدَادِ الْبَحْتِ .
دُجِّيَّةٌ : ظُلْمَةٌ . دَمِيَّةٌ : صُورَةٌ رَخَامٌ ، وَجَمْعُهَا دُجْجِيٌّ وَدُجْمِيٌّ وَكَانَ صُورَةٌ هَذَا
الْعِلَامِ الَّذِي ذَكَرَ الشَّاعِرُ :

بَدَا فَبَدَا مِنْ وَجْهِهِ الْبَدْرُ طَالِعًا	لَدَى الرُّوْحِ يَسْتَعْلَى قَضِيْبًا مَنْعَمًا
وَقَدْ أُرْسِلَتْ أَيْدِي الْعِذَارَى بِخَدِّهِ	عِذَارًا مِنَ الْكَافُورِ وَالْمَسْكِ اسْتَحْمًا
وَأَحْسِبْ هَارُونًَا أَطَافَ بِطَرْفِهِ	يَعْلَاهُ _____ مِنْ سَحْرَةٍ فَتَعْلَاهُ
أَلَمْ يَبْنِ فِي دَامِسَ اللَّيْلِ فَانْجَلَى	فَلَمَّا انْتَنَى عَنَّا وَوَدَّعَ أَظْلَامًا

والأبيات للأمير أبي الحسن أحمد بن عضد الدولة .

وقال أبو إسحق الحصرى مؤلف كتاب الزهر :

عائِلُ طرفٍ سَقِيتُ خمرًا مِنْ مَقْلَتِيهِ فَتُ سَكْرًا
تَرْقَرَّتْ وَجَنَّتْهُاءُ ماءً مَازَجَ فِيهِ الْعَتِيقَ دُرًّا
يُحَرِّكُ الدَّلَّ مِنْهُ غَصْنًا وَيُطْلَعُ الْحَسَنُ مِنْهُ بَدْرًا
قَدْ نَمَّ مَسَكٌ بِمَارِضِيهِ خَلَّفَ لِلْعَاشِقِينَ عُذْرًا

قوله : الأخياف ، أى المختلفة . وقوله : فأخذ القلم ورقم ، كأن
أبا إسحاق الحصرى إياه عنى بهذه الأبيات :

إِذَا بَدَأَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى بِرَاحَتِهِ مَطَرٌ زَا لِرْدَاءِ الْفَجْرِ بِالظُّلَمِ
رَأَيْتَ أَسْوَدَ فِي الْأَبْصَارِ أَيْبُضَ فِي بَصَائِرِ لِحْظِهَا لِلْفَهْمِ غَيْرِ عَمِي
كَرَوْضَةٍ خَطَرَتْ فِي وَشَى زَهْرَتِهَا وَافْتَرَّ نَوَارِهَا عَنْ تَفْسِيرِ مَبْقَمِ

وكان الحسن استعار منه الدواة والقلم حيث قال :

يَا رِيمَ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا أَكْتُبُ شَوْقِي إِلَى الَّذِي ظَلَمَا^(١)
غَضَبَانِ قَدْ غَرَّتْنِي رِضَاؤُهُ وَلَوْ يُسْأَلُ فِيمَا غَضِبْتَ مَا عَلِمَا
لَوْ نَظَرْتُ عَيْنُهُ إِلَى حَجَّارٍ وَلَدَّ فِيهِ فَتَوْرُهُ سَقَمَا
فَلَيْسَ يَنْفَكُ مِنْهُ عَاشِقُهُ فِي جَمْعِ عَذْرِ لَغِيرٍ مَا اجْتَرَمَا
عَلَقْتُ مَنْ لَوْ أَوَى إِلَى أَنْفُسِ الْمَاضِينَ وَالْغَابِرِينَ مَا نَدَمَا

قوله : اسمح : جُد . بث : نشر . آملا : راجيا . تضييف : طلب منك أن
تضييفه . فنن : أتى بفنون من السؤال . ضمن : بخيل . تقشف : ترك النظافة .

يُغْضِي : يتغافل . نَفَف . واسع ، والنفف مقسع الأرض . ثبت : صادق الودء .
ويروى : نَثَّ أى نشر . تبغ : تطلب . تزيف : تنقص ، وصار زائفاً ، وهو
الدرهم الردىء .

* * *

فقال له : لَا شَلَّتْ يَدَاكَ ، وَلَا كَلَّتْ مُدَاكَ . ثم نادى : يَا غَشْمَسَم ،
يَا عِطْرَ مَنْشَم ، فَلَبَّاهُ غَلَامٌ كَدَّرَهُ غَوَاص ، أَوْجُوْ ذَرِ قَنَاص ، فقال
له : اكتب الآيات المتنايم ، ولا تكن من المشائم ، فتناول القلم
المثقف ، وكتب ولم يتوقف :

زَيْنْتُ زَيْنَبُ بَقْدَّ يَقْدُ	وَتَلَاهُ وَيَلَاهُ نَهْدُ يَهْدُ
جُنْدُهَا جَيْدُهَا وَظَرْفُ وَظَرْفُ	نَاعِسُ تَاعَسُ بِحَدَّ يَحْدُ
قَدْرُهَا قَدْرُهَا وَتَاهَتْ وَتَاهَتْ	وَاعْتَدْتُ وَاعْتَدْتُ بِحَدَّ يَحْدُ
فَارَقْتَنِي فَارَقْتَنِي وَشَطَّتْ	وَسَطَّتْ ثُمَّ نَمَّ وَجَدَّ وَجَدَّ
فَدَنْتُ فَدَيْتُ وَحَنْتُ وَحَيْتُ	مُغْضِبًا مُغْضِبًا يُوْذُ يُوْذُ

* * *

قوله كَلَّتْ ، أى حفيت . مُدَاكَ : سكاكينك ، جمع مُدْيَةٍ . الغشمشم : الذى
لا يردء شئء عن مراده .

[أَصْلُ الْمَثَلِ : دَقُّوا يَدَيْهِمْ عِطْرَ مَنْشَم]

عطر مَنْشَم ، قيل : كانت مَنْشَم جارية عَطَّرَتْ رجالها حين خرجوا للقتال ،
فَقَتَّلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، فَضَرَبَ بِهَا الْمَثَلُ فِي الشُّؤْمِ . وقيل : بل الإشارة إلى عطارة ،
أغار عليها قوم فأخذوا عِطْرَهَا فَتَطَيَّبُوا فَاسْتَعَاثَ بِقَوْمِهَا ، نَحَرُوا فِي طَلِبِهِمْ ،

فمن شَمُّوا عليه رائحة الطيب قتلوه ، ومن أوله على هذا قال : عِطْرُ مَنْ شَمَّ ،
فَجعلوه من كلمتين . وقيل : الكناية عن قرون السنبُل الذي يقال إنه سمّ ساعة .
وذكر ابن الكلبي أنها امرأة من خُزاعة كانت تبِيع العطر فتطِيب
بعطرها قومٌ وتحالفوا على الموت ، فماتوا .

وقال غيره : بل هي صاحبة يسار الكواعب ، وكان عبداً أسود مُشوّه
الخلقة راعى إبل ، فمتى رآته النساء ضحكْنَ منه ، فتوهمَّ أنهنَّ يضحكنَّ من إعجابهنَّ
بجسده ، فقال يوماً لرفيق له : أنا يسار الكواعب ، ما رأيتني جارية كاعب إلا
وعشقتني ، فقال له رفيقه : يا يسار ، اشرب لبن العِشار ، وكل لحم الحِوَار^(١) ، وإياك
وبنات الأحرار ، فأبى وراود مولاته عن نفسها ، فقالت له : مكانك حتى آتيك
بطيب أشمك إياه ، فأتته بموسى ، فلما أدنى أنفه لبِشَم الطيب جدّعتَه .

ويقال إنه لما راودها قالت له : أهكذا تأتيني بذِفْرِكَ وَوَسَخِكَ ! ادنُ
حتى أعطرك ، فأدخلت يدها تحته وفيها موسى لطيفة قد أعدتها له ، فقبضت على
ذكره وخصيته ، فاقتطعت الجميع ، فخرج فمن رآه على تلك الحالة قال له : ما هذا ؟
فيقول : عطرُ من شَمَّ .

وقيل : كانت تبِيع الحَنَوط وهو عطر الموتى .

وقيل : المنشَم : الشر نفسه ، وقيل : المنشَم ثمرة سوداء منقنة .

وقيل فيها غير ما ذكر .

وذكر الحريري في الدرة أكثر هذه الوجوه ، وذكر أن كسر شين منشَم
أكثر وأشهر ويروى بفتحها .

قوله المتائيم : جمع مُتَمِّم ، وهي التي من عادتها أن تلد توأمين ، ولما كانت
أبياتُه لا يوجد فيها إلا الألفاظ المزدوجة ، سَمِّيتْ متائيم ، وقيل : المتائيم : جمع
توأم على غير قياس . المشائيم : جمع مشام ، وهو الكثير الشؤم ، وشبه بدرّة

(١) العِشار : اسم يرم على النوق والحوار : ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمه .

غواص في بياضه ورقة ديباجه . وجوذر قناص ، هو الظبي الفاتر العينين ،
والقنّاص : الصياد ، فكأنه يصطاد بعينه من نظر ، وإن أضفت جوذر إلى
القنّاص فمعناه مستقيم ، فيصفه بالخوف وكثرة التلفت خشية أن يُصاد .
وما أحسن ما قال صاحبنا الوزير الحبيب أبو المطرف الزمهرى في هذا المعنى
وكان جالساً في باب داره مع زائر له ، نخرجت عليهما من زقاق جارية سافرة
الوجه كالشمس الطالعة ، فحين نظرتهما على غفلة نفرت خجلة فزعاً ، فرأى الزائر
ما أبهته ، فكلمه وصفها ، فقال مرتجلاً :

يا ظبيةً نفرت والقلب مسكنها خوفاً لخلقى أو عمداً لتعذبي
لتأمني فابن عبد الحمى الحفنا عدلاً يؤلف بين الظبي والذيب
وكان ابن رشيق وصف هذا الغلام الكاتب حيث قال :

وفاتر الأجنان ذى وجنة كأنها في الحسن ورد الرياض^(١)
قلت له : يا ظبي خذ مهجتي داوى بها تلك الجفون المراض
لجاوبت من خدّه خجلة كيف ترى الحمرة فوق البياض
وقال أيضاً :

بين أجنانك سحر ولأغصانك بدر^(٢)
جردت عينك سيفين لذا أمرك أمر
فعلى خديك من ز ف دما العشاق أثر
ومن الكتبان شطر لك والأغصان شطر
وسواء قلت در ما أرى أو قلت نقر
وبماذا أصف الخضر وما إن لك خضر
بك شغلى واشتغالى ومضى زيد وعمرو

وقال خالد الكاتب :

قد قلتُ لما أن بدا متبختراً والرَّدْفُ يجذب خَصْرَهُ من خَلْفِهِ
يا من يَسْلُمُ خَصْرَهُ من رِذْفِهِ سَلَّمَ فؤادَ محبِّهِ من طَرْفِهِ

وله مما يتعلق بالكتابة :

كتبت إليك بماء الجفون وقلبي بماء الهوى مُشْرَبُ
فكيف تخطّ وقلبي يملّ وعَيْنِي تَمَجُّو الَّذِي أَكْتُبُ
فليس يتم كتابي إليك بشوقٍ فمن هاهنا أعجبُ

قوله : زينت زينب بقَدَّ يَمَدَّ ، إنما أراد يقَدَّ يقَدَّ ، أى ينقطع لركة خَصْرِهِ ،
فعمَّوض منه يقَدَّ لقرب ما بين اللفظين ولضرورة الازدواج . وقال البحترى
في القُدود :

من السَّمر اللدان إذا اسْتَبَكَّرَتْ وصرف الموت في السَّمر اللدانِ
شديها الرِّماح قنَى جفونِ وكلم في القلوب بلا سنانِ
فهل من ضريبة أو من سنانِ كعين أو كغفر أو بَنانِ

وقال السرى :

قَامَتْ وَخُوطُ البانة الميَّاس في أثوابِها
تسقى بصهباءين من ألحاظها وشرابِها
ويهزها سُكرانِ سُكَّر شرابها وشبابِها
وكانَّ كأس مُدامها لما ارتدت بحبابِها
توريد وجنتِها إذا ملاح تحت نقابِها

وقال القاضي أبو حفص بن عمر :

هذا فؤادى أقصدته الأئمة من ذا يرى تلك الجفون ويسلم
يا غرة حكم الجبال لها على شمس الضحى وأصاب فيما يحكم
يحكى الجاذر جيدها ولحاظها هيات دون العالم المتعلم
وكان قامتها ونعمة لفظها غصن عليه بلبل يترنم
يضجى الخلى إذا رآها عاشقا والعقل توقظه الاحاظ النوم

وما أحسن ما قال أبو الحسن بن القبطرنة :

ذكرت سليمى وحر الوغى كفاي ساعة ودعتها
وأبصرت بين القناقد ما وقد ملن نحوى فعاتبتها
قوله : تلاه ، أى تبعه . ويلاه : دعا لنفسه بالويل والخسران حين رأى
نهداً لا يصبر عنه .

[فى وصف النهود]

ومما جاء من التشبيهات الحسان فى أوصاف النهود قول عمرو بن كلثوم :
وثدياً مثل حق العاج رخصاً مصاناً من أكف اللامسينا^(١)
بشار :

والنهد تحسبه وسنان أو كسلاً وقد تمايل ميلاً غير منكسر
ابن الرومى :

صدور فوقهن حقائق عاج ودر زانه حشن اتساق
بقول القائلون إذا رأوه أهذا الدر من هذى الحقائق !

وأخذه من قول عبد الله بن السبط :

كَأَنَّ الثَّدْيَ إِذَا مَا بَدَتْ وَزَانَ الْعُقُودَ بِهِنَ الثُّجُورَا
حِقَاقُ مِنَ الْعَاجِ مَكْنُونَةٌ يَسَعْنَ مِنَ الدَّرِّ شَيْئًا يَسِيرَا

ولإدريس اليماني :

أَيَا رَبَّةَ النَّهْدِ الَّذِي بَسَنَاهُ يَحْطُ فَتَى الْهَيْجَاءِ عَنْ فَرَسِ نَهْدِ
أَحْقَانٍ مِنْ عَاجٍ بِصَدْرِكَ أَمْ هَا رَقِيبَانِ قَدْ قَامَا عَلَى جَنَّةِ الْخَلْدِ

ومن البدائع الروائع قول الآخر :

وَذَاتُ دَلَالٍ سَبَتْ مَهْجَتِي بِمُسْتَشْرِفَيْنِ عَلَى مَنَزِرِ
كَأَنَّهُمَا خُوطُ كَافُورَةٍ بِأَعْلَاهِمَا نُقْطَتَا غَفِيرِ

وللقاضي عبد الوهاب ، ويروى لغيره :

يَا صَاحِبِيَّ قِبَالَتِي خُصَّانَةً مَالَتْ فَمَالَ الدَّعْصُ مِنْ أُعْطَافِهَا
فِي الصَّدْرِ مِنْهَا لِلطَّمَانِ أَسْنَةٌ مَا أَشْرَعَتْ إِلَّا لَجَنِّي قِطَافِهَا
إِنْ تَنَكَّرَا قَتَلِي بِهَا فَتَبَيَّنَا تَجَدَا دَمِي قَدْ جَفَّ فِي أَطْرَافِهَا

على بن الجهم :

كَنتُ مُشْتَاقًا وَمَا يَحْجُزْنِي عَنْكَ إِلَّا مَانِعٌ يَمْنَعُنِي ^(١)
شَاخِصٌ فِي الصَّدْرِ غَضْبَانٌ عَلَى قَبَبِ الْبَطْنِ وَطَى الْعُكْنِ
يَمْلَأُ الْكَفَّ وَلَا يَفْضُلُهَا فَإِذَا أَثْنَيْتَهُ لَا يَنْدَنِي

* * *

قوله جيدها : أي عفتها ، وكان حبيباً وصف هذه الجارية وجيدها بقوله :

كَالْخُوطِ فِي التَّدِّ وَالْفَزَالَةِ فِي الْبَهْجَةِ وَابْنُ الْغَزَالِ فِي غِيْدِهِ
وَمَا حَكَاهُ وَلَا نَهَ ——— يَمُّ لَه فِي حَسَنِهِ بَلْ حَكَاهُ فِي جِيْدِهِ

وإن كان هذا الجيدُ عاطلاً حليماً بقول ابن العباس الأعمى :

ونبتتُ ذاكَ الجيدَ أصبحَ عاطلاً خذى أدمعى إن كُنتَ غَضْبى على الدرِّ
خذى فانظميها أو كِلينى لنظميها حلياً على تلك الترائب والنَّحرِ
خذى اللؤلؤ الرطب الذى لهجوا به محارته جفنى ولجته صـ — دبرى
ولا تخبرى حور الجنان فرَّبما غصبتنكه بين الخديعة والمكرِ

طرف : عين . ظرف : حلاوة ورشاقة ، وجعل الطرف والعنق جنداً لها ،
لأنها لما حسنت معنى هذه الصفات انقاد لها عشاقها أذلاء ، فكانها أغارت
على قلوبهم فاستلبتها ، وقد قال فيما تقدّم :

وأحوى حوى رقى لفظه *

فجعله قد ملكه بجلالوته . وقال حبيب :

وحشية ترمى القلوب إذا اغتدت وسنى فما تصطاد غير الصيِّدِ

فجعلها تصطاد السادات بفتور عينيها ، وهذا المعنى لا يحصى كثرة .

وأراد بالتعاس الفاتر النظر وينعش من كان له منه نصيب وتمكن .
يخذ : يمنع من رآه من التسلى والتصبر . زها : تكبر . والتية : ضرب من
الزَّهو ، وهو الكبر . باهت : فاخرت وعظمت . واعتدت : ظلمت . يخذ :
يقطع ، أى أن خذها يقطع فى القلوب لاسيما إن كان كما قال من أحسن :

وبيضاء تحسبها دُرَّة تضىء الدجى إن بدت أو تكاذ
ننمُّ بالمسك كافورتى محياً حوى الحسن طراً وزاد
فقلت : أوصلك هذا البياض وبعض صدودك هذا السواد
فقلت : أبى كاتب للبلوك دنوت إليه بحسن الوداد
نفاف اطلعى على سرِّه فلم يعد أن رشتى بالمِداذ
فوصفها بأن فى خديها خيلاً نا .

قوله : أَرَقَّتْنِي ، أى منعتنى النوم . شَطَّتْ : بعدت . سَطَّتْ : بطشت .
 نَمَّ : أفضى السرَّ ، أى أفضى ما بى من الحب . وجد : حزن من الحب وهم .
 جد : اجتهد . فدنت : قربت . حذت : أشقت . مفضياً : متغافلاً عما ينال
 منه . يود : يتمنى . يودّ : يُحِبّ ، يقول : لما نمت لها وجدى بما أُجِنُّه من حبها
 وأبصرت ما فعل هجرها بى دنت عند ذلك متى شفقةً ، وحيثنى بسلامها وأنا فى
 حال غضبان ، لما حلّ بى من المجر متمنياً أن تحيئنى ، فلما سلمت على أزالته
 غضبى ، وأغضيت عما ساف من الفعل القبيح .

[أبيات حسان فى وصف الجوارى]

ونذكر هاهنا من الأشعار الحسان مما يوافق وصف هذه الجارية جملة
 مستظرفة ، قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

يزيدنى البعد شوقاً إليك وطول صدودك حِرْصاً عليك
 ولو كنت أملك ما تملكين من الصبر ما طال شوقى إليك
 وقال آخر :

وما أنسَ لا أنسَ ذاك الخضوع وقفيض الدموع وغمز اليد
 وخدّى مضافاً إلى خدّها قياماً إلى الصبح لم نرقُد
 وقال أبو مطرف الزهرى :

مررت بنا وبدت كالبدور وانفلتت كالفضن والتفتت كالشادن الخرق
 تسربت ببرود الحسّن والتحفّت بالفنّج واشتملت مرطاً من الفسّق
 وقال السرى :

لبست مصندلة الثياب فَمَنْ رَأَى قرأ تسربل قبلها أمواباً^(١)
 وحكّت من الظبي الغرير ثلاثة جيداً وطرفاً فاتراً وإهاباً

وله أيضاً :

مذهبة الحدود بجلنار مفضضة الثغور بأقحوان^(١)
سَقَانَا اللهُ مِنْ رَبِّكَ رَبِّاً وَحَيَّانَا بِأَوْجْهِكَ الْحِسَانَ
وللقاضى أبى حفص :

هُمْ نَظَرُوا لَوَاحِظَهَا فَهَامُوا وَتَشَرَّبَ عَقْلَ شَارِبِهَا الْمَدَامُ
سَمَا طَرْفِي إِلَيْهَا وَهُوَ بِالْكَ وَتَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ الْغَامُ
يَخَافُ النَّاسُ مَقْلَهَا سِوَاهَا أَيْذَعِرُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحَسَامُ !
وَأَذْكَرُ قَدَّهَا فَانُوحُ شَوْقَا عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْتَدِبُ الْحَمَامُ
وَأَعْقَبَ هَمَّهَا فِي الصَّدْرِ عَمَّا إِذَا غَرَبَتْ ذِكَاةُ أُنَى الظَّلَامُ
وله أيضاً :

أَعْيْذُكَ يَا سَلِيمِي مِنْ سَلِيمٍ قَتَلْتُ فِتَاهِمَ وَهُوَ الْكَرِيمُ
فَمَا لَكَ طَالِبَ بَتْرَاتِ نَفْسِي إِذَا قَتَلَ الْغَرَامُ فَلَا غَرِيمُ
فَوَادِي سَارَ نَحْوُكَ عَنْ ضُلُوعِ بِهَا يَا رِيمُ حُبُّكَ لَا يَرِيمُ
وَدَادُكَ صَحَّ فِي قَلْبِي سَلِيمٍ كَطَرْفِكَ صَحَّ نَاضِرُهُ السَّقِيمُ
إِذَا أَعْرَضْتَ تَسْوَدَ الْأُمَانِي وَإِنْ أَقْبَلْتَ تَبَيَّضَ الْمُهْمُومُ

* * *

فَطَفِقَ الشَّيْخُ يُتَأَمَّلُ مَا سَطَرَهُ ، وَيَقْلَبُ فِيهِ نَظَرَهُ ، فَلَمَّا اسْتَحْسَنَ
خَطَّهُ ، وَاسْتَصَحَّ صَبْطَهُ ، قَالَ لَهُ : لَاشَلَّ عَشْرُكَ ، وَلَا اسْتُخْبِتَ نَشْرُكَ .
مَّ أَهَابَ بَفْتَى فِتَّانٍ ، يُسْفِرُ عَنْ أَزْهَارِ بُسْتَانٍ ، فَقَالَ لَهُ : اأَنْشِدِ الْبَيْتَيْنِ
الْمُطَرِّقَيْنِ ، الْمُشْتَبِهِي الطَّرْفَيْنِ ، الَّذِينَ أَسْكَنَّا كُلَّ نَافِثٍ ، وَأَمِنَّا أَنْ
يُفَرِّزَا بِثَالِثٍ ، فَقَالَ لَهُ : اسْمَعْ لَا وَقِرَ تَمْنَعُكَ ، وَلَا هُزِمَ جَمْعُكَ ، وَأَنْشِدْ
مِنْ غَيْرِ تَلَبُّثٍ ، وَلَا تَرَيِّثٍ :

سِيمُ سِمَةٍ تَحْسُنُ آثَارَهَا وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سِمِسِمَةً
وَالْمَكْرُومَهُمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتَهُ لَتَقَتَّنِي السُّؤْدَدُ وَالْمَكْرُمَةُ

* * *

قوله : طَفِقَ ، أى أَخَذَ . يَتَأَمَّلُ : يَنْظُرُ . سَطَرَهُ : كَتَبَهُ . اسْتَصَحَّحَ : وَجَدَهُ .
مَحِيجًا ، وَالضَّبْطُ : الشَّكْلُ وَالنَّقْطُ : لَا شَلَّ عَشْرُكَ ، دَعَاءٌ ، أَيْ لَا يَسْتَأْصَابُكَ ،
وَيُرَوَّى : لَا تُلَّ عَرْشُكَ ، أَيْ لَا هُدْمَ عَرْشِكَ ، وَالرَّوَايَةُ الْأُولَى هِيَ الصَّحِيحَةُ .
اسْتُخْبِتَ : فَسَدَ وَصَارَ خَبِيثًا . نَشْرَكَ : رَأَيْتُكَ الْعَطْرَةَ . أَهَابَ : دَعَا وَصَاحَ .
يُسْفِرُ : يَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ لثَامَهُ . عَنْ أَزْهَارِ بَسْتَانٍ : عَنْ بَيَاضِ الْوَجْهِ وَحُمْرَةِ
الْخَدَّيْنِ وَالشَّفَتَيْنِ وَسَوَادِ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَشْفَارِ وَخَضَرَةِ الشَّارِبِ وَالْعِذَارِ وَمَحَاسِنِ
لَا تَقَى بِهَا نَاضِرَاتِ الْأَنْوَارِ ، وَقَدْ يَكُونُ يُسْفِرُ بِمَعْنَى يَتَبَسَّمُ عَنْ بَيَاضِ شَقِيقِ
وَأَقْحَوَانٍ وَاحْمَرَّارِ عَقِيقِ وَمَرْجَانٍ ، وَكَأَنَّ هَذَا الْغَلَامَ هُوَ الَّذِي ذَكَرَ أَبُو الرَّقْعِيقِ
بقوله :

إِذَا جَرَتْ يَدُهُ فِي الطَّرْسِ كَاتِبَةً تَبْلُجُ الطَّرْسَ عَنْ دُرٍّ وَمَرْجَانِ
وَإِنْ تَكَلَّمَ جَاءَتْهُ بَرَاعَتُهُ بِكُلِّ مَا شَاءَ مِنْ فَهْمٍ وَتَبْيَانِ
وَقَالَ بَعْضُهُمْ يَصِفُ غَلَامًا كَاتِبًا :

انْظُرْ إِلَى أَثَرِ الْمَدَادِ بِطَرْسِهِ كَبْنَفْسِ الرَّوْضِ الْمَشُوبِ بِوَرْدِهِ
مَا أَخْطَأَتْ نُونَاتُهُ مِنْ صُدْغَةٍ شَيْئًا وَلَا أَلِفَاتُهُ مِنْ قَدِّهِ
وَكَأَنَّمَا أَلِفَاتُهُ مِنْ شَعْرِهِ وَكَأَنَّمَا قِرَطَاتُهُ مِنْ خَدِّهِ

ولعمري بن فتح :

فَنُونَاتُهُ مِنْ حَاجِبِيهِ اسْتَعَارَهَا وَلَا مَاتَهُ مِنْ صُدْغَةِ الْمُتَعَاظِفِ
وَمِنْ صَدِّهِ الْمُؤَذَى اسْوَدَّادُ مَدَادِهِ وَمِنْ وَصْلِهِ الْحَبِي أَيْبَاضُ الصَّحَافِ

ولأبي إسحاق المصري في وصف هذا الغلام :

أيا من تُمِمْكَ الأوصافُ عنه أعنَّه وَصِفْنَا نَظْمًا وَنَثْرًا
ومن يدعو القلوب إلى مُناها بعينيه فلا تاتيه قَسْرًا
ومَنْ يُجْزِي اللَّائِي في أَقْاحِ يَمَازِجِ ظَلَمَةٍ بَرْدًا وَخَمْرًا
ويعرض في رياض الدَّلِّ غصنا ويطلع في سماء الحسن بَدْرًا
كَأَن بَخْذَهُ ذَهَبًا صَقِيلًا أَذَابَ عَلَيْهِ يَاقُوتًا وَدُرًّا
ومنها في وصف الكتاب :

قرأت كتابك الأعلى محلاً لدى وموقعاً شرفاً وقَدْرًا
فأحْبَبَانِي وقد غودرت مَتِيًّا وأنشُرْنِي وقد ضُمَّتْ قَبْرًا
نَقِشْتَ بِجَالِكَ الْأَنْمَاشَ نَوْرًا جَلًّا لَعِیُونِنَا نَوْرًا وَزَهْرًا
فَدَبَّحَ مِنْ بَسِيطِ الْفِكْرِ رَوْضًا أنيقاً مشرق الجنَّاتِ نَضْرًا
لو استسقى العليلُ به لأروى أو استشفى العليلُ به لأبرى
هَفَا عَطِرَ الْجَنُوبِ لَهُ نَسِيمٌ أقول إذا أنا سم منه نَشْرًا :
نَثَرَتْ لَنَا عَلَى الْكَافُورِ مِسْكَاً ولم تنثر على القُرطاسِ خَبْرًا
وله في العذار :

سَلَمَتْ مُحَاسَنُهُ سَوَادَ عِیُونِنَا وقلوبنا وكست أديم عذاره
فبدا طرازاً في أسيلِ مشرقِ ماء الحياة يجولُ في أسرارِه
علم الذي استلبت له يدُ حسنَه منا فمازج أمتَه بحذارِه
فله توقّف مستريب تائب ولنا تلهّب عاجزٍ عن ثارِه
وقال أبو الفضل الدرامي :

ظبيُّ إذا حَرَكَ أَصْدَاغَهُ لم يلتفت خلق إلى العِطْرِ
غنى بشعريّ مُنْشِداً لِيَتَنَى اللَّفْظَ الَّذِي ضَمْنَتْهُ شِعْري
فكلما كرر إنشاده قبلته فيه ولا يدرى

ولهميار :

مشقبه أعرفته وإنما مغالطاً قلت لصحبي دارُ مَنْ^(١)
وحاملي على السرور حاملي في كنفه وظرفه سيف الفتن
قد كتب الحسنُ على عارضه ما أقبح الهجران بالوجه الحسن
ولأبي إسحاق الطليطلي :

ومعذّر رقت له خمر الصبا حيث العذار حباها المترقّ
ديباج حسن تاه عقلاً ناقصاً فأتمها علم الشباب الموق
وشكا الجمال مقيله في ورده فأظله آس العذار المشفق
عامت بماء الصقل شامه خده وحما العذار زورقاً لا يفرق
إن كان يححو نقشه من خده فطلا الغزال بمسكها يتفتق

قوله : المطرفين ، أي الغريبين ، وقد أطرفته ، جثته بطرفة ، أي بشيء
معجب . نافث : متكلم . بعززا : يقويا ويشددا ، وإذا صلب الشيء قيل : تعزز
وأصله من العزاز وهي الأرض الصلبة .

وقال في الدرة : ويقولون شفعت الرسولين بثالث فيوهمون فيه ، والعرب
تقول : شفعت الرسول بآخر ، أي جعلتهما اثنتين ليطابق معنى الشفع في كلامهم ،
وهو اثنان ، فأما إذا بلغت ثلاثاً فوجهه أن يقال : عززت بثالث . قال تعالى :
﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، والمعنى في عززته قوّيته .
وأعززته : جعلته عزيزاً ، فإن وارت الرسل فالأحسن أن تقول قفّيت بالرسل ،
قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرَسُولِنَا ﴾ .

وما أحسن ما قال ابنُ شرف في العذار وذكر التعزيز بثالث :

قد كنت في وعد العذار فأنجزا وقضى لحسنك بالكمال فأوجزاً^(١)
 وافي لنصر الحسن إلا أنه وتلى إلى فئة الهوى متحيزاً
 عطف تعلم منه قلبي عطفه وجد الفؤاد به السبيل إلى العزا
 لم يكف وجهك حسنه وبهاؤه حتى اكتسى ثوب الجلال مطرّاً
 سبحان من أعطاك حسناً ثانياً وبثالث من حُسن فعلك عزّاً

الْوَقْر : الثقل في الأذن . تَلَبَّث : طول إقامة . تَرَبَّث : إذا احتبس ومكث ،
 ويقال : تَرَبَّث بنقطين وتَرَبَّث ترَبّاً بواحدة ، والمعنى فيهما واحد . سَم : عَلَّمَ .
 سَمَة : علامة . سَمْسَمَة : حبة جلجلان . المَكْر : الخداع . تَقَتْنَى : تَكْتَسِب .
 السُودد : الشرف . والمَكْرَمَة : الكرامة .

ومن اشترط أن يتيه لا يعززان بثالث قبل الحريري أبو دلف حين قال :

أنا أبو دلف المهدي بقافية جوابها يهلك الزأهي من الغيظِ
 مَنْ زاد فيها له رَحْلِي وراحلي وخاتمي والمدي فيها إلى القيظِ
 وذكر الحصري الأعمى المكرومة في تجنيس قوافيه ، فسمع قوماً يقدحون
 فيه وفي أبي خلصة قصده وقال :

يا أديبا ملكتنى في يديهِ المَكْرُمات
 ليت قوماً دأبهم فيّ وفيك المَكْرُمات

وله :

رب ظبي هويته نفتى للهـوازنه
 قلت : ما أثقل الهوى قال : ما للهوى زنه

وله أيضاً :

إن كنتَ الهوى فقد صار مرّى علائقه
بسة — ام أذاني وشحوب علائقه
* * *

فقال له : أجَدْتَ يا زُغلول ، يا أبا الغُلُول ، ثم نادى : أوضح
يا ياسين ، ما يُشكِل من ذوات السَّين ، فمض ولم يتأن ، وأنشد
بصوتٍ أغنّ :

نَقِسُ الدَّوَاةِ وَرُفْعُ الكَفِّ مَثْبَتُهُ سَيْنَاهَا إِن هُمَا خُطَا وَإِن دُرِسَا
وهكذا السَّين في قِسْبٍ وباسقةٍ

والسَّفْح والبَخْسِ واقْسِرْ واقْبِسْ قَبَسَا
وفي تَقَسَّسْتَ بالليل الكلامَ وفي مُسَيِّطِرٍ وشموسٍ واتخذ جَرَسَا
وفي قَرِيصٍ وبرِدٍ قَارِصٍ نَخَذَ الصَّوَابَ مِنِّي وَكُنْ لِلْعِلْمِ مُقْتَبِسَا
فقال له : أَحْسَنْتَ يَا نُعَيْش ، يَا صَنَاجَةَ الْجَيْش ، ثم قال : ثَبِّ يا عَنبَسَةَ ،
وبين الصاداتِ الملتبسة ، فوثب وثب شَبِلٌ مُثَار ، ثم أنشد من غير عِثَار :
بالصاد يكتب قد قَبِضْتُ دراهمًا بأناملي وأصيح لِتَسْتَمَعَ الخَبْرُ
وبَصَقْتُ أَبْصُقُ والصِّمَاحَ وَصَنَجَةً والقَصْ وهو الصَّدْرُ واقْصِ الأَثَرُ
وبخضتُ مقلته وهذِي فرصةً قد أُرْعِدْتُ منه الفريضة للخور
وقَصَرْتُ هِنْدًا أَى حَبِسْتُ وَقَدْ دَنَا فِصْحُ النَّصَارَى وهو عيدٌ مُتَنَطَّرُ
وقَرَضْتُهُ والجر قَارِصَةٌ إِذَا حَذَّتِ اللِّسَانَ وكلَّ هذا مُسْتَطَرُ

أَجَدْتُ: أَتَيْتُ بِحَيْدٍ. الزُّغُولُ: الخفيف، وزغول الرجل: ولده، والغُولُ: خيانة في المغنم، وأصله الستر والتغطية، تقول: غَلَّ الشَّيْءُ غَلًّا وَغُلُولًا، إذا ستره، وصفه كأنه يغُلُّ العقول، أى يمسكها ويخون أصحابها فيها، وقالت عُلَيَّةُ:

* يَا غُلَّ أَلْبَابِ الرِّجَالِ *

أوضح: بَيَّن. يَتَأَنَّى: يَتَبَاطَأُ ويفتر، والتأني: التثبت، وفي الحديث أنه نظر صلى الله عليه وسلم إلى رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة، فقال: «آتَيْتَ وَأَذَيْتَ»، أى أَخَرْتَ الحِجْيَاءَ، ويكون يتَأَنَّى من قولهم: فلان ذو أَنَاةٍ مِنْ وَنَى بَنِي، وتكون الهمزة مبدلةً عن واو، وهو الأظهر. أَغْنَى: فِيهِ غُنَّةٌ، وهو البجح الخفيف، والأغْنَى: الَّذِي يَتَكَلَّمُ مِنْ قِبَلِ خِيَاشِمِهِ. نَقَسَ: مَدَاد. رَسَغَ الكَفُّ: مَوَّصَلُهَا مِنَ الذَّرَاعِ. وَالْقَسْبُ: نَوَى التَّمْرِ. بَاسَقَةٌ: نَحْلَةٌ طَوِيلَةٌ. السَّفْحُ: أَسْفَلُ الْجَبَلِ. الْبَخْسُ: النَقْصُ. أَقْسِرَ: أَقْهَرَ وَاعْلَبَ. اقْتَبَسَ قَبْسًا: اطْلُبْ شَعْلَةً مِنْ نَارٍ. وَتَقَسَّسَتْ: تَتَبَّعَتْ. وَالشَّمُوسُ: الدَّابَّةُ الَّتِي تَمْنَعُ أَنْ تُسْرَجَ وَأَنْ تُرَكَّبَ. جَرَسًا: الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ فَيَصُوتُ. قَرِيسٌ: حَوْتَ. قَارَسٌ: شَدِيدٌ. مَقْتَبَسًا: طَالِبًا حَرِيصًا عَلَى كَسْبِهِ.

قوله: نُفَيْشٌ، أى كثير الحركة، وقيل: نُفَيْشٌ تصغير النَّفَاشِ مِنَ الرِّجَالِ الْحَقِيرِ الْخَلْقَةِ، الْغَايَةِ فِي الْقَصْرِ، فَصِفَةُ هَذَا الْغَلَامِ أَنَّهُ حَقِيرُ الْخَلْقَةِ كَثِيرُ الْحَرَكَةِ، وَقَدْ مَا تَسْكُونُ تِلْكَ الْخَلْقَةُ إِلَّا وَمَعَهَا الْحَرَكَةُ وَالْحَدَّةُ. وَرَوَاهُ الْفَنَجْدِيُّ فِي «نَفَيْشٍ» بِالْفَاءِ، أَيْ قَصِيرٍ. نَعْلَبُ: النَّفَاشُونَ، هُمُ الْقَصَارُ الضَّعَافُ الْحَرَكَةُ، وَمِنْهُ الْخَبَرُ أَنَّهُ رَأَى نَفَاشًا فَسَجَدَ شُكْرًا، قَالَ: وَالنَّفَشُ: تَحَرُّكُ الشَّيْءِ فِي مَكَانِهِ، يُقَالُ: دَارَ تَنْتَفَشُ صَبِيحَانَا، وَالتَّنَفُّشُ: دُخُولُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ. وَصَنَاجَةُ الْجَيْشِ: الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا الْمِثْلُ فِي الْحُرُوبِ، وَقِيلَ: الصَّنَاجَةُ الضَّرَبَةُ بِالْإِدْفِيفِ وَالطَّنَائِيرِ وَعُودُ الْغَنَاءِ وَنَحْوُهُ مِنْ آلَاتِ اللّٰهِو، قَالَ الْهَذَلِيُّ وَهُوَ سَاعِدَةُ بْنُ جُوَيْتٍ:

وعاودنى دينى فبت كأنما خلال ضلوع الصدر شرع بمدد^(١)

بأوب يدي صنّاجة عند مدمني غوى إذا ما ينتشي يتغرّد

يصف مافي صدره من الحرق . ودينه : حالته التي تعتاده من الهم ، والشرع :
الوتر ، يقول : كأنما في صدري عود ، لأوتار مرّة مما أحدث به نفسى من الهموم .
وأوب يديها : رجعهما بضرب الصنّاج ، أى بتجريك يديها حين تترّ أوتارها ،
وينتشي : يسكر . ويتغرّد : يتغنّى ، وفلان صنّاجة قومه ، أى المقدم عليهم فى
الفضل . وقيل : صنّاجة الجيش هو البطل المعروف ، ويقال : ليلة قراء صنّاجة
وصيّاجة ، إذا كانت مضيفة ، وصنّاج فلان بفلان إذا صرّعه . وكان أعشى قيس
يُدعى صنّاجة العرب لفصاحته . وقيل : لركة شعره ، وقيل : الصنّاجة الغناء ،
ويريد بالجيش الصبية الذين جيّشوا حوله ، فنفّيش صنّاجتهم ، أى أنبلهم وأحذقهم
أو كالصنّاجة فى خلقته وقصره . ثب : اقفر . عنبسة : اسم أسد . والشبل : ولده .
مثار : مفزع ، وقد أثير : استخرج من مكانه بالبحث عليه . قبصت : أخذت
بأطراف أصابعى ، والقبصة أقل من القبضة . أصخ : استمع . الصمّاخ : ثقب
الأذن . صنّجة ، هى التى يوزن بها . والمثلة : شحمة العين . بخصّتها : قنّتها .
واستلبتها فرصة : نهزة وغنيمة . والفريضة : بضعة عند الكتف تُرعد عند
الفرع . الخور : الضعف . قرصته : عضضته بظفري . حذت اللسان : قرصته
بحدّتها . مُستطير : مكتوب .

* * *

فقال له : رعياً لك يا بنى ، فقد أقررت عيني . ثم استتمض ذا جُمَّة

كالبيذق ، ونفّشة كالسودق ، وأمره أن يقف بالمرصاد ، ويسرّد مايجرى

على السنين والصاد ، فتمض يسحب بُرديه ، ثم أنشد مشيراً بيديه :

إِنْ شِئْتَ بِالسَّيْنِ فَكُتِبَ مَا يَدْنُهُ وَإِنْ تَشَأْ فَهُوَ بِالصَّادَاتِ يُكْتَتَبُ
مَغْسٌ وَفَقْسٌ وَمُسْطَارٌ وَمُمَدِّسٌ وَسَالِغٌ وَسَرَاطُ الْحَقِّ وَالسَّقَبُ
وَالسَامِغَانُ وَسَقَرٌ وَالسُوبِقُ وَمَسْـلَاقٌ وَعَنْ كُلِّ هَذَا تُفْصِحُ الْكُتُبُ
فَقَالَ لَهُ : أَحْسَنْتَ يَا حَبَقَّةَ ، يَا عَيْنَ بَقَّةَ ، ثُمَّ نَادَى : يَا دَغْفَلَ ،
يَا أَبَا زَنْفَلَ ، فَلَبَّاهُ فَتَى أَحْسَنُ مِنْ بَيْضَةِ ، فِي رَوْضَةٍ ، فَقَالَ لَهُ : مَا عَقَدَ هَجَاءُ
الْأَفْعَالِ ، الَّتِي آخَرَهَا حَرْفُ اعْتِلَالٍ ، فَقَالَ : اسْمِعْ ، لَا صَمَّ صَدَاكَ ،
وَلَا سَمِعْتَ عِدَاكَ . ثُمَّ أَنْشَدَ ، وَمَا اسْتَرَشَدَ :

إِذَا الْفِعْلُ يَوْمًا غَمَّ عَنْكَ هَجَاؤُهُ فَأَلْحَقْ بِهِ تَاءَ الْخَطَابِ وَلَا تَقِفْ
فَإِنْ تَرَقَّبْتَ التَّاءَ يَاءٌ فَكُتِبَتْ يَاءٌ وَإِلَّا فَهُوَ يُكْتَبُ بِالْأَلْفِ
وَلَا تُحْسِبِ الْفِعْلَ الثَّلَاثِيَّ وَالَّذِي تَعْدَاهُ وَالْمَهْمُوزَ فِي ذَاكَ يَخْتَلِفُ

* * *

رَعِيًّا : حَفْظًا ، أَيْ رَعَاكَ اللَّهُ رَعِيًّا . اسْتَنْهَضَ : أَمَرَهُ بِالْمَهْوُوسِ . جُبَّةَ :
جَسَدٌ . وَبَيِّذَ الشَّطْرَنْجَ ، مَعْرُوفٌ ؛ يُشَبَّهُ بِهِ الْخَفِيفُ الرُّوحُ الْحَازِقُ . نَفْسَةً :
حَرَكَةً . وَالسَّوْدُوقُ ، هُوَ السَّدَانِقُ مِنَ الطَّيْرِ الَّتِي يُصْطَادُ بِهَا . بِالْمُرْصَادِ ،
أَيَّ قَرِيبٍ مِنْهُ حَيْثُ يَنْظُرُهُ . يَسْرُدُ : يَقْرُؤُهَا بِسُرْعَةٍ . يَسْحَبُ بِرَدِيهِ : يَجْرُؤُ نَوِيهِ .
وَقَالَ الْحَسَنُ يَصِفُ مِثْلَ هَذَا الْفَلَامِ :

يَا أَيُّهَا الْمَبْطُولُونَ مَعْذِرَتِي أَرَاكُمْ اللَّهُ وَجْهَ تَحْقِيقٍ^(١)
نَمَّ بِمَا كُنْتُ لَا أَبُوحُ بِهِ عَلَى لِسَانٍ بِالْدمْعِ مِنْطِيقٍ

(١) ديوانه ٨٩ ، وفيه : « وجه تصديق » والقصيدة يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع

شوقاً إلى حسن صورة ظفرت
وصيف كاسٍ محدثٍ مَلِكٍ
يشوبُ عِزًّا بذلةٍ فله
أَمْشَى إلى جنبه أراحه
ومن مدحها :

وإن عَبَّاسًا مثل والده
تَأْتَقُ الحسن حين زانكا
فصُورَ الفضل من حجا وندي
وله أيضاً :

ترى للحسن والحركات فيه
فيا مَنْ صِيعَ من حسنٍ وطيبٍ
أصْبَنِي مِنْكَ يَا أَمْلَى بِذَنْبٍ
تقيه على الذُّنُوبِ به ذُنُوبٍ

قوله: سراط، أى طريق. والسَّقر من الجوارح: التى يُضْطاد بها. السَّويق: الشعير إذا قُلِيَ وطُحِنَ. حَبَقَّة: صَرْطَة. عين بَقَّة، يقال: ذلك للصغير. دَغْفَل: اسم رجل كان نَسَابَةً، والدَّغْفَل. ولد الفيل، والدَّغْفَل: الزمن الخصب، فسُمِّي الصَّبِيّ بأحدها. والزَّنْفَل، من أسماء الداهية. والبيضة: بَيْضَةُ النِّعَام، وجعلها فى رَوْضَةٍ، يريد أنها مصونة منعمة، وتشبيههم للنساء بهذه البيضة مشهور فى شعر امرئ القيس وغيره. وقيل للأوسية — وهى امرأة حكيمه من العرب — بحضرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أى منظر أحسن؟ فقالت: قُصُورٌ بِيضٌ فى جَدائق خضر، فأنشد رضى الله تعالى عنه لعدى بن زيد:

(١) الديوان: « أنرت » .

(٢) زواية الديوان :

تَأْتَقُ اللهُ حِينَ صَاغِكَا لَأَنْ تَقُوقَا فَأَيُّ تَأْنِيْقٍ

كُدِّمَى العَاجِ فِي الحَارِبِ أَوْ كَانِيبِضَ فِي الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَقِيرٌ^(١)
قوله : لَاصِمٌ صَدَاكَ ، أَى لَاهَلَكْتَ ، فَلَا يَكُونُ لَكَ صَوْتٌ .

وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ فِي الدَّارِ الْخَالِيَةِ :

صَمٌّ صَدَاها وَعَقْفَا رِسْمُها وَاسْتَمَجَمَتْ عَنْ مَنْطِقِ السَّائِلِ^(٢)

وَالصَّدَى : الصَّوْتُ الَّذِي يُجِيبُكَ مِنَ الْجَبَلِ ، أَوْ مِنْ الْمَوْضِعِ الْخَالِي ،
وَالصَّدَى : طَائِرٌ يُخْرَجُ مِنْ رَأْسِ الْمَقْتُولِ ، فَلَا يَزَالُ يَصِيحُ : اسْقُونِي اسْقُونِي ،
حَتَّى يُقْتَلَ قَاتِلُهُ عَلَى زَعْمِهِمْ . وَلَاصِمٌ صَدَاكَ ، دَعَاءٌ بِطُولِ الْعُمُرِ ، لِأَنَّ الصَّدَى تَابِعٌ
لِلصَّوْتِ ، فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ صَوْتُهُ ، فَلَا يُسْمَعُ لَهُ صَدَى ، فَكَأَنَّ صَدَاهُ
بَعْدَ مَوْتِهِ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُجِيبُ . مَا اسْتَرَشَدَ ، أَى مَا طَلَبَ مَنْ يُرْشِدُهُ وَيُدَلُّهُ .

* * *

فَطَرَبَ الشَّيْخُ لَمَّا أَدَّاهُ ، ثُمَّ عَوَّدَهُ وَفَدَّاهُ ، ثُمَّ قَالَ : هَلُمَّ يَا قَعْقَاعُ ،
يَا بَاقِعَةَ الْبِقَاعِ . فَأَقْبَلَ فَتَى أَحْسَنُ مِنْ نَارِ الْقِرَى ، فِي عَيْنِ ابْنِ الثَّرَى ،
فَقَالَ لَهُ : اضْدَعْ بِتَمْيِيزِ الظَّاءِ مِنَ الضَّادِ ، لِتَصْدَعَ بِهِ أَكْبَادَ الْأَضْدَادِ ؛
فَاهْتَزَّ لِقَوْلِهِ وَاهْتَشَّ ، ثُمَّ أَنْشَدَ بِصَوْتٍ أَجَشٍّ :

أَيُّهَا السَّائِلُ عَنِ الضَّادِ وَالظَّاءِ لِكَيْلَا تُضِلَّهُ الْأَلْفَاظُ
إِنْ حَفِظَ الظَّاءَاتِ يُغْنِيكَ فَاسْتَمِعْهَا اسْتِمَاعَ امْرِئٍ لَهُ اسْتِيقَاضُ
مِى ظَمِيَاءٍ وَالْمَظَالِمِ وَالْإِظْلَامِ وَالظُّلْمِ وَالظُّبَى وَاللَّحَاطِ
وَالْعِظَا وَالظَّلِيمِ وَالظُّبَى وَالشَّيْ ظَمٌ وَالظُّلُّ وَاللَّظَى وَالشُّوَاطِ
وَالنَّظْنَى وَاللَّفْظُ وَالنَّظْمُ وَالتَّقْرِيطُ وَالْقَيْظُ وَالظَّمَا وَاللَّمَّاطُ

وَالْحِطَا وَالنَّظِيرُ وَالظَّرُّ وَالْجَا حَظَّ وَالنَّاطِرُونَ وَالْأَيْقَاطُ
وَالنَّشَاطُ وَالظَّلْفُ وَالْعَظْمُ وَالظُّنْبُوبُ وَالظَّهْرُ وَالشَّطَا وَالشَّطَاطُ
وَالْأَظَايِرُ وَالْمَظْفَرُ وَالْمَحْظُورُ وَالْحَافِظُونَ وَالْإِحْفَاطُ
وَالْحِظِيرَاتُ وَالْمِظَنَّةُ وَالظَّنَّةُ وَالْكَاطِمُونَ وَالْمُعْتَاظُ
وَالْوُظَيْفَاتُ وَالْمَوَاطِبُ وَالْكِطَّةُ وَالْإِنْتَظَارُ وَالْإِظَاطُ
وَوُظِيفٌ وَظَالِعٌ وَعَظِيمٌ وَظِهِيرٌ وَالْفَظَّ وَالْإِغْلَاطُ
وَنَظِيفٌ وَالظَّرْفُ وَالظَّلْفُ الظَّا هَرَّمُ الْفِظْيَعِ وَالْوُعَاطُ
وَعَكَاطُ وَالظَّمْنُ وَالْمَظَّ وَالْحُظْلُ وَالْقَارِظَانِ وَالْأَوْشَاطُ
وِظْرَابُ الظَّرَّانِ وَالسَّطَفُ الْبَا هِظُ وَالْجَمْعَظَرِيَّ وَالْجَوَاطُ
وَالظَّرَايِنُ وَالْحَنَاطِبُ وَالْعُنْطُبُ ثُمَّ الظِّيَّانُ وَالْأَرْعَاطُ
وَالشَّنَاطِي وَالْدَّلْظُ وَالظَّابُّ وَالظَّبْظَابُ وَالْعُنْظَوَانُ وَالْجِنْعَاطُ
وَالشَّنَاطِيرُ وَالْتَعَاظِلُ وَالْعِظْلِمُ وَالْبَظْرُ بَعْدُ وَالْإِنْعَاطُ
هِيَ هَذِي سَوَى النَّوَادِرِ فَاحْفَظْهُمَا لِتَقْفُو آثَارَكَ الْحَفَاطُ
وَاقْضِ فِيهَا صَرَفَتْ مِنْهَا كَمَا تَقْضِيهِ فِي أَصْلِهِ كَقِيْظٍ وَقَاطُوا

* * *

أُدَاه : أبلغه ، تقول : أَدَيْتُ الْأَمَانَةَ ، إِذَا بَلَّغْتَهَا صَاحِبَهَا . عَوَّذَهُ : قَرَأَ عَلَيْهِ
الْمَوْذُتَيْنِ . وَفَدَّاهُ : قَالَ : نَفْسِي فِدَاؤُكَ . قَعَقَاعٌ : شَدِيدُ الصَّوْتِ ، وَالْقَعْقَعَةُ ،
صَوْتُ مَتَابَعٍ . وَالْبَاقِعَةُ : الدَّاهِيَةُ . وَالْبِقَاعُ : جَمْعُ بُقْعَةٍ ، قِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ

لقِرَى : طعام الضيف . ابن الشَّري ، هو الطارق بالليل ، وقد تقدّم ذكر هذه النار عند قوله :

فلم أزل أنصّ عني وأقول : طوبى لك ولنفسى

وهم يضربون المثل بها وحدها في الحسن فيقولون : هو أحسن من النار ، فكيف إذا كان إنسان مع ظلام الليل في ريح وبرّد وجوع ، لا يدرى أين يتوجّه ، فرأى ناراً قد أوقدت لقرى الأضياف ، فلا يقدر قدّر حسنّها إلا من جرّبها .

وقالت أعرابية : كنت في شبّيتي أحسن من النار .

وأنشد التوزي ملفزاً في النار :

وشعنا غبراء الفروع كأنما بها تُوصفُ الحسناء بل هي أجملُ
دعوتُ بها صبيّ بليلٍ كأنهم وقد أبصروها يعطشون فأنهلوا
فهذا مثل الذي ذكره الحريري .

وقال الآخر يصف ناراً :

ومشوبة لا يقبِس الجار ريّها ولا طارق الظلماء منها يؤنسُ
مضى ما يزرها زائر يُلفِ دُونها عَقيلة دارى من المسك تفرسُ
وأنشد أبو زيد فيها ملفزاً :

وزهراء إن كفّنتها فهو عيشها وإن لم تكفّنها فموتٌ معجلُ

وكان الحسن بن وهب أشدّ الناس عشقاً لنبات جارية محمد بن حماد ، وكانت تفتى في مجلسه ، وبين يديها كانون فخم ، فتأذّت بالنار ، وأمّرت بإبعادها ، فقال الحسن مرتجلاً :

بأبي كرهت النَّارَ لَكَ أَوْقَدْتُ فَعَرَفْتُ مَا مَعْنَاكَ فِي إِبْسَادِهَا
 هِيَ ضُرَّةٌ لَكَ بِالتَّمَاعِ ضِيَائِهَا وَبِحَسَنِ صُورَتِهَا لَدَى إِيقَادِهَا
 وَأَرَى صَنِيعَكَ فِي الْقُلُوبِ صَنِيعَهَا بِأَرَاكِهَا وَسَيَّالِهَا وَقَتَادِهَا
 شَرَكْتُكَ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ بِحَسَنِهَا وَضِيَائِهَا وَصَلَاحِهَا وَفْسَادِهَا

وكان مع أصحابه يوماً ، فقال : لو ساعدنا الزمان لجاءتنا نبات ، فما تكلموا
 بشيء حتى دخلت ، فقال : إني وإياك لكما قال علي بن أمية :

وَفَاجَأَتْنِي وَالْقَلْبُ نَحْوَكِ شَاخِصٌ وَذَكَرَاكَ مَا بَيْنَ اللِّسَانِ إِلَى الْقَلْبِ
 فَيَا فَرَحَةً جَاءَتْ عَلَى إِثْرِ تَرَحَّةٍ وَيَا غَفْلَتِي عَنْهَا وَقَدْ نَزَلَتْ قَرِينِي

ودخلت عليه يوماً وهو محموم ، فسألت وقبّلت يده ، فأراد تقبيل يدها
 فأرْعَشَ وقال :

أَقُولُ وَقَدْ حَاوَلْتُ تَقْبِيلَ كَفِّهَا وَلِي رَعْدَةٌ أَهْتَزُّ مِنْهَا وَأُسْكِنُ
 فَدَيْتِكَ إِنِّي أَشْجَعُ النَّاسَ كُلَّهُمْ لَدَى الْحَرْبِ إِلَّا أَنِّي عَنْكَ أَجْبُنُ

قوله : اصدع ، أى بَيِّنْ وَأَظْهَرِ . تصدع : تشق . الأضداد : الأعداء .
 أجش : أبح . تضلّه : تضيعه وتلفه . استيقاظ : انتباه . ظمياء : عطشى .

الأزهرى : شفة ظمياء ، ليست بوارمة كثيرة الدم ويحمد ظمؤها ، وليثة
 ظمياء ، ورجل أظمى ، وامرأة ظمياء ، وقيل : شفة ظمياء ، إذا كانت فيها سُوءَةٌ .
 وساق ظمياء : قليلة اللحم . والظلم ، بالفتح : ماء الأسنان ، وقيل : بريقها وصفائها ،
 والجمع ظلوم . واللحاظ : طرف العين الذى يلى الضدغ . العطاء : جمع عَطَايَةٍ ،
 وهى دويبة حمراء إلى الغبرة ، ذات قوائم أربع . الظلم : ذكر النعام . الشيطم :
 الطويل . اللظى : النار . والشواظ : لهبها بغير دخان . التظنى : مصدر تظنّيت
 أى حسبت ، والأصل تظنّنت بالنون ، فأبدلت ياء . والتفريط : مدح الرجل

حيثاً . والقيظ : فصل الحرّ . والظّما : العطش . والأماظ : الشيء اليسير من الطعام وقد تلمّظت ، إذا تقيعت بلسانك بقيّة الطعام بعد الأكل ، واسم تلك البقية اللماظة ، وقيل : التلمّظ هو لَعَقُ الشفتين باللسان من عطشٍ أو غيظٍ .

الخطا : انتفاخ اللحم . النّظير : المثل . الظّئر : الموضع بالأجرة . الجاحظ : الذي برّزت عيناه . الأيقاظ : ضدّ النّيام ، الواحد يُقَظ بضم القاف وكسرها . قوله : القشّطى : أن تصير العودَ فلقاً ، والشّطية : الفلقة منه . والشّطى : عظم لاصق بالركبة ، وقيل هو تشقّق عصب الذراع . والظّلف لغنم والبقر بمنزلة الحافر للدّواب ، وكل حافر مشقوق ظلف . الظنّبوب : مقدّم عظم الساق . والشّطاظ : عود الشّداد ، الذي يشدّ به المتاع ، وقيل : هو عود يدخل في عُرا الغرارتين فيحملان به على ظهر البعير . المظفر : المؤيد . المحظور : الممنوع . الإحفاظ : الإغضاب . الحظيرات : جمع حظيرة ، وهى الزّرب يُعمل منه شبه الدار ، تسكنها الغنم والإبل ، وقد يكون من حائط ، وأصل الحظّر المنع ، وكلّ مانع بين شيئين حظير . والمظنة : الموضع ترمى فيه بظنك ، وفلان مظنة خير ، أى يُظنّ فيه الخير . والمظنة : التهمة . الكاظمون : المتجرّعون غيظهم ، وقد كظم غيظه ، تجرّعه وردّه . الوظائف : جمع وظيفة وهى ما يلزمك من المفعول . المواظب : الملازم ، وقد واظبت على الشيء ، داومت عليه . الكِظّة : الامتلاء من الطعام ، والإلفاظ : اللزوم . الوظيف لكلّ ذى أربع : ما فوق الرّسغ إلى الساق . والظّالغ : الأعرج . والظّهير : القوى الظهر ، وهو أيضاً المِعِين . والقطّ : الغليظ ، والفظاظة : الجفاء والغِلظة . والإغلاظ : الجفاء . والتّظيف : النقيّ الحسّن . والظّلف : المنع والردّ ، وقد ظلفت أترى ظلفاً ، إذا مشيت في حُزونة الأرض وصلابتها فمعت أترك أن يؤثر فيها . والفتيع : الكريه المطعم ، وقد فطع الشيء ، اشتدت كراهيته ومهارته . عكاظ : موسم للعرب . الظعن : السفر . الحنظل : شجر مرة ، والباهظ : الغالب . والبظّر : زيادة في فَرْج المرأة ، ورجل أبظّر : فى

شفته العليا تنوء ، وامرأة بطراء ، والأول راجع إلى هذا المعنى . الإنعاط : قيام
الذكر . النوادر : الغرائب والشواذ . تقفو : تتبع . قيط : شدة الحر ، وقاظوا :
دخلوا في زمن القَيْظ .

* * *

فقال له الشيخ : أحسنتَ لا فُضَّ قُوك ، ولا بُرَّ مَنْ يَجفوك ، فوالله
إنَّك مع الصِّبا الغضِّ ، لأحفظُ من الأرض ، وأجمعُ من يوم العرض ،
ولقد أوردتُك ورفقتُك زُلالي ، وثَقَّفْتُكُمْ تَقِيفَ العوالى ، فاذكرونى
أذكركم ، واشكروا لى ولا تكفروُن .

قال الحارث بن همام : فعميتُ لما أبْدَى من براعه ، معجونة
برقاعة ، وأظهر من حَذَاقه ، ممزوجة بحماقة ؛ ولم يزل بصرى يصعد فيه
ويصوب ، وينقر عنه وينقب ، وكنت كمن ينظر فى ظلمات ، أو يسرى
فى بهماء ؛ فلما استراحت تنبهى ، واستبان تدلّهى ، حلق إلى وتبسم ،
وقال : لم يبق من يتوسّم . فبهتُ لفحوى كلامه ، ووجدته أبا زيد
عند ابتسامه ، فأخذتُ ألومه على تدبُّر بقعة النوكى ، وتخيّر حِرْفَةَ الحق ،
فكان وجهه أسفَ رماداً ، أو أشرب سواداً ، إلا أنه أنشد وما عمادى :

تخيّرَتِ حِمْصٌ وهذى الصَّنَاعَةُ لِأَرْزَقَ حُظُوَّةَ أَهْلِ الرَّقَاعَةِ .
فما يصطفى الدهرُ غير الرقيع ولا يوطن المالُ إِلَّا بَقَاعَةَ .
ولا لأخى اللبُّ من دهره سوى ما لم يرِ يبطِ بَقَاعَةَ .

* * *

فضّ: كسر . يحفوك : يغلظ لك في الكلام . الغضّ : الطرى . يوم
العرض : يوم القيامة ، ولما أشار من أوّل على أكبرهم ، انحطّ في أسنانهم إلى
أصفرهم ، نختم به كما بدأ بأكثرهم ، فلذلك قال : مع الصبا الغضّ .

[مما قيل في الصغار]

ومما قيل في الصغار من الشعر المستحسن ، قال أبو الفضل الدرامي وقد سأله
التمالي أن يصف له غلاماً صغيراً ، بديع الحسن ليثبت ذلك في كتابه المترجم
بألف غلام ، فأنشد :

إني عشمتُ صغيراً قد دبّ فيه الجمالُ
وكاد يفشى حديثَ الفضول فيه الدلالُ
لومرّ في ضرق الوصل ما اعتراه الضلالُ
يريك بدرأ منيراً في الحسن وهو هلالُ

قال لحسن :

حين أوفى على ثلاث وعشرين
غنة فيه لاصباً تغتليه
حين رام النساء منه بعينٍ
وقال آخر :

لئن يزيد على عشرين بواحدة
وجاوب اللحظ منه لحظ عاشقه
قد كان غراً بقتلى ليس يُحسِنه
وقال آخر :

قالوا أتبكي على صغيرٍ
فقلت إن البنان خمس
خصصته بالوداد طفلاً
أصغر ما بينها يُحلى

ولابن إدريس اليماني :

عشقتُه شادناً صغيراً وكنت لا أعشق الصغاراً
أغارني سقمَ ناظريه فاستشرفتُ نفسه حذاراً
يسفر عن وجه مستنير يردُّ جُنبَ الدُّجى نهاراً
لم أر من قبل ذاك نُوراً أضرمَ فيه الحياة نارا

ولابن شهيد^(١) :

راقني من شيمه برقٌ بدا أم سنا الحبوب أوزي أُنذا
هبَّ من فَعَسَتِهِ منكسراً مُسبِل الكُمين مُرخٍ للردا
يمسح النَّعْسة من عَيْنِي رِشاً صائداً في كلِّ يوم أسداً
قلت هب لي يا حبيبي قبلةً تشف من حبِّك تبريح الصدى
فانشئ يهتز من منكبه قائلًا : لا ، ثم أعطاني اليداً
قال لي يلعب : صِدْ لي طائراً فتراني الدَّهر أجرى بالكدي
وإذا استعجزتُ يوماً وعدّه قال لي يمل : ذكّرني غداً
شربت أعطافه خمر الصبا وسقاه الحسن حتى عرّ بدا

ورأى الحسن غلاماً في المكتب فإشار إلى تقبيل يده فقبّله فقال :

ظفرت بقبلةٍ منه على عيني معلّة
أشرتُ بها إلى يده فأوصلها إلى فمه

وقال الخلواني :

تعرّضتُ مَنْ شَفَّني هجره ببـداء سلام عليه شفاهاً

وقلت عساه يردُّ السَّلام فتبلغ نفسى منه مُناهاً
نجد على بتقييـلةٍ وقد كن أعرض عني وتاهاً
وكنت كموسى أتى الضياء لتبس نارٍ فناجى إلهاً

وكتب الحسن لغلام كاتب يستعطفه ، فوقع الغلام فى كتابه : « تزد هجراً
إلى يوم الحساب » فقال الحسن :

كتبت إلى الحبيب بيت شعري أعاتبه فأغضبه كتابي
أجبنى يا ملول على كتابي فإنَّ النفس تسكن بالجواب
فوقع فى الكتاب : يزد هجراً وإبعاداً إلى يوم الحساب
وقال ابن رشيقي فى محبوبه الصانع :

وطبي من بنى الكتاب يسني قلوب العاشقين بمقلتيه^(١)
رفعت إليه أستقضى رضاه وأسأله خلاصاً من يديه
فوقع : قد رددت فؤاد هذا مساحجةً فلا يُعدى عليه
وناوله يوماً تفاحة فقال :

وتفاحة من كفّ طبي أخذتها جناها من الغصن الذى مثل قده^(٢)
لها لسن ردفه وطيب نسيمه وطعم ثناياه ومُحرّة خده
ولابن فرج :

ومن ينظر إلى خديك يحكم على ورد الحدايق للحدود
وما اهتزت غصون الروض إلا تمتّ حُسن قدك فى القُود

(١) التثنية ٨٦

(٢) التثنية ٢٨

وقال مسلم بن الوليد :

تفاحة شامية من كف ظني غزل
ما خلقت مذ خلقت تلك لغير القبل
كأنما حمرتها حمرة خد خجل

وقال آخر في ضد ما تقدم :

فديتك لا تحيف مني سلوا إذا ما غير الشعر الصغاراً
أدين بدن خل كان خمراً وأهوى لحيه كانت عذاراً

وقال ابن المعتز في مثله :

من معنى على السهر وعلى الحب والفكر
ويل ما بي من شادن كبر الحب إذ كبر

قوله : زلالي ، أي خالص على ، والزلال : الماء العذب الصافي . ثققتكم : قوّمتمكم .
العوالى : صدور الرماح . براعة : فصاحة . الحذاقة : المهاراة في كل عمل ،
وهي الحذق ، وأصله القطع ، كأن الحاذق يقطع الأمور المشككة بعقله ، وحذق
الصبي القرآن : قطعه حفظاً . الرقاعة : الحماقة ، رقع رقاعة فهو يقيع . يصعد :
يرفع نظره . يصوب : ينظر في اعتدال واستواء . ينقر : وينقب : يفتش . بهما :
أرض مجهولة . استراث : استبطأ . تدلّهي : تحيرى ، ودلّه الحب : حيره
وأدهشه . تخلق : نظر بمحلاقة ، وهو باطن جفته ، وهو نظر المغضب . يتوسّم :
يحسن النظر والميز . بهت : فطنت ، وفي الحديث « ربّ ذي طمرين لا يؤبه له » ،
أي لا يفتن له لذته ، وتأبه فلان : تكبر ، وإنه لذو أبهة ، أي ذو كبر ونحوه .
الفنجدية : رأيت بخط الحريري : يقال : أبهت له وأبهت ووبهت له بمعنى ،

قال يعقوب . تقول : ما بهت له ، وما بهت به وما أو بهت له ، وما بهأت له : ما فطنت له . فُحْوَى : معنى . عند ابتسامته ، قد تقدّم وصفه بالقَلَح ، يريد لنا انقسم ورأى قَلَحَه عرفه . تدِير بُقْعَه النوكى ، أى اتخذه حصص داراً ، وجعلهم نوكى لرقاعتهم ، والنَّوْكُ : الحق . حِرْفَة : صنعة . أُسِفَ رماداً ، أى تغير فكأنه ذرّ عليه الرماد . وأُسِفَ الجرح الدواء أى حشاه به . ما تُمَادَى ، أى مادام ولابقى على غضبه ، وتُمَادَى فى الشيء : لَجَّ فيه . حظوة ، أى منزلة . يصطفى : يختار . يوطن : يسكن . بقاعه : منازلها ، وهى جمع بُقْعَة . أخى اللب : صاحب العقل . عَيْر : حمار . قاعة : انخفاض ، أى ليس للإنسان من دهره إلا ما أكله .

* * *

ثم قال : أما إنَّ التعليم أشرفُ صناعة ، وأَرْبَحُ بضاعة ، وأنجح شَفَاعَة وأفضَلُ بَرَاة ، وربُّهُ ذو إمْرَةٍ مطاعة ، وهيبَةٍ مُشَاعَة ، ورِعِيَّةٍ مِطْوَاة ، يَتَسَيَّرُ تَسَيَّرَ أمير ، ويرتَّبُ ترتِّبَ وزير ، ويتحكَّمُ تحكُّمَ قدير ، ويتشَبَّه بذي مُلْكٍ كبير ، إلا أنه يَخْرَفُ فى أَمَدٍ يسير ، وَيَتَسَيَّمُ بِجُمُوقِ شَهِير ، ويتقلَّب بعقلٍ صَغير ؛ ولا يَنْبَثُك مثلُ خبير ؛ فقلت له : تَأَلَّه إِنَّكَ لابنُ الأَيَّام ، وعَلِمُ الأَعْلَام ، والسَّاحِرُ اللَّاعِبُ بالأفهام ، المذللُّ له سُبُلُ الكَلَام . ثم لم أزل مُعْتَكِفًا بِنَادِيهِ ، ومُعْتَرِفًا من سَبِيلِ وَاِدِيهِ ، إلى أن غابت الأَيَّامُ الغُرَّ ، ونَابَتِ الأحداثُ الغُبر ، وفارقتهُ ولعيني العُبر .

* * *

قوله أنجح، أى أفزع وأسرع لقضاء الحاجة . أمرة مطاعة ، العرب تقول :
لك على أمرة مطاعة ، بفتح الألف ، أى أمرة أطيعك فيها . وحكى الفراء
كسرها على صَف ، والفتح أفصح ، والأمرة بالفتح : المرة الواحدة من الأمر ،
وبالكسر الإمارة والولاية . مُشاعة : فاشية . يتساطر : يتساقط . يتخرف : يهزم .
يتيسم : يجعل لنفسه سمة ، أى علامة الحق .

وما قيل في المعلم وتقضيله على الوالد ، أنشد الماوردي :

يا فاحراً للسَّقاء بالسَّلف وتاركاً للعلاء والشرفِ
آباء أجسادنا هم سببُ لأن جعلنا عوارض التلفِ
من علم الناس كان خير أبٍ ذاك أبو الروح لأبوالنطفِ

أخذه من قول الإسكندر ، وقيل له : ما بال تعظيمك لمعلمك أشد من
تعظيمك لوالدك ؟ فقال : إن أبى سبب حياتى الفانية ، ومعلمى سبب حياتى
الباقية .

ولبعضهم :

إنَّ المعلم والطبيبَ كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يُكرَما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلماً

جاء فى الحديث « يُجاء بالمعلم يوم القيامة ووجهه عَظَم لا لحم عليه » .
قال عطاء : الذين يأخذون على القرآن أجراً . ابن الأيём : الخبير بها والبصير
بمواطنها . علم الأعلام : أشهر المشاهير . الأفهام . جمع فهم ، أراد اللّاعب
بالأذهان والعقول . سُبُل : طرق . معتكفاً بناديه : ملازماً لمحلّسه . مغترفاً من
سيل واديه : آخذاً من بحر علمه . الفرّ : البيض الحسان . نابت الأحداث
القُبُر : رجمت النوازل الشداد التى تغبّر الأرض من شدة قحطها . لعينى البُمر ،
أى سخنة الدمع لحزنه . واستعبر : بكى . والله تعالى أعلم .

المقامة السابعة والأربعون وهي التحيرية

حكى الحارث بن همام : قال : احتجبت إلى الحجامة ، وأنا
بِحَجَرِ اليمامة ، فأرشدت إلى شيخ يحجم بطافة ، ويسفر عن نطاقة ؛
فبمشت غلامي لإحضاره ، وأرصدت نفسي لانتظاره . فأبطأ بمدا
ما انطلق . حتى خلته قد أبق ، أو ركب طباقاً عن طبق . ثم عاد عود
المخفق ، مسهماه . الكلل على مولاة ، فقلت له : ويلك ! أبطأ فئد ، وطلود
زند ! فزعم أن الشيخ أشعل من ذات النخين ، وفي حرب كرب
حنين ، فعفت الممشى إلى حجام ، وحرث بين إقدام وإحجام : ثم رأيت
ألا تعنيف ، على من يأتي الكنيف .

* * *

قوله : احتجبت للحجامة ، وأنا بحجر اليمامة . أنس عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، قال : « خير ما تداوئتم به الحجامة والشونيز والقسط » .

القسط : عود يحاء به من الهند ، يجعل في الدواء والبخور .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« خير يوم يحجم فيه سبعة عشر وتسعة عشر وأحد وعشرون ، وما مررت
بملا من الملائكة ليلة أسري بي إلا قالوا : عليك بالحجامة يا محمد » .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : لقد تبخخ^(١) بي الدم يا نافع ، ادع لي
حجاماً ، ولا جعله شيخاً كبيراً ، ولا صبيّاً . ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله

(١) البيهقي : ثوزان الدم .

عليه وسلم يقول : « الحجامة على الرِّيق أمثلُ ، فيها شفاء وبركة ، تزيد في العقل والحفظ ، وتزيد الحافظ حفظاً ، فمن احتجم فيوم الخميس والأحد والاثنين والثلاثاء ، فإنه يومٌ رفع الله فيه البلاء . »

عن أيوب عليه السلام ، وأصابه [مرض] يوم الأربعاء : لا يبدأ جذام أو برص إلا في يوم الأربعاء أو ليلته .

حَجَرٌ : قصبة . اليمامة : يأتي ذكرها في التحسين إن شاء الله تعالى ، وهي بلدة كبيرة كثيرة النخل ، وسكنتها حنيفة ، وهي بلدة مسيلة الكذاب الخنقي ، وبها تنبأ وآمن به أهلها ، وهي « فعالة » من اليمم ، وهو طائر ، أو من يَمَمْتُ الشيء إذا تعمّده . من الأمام ، بمعنى قدام ، وأبدلت الهمزة ياء لما دخلتها الهاء ، وأقرب المدن منها البصرة .

يُسْفَر : يكشف . نظافة : صفالة وحسن . أرصدت : أعددت . أبق : هرب . طبقاً عن طبق : حالاً عن حال ، وأمرأ عن أمر . الخفيق : الخائب . مسعاه : سعيه . الكلّ على مولاه : الذي لا ينفعه شيء ، ولا يكفيه أمر نفسه ، والكلّ : الثقل الروح . قوله : صلود زند ، هو ألا يسمح الزند بالنار . حُتْنين : موضع وقعة مشهورة ، كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين هوازن ، هُزِمَتْ فيها هوازن ، وسُيِّتَ أموالهم وعبائهم ، وقُتِلَ فيها ذُرَيْد بن الصّمة كافراً . عِفَتْ : كرهت . الإقدام : الجرأة والتراخي . والإحجام : الرجوع إلى خلف ، أراد أنه ردّد رأيه : هل يأتيه أم لا ؟ والتّعنيف : العتب . والكنيف : المرحاض .

[حكاية طريقة تجمع أسماء المرحاض]

ونذكر هنا حكاية طريقة تجمع أسماء . رحّل رجلٌ من الكوفة إلى ابن عمٍّ له من بني هاشم بالمدينة ، فأقام حوْلاً عنده ، لا يدخل مُستراحاً ، فلما أراد

الرجوع إلى الكوفة ، قال ابنُ عَمِّه لقينتين له : أما رأيكما ظَرَفتَ ابنُ عَمِّي ، أقامَ حولاً عندنا لم يدخل الخلاء ، قالتا : فعلينا أن نصنع له شيئاً لا يجد معه بُدّاً من الخلاء ، قال : شأنكما ، فعمدنا إلى خشب العُشْر ، وطرحناه في شرابه وهو مسهلٌ ؛ فلما حضر وقت شراهما قرَّبناه له وسقَّنا مولاها من غيره ، فلما أخذ الشراب منهما تناوم مولاها ، ومَنَصَّ الفتى من بعده ، فقال لإحداها : يا سيدتي ، أين الخلاء ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تُغْنِيَه :

عَمَّا من آل فاطمة الجِواءِ فنزل أهلها منها خَلَاءِ

فغَنَّتْهُ ، فقال : أظنهما كوفيتين ، فقال الأخرى : يا سيدتي أين الخش ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تُغْنِيَه :

* لقد أوحش الرِّيانُ فالدَّبرُ منهما *

فغَنَّتْهُ ، فقال النبي : أظنهما عراقيتين ، وما فهمتا عني ، فقال الأخرى : يا سيدتي ، أين المتوضأ ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسأل أن تُغْنِيَه :

توضأ للصَّلَاة وصلَّ خمساً وأذن بالصَّلَاة على النبيِّ

فقال : أظنهما حجازيتين ، وما فهمتا عني ، فقال لإحداها : يا سيدتي ، أين الكنيف ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : إنه يسألك أن تُغْنِيَه :

تَكَنَّفني الواشونَ من كلِّ جانبٍ ولو كان واشٍ واحدٌ لكفَّاني

فغَنَّتْهُ ، فقال : أظنهما تهمانيين ، فقال للأخرى : يا سيدتي أين المستراح ؟ فقالت لصاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تُغْنِيَه :

رَكَ الثُّكَّاهة والمُراحَا وقَلَى الصَّبابة فاستراحَا

فَعَنَّتْهُ ، وَلِلْمَوْلَى يَسْمَعُ ، فَلَمَّا كَرَبَهُ الْأَمْرُ أَنْشَأَ يَقُولُ :

تَكُنْفِي الْمَلَاخُ وَأَنْجِرُونِي عَلَى مَا بِي بِتَكْرِيرِ الْأَغَانِي
فَلَمَّا ضَاقَ عَنْ ذَلِكَ اصْطَبَارِي ذَرَقْتُ بِهِ عَلَى وَجْهِ الزَّوَانِي

ثم حلَّ سراويله ، وسلَّحَ عليهما ، فتركما آية للناظرين . وانتبه مولاها ،
فكما رأى ما نزل بهما ، قال له : يا أخي ما حالك على هذا ؟ قال له : يا ابن الزانية ،
لَكَ جَوَارِي يَرَيْنَ الْخُرُوجَ عَرَاظاً مُسْتَقِيماً فَلَا يَدُلُّنَنِي عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُنَّ جَزَاءٌ
عِنْدِي غَيْرَ هَذَا ، ثُمَّ رَحَلَ عَنْهُ .

فيقول أبو محمد : لا بأس للإنسان أن يأتي المواضع الخسيسة عند الضرورة ،
وأصل الكنيف السائر .

* * *

فَلَمَّا شَهِدْتُ مَوْتَهُ ، وَشَاهَدْتُ مَيْتَتَهُ ، رَأَيْتُ شَيْخاً هَيْئَتُهُ
نَظِيفَةٌ ، وَحَرَكَتُهُ خَفِيفَةٌ . وَعَالِيَهُ مِنَ النَّظَارَةِ أَطْوَاقٌ ، وَمِنْ الزَّحَامِ
طَبَاقٌ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ قُبَّةٌ كَالْعَصَّةِ مُصَامَةً ، مُسْتَهْدِفَةٌ لِلْحِجَابَةِ ، وَالشَّيْخُ
يَقُولُ لَهُ : أَرَأَيْكَ قَدْ أُبْرِزْتَ رَاسَكَ ، قَبْلَ أَنْ تُبْرِزَ قِرْطَاسَكَ ، وَوَلِيَّتَنِي
قَدْ ذَاكَ ، وَلَمْ تَقُلْ : لِي ذَاكَ ، وَلَسْتُ تَمْنَى بِبَيْعِ تَقْدَافِي ، وَلَا يَطْلُبُ
أَثْرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، فَإِنْ أَنْتَ رَضَخْتَ بِالْعَيْنِ ، حُجِمْتَ فِي الْأَخْدَعَيْنِ . وَإِنْ
كُنْتَ تَرَى الشَّعْجَ أَوْلَى ، وَخَزَنَ الْفُلْسِ فِي النَّفْسِ أَخْلَى ، فَافْرَأْ عَبَسَ
وَوَلَّى ، وَاعْرُبْ عَنِّي وَإِلَّا ؛ فَقَالَ الْفَتَى : وَالَّذِي حَرَّمَ صَوْغَ الْمَنِينِ ؛
كَمَا حَرَّمَ صَيْدَ الْحَرَمَيْنِ ؛ إِنْ لِي أَفْلَسُ مِنْ ابْنِ يَوْمِينَ ، فَيُثِقُ بِسَبِيلِ تَلْعَتِي ،
وَأَنْظِرْنِي إِلَى سَعَتِي .

* * *

موسمه : مجتمعه وسوقه . ميسمه : علامته . النظارة : الناس الناظرون .
أطواق : أى حلقة خلف حلقة ، قد استداروا حوله . والطباق : الذى طويق ،
فجعل بعضه على بعض ، شبه به ركوب بعض الناس بعضاً .

[الصمصامة]

والصمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب ، وكانت تقطع الحديد كما يقطع
الحديد الخشب . وبعث ملك الهند إلى الرشيد بسيف قلعية ، وكتاب سلوقية ،
وثياب هندية ، فأمر الأتراك فصقفوا بين يديه صفين ، قد لبسوا الحديد ، ودخل
الرشيد فقال لهم : ما جئتم به ؟ قالوا : هذه أشرف كنوة بلادنا ، فأمره فقطعت
جلالاً وبراقع لخياله ، فسكبوا على وجوههم ، وتذموا ، ثم قال : ما عندكم ؟
قالوا : هذه سيوف قلعية ، لا نظير لها ؛ فدعا بالصمصامة ، فقطعت بها السيوف
سيفاً سيفاً ، كما يقطع الفجل من غير أن تنثنى لها شفرة . ثم عرض عليهم حد
السيف فإذا هو لافل فيه ، ثم قال : ما عندكم ؟ قالوا : كلاب سلوقية ، لا يبقى
لها كلب ولا سبُع إلا عقرته ، فأمر بالأسد فأخرج إليهم ، فلما نظروا إليه هالهم ،
وقالوا : ليس عندنا مثل سبُعكم ، ثم أرسلوا عليه الأكب — وكانت ثلاثة —
فمزقته ، فقال : تمنوا في هذه الأكب ماشئتم ، قالوا : السيف الذى قطع سيوفنا ،
قال : لا يجوز في ديننا أن نهادىكم بالسلاح . فانقلبوا خائبين .

وكانت الصمصامة عند الهادى ، فدعا بها يوماً وبمكمل مملوء دنانير ،
وأمر الشعراء أن يقولوا فيه ، فبدأهم ابن يامين فقال :

حاز صمصامة الزبيدى عمرو من بين جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو ، وكان فيما سمعنا خيراً ما أعمدت عليه الجفون
أوقدت فوقه الصواعق ناراً ثم شابت به الزعاف القيون

(١) الأبيات في ابن خلكان ٢ : ٢٠٤ ، ونسبها إلى ابن يامين البصرى ، ومى في
نهار القلوب ٦٢١ ، ونسبها إلى أبى الهول ، وكذلك في الحيوان ٥ : ٨٧

وإذا ما شهرته بهر الشمس ضياء فلم تكد تسبين
يستطير الأبصار كالنفس المشعل ما تستقر فيه العيون
وكان الفرند والجوهر الجا رى على صفحته ما معين
ما يبالي إذا الضريبة حانت أشمال سطت به أم يمين
وكان المنون نيطت إليه فهو من كل جانبه منون
فقال له : لك السيف والمكئل ، ففرق ، المكئل على الشعراء ، وقال :
حرمتم بسبي ، وأخذ من المهدي في السيف خمسين ألف دينار .
ومن أفرط في وصف قطع السيف الفر بن تواب حين قال :
أبقى الحوادث والأيام من نمر أسباد سيف كريم أثره يادى
تظل تحفر عنه الأرض مندفاً بعد الذراعين والساقين والهادى
ويروى :

* تظل تحفر عنه إن ضربت به *

والأسباد : البقايا ، واحداً سبداً ، وقال أبو الهول :

حسام غداة الرّوع ماضٍ كأنه من الله في قبض النفوس دليل^(١)
كان جنود الذرّ كسّرَن فوقه قرون جراد يمين ذحول
كان على إفرنده موج لجة تقاصر في نحضاحه وتطول
وقال ابن الرومي :

يقول القائلون إذا رأوه لأمرٍ ما تُعولت الدُّرُوعُ

والشعر في وصف السيف كثير مشهور فلذلك اقتصرنا على هذه النبذة .

* * *

قوله : مسهّد ، أى منتصف ، والمهّد : الفرض ، وأراد بالقرطاس
قطعة من كاعد توضع فيها الدرهم . الفنجديهي : القرطاس : درهم من نحاس ،

وفيه شيء من القصة ، يتعاملون به في الشام . قذالك : مؤخر عنقك وهو ما بين قُرّة القفا إلى الأذن وجمعه قُدُل . ذا ، إشارة إلى الدرهم . قدأ : حاضراً .

أثراً بعد عين . قد تقدّم ، والعين : نفس الشيء ، وقيل : العين المعاينة ، فعناه لا أترك شيئاً وأنا أعابنه ، وأطلب أثره إذا غاب . وقال الفجديهي : سمعت بعض الفضلاء بفجديّة ، يقول : حكى أن رجلاً سُرِق منه شيء ، فخرج يطلب السارق ، فلما ظفر به أخذ يضربه ويشدّ وثاقه ، فقال له أحد أهل البلد : خلّ سبيلك ، حتى يخرج فإن هنا أثر قدميه ، فضحك الرجل منه وقال : لا أطلب أثراً بعد عين ، فصار مثلاً لمن ترك شيئاً حاصلاً ثم تبع أثره بعد فوت عيّنه .

رضخت : أعطيت . والعين : الدراهم والدنانير . الأخدعان : عِرْقَان يقع عليهما الخجمتان ، وقيل : هما في صفحتي العنق قد خفياً وبطناً فلخفأهما يَخْدَعَان الحاجم . خَزْن : إمساك وحبس . اغرُب : غب . وإلّا ، معناه وإلّا صفتُ عنقك . المئين : الكذب . الحرمين : مَكّة والمدينة ، حرم الله تعالى بمكة وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . التَّلعة : مجرى الماء من أعلى الوادي . أنظرني : أخبرني . سَعَيْ : غِنَى .

* * *

فقال له الشيخ : وَيُحْك ! إن مثَل الوُعود ، كغرسِ العود ، هو بين أن يُدْرِكَ العَطَبُ ، أو يُدْرِكَ منه الرُّطْبُ ، فما يُدْرِنِي : أَيُحْصَلُ مِنْ عودك جَنَى ، أمْ أُحْصَلُ منه على صَنَى ، ثم ما الثَّقةُ بأنَّكَ حينَ تَبْتَعِدُ ، سَتَقِي بما تَعِدُ وقد صار العذرُ كالتحجيل ، في حِلْمِيَةِ هذا الجيل ، فأرْحَنِي بالله من التَّعْذِيبِ ، وارْحَلْ إلى حيث يَغْوِي الذَّيْبُ . فاستوى الغلامُ إليه ، وقد استولى الخجلُ علميه ، وقال : والله ما يخيسُ بالعمهد ، غيرُ

الْخَيْسِ الْوَعْدِ، وَلَا يَرِدُ غَدِيرَ الْغَدْرِ، إِلَّا الْوَضِيعُ الْقَدْرُ؛ وَلَوْ عَرَفْتَ
مَنْ أَنَا، لَمَا اسْتَمَعْتَنِي الْخَنَا؛ لَكِنَّكَ جَهَلْتَ قَقْلَتِ، وَحَيْثُ وَجِبَ أَنْ
تَسْجُدُ بَلْتَ، وَمَا أَقْبَحَ الْغُرْبَةَ وَالْإِفْلَالَ، وَأَحْسَنَ قَوْلَ مَنْ قَالَ:

* * *

جَنَى : مَا يُجْنَى مِنْهُ . ضَعَى : مَرَضَ . التَّحْجِيلُ : بَيَاضُ فِي قَوَائِمِ الْفَرَسِ .
حِلْيَةٍ : صِفَةُ وَزِينَةٍ . الْجِيلُ : أَهْلُ الْعَصْرِ . اسْتَوَى : ابْتَدَلَ قَائِمًا . اسْتَوَلَى :
غَلَبَ عَلَيْهِ الْجَلِيلُ . يَخِيسُ : يَغْدُرُ ، وَخَاسَ الشَّيْءُ تَغَيَّرَ . الْوَعْدُ : الرَّذَالُ السَّاقِطُ
الْخَيْسِ الدَّنِيِّ . الْخَنَا : الْفُحْشُ .

* * *

إِنْ الْغَرِيبَ الطَّوِيلَ الذَّلِيلَ مُمْتَهَنٌ فَكَيْفَ حَالُ غَرِيبٍ مَالُهُ قَوْتُ !
لَكِنَّهُ مَا تَشِينُ الْحَرَّ مُوجِعَةٌ فَالْمِسْكُ يُسْحَقُ وَالْكَافُورُ مَفْتُوتُ
وَطَلَمَا أَصْلَى الْيَاقُوتُ جَمْرَ غَضَى ثُمَّ انْطَفَى الْجَمْرُ وَالْيَاقُوتُ يَاقُوتُ
فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : يَا وَيْلَةَ أَيْبِكَ ، وَعَوَّلَةَ أَهْلِكَ ! أَنْتَ فِي مَوْقِفٍ
نَخْرٍ يَظْهَرُ ، وَحَسَبٍ يُشْمَرُ ، أَمْ مَوْقِفٍ جِلْدٍ يُكْشَطُ ، وَقَفًّا يُشْرَطُ ؛
وَهَبْ أَنْ لَكَ الْبَيْتُ ، كَمَا ادَّعَيْتَ ، أَيْحَصِلُ بِذَلِكَ ، حَجْمٌ قَدَالِكُ ؛
لَا وَاللَّهِ وَلَوْ أَنَّ أَبَاكَ أَثَافَ ، عَلَى عَبْدٍ مَنَافٍ ، أَوْ خَالِكَ دَانَ ، عَبْدُ الْمَدَانِ .

* * *

الطَّوِيلُ الذَّلِيلُ : الْكَثِيرُ الْمَالِ . تَشِينُ : تَعِيبُ . أَصْلَى : أَدْخَلَ النَّارَ .
الْيَاقُوتُ : حَجَارَةٌ يَتَزَيَّنُ بِهَا وَالنَّارُ لَا تَغْيِرُهُ .
وَمَا جَاءَ فِي مَعْنَى هَذَا الشَّعْرِ :

إن الغريب ذليلٌ حينما سلكا لو أنه مُلْكٌ كلَّ الورى ملكا
إذا تَقَيَّ حمامُ الأيكِ في غُصْنٍ حنَّ الغريبُ إلى أوطانه فيسكني
آخر :

وإذا حَلَّتْ بدارِ قُومٍ دارهم فلهم عليك تعزُّزُ الأوطان
فالشمسُ تُشرقُ في حِلَّةٍ كَبِشَها وتكونُ منحطاً مع الميزان
وقال الفقيه الحافظ أبو محمد بن حزم :

لا يسمتن حاسدٌ إن نكبةً عَرَصَتْ فالدهرُ ليس على حالٍ بِمُتَرَكٍ^(١)
فالحرُّ كاللِّبَرِّ يُلْقَى تحت منقعةٍ طوراً وطوراً يُرَى تاجاً على ملك
وقال البحرى في سعيد وقد حبس :

وما هذه الأيامُ إِلَّا مراحلُ
فمن منزلٍ رَحِبٍ ومن منزلٍ ضَنْكٍ^(٢)
وقد هذبتك الثَّابِتُ وإِنَّمَا صفا الذهبُ الإبريزُ قبلك بالسَّيِّكِ
وقال أبو بكر بن دريد :

لا تحقرنُ عالماً وأن خَلَقْتَ أثوابه في عيوبٍ رَامِقَةٍ^(٣)
وانظر إليه بعينِ ذى خَطَرٍ مهذبُ الرأى في طرائقه
فالسكُ إذ ما تراه ممتَهناً بفقهٍ عَطَّارِهِ وساحقه
سوف تراه بعارضى ملكٍ وموضعِ التَّاجِ من مفارقة
وقال ابن شماخ :

نوابٌ غالتني فأبدت فضائلِي فكانت وكنتُ النَّارُ والعنبرُ الْوَرْدُ^(٤)

(١) قفح الطيب

(٢) ديوانه ١٠٦٨ وفيه : « إلا منازل »

(٣) ديوانه ٩٨

وعلى لسان عود الطيب :

إِنَّ مَسْتِ النَّارِ جَسْمِي أَبْدَيْتُ طَيْبَ نَسِيمِي
كَالْذَهَرِ إِنَّ عَصَّ يَوْمًا أَبَانَ فَضْلَ كَرِيمِ

وسخِطَ المتوكل على عَلِيِّ بْنِ الْجُهم ، فنفاه إلى خراسان ، وكتب أن يُضَلَبَ إذا ورد لها يوماً إلى الليل ، فلَمَّا وصل إلى الشاذياخ حبسه طاهر بن عبدالله ، ثم أخرجَه فضلبه إلى الليل مجرداً فقال ^(١) :

لَمْ يَصْلُبُوا بِالشَّاذِيَاخِ عَشِيَةَ الْإِثْنَيْنِ مَسْبُوقًا وَلَا تَجْهُولَا ^(٢)
نَصَبُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مَاءَ عِيُونِهِمْ شَرْقًا وَمَلَاءَ صُدُورَهُمْ تَبَجِيلًا
مَا أَزْدَادَ إِلَّا رَفْعَةً وَسَعَادَةً وَازْدَادَتِ الْأَعْدَاءُ عَنْهُ نَكُولًا
هَلْ كَانَ إِلَّا اللَّيْثَ فَارِقَ غِيَلِهِ فَرَأَيْتَهُ فِي مَحْمَلٍ مَحْمُولًا
مَا عَابَهُ أَنْ يُزَنِّعَنَّ عَنْهُ لِبَاسُهُ كَالسَّيْفِ أَفْضَلُ مَا يُرَى مَسْلُولا ^(٣)
وقال في الحبس :

قَالَتْ حُبِسْتُ فَقَاتِ لَيْسَ بِضَائِرٍ حَلِيسِي وَأَيَّ مَهْنَدٍ لَا يُغَمِّدُ ^(٤)
أَوْ مَا رَأَيْتِ اللَّيْثَ بِأَنْفِ غِيَلِهِ كَبْرًا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَصِيدُ ^(٥)
فَالشَّمْسُ لَوْلَا أَنَّهَا مَحْجُوبَةٌ عَنْ نَظَرِيكَ لِمَا أَضَاءَ الْفَرْقَدُ
وَالنَّارُ فِي أَحْجَارِهَا مَخْبُوءَةٌ لَا تُصْطَلَى إِنْ لَمْ تُنْثَرِهَا الْأَزْنَدُ
وَالْحَبْسُ إِنْ لَمْ تَغْشَهُ لِدُنْيَا شَنْعَاءُ نَعَمِ الْمَنْزِلِ الْمَتَوَرَّدُ
بَيْتٌ يُجَدِّدُ لِلْكَرِيمِ كِرَامَةً وَيُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحَمَّدُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَبْسِ إِلَّا أَنَّهُ لَا تَسْتَذِلُّكَ بِالْحِجَابِ الْأَعْبَدُ

(١) ديوانه ١٧١ ، والشاذياخ ، من ضواحي نيسابور

(٢) الديوان : (صبيحة الاثنين)

(٣) ديوانه : « فالسيف »

(٤) ديوانه ٤١ ، ٤٢

(٥) الديوان : « تردد »

أخذ الأحوصَ أحدُ الأمراءَ بأمر الوليد بن عبد الملك لأنه كان يراود غلمانَه ، فضربه مائة سوط وصبَّ عليه الزيت ، وأوقفه في الشمس ، وهو مع ذلك يقول :

ما تعتربنى من خطوبٍ مَلَمَةٍ إلا تشرفني وترفعُ شاني^(١)
إني على ما قد علمت مجسّدٌ أُنمى على البغضاء والشنآن
فإذا تزول تزول عن متخمطٍ تُخشى بوادِرُ على الأفران
إني إذا خفي اللثيمُ وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

* * *

قوله : ياويلة أيبك . الويلة : الفضيحة ، والويل : الحزن . والعولة : البكاء الشديد ، وأعوّل يعول إعوالاً ، إذا رفع صوته وصاح . أهليك : جمع أهل . يكشط : يخلق شعره . هب ، أى احسب . وذكر في الدرة أن خواصَّ العراق يقولون : هب أنى فعلت ، وهبه فعل ، كقول أبي دَهبل^(٢) :

هَبُونِي امراً منكم أضل بعيره له ذمّةٌ إنَّ الذمام كبيرُ

قال : وهَبْنِي ، أى عدّني واحسبني ، فكانَ فيه معنى الأمر من وهب . انتهى ما قاله في الدرة^(٣) .

وقال هنا : وهب أن لك . . . البيت ، وبيت القبيلة : أشرف فخذ فيها . أناف : أشرف .

(١) ديوانه ٢٠٣ وروايته

ما من مصيبة نكبة أُمّنى بها إلا تعظّمُنِي وترفعُ شاني

(٢) ط « ذهل » تحريف

(٣) درة النواص ١١١ (طبع لندن)

[شرف عبد مناف]

عبد مناف بن قصي، هو بيت قريش وشريفها، وهو جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسمه المغيرة، وكان يقال لعبد مناف: القمر لجماله وبهائه ورفعة منزلته، ومسمى عبد مناف لأنه شرف وعلا، وأناف على أشراف العرب، وكانت الركاب تضرب إليه من أطراف الأرض يُتَحِفونه تحف الملوك، فيكرمهم، وكان عنده لواء نزار، وقوس إسماعيل، وسقاية الحاج والمفاتيح. ولما قسم والده المجد بين أولاده جعل السقاية والرياسة لعبد مناف، والدار لعبد الدار، والرفادة لعبد العزى، وجانبى الوادى لعبد بن قصي. قال الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت فالح خالصه لعبد مناف^(١)

ولما مات قصي رأس ابنه عبد مناف، وجل قدره، فأنته خزاعة وبنو الحارث بن كنانة يسألونه الحلف ليعزوا به، فعقد معهم.

وأما شرف عقبه فلأن منه بنى هاشم، الذين فيهم النبوة والخلافة، ومنه بنو أمية القادة في الجاهلية، وأهل الخلافة في صدر الإسلام، وقد قدمنا في أخبار الشافعي أن عبد مناف، يجتمع بنو هاشم وبنو أمية فيه، فلهؤلاء انتهى شرف مضر.

[ذكر بنى عبد المدان]

وأما بنو عبد المدان فأشراف اليمن، وبهم يضرب المثل في الشرف والعزة، وهو عبد المدان بن الديان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب بن خالد بن بجيلة بن مذحج.

(١) من مقطوعة في أمالي المرتضى ٢ : ٢٦٨ ونسبها إلى مطرود بن كعب الخزاعي.

وقال لقيط بن زُرارة :

شربتُ الخمرَ حتى خِلْتُ أَنِّي أبو قابوسَ أو عبدُ لَدَّانِ
أَمْشِي فِي بَنِي عُدُسَ بْنِ زَيْدٍ رَحَىَّ الْبَالِ مِنْطَاقَ الْأَسَانِ

وقال حسان رضي الله عنه :

وقد كُنَّا نقولُ إِذَا رَأَيْنَا لَذَى جِسْمٍ يَعْدُو ذِي بِيَانٍ
كَأَنَّكَ أَشْهَى الْمَعْطَى بِيَانًا وَجَسْمًا مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ

وقالوا لحسان : كُنَّا يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، وَنَحْنُ نَطُولُ بِأَجْسَامِنَا عَلَى الْعَرَبِ نَرَى
لَأَنْفُسِنَا بِذَلِكَ فَضْلًا ، حَتَّى قُلْتُ :

دَعَاوُ التَّخَايُؤِ وَامْشُوا مِشْيَةَ سَحُجْبَا إِنَّ الرِّجَالَ أُولُو قَدٍّ وَتَذَكِيرِ^(١)
لَا بَأْسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمٍ جِسْمُ الْبَغَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ
فَتَرَكْنَا لَا نَرَى لِأَجْسَامِنَا فَضْلًا .

وحكى الأصمعيّ : أَنَّهُ اجْتَمَعَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَدَانِ وَعَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ بِسُوقِ
عُكَاظَ ، وَقَدِمَ أُمَيَّةُ بْنُ الْأَسْكَرِ الْكِنَانِيُّ وَمَعَهُ ابْنَتُهُ لَهُ ، مِنْ أَجْمَلِ أَهْلِ زَمَانِهَا ،
فَخَطَبَهَا يَزِيدُ وَعَامِرُ ، فَقَالَتْ أُمُّ كَلَابِ (امْرَأَةُ أُمَيَّةِ) : مَنْ هَذَانِ الرَّجُلَانِ ؟
فَعَرَّفَهَا أُمَيَّةُ ، فَقَالَتْ : أَعْرِفُ بَنِي الدِّيَانِ وَلَا أَعْرِفُ عَامِرًا ، قَالَ : هَلْ سَمِعْتِ
بِمَلَاعِبِ الْأُسْتَنَةِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَقَالَ : هَذَا ابْنُ أُخْتِهِ ، فَقَالَ يَزِيدُ : يَا أُمَيَّةُ أَنَا
ابْنُ الدِّيَانِ ، صَاحِبُ الْكِتِيبِ وَرِئِيسُ مَذْحِجٍ وَمَكَلِّمُ الْعُقَابِ ، وَمَنْ كَانَ يَصُوبُ
أَصَابِقَهُ فَيَنْتَضِفُ دَمًا ، وَرَاحَتُهُ فَتَخْرُجُ ذَهَبًا ، فَقَالَ أُمَيَّةُ : بَخِ بَخِ ، فَقَالَ عَامِرُ :
جَدِّي الْأَجْذَمُ ، وَعَمِّي الْأَصْمَى ، وَخَالِي مَلَاعِبُ الْأُسْتَنَةِ ، وَأَبِي فَارِسُ قُرْزَلُ ،
فَقَالَ أُمَيَّةُ : بَخِ بَخِ ، مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ ، فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا ، فَقَالَ يَزِيدُ : يَا عَامِرُ ،

(١) ديوانه ٢١٤ . والتخايؤ : التباطؤ في المشي . وفي انديوان « إن الرجال ذوو
عصب وتذكير »

هل تعلم شاعراً من قومي رحل بمدحٍ إلى رجل من قومك ؟ قال : لا ، قال :
 فهل تعلم أن شعراء قومك يرحلون بمدائحهم إلى قومي ؟ قال : اللهم نعم ،
 فنهض يزيد وهو يقول :

أُمَيَّ يَا ابْنَ الْأَسْكَرِ بْنِ مَدْلُجٍ لَا تَجْعَلُنْ هَوَازِنًا كَمَذْحِجٍ
 لَا النَّبْعَ فِي مَفْرَسِهِ كَالْعَوْسَجِ وَلَا الصَّرِيحُ الْحَضُّ كَالْمُزَجِ

* * *

فَلَا تَضْرِبْ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ ، وَلَا تَطْلُبْ مَا لَسْتَ لَهُ بِوَاجِدٍ ،
 وَبَاهِ إِذَا بَاهَيْتَ بِمَوْجُودِكَ ، لَا يُجِدُودُكَ ، وَبِمَحْضُوكَ ، لَا بِأُصُولِكَ ،
 وَبِصَفَاتِكَ ، لَا بِرُفَاتِكَ ، وَبِأَعْلَاقِكَ ، لَا بِأَعْرَاقِكَ ؛ وَلَا تُطِيعِ الطَّمْعَ
 فَيُذِلَّكَ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ ، وَلِلَّهِ الْقَاتِلُ لِابْنِهِ :

مُبْنَى اسْتَقِمَّ فَالْعَمُودُ تَنْمِي عُرُوقُهُ قَوِيماً وَيَنْشَاهُ إِذَا مَا التَّوَى التَّوَى
 وَلَا تُطِيعِ الْحِرْصَ الْمَذِلَّ وَكُنْ فَتَى إِذَا التَّهَبَّتْ أَحْشَاؤُهُ بِالطَّوَى طَوَى
 وَعَاصِ الْهَوَى الْمُرْدِي فِكْمَ مَنْ مُحَلَّقٌ
 إِلَى النَّجْمِ لَمَّا أَنْ أَطَاعَ الْهَوَى هَوَى

وَأَسْمِعْ ذَوِي الْقُرْبَى فَيَقْبُحَ أَنْ يُرَى

عَلَى مَنْ إِلَى الْحُرِّ اللَّبَابِ انْضَوَى صَوَى .

وَحَافِظٌ عَلَى مَنْ لَا يَخُونُ إِذَا نَبَأَ

زَمَانٌ وَمَنْ يَرَعَى إِذَا مَا النَّوَى نَوَى

وإن تَقْتَدِرْ فاصْفَحْ فلا خَيْرَ في امرئٍ
إذا اعتَلَقَتْ أظْفَارُهُ بالشَّوَى شَوَى
وإياكَ والشَّكْوَى فلم تَرَ ذَانِهِ
شَكَأَ بل أخو الجَهْلِ الَّذِي ما ازْعَوَى عَوَى

* * *

قوله : لا تضرب في حديد بارد ، هو مَثَلٌ لمن يحاول الانتفاع بمن ليس
عنده نفع ، وقال أبو الشَّمَقِيقِ ^(١) يهجو سعيد بن سلم :

هِيَهَاتَ تضرب في حديدٍ باردٍ إن كُنْتَ تطمع في نوال سعيدٍ
تالله لو ملك البحارَ بأمرِها وأتاه سلمٌ في زمانٍ مُدَوِّدٍ
ببغية منها شربةً لظهوره لأبى وقال : تيممًا بصعيدٍ
وكذب عليه ، كان سعيد بن سلم من أجود الناس . قوله : ياه ، أى فاخر .
سجودك ومحصولك : ما تجده من المال ويحصل لك . رفاتك : عظام أجدادك
البالية . الأعلاق : جمع علق ، وهو النفيس الرفيع من الدخائر . أعراقك :
أصولك . قوله : ولا تطع الطمع فيذلك ، ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم :
« اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من طمعٍ حيث لا طمع ، وأعوذ بك من مَعمٍ يَهْدِي
إلى الطمع » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خيَارُ الْمُؤْمِنِينَ الْقَانِعُ ،
وَشِرَارُهُمُ الطَّامِعُ » . وقال الحَسَنُ البَصْرِيُّ لبعض ولد علي رضي الله عنهما :
ما مِلاكُ الدِّينِ ؟ قال : الورع ، قال : ما آفَتُهُ ؟ قال : الطمع . قوله : ولا تَتَّبِعِ
الهُوَى فيضلك ، ابنُ عباس رضي الله عنهما ، قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ
مهلكات ، شُحٌّ مُطَاعٌ ، وهوى متَّبِعٌ ، وعجبٌ كلِّ ذى رأى برأيه » . وقال
صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَخَوْفَ ما أَخاف على أمتي الهوى وطول الأمل ،
أما الهوى فيصدَّ عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة » . وقال بعضهم :

(١) هو أبو محمد مروان بن محمد ، وأبو الشَّمَقِيقِ لقبه والأبيات في ديوانه ١٣٤
(شعراء عباسيون) .

أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَصَى هَوَاهُ ، وَأَفْضَلُ مِنْهُ مَنْ رَفَضَ دَنِيَاهُ . تنمى : تزيد .
التوى : اعوج . التوى : الهلاك . القويم : المعتدل . التهيت : اشتعلت .
الطوى : الجوع . طوى ، أى طوى عليه ضلوعه وستره . وقال أبو فراس :

لا أَرْضَى وَدًّا إِذَا هُوَ لَمْ يَدُمْ عِنْدَ الْجَفَاءِ وَقَلَّةُ الْإِنصَافِ^(١)
تَعِسَ الْخَرِيصُ وَقَلَّ مَا يَأْتِي بِهِ عَوَضًا مِنَ الْإِلْحَاحِ وَالْإِلْحَافِ
إِنَّ الْغَنَى هُوَ الْغَنَى بِنَفْسِهِ وَلَوَانَهُ عَارَى أَلْمَسَاكِيبِ حَافِي
مَا كُلُّ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِيًا فَإِذَا قَنَعَتْ فَكُلُّ شَيْءٍ كَافِي
وَيَعَاثُ لِي طَمَعُ الْخَرِيصِ فُتُوَّتِي وَمُرُوءَتِي وَقَنَاعَتِي وَعَفَافِي
شَيْمٌ عُرِفْتُ بِهِنَّ مَذَّأَنَا يَافِعٌ وَلَقَدْ عُرِفْتُ بِمِثْلِهَا أُسْلَافِي

قوله : المردى ، أى المهلك . الحلق : الطائر يستدير فى طيرانه . هوى : سقط . أسعف : أفض حوائجهم . اللباب : الخالص . الضوى ، انقطع إلى جودك وتعلق به . نبا : ارتفع ولم يوافق . يرعى : يحفظ . التوى : البعد . نوى : أراحه وقصده ، وقد قالوا : خير الإخوان ، من أقبل عليك إذا أذبر الزمان . الشوى : القوائم ، ويقال لجلدة الرأس : شوى . وقوله : شوى ، أى صنع شواء وأولاها النار . يقول : من اعتذر إليك من الإخوان فاعذره ، ولا تكن ممن إذا وقع على ذنب لصاحبه أخذه به ، ونزع جلدة رأسه فشواها .

[ما جاء فى قبول الأعذار]

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ مُتَنَصِّلٍ عَذْرًا ، صَادِقًا كَانَ أَوْ كَاذِبًا ، لَمْ يَرِذْ عَلَى الْخَوْضِ » .

وقالوا : المعتف بالذنب كمن لا ذنب له .

واعتذر رجلٌ إلى إبراهيم بن المهديّ ، فقال : قد أغناك الله بالمعذر عن الاعتذار^(١) ، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن .

وقال الحسن بن وهب :

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ مِنَ الْقَادِرِ لَا سِيَّامَا عَنْ غَيْرِ ذِي نَاصِرٍ^(٢)
 إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبٌ لِي فَهَلْ غَيْرُكَ مِنْ غَافِرٍ
 أَعْوَدُ بِالْوَدِّ الَّذِي يَبْنِيْنَا أَنْ تَفْسِدَ الْأَوَّلَ بِالْآخِرِ
 وقالوا : ليس من العدل ، مُرْعَةُ الْعَدْلِ .

وقال آخر :

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ وَاظَكَ مَعْتَذِرًا أَبْرَّ فِيمَا أَتَى مِنْ ذَاكَ أَوْ فَجَّرَا^(٣)
 فَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرًا
 آخر :

وَهَبْنِي مَسْبِتًا كَالَّذِي قُلْتَ ظَالِمًا فَعَفُوا جَمِيلًا كَيْ يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ^(٤)
 فَإِنْ لَمْ أَكُنِ الْعَفْوُ عِنْدَكَ لِلَّذِي أَتَيْتُ بِهِ أَهْلًا فَأَنْتَ لَهُ أَهْلُ
 الْأُحْنَفِ : رَبِّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ .
 آخر :

* لعل له عذراً وأنت تلوم *

آخر :

إِذَا عَظِرَ الْجَانِي سَحَابَ الْعِذْرِ ذَنْبَهُ وَكَلَّ امْرِئٌ لَا يَقْبَلُ الْعِذْرَ مَذْنِبَهُ^(٥)

(١) العقد ٢ : ١٤٢

(٢) العقد ٣ : ١٤٢

(٣) العقد ٢ : ١٤٣

(٤) العقد ٢ : ١٤٣

وقال محمد بن سليم لابن السماك : بلغني عنك شيء كرهته ، فقال : إذا
لا أبالي ، قال : لم ؟ قال : لأنه إن كان حقاً غفرته ، وإن كان باطلاً لم تقبّه .
وقالوا في ترك الاعتذار :

إذا كان وجه العذر ليس ببين فإن أطراح العذر خيراً من العذر^(١) .
قوله : الشكوى ، أى المشتكى إلى الناس بالضرر . نهى : عقل . ارعوى :
رجع . وازعوى عن القبيح : كف عنه وحسن رجوعه ونزوعه عنه من
الرّعوى ، وهى حسن المراجعة والنزوع عن الجهل .

الفراء وابن سيده : عوى الفصيل والكلب ، إذا صاح فذّ صوته ،
قال الشاعر :

بها الذئب محزوناً كأنّ عواءه عواء فصيل آخر الليل مُحْتَلٍ^(٢)

المحتل : السبيء الغداء^(٣) ، وإذا دعا الرجل الناس إلى الفتنة فقد عوى
واستغوى ، وسمعت عوّة القوم ، أى أصواتهم وجلبتهم ، قاله الأصمعي وأبو زيد :
بل أخو الجهل الذى عوى بالشكاية وقت ارعوائه أى رجوعه عنك ، والمعنى
كلما غاب عنك : تشكّى ، وما مع الفعل مصدرية وظرف الزمان محذوف ،
أى وقت ارعوائه كقوله تعالى : ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ أى مدة
دوامهما ، يريد أن العاقل يحتمل ضرر الزمان ولا يشتكى والجاهل الذى متى
رجع عن التشكى لم يرجع رجوعاً حسناً ، بل يعوى بالتشكى عواء الذئب .

* * *

فقال الغلام للنظارة : يا للعجبية ، والطرفة الغريبة ! أنف في السماء ،
واست في الماء ، ولفظ كالصهباء ، وفعل كالخصباء . ثم أقبل على

(١) لابن عبد ربه ، الغناء : ٢ : ١٤٣

(٢) اللسان (حنل) وفى ط : (محتل) تحريف ، والمحتل : السبيء الغداء

(٣) ط : (النذار) تحريف

الشيخ بلسان سليلط . وغيظ مبعث شيط ، وقال : أف لك من صواغ
باللسان ، رَوَاغ عن الإحسان : تأمر بالبر ، وتعق عقوق الهر ، فإن
يكن سبب تعنتك ، نفاق صنتك ، فرماها الله بالكساد ، وإفساد
الحساد ؛ حتى ترى أفرغ من حجّام سابط ، وأضيّق رزقا من سم الخياط .
فقال له الشيخ : بل سلط الله عليك كثر الفم ، وتبيغ الدم ؛ حتى تلجأ إلى
حجّام عظيم الاشتراط ، ثقيل الاشتراط ، كليل الشرط ، كثير المخاط
والضراط .

قوله : الطرقة الغربية ، أى التى لم يرَ مثلها . الضبّاء : النمر . الحضباء :
الحجارة . سليلط ، أى متسلط . مستشط : منتشر فى الشر ملتهب فى الغضب .
صواغ : كذاب ، وصاغ الكذب : صنعه . راغ : مال إليه من حيث لا يعلم ،
وراع إلى أهله : رجع فى إخفاء . رواغ : ميّال وفرار فى خفية . تعق : تقطع .
وعقوق الهرة ، أنها تأكل أولادها .

وحكى الأصمعى فى كتاب « أفعال من كذا » ، يقال : أعق من صبّ ، قال :
أرادوا ضبة ، فكثّر الكلام بها فقالوا : صبّ ، وعقوقها أنها تأكل أولادها ،
وذلك أن الضبة ، إذا باضت حرست بيضتها من كل ما قدرت عليه من وركل
وحية وغير ذلك ، فإذا خرجت أولادها من بيضتها ظنتها شيئا يريد بيضها ،
فوثبت عليه تقتله ، فلا ينجو منها إلا الشديد . قال : وهذا موضوع قد وضعته
العرب فى موضعه ، وأتت بعلمته ، ثم جاءت إلى ما هو فى العقوق مثل الضبة ،
فضربت به المثل على الضدّ ، فقالوا : أبرئ من هرة ، وهى أيضاً تأكل أولادها ،
فحين سئلوا عن الفرق وجهوا أسكل الهرة أولادها إلى شدة الحب ، فلم يأتوا
بحجة مقنعة . وقال الشاعر :

أَمَا تَرَى الدَّهْرَ وَهَذَا الْوَرَى كَهَرَةٍ تَأْكُلُ أَوْلَادَهَا
وَاحْتَصِمَ إِلَى شُرَيْحٍ ، فِي وَلَدِ هِرَّةٍ ، فَقَالَ شُرَيْحُ : أَلْقَهُ مَعَ هَذِهِ ، فَإِنْ هِيَ
قَرَّتْ وَدَرَّتْ وَاسْبَطَرَتْ ، فَهُوَ لَهَا ، وَإِنْ هِيَ هَرَّتْ وَفَرَّتْ وَاقْشَعَرَّتْ ، فَلَيْسَ
لَهَا . اسْبَطَرَتْ : اضْطَحَمَتْ وَهَرَّتْ كَهَرَتْ ، مِنْ هَرِيرِ الْكَلْبِ ، وَاقْشَعَرَّتْ الْجِلْدُ :
قَامَتْ شُعُورُهُ .

قوله : تعنتك : طلب مشقتك ، والتعنت : طلب الزَّالَّةَ ، وتعنته أدخل عليه
الأذى إذا سأله عن شيء ، أراد به اللبس والمشقة عنده . سم الخياط : ثقب الإبرة .
بَثَرُ : خَرَّاجٌ صَغَارٌ ، وَيُقَالُ بَثَرُ الْجَرَحِ ، إِذَا خَرَجَتْ بِهِ أَوْرَامٌ صَغَارٌ فَيَزِيدُ بِهِ
سِيلَانُ الدَّمِ عَنِ الْأَكْلِ وَغَيْرِهِ . تَبَيَّغَ : هَيَّجَانَ وَتَبَيَّغَ دُمُهُ : هَالَجَ عَلَيْهِ .
تَلَجَّأَ : تَحَوَّجَ . الْاِسْتِطَاطُ : مَجَاوِزَةُ الْقَدْرِ . كَلِيلٌ : حَافٍ .

* * *

قَالَ: فَلَمَّا تَبَيَّنَ الْفَتَى أَنَّهُ يَشْكُو إِلَى غَيْرِ مُصَمَّتٍ ، وَيُرَاوِدُ اسْتِفْتَاَحَ
بَابِ مُصَمَّتٍ ، أَضْرَبَ عَنْ رَجْعِ الْكَلَامِ . وَاحْتَفَزَ لِلْقِيَامِ ، وَعَلِمَ
الشَّيْخُ أَنَّهُ قَدْ أَلَامَ ، إِنَّمَا أَسْمَعَ الْغَلَامَ ، فَنَحَى إِلَى سِلْمِهِ ، وَبَدَّلَ أَنْ يُذَعِّنَ
لِحُكْمِهِ ، وَلَا يَبْنِي أَجْرًا عَلَى حَجْمِهِ ، وَأَبَى الْغَلَامُ إِلَّا الْمَشَى بِدَائِهِ ،
وَالْهَرَبَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَمَا زَالَ فِي حِجَابٍ وَبِيبَابٍ ، وَلِزَازٍ وَجِذَابٍ ،
إِلَى أَنْ صَجَّ الْفَتَى مِنَ الشَّقَاقِ ، وَتَلَا رُذُنُهُ سُورَةَ الْاِنْشِقَاقِ ، فَأَعْوَلَ
حِينَئِذٍ لَوْ فَارَقَ خُسْرِهِ ، وَانْعِطَاطِ عَرْصِهِ وَطُمْرِهِ . وَأَخَذَ الشَّيْخُ يَعْتَذِرُ
مِنْ قَرَّاطَتِهِ ، وَيُعَيِّضُ مِنْ عِبْرَاتِهِ ، وَهُوَ لَا يُصْنِي إِلَى اغْتِذَارِهِ ،
وَلَا يُقَصِّرُ عَنْ اسْتِغْبَارِهِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : فَذَلِكَ عَمَلُكَ ، وَعَدَاكَ مَا يَنْتَمُكَ ،

أما تسأم الإغوال ، أما تعرفُ الاختِمَال ، أما سمِعتَ مِن أَقَالَ ، وأَخَذَ
يَقُولِ مَنْ قَالَ :

أَتَحِذُ بِحِلْمِكَ مَا يُذَكِّيهِ ذُو سَفِّهِ

مِنْ نَارِ غَيْظِكَ واضْفَحْ إِن جَنَى جَانِي

فالحلمُ أفضلُ ما ازدانَ اللَّيْبُ بِهِ والأخذُ بالعفو أخلَى ما جَنَى جَانِي

* * *

يُرَاوِدُ : يُعَالِج . مَصَمَّتْ : مَغْلَقٌ . احْتَفَزَ : تَهَيَّأَ وَتَشَمَّرَ . أَلَامَ : أَتَى بِمَا يَلَامُ .

عليه . قَالَ الشَّاعِرُ :

* وَمَنْ يَحْذَلُ أَخَاهُ فَقَدْ أَلَامَا *

جَنَحَ : مَالٌ . سَلِمَهُ : صَلَحَهُ . بَذَلَ أَنْ يَذْعِنَ ، أَيْ أَعْطَى الْإِنْقِيَادَ مِنْ نَفْسِهِ .
يَبْنَى أَجْرًا : يَطْلُبُ أَجْرَةً . فِي حِجَاجٍ وَسَبَابٍ ، أَيْ فِي الْحِجَةِ وَشَمِّ . لِرَازٍ : مُلَازِمَةٌ
لِلْخُصُومَةِ . وَخَصِمَ لِرَازٍ مُلَازِمًا ، أَيْ لَا يَفَارِقُ الْخُطُومَةَ . جَذَابٌ : مُضَارَبَةٌ وَجَذَبَ
كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِشَوْبِ صَاحِبِهِ . ضَيَّجَ : صَاحَ . وَتَلَارَذُنُهُ ، أَيْ قَرَأَ كَمَّهُ ، وَجَمَلَ
صَوْبَ التَّخْرِيقِ كَأَنَّهُ قِرَاءَةٌ . أَعُولُ : بَكَى . وَفَارَةُ خَمْرِهِ ، أَيْ كَمَلُ خَمْرَانِهِ .
انْعِطَاطُ عِرْضِهِ وَطِئْمَرُهُ ، أَيْ تَمْزِيقُ عِرْضِهِ بِالشَّمِّ ، وَثَوْبُهُ بِالتَّخْرِيقِ ، وَالطِّئْمَرُ :
الثَّوْبُ الْخَلَّاقُ . فَرَطَاتُهُ : بُوَادِرُهُ ، وَمَا سَبَقَ مِنْ إِذَاقَتِهِ . يَغِيضُ : يَذْهَبُ
وَيَنْقُصُ . عِبْرَاتُهُ : دُمُوعُهُ . يُصْفَى : يَسْتَمِعُ . يَقْصَرُ : يَكْفُ . اسْتِعْبَارُهُ : بِكَائِهِ .
عَدَاكَ : تَجَاوَزَكَ . يَغْمُكُ : يَغْطِي قَلْبَكَ بِالْهَمِّ . تَسَامَ : تَمَلَّ . الْإِعْوَالُ : الْبُكَاءُ .
الْإِحْتِمَالُ : التَّسَامُحُ وَالصَّبْرُ عَلَى الْأَذْيَةِ . أَقَالَ : غَفَرَ الذَّنْبَ . أَخَذَ : أَطْفَأَ
وَسَكَّنَ . يَذَكِّيهِ : يُوَقِّدُهُ . جَهْلٌ : اضْفَحَ : أَظْهَرَ كَرَمَكَ . جَنَى :
أَوْقَعَ بِكَ جُنَايَةً . وَالْجَانِي : فَاعِلُهَا . الْحِلْمُ : الْعَقْلُ وَالصَّبْرُ عَلَى الْمُضَرَّاتِ . إِزْدَانٌ :

افتمل من الزَّيْن ، أى تزيّن به . اللبيب : العاقل . العنوّ : غفر الذنب . جَنَى : قطف الثمر . وهذان البيتان من بدائع مزدوجاته التى نُبّهنا على أنها من فائق شعره ، وسبقه سابق البربرى إلى معناها بقوله :

لا تُظهِرنَ لَدَى جَهِلٍ مَعَاتِبَةً فَرُبَّمَا هَيَّجَتْ بِالشَّيْءِ أَشْيَاءَ
فَالسَّاءُ يَحْمَدُ حَرَّ النَّارِ يُطْفِئُهَا وليس للجهل غير حلم إطفاءه
تَرَى السَّفِيهَ لَهُ عَنِ كُلِّ مُحَلَمَةٍ زيغ ، وفيه إلى القسفة إصغاه
وقال أبو فراس :

ما كُنتُ مَذْكُوتٌ إِلَّا طَوَعَ إِخْوَانِي لَيْسَتْ إِمْوَاخِذَةُ الْأَخْوَانِ مِنْ شَانِي ^(١)
يَحْنِي الصَّدِيقُ فَأَسْتَطِيعُ جَنَابَتَهُ حَتَّى أَدُلَّ عَلَى عَفْوِي وَإِحْسَانِي
وَيُتْبِعِ الذَّنْبَ ذَنْبًا حِينَ يَمُرُّنِي عَمْدًا فَاتَّبِعْ غَفْرَانًا بِغُفْرَانِي
يَحْنِي عَلَيَّ فَأَعْفُو صَالِحًا أَبَدًا لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْ حَانٍ عَلَى جَانِي

وذكر الحريرى هذين البيتين والمقطوعة قبلهما ، وجنس فيهما بين لفظ التقافية واللفظ قبله .

ومما جاء من ذلك وهو أضبط مما ذكر قول الشاعر :

قَدَّمْتُ لِنَفْسِكَ زَادًا وَأَنْتَ مَالِكُ مَالِكٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تَتَفَانِي وَلَوْ أَنَّ حَالِكَ حَالِكٌ
وَلَسْتَ تَعْلَمُ يَوْمًا أَيْ الْمَسَالِكِ سَالِكٌ
إِنَّمَا لَجَنَّةُ عَدْنٍ أَوْفَى الْمَهَالِكِ هَالِكٌ

وقال آخر :

مالك من مالك إلا الذى فَدَمَّتْ فَايْذُلُ طَائِعًا مَالِكًا
تقول أعمالى ولو فُتَشُوا وَجَدْتَ أَعْمَالَكَ أُنْعَمَى لَكَ

وقالت للمتمد جارية له : لقد هُنا هنا ، فقال :

قالت لقد هُنا هنا مولاي أين جاهُنا
قلت لها إلى هنا صيرنا إلا هُنا

* * *

فقال له الغلام : أما إنك لو ظَهَرْتَ عَلَى عَيْشِي الْمُنْكَدِرِ ، لَعَذَرْتَ
فِي دَمْعِي الْمُنْهَمِرِ ، وَلَكِنْ هَآنِ عَلَى الْمُلْمَسِ مَا لَاقَى الدَّيْرَ . ثُمَّ كَأَنَّهُ
تَزَعَّ إِلَى الْاسْتِحْيَاءِ ، فَأَقْلَعَ عَنِ الْبُكَاءِ ، وَفَاءً إِلَى الْأَرْعَوَاءِ ، وَقَالَ
لِلشَّيْخِ : قَدْ صِرْتُ إِلَى اشْتَهَيْتَ ، فَارْقَعْ مَا أَوْهَيْتَ ، فَقَالَ : هَيْهَاتَ
شَغَلْتُ شِعَابِي جَدُّوَايَ ، فَشِمُّ بَارِقِ سِوَايَ .

ثُمَّ إِنَّهُ نَهَضَ يَسْتَقْرِى الصُّفُوفَ ، وَيَسْتَجِدِي الْوُفُوفَ ، وَيُنْشِدُ
فِي رَحْنٍ مَا هُوَ يَطُوفُ :

أَقْسِمُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي تَهْوِي إِلَيْهِ الزُّمُرُ الْحَرِمَةُ
لَوْ أَنَّ عِنْدِي قُوَّةَ يَوْمٍ لَمَّا مَسَّتْ يَدِي الْمِشْرَاطَ وَالْمَحْجَمَةَ
وَلَا ارْتَضْتُ نَفْسِي الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَسْمُو إِلَى الْمَجْدِ بِهِذِي السَّمَةَ
وَلَا اشْتَكَيْ هَذَا الْفَتَى غِلْظَةً مِنِّي وَلَا شَاكْتُهُ مِنِّي عِجْمَةً
لَكِنْ صُرُوفُ الدَّهْرِ غَادَرَتْنِي كَخَاطِطٍ فِي الْآيِلَةِ الْمُظْلِمَةِ
وَاضْطَرَّنِي الْفَقْرُ إِلَى مَوْقِفٍ مِنْ دُونِهِ خَوْضُ اللَّطَى الْمُضْرَمَةِ
فَهَلْ فَتَى تَدْرِكُهُ رَقَّةٌ عَلَى أَوْ تَعْطِفُهُ مَرَحْمَةٌ !

* * *

قوله : المنكدر ، أى المتغير ، والكدرّة ضدّ الصفاء . المنهر : السائل .
 أقلع : ارتفع وزال . فاء : رجع . الارعواء : الاستحياء والرجوع الحسن .
 أوهيت : أفسدت . شِم : انظر . يَسْتَقْرِى : يَتَّبِع . يستجدى : يطلب الجداً ،
 وهو العطية . فى ضمن : فى أثناء وفى خلال . تهوى : تُسَرِّع المشى وتساقط
 إليه . الزَّمَر : الجماعات . الحرمة : الداخلة فى الحرم . تسو : ترتفع . الجد :
 الشرف . السمة : العلامة . غلظة : جفاء . شاكته : ضربته . مُحَمّة : شوكة
 العقرب التى تَلَسع بها ، والمُحَمّة : السّم ، فسمى ما يخرج عنه السّم باسمه .
 صروف : نواب . غادرني : تركنني . خابط : ماش على جهالة . اضطرني :
 أُلْجاني . خوض المَطَى : دخول النار . المَضْرَمَة : الموقدة . رقة : شفقة . تَعَطَّفه :
 تَلَيَّنَه . مَرَحَمَة : رَحْمَة .

* * *

قال الحارث بن همام : فكنّت أوّل من أوى لبُلّواه ، ورقّ لشكواه ،
 فنَفَحْتُهُ بدرهمين ، وقلت : لا كَانَا ولو كان زامين ، فابتهج بيا كورة جنّاه
 وتَفَاءل بهما إغنايه ، ولم تزل الدّراهم تنهال عليه ، وَتَنَثَّل لَدَيْهِ ؛ حتى آل
 ذَا عَيْشَةٍ خَضْرَاء ، وَحَقِيبَةٌ بَجْرَاء ، فازدهاه الفرحُ عند ذلك ، وهنّا
 نفسَه بما هنالك ، وقال للغلام : هَذَا رَيْعُ أَنْتَ بَذْرُهُ ، وَحَلَبُ لَكَ
 شَطْرُهُ ؛ فَهَلُمَّ لِنَقْتَسِم ، وَلَا نَحْتَشِم ، فَتَقَاسَمَاهُ بينهما شِقَّ الأُبْلَمَة ،
 وَهَذَا مُتَّفِقِي الكَلِمَة . وَلَمَّا انْتَضَمَ بَيْنَهُمَا عَقْدُ الاِصْطِلَاح ، وَهَمَّ الشَّيْخُ
 بِالرَّوَّاح ، قلت له : قد تَبَوَّغَ دَيْي ، وَنَقَلْتُ إِلَيْكَ قَدَيْي ، فهل لك أن
 تَحْجُمَنِي ، وَتُكْفِكَ مَا دَهَمَنِي ، فَصَوَّبَ طَرَفُهُ فِى وَصْعَد ، ثم اَزْدَلَفَ
 إِلَيَّ وَأَنشَد :

أوى : أشفق . كَفَحْتُهُ : رميته ونبذته . ذامنين : صاحب كذب . ابتهج : فرح . با كورة : أول ما يطيب من الشجر ، فجعل الدرهمين با كورة لأنهما أول ما أخذ . تفاعل : جعلهما قالا ، أى لما كان أول ما حصل بأيديهما درهمين ، استكثرهما فرجا أن تمشى عطايا الحاضرين على هذا المثال ، وقد كررت ذكر الفأل .

[مما قيل في الفأل]

ونذكر هنا منه فصلا على ما أجرينا العادة في غيره .
كان صلى الله عليه وسلم يكره الطيرة ويُعجبه الفأل الحسن .
ولما قدم المدينة نزل على رجلٍ من الأنصار ، فصاح الرجل بغلمانه : يا سالم يا يسار ، فقال صلى الله عليه وسلم : سَلِمْتُ لَنَا الدار في يسر .
وقيل لرجلٍ من العرب : ما لكم تسمّون أبناءكم بأسماء السباع والكلاب ، وتسمون مواليتكم بأسماء حسان ، مثل عطاء ونجاح ؟ فقال : لأننا أعددنا أبناءنا لأعدائنا ، وموالينا لأنفسنا .
وسأل عمرُ رضى الله عنه رجلاً عن اسمه واسم أبيه ، فقال : ظالم بن سراق ، قال : تظالم أنت ويسرق أبوك !
وجاءه رجل فقال له : ما اسمك ؟ قال : جمره ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : تَمَرٌ ؟ قال : من الحرقة ، قال : وأيّاً تسكن ؟ قال : بحرمة النار . قال : بأيّها ؟ قال : بذات لظي ، قال : أدرك أهلك ، فقد احترقوا ، فرجع فوجدهم قد احترقوا ، فكان كما قال .

الفنجديهى بسنده ، حدثني أحمد بن علي ، حدثني أبو مسعود ، قال : قال لي أبو داود السنجي : ما اسمك ؟ قلت : سعد ، قال : ابن من ؟ قلت :

ابن مسعدة ، قال : أبو من ؟ قلت : أبو مسعود ، قال لي : سألتك مثل
أعرابي لقي آخر ، فقال : ما اسمك ؟ قال : فيض ، فقال : ابن من ؟ قال :
ابن الفرات ، قال : أبو من ؟ قال : أبو بحر ، قال : ليس لنا أن نكلمك إلا
في زورق .

وقال علي بن الجهم : دخلت يوماً على المتوكل ، وهو جالس في صحن داره ،
وبيده غصن آس ، وهو يتمثل بهذا الشعر :

بَالِشَطِّ لِي سَكَنٌ أَفْدِيهِ مَنْ سَكَنَ

أهدى من الآس لي غصنين في غُصْنِ (١)

قلت إذ نُظِمَا الْفَيْنِ وانتسقا سقياً ورعيّاً لِقَالِ مَنْكُمَا حَسَنِ
فَالْآسُ لَا شَكَّ آسٍ مِنْ تَشَوَّقِنَا شَافٍ وَآسٍ تَبَقَى لِي عَلَى الزَّمَنِ
بَشَرٌ ثُمَانِي بِأَسْبَابٍ سَتَجُهُمُنَا إِنْ شَاءَ رَبِّي وَمَهُمَا يَقْضِيهِ يَكُنْ
ثم قال لي — وكدت أنشق حسداً : لمن هذا الشعر يا علي ؟ قلت :
للحسين بن الضحّاك ياسيدي ، فقال : هو والله عندي أشعرهم وأحسنهم
مذهباً وأظرفهم نمطاً ، قلت : وقد زاد غيظي : في هذا النمط ياسيدي ؟ قال :
وفي غيره ، وإن رغي أفنك ومت حسداً ، وأردت إنشاده قصيدة ، قلت :
إني لا ألتفتع بها مع ما جرى ، فأخترتها إلى وقت آخر .

قوله : تنهال ، أي تنصب متفرقة . آل : رجع . خضراء : ناعمة لكثرة
الرزق . حقيبة بحراء ، أي وعاء ممتلئ ، والأبحر : الذي خرجت سرته .
ازدهاه : هزه وأعجبه . الربيع : الزيادة والفضل والبذر : ما يزرع من الحبوب .
حلب : ابن . شطره : نصفه . نحتشم : نستحي أو نفضب . الابلّة : الدومة
تشق ورقتها فتخرج أبداً معتدلة . تكفكف : تدفع وتكف . دهمني : أصابني .
ازدلف : قرّب .

* * *

كَيْفَ رَأَيْتَ خُذَعْتِي وَخَتْلِي وَمَا جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ سَخْلِي
 حَتَّى انْتَبَيْتُ فَانْزَأَ بَاخْضَلِ أَرْغَى رِياضَ الْخِصْبِ بَعْدَ الْمَحْلِ
 بِاللَّهِ يَا مَهْجَةَ قَلْبِي قُلْ لِي هَلْ أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ قَطَّ مَثْلِي
 يَفْتَحُ بِالرُّقِيقَةِ كُلَّ قُفْلٍ وَيَسْتَبِي بِالسَّخْرِ كُلَّ عَقْلِي
 وَيَعْجِزُ الْجِدَّ بِمَاءِ الْهَزْلِ إِنْ يَكُنِ الْإِسْكَندَرِيُّ قَبْلِي
 فَالطَّلُ قَدْ يَبْدُو أَمَامَ الْوَبْلِ وَالْفَضْلُ لِلْوَابِلِ لَا لِلطَّلِّ
 قَالَ : فَتَبَهَّتْنِي أَرْجُوزُهُ عَلَيْهِ ، وَأَرْتَنِي أَنَّهُ شَيْخُنَا الْمَشَارُ إِلَيْهِ ،
 فَفَرَّعَتْهُ عَلَى الْإِبْتِذَالِ ، وَالْإِلْتِحَاقِ بِالْأَرْذَالِ ، فَأَعْرَضَ عَمَّا سَمِعَ ،
 وَلَمْ يُبَلِّ بِمَا قُرِعَ ، وَقَالَ : كُلُّ الْحِذَاءِ يَحْتَذِي الْخَافِي الْوَقِيعَ . ثُمَّ قَاصَانِي
 مُقَاصَةَ الْمَهَانَ ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَابْنُهُ كَفَرَسَى رِهَانَ .

* * *

خَتْلِي : مَكْرِي . سَخْلِي : وَلَدِي . الْخِصْلُ : الْغَلَبُ فِي الْقَمَارِ ، وَفِي مَسَابَقَةِ
 الْخَيْلِ ، وَفِي مَرَامَةِ السَّهَامِ . يَسْتَبِي : يَأْخُذُ وَيَسْبِي ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي شَرْحِ الصَّدْرِ
 التَّنْبِيهِ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ . الطَّلُ : أَضْعَفُ الْمَطَرِ . وَالْوَبْلُ : أَشَدُّهُ . قَرَّعَتْهُ :
 أَقْلَقَتْهُ بِكَثْرَةِ الْوُجُوهِ ، وَبِأَخْذِي لَهُ بِلِسَانِي . الْإِبْتِذَالُ : امْتِهَانُ نَفْسِهِ فِي الصَّنْعَةِ
 الْمُهْجِينَةِ . الْأَرْذَالُ : الْأَدْنِيَاءُ ، فَأَرَادَ عَنَّفَتْهُ وَلَمْ تُهْ أَشَدَّ الْوُجُوهِ عَلَى حِرْقَةِ الْحِجَامَةِ ،
 فَإِنَّهَا صَنَعَةُ أَرْذَالِ النَّاسِ وَسِفْلَتُهُمْ .

ابن عمر قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْعَرَبُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ
 أَكْفَاءٌ ، قَبِيلَةٌ لِقَبِيلَةٍ ، وَحَى لِحَى ، وَرَجُلٌ لِرَجُلٍ . وَالْمَوَالِي أَكْفَاءٌ إِلَّا حَائِكًا
 أَوْ حَجَّامًا » .

وقال علي بن الحسين : أربعة أعمالٍ كانت في سُفْلِ بنى إسرائيل ،
وصارت في سُفْلِ العبيد وستكون في سُفْلِ الأحرار : الحياكة ، والحجامة ،
والدُّبَاغة والسِّكَناسة .

رفاعة بن موسى : سمعت الصادق يقول : ستُّ لا يُنْجِبُون : الملاح ،
والمكارى ، والحامى ، والحجام ، والبيطار ، والحائك .

ومَن شهر من الأدباء بصنعة هينة نصر بن محمد الخابرزى ، كانت صنعة
خَبَزِ خُبْزِ الأرز في دكانه بِمَرْبَدِ البصرة ، فكان ينشد أشعاره على الغزل ،
والناس يزدهجون عليه ، وأحداثُ البصرة يقنافسون في ميله إليهم .

وكان ابن لَنَكِك على ارتفاع قَدْرِهِ ينتاب دكانه ، فحضره يوماً وعليه
ثياب بيض فاخرة ، فتأذى بالدخان وسوء أثره على ثيابه ، فأنصرف
وكتب إليه :

لنصرٍ في فؤادى فَرَطُ حَبٍّ	يُنِيفُ بِهِ عَلَى كُلِّ الصَّحَابِ ^(١)
أَتَيْنَاهُ فَبَخَرَنَا بِخُوراً	مِنَ السَّعْفِ الْمُدَخَّنِ بِالتَّهَابِ
فَقَمْتُ مَبَادِرَ أَوْ حَسَبْتُ نَصراً	يُرِيدُ بِذَلِكَ طَرْدِي أَوْ ذَهَابِي
وَقَالَ: مَتَى أَرَاكَ أبا حَسِينٍ؟	فَقُلْتُ لَهُ إِذَا اتَّسَعَتْ ثِيَابِي

فَلَمَّا قُرِئَتْ عَلَيْهِ أُمِّلَى عَلَى مَنْ قَرَأَهَا ، وَكَتَبَ عَلَى ظَاهِرِهَا :

مَنْحَتُ أبا الحسِينِ صَمِيمٍ وَدَى	نَخَاطِبُنِي بِالْفَاضِلِ عِذَابِ
أَتَى وَثِيَابُهُ كَالشَّيْبِ لَوْنًا ^(٢)	فَعُدَّنْ لَهُ كَرِيمَانَ ^(٣) الشَّبابِ
وَبَغَضَنِي لِلشَّيْبِ أَعْدَعَنْدِي	سَوَاداً لَوْنُهُ لَوْنُ الْخِضَابِ
فَإِنْ يَكُنِ الْمَعْطَرُ فِيهِ نَفْراً	فَلَمْ يَسْكُنِ الْوَصَى أبا تَرَابِ

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٧ ، ٢٣٧

(٢) كذا في اليتيمة ، وفي ط : « كيان شيب »

(٣) ط : « كغربان » .

ومن شعره :

خليلٍ هل أبصرتما أو سمعتما بأحسن من مولى تمشى إلى العبد
أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لى : أصونك عن تعذيب قلبك بالوعد
فما زال نجم الكأس بينى وبينه يدور بأفلاك السعادة والسعد
وله :

ورّد الخدود ورمان النهود وأغصان القدود تصيد السادة الصيدا
من لى إذا ما رأيت الخضر مختصراً والردف مرتدفاً والقَدَّ مقدوداً
وكان يحكى السرقسطى أديباً فرجع إلى الجزارين ، فأمر الخاجب بن هود
أبا الفضل بن محمد أن يوتجه على ذلك فكتب إليه :

تركت الشعر من عدم الإصابة وملت إلى الجزارة والقصابة
فأجابه يحكى :

تعيب على مألوف القصابة ومن لم يدرك قدر الشىء غابه
ولو أحكت منها بعض فن لما استبدلت عنها بالحجابه
وإنك لو طلعت على يوماً وحولى من بنى كلب عصابه
لهالك ما رأيت وقت هذا هزبر صير الأوضام غابه
فتكننا فى بنى العنزي فتكا أقرّ الذعر فيهم والمهابه
ولم تقلع عن الثورى حتى مرّجنّا بالدم القاني لعابه
ومن يعتز منهم بامتناع فإن إلى صوارمنا إياه
ويبرز واحد منّا لألف فيغلبهم وتلك من الغرابه
وحقك ما تركت الشعر حتى رأيت البخل قد أمضى شهابه
وحق زرت مشتاقاً حميى فأبدي لى التجهّم والكابه
وطن زيارتى لطلاب شىء فأقصانى وأغلظ لى حجابه

قوله : ولم يُبَلِّ : أصله يبالى ، حذف ياءه للجزم ، فصار يبال ، قلما كثر استعماله صار بمنزلة ما لم يحذف منه شيء فقدروا تكرير الجازم عليه مرة أخرى فحذفت حركة اللام للجزم ، فسكنت اللام ، وقبلها ألف ساكنة فحذفت الألف للالتقاء الساكنين .

ولأبى على في هذه المسألة عبارة استوحش منها أكثر العلماء ، فمن مخطئ ومن مُصَوَّب ، وتحقيقها غائب إلا عن أهل التحقيق ، وقد أوضحناها في شرحنا لكتاب الإيضاح ، والإكثار من مسائل الإعراب في كتب الآداب مما يُستَهِرِد ويعاب .

أعرض ، أى نَحَى وجهه لجهة . قاضانى : فارقتنى ، وقال القراء : كل شيء أبنته من شيء فقد قَصَّيته منه ، وتقَصَّى الرجل من الرجل : بان عنه ، وكل رجل باين شيئاً فقد تقصَّى عنه . الليث رحمه الله : كل شيء لازم خلصته فقد تقصَّى ، وتقَصَّيت من الديون : خرجت منها . فرسى رهان : هما اللذان يجريان ويُجْعَل معهما جُعْل ، فمن سبق أخذه .

ومما أستحسن من أبيات الغز في هذا الباب قولهم في المشارط :

وخضراء لامن بنات الهديل يُلَفَّفُ بِأَسِيرٍ مِنْتَـارُهَا
كأنَّ مشق عيون القطا إذا هنَّ هوَّمنَ آثارُها
آخر :

وكان جدى هراش في كتابته من أكتب الناس ياهرون بالألف
يعنى آثار التشريط تبقى كصور الألفات .

وقال آخر :

يابن مَنْ يكتب في الأرز قاب من غير دَوَاةٍ
لم يكن يكتب فيها غير خطِّ الألفات

وقال ابن كناسة يخاطب إبراهيم بن سيابة :

يا بن الذي عاش غير مضطهد	يرحمه الله أيما رجُل
له رقاب الملوكة خاضعة	من بين حافٍ منهم ومنتعل
أبوك أو هي النجاة كاهله	كم من كمي أدى ومن بطل
يأخذ من ماله ومن دمه	كلم يمس من ثأره على وجل
في كفه صارم يقلبه	يقد أعناق سادة نبك

وأخذ صاحب الشرطة رجلاً في رية ، فقال : أصلحك الله : احفظ في الأبوة ، وقال :

أنا الذي لا تنزل الدهر قدره وإن نزلت يوماً فسوف تغود
تري الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيام حولها وقعود
فأمر بتركه ، ثم أخبر أن أباه باقلاني ، فقال : لو لم نتركه إلا لأدبه وحسن
تخلصه من الكذب لكان فعلنا سداداً .

وكان بالمدينة فتى أبوه مغنٍّ وأمه نائحة ، فأغضبه إنسان ، فقال : أتغضبي
وأنا ابن الطرب والحرب !

وقال ابن عباس المصري يذكر غلاماً جميلاً ، والحجام يأخذ من شعره في الحمام :

مزين أنبرى لظبي	كأنه البدر في سجوفه
كان موساه وهو لسا	نقى بها الشعر في وقوفه
كيوان في كفه حسام	يخلص البدر من كسوفه

ولبعضهم يمدح حجاماً :

إن المزين إنسان صناعته
تعلو الصنائع إذ ما مثلها صنعت
ألا ترى أنه لا يستراب به
 وآله الموت في صندوقه مجمت

يخلو مع اللئيم المرهوب جانبه
تعلو أنامله في حين خلوته
وقال السري في مزين محسن :

هل الخدق إلا لعبد الكريم
إذا لمع البرق في كفه
جهول الحسام ولكنّه
له راحة سيرها راحة
نعمنًا بخدمته مُد نشا
وله في طيب :

أوضح نهج الطب في معشر
كأنّه من لطف أفكاره
إن غضبت روح على جسمها
وفي ضده لأبي نصر كشاجم :

عيسى الطيب ترّقق
بأبي علاجك إلا
شتاف ما بين عيسى
فذاك محي مات

وللخوازمي :

أبو سعيد راحل للكرام
لم أره إلا خبيث الردي

(٢) ديوانه ٢٥٥
(م — ١٩ شرح مقامات الحريري)

(١) ديوانه ٢٤٧

يَبْقَى وَيَفْقَى النَّاسَ مِنْ شَوْمِهِ قَوْمُوا انْظُرُوا كَيْفَ نَحَاةَ اللَّثَامِ
ثُمَّ تَرَاهُ آمِنًا سَالِمًا يَا مَلِكَ الْمَوْتِ إِلَى كَمْ تَنَامُ
وَالسَّرَى :

هَلْ لِلْعَلِيلِ سِوَى ابْنِ قُرَّةَ شَافٍ بَعْدَ الْإِلَهِ وَهَلْ لَهُ مِنْ كَافٍ^(١)
فَكَأَنَّهُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ نَاطِقًا يَهْبِيبُ الْحَيَاةَ بِأَيْسَرِ الْأَوْصَافِ
مِثْلَتْ لَهُ قَارُورَتِي فَرَأَى بِهَا مَا اكْتَنَى بَيْنَ جِوَانِحِي وَشَغَافِي
يَسْدُو لَهُ الدَّوَاءُ الْحَقُّ كَمَا بَدَأَ لِلْعَيْنِ رَضْرَاحُ الْغَدِيرِ الصَّافِي

وَكثيرة الكلامِ وَقَفْتُ عَلَى أَهْلِ الْحِجَامَةِ ، وَذَلِكَ سَرَفَ الْحَرِيرِيِّ بَيْنَ
الشَّيْخِ وَابْنِهِ مَا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ الْمَقَامَةِ . وَكَانَ الْفَقِيهَ الْأَعْمَشُ أَكْثَرَ النَّاسِ تَبَرُّمًا
إِنْ أَعَادَ أَحَدٌ عَلَيْهِ سُؤَالَ اتِّبَاهِهِ ، وَأَخْطَأَ يَوْمًا عَلَى قَوْمٍ ، فَقَالَتْ لَهُمْ امْرَأَتُهُ مِنْ
وَرَاءِ السِّتْرِ : احْمِلُوا عَنْهُ فَوَاللَّهِ مَا يَتَمَنَعُهُ مِنَ الْحُجِّ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً إِلَّا خِيفَةَ أَنْ
يُظْلَمَ كَرِيهَةً أَوْ يَشْتَمَ رَفِيقَةً ، وَكَثُرَ عَلَيْهِ الشَّعْرُ فَقَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ : لَوْ أَخَذْتَ مِنْ
شَعْرِكَ ؟ فَقَالَ : لَا نَجِدُ حِجَامًا يَسْكُتُ . قَالُوا لَهُ : نَأْتِيكَ بِهِ ، وَنَأْخُذُ عَلَيْهِ أَنْ
يَسْكُتَ حَتَّى يَفْرُغَ ، قَالَ : افْعَلُوا . فَأَتَانِي بِحِجَامٍ وَوُصِّىَ أَلَّا يَكَلِّمَهُ ، فَبَدَأَ بِحُلُقِهِ ،
فَلَمَّا أَمِنَ سَأَلَهُ فِي مَسْأَلَةِ فَنَفْضِ ثِيَابِهِ ، وَقَامَ بِنِصْفِ رَأْسِهِ مَحْلُوقًا ، حَتَّى دَخَلَ
بَيْتَهُ ، فَأَخْرَجَ الْحِجَامَ ، وَأَتَانِي بِغَيْرِهِ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ إِلَيْهِ حَتَّى تَوْضُوهُ ،
وَتَحْلِفُوهُ ، فَحَلَفَ أَلَّا يَسْأَلَهُ فِي شَيْءٍ ، وَحِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ .

وَمَقَامَةُ الْحِجَامِ فِي الْبَدِيعِيَّةِ ، مِنْهَا قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ : فَطَلَبْتُ حِجَامًا فَجَاءُوا
بِرَجُلٍ نَظِيفٍ ، ظَرِيفٍ لَطِيفٍ ، فَارْتَحَتُ إِلَيْهِ ، وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لِي : السَّلَامُ
عَلَيْكَ ، مِنْ أَى بَلَدٍ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : مِنْ مِصْرَ ، فَقَالَ لِي : حَيَّاكَ اللَّهُ ، مِنْ أَرْضِ

النعمة والرفاهة ، وبلد السنة والجماعة ، ولقد حضرت في رمضان جامعها ، وقد
 اشتملت المصاييح ، وأقيمت التراويح ، فاشعرنا إلا بمدّ النيل ، قد أتى على تلك
 القناديل ، ولكن صنع الله لي بحف ، كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على
 كفه ، وعاد الصبي إلى أمّه ، بعد أن صليت العتمة ، واعتدل الظلّ ، ولكن
 كيف كان حجك ، هل قضيت مناسكه كما وجب ، وصاح الصبيان : العجب
 العجب ، فنظرت إلى المنارة ، وما أهون الحرب عند النظّارة ووجدت الهريسة على
 حالمها ، فعلت أن الأمر بقضاء من الله وقدر ، وإلى متى هذا الضجر ، واليوم
 وغد ، والسبت والأحد ، ولم أكثر وأطيل ، وما أكثر القال والقليل ، وإن
 أردت أن تعلم المبرّد حديد الموصى في النّحو فلا تشتغل بقول العامة ، فلو كانت
 الاستطاعة قبل الفعل خلقت رأسك ، فهل ترى يا سيدي أن ابتدئ ؟

قال عيسى : فبقيت والله متعجباً من هذيانه ، وسألت عنه فإذا هو
 أبو الفتح قد غلب السّواد عليه ، فتركته وانصرفت فهذه غرارة حجام
 على الحقيقة .

قال الشيخ الإمام الرئيس أبو محمد القاسم بن علي رضي الله عنه :
قد أودعتُ هذه المقامة بضعة عشر مثلاً من أمثال العرب ، وها أنا أفسر
منها ما إخاله يلتبس ، على مَنْ يقتبس .

أما قوله : بَطْءَ فِئْدُ ، فهو مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص رضي الله
عنه ، وكانت بعثته بالمدينة ليقبس لها ناراً ، فتصد من فؤره معصر ، وأقام بها
سنة ، ثم جاءها بعد السنة وهو يشتد ومعه بخر ، فتبدد منه فقال : تَعِسَتْ
العَجَلَة !

وأما ذات النّحيين فهي امرأة من تميم الله بن ثعلبة ، حضرت سوق عكاظ
ومعها نخباً سمن ، فاستخلى بها خوات بن جُبَيْر الأنصاري لبيتاعهما منها ،
ففتح أحدهما وذاقه ودفعه إليها ، فأخذته بإحدى يديها ، ثم فتح الآخر وذاقه
ودفعه إليها ، فأمسكته بيدها الأخرى ثم غشّبهما ، وهي لا تقدر على الدّفع عن
نفسها لحفظها فم النّحيين وشُدّها على السمن . فلما قام عنها قالت له : لا هَنَّاكَ ،
فضرب بها المثل فيمن شغل ، وهي في هذا المثل مفعولة ، لأنها شغيت . وأكثر
الأفعال التي على أفعل تأتي من فعل الفاعل .

وأما قوله : أُنْفٌ في السّماء واست في الماء ، فيضرب هذا المثل لمن يكبر
مقالا ، ويضفر فعلا .

وأما قوله : أفرغ من حجّام سابط ، فدكر أنّه كان حجّاماً ملازماً سابط
المدائن يحجم الجندي بدانق نسيته ، وربما مرّت عليه برّهة لا يقربه فيها أحد
فكان يُبرز أمّه عند تهادي عطلته ، فيحجمها لكيلا يقرّع بالبطالة ، فما زال
يحجمها حتى نَزِف دُمها ومات .

وأما قوله : يشكو إلى غير مصمت ، فهو مثل يضرب لمن لا يكثر بشأن

صاحبه ، ولا يعبأ باستمرار شكايته ، لأنه لو أشكاه لَصَمْتُ . وأمسك عن الكلام ، ومنه قول الراجز يخاطب جماله :

إِنَّكَ لَا تَشْكُو إِلَى مَصْمَتٍ

فاصبر على الحمل الثقيل أو مت

ونحو هذا المثل : هَانَ عَلَى الْأَمَلَسِ مَا لَاقَى الدَّبَرَ .

وأما قوله : شغلت شِعَابِي جَدَّوَايَ ، فالمراد به أنه ليس بفضل عَنِّي . ما أَصْرِفُهُ إِلَى غَيْرِي . والشَّعَاب : هِيَ النَّوَاحِي ، واحدها شِعْب .

وقوله : كُلَّ الْحِذَاءِ يَحْتَذِي الْخَافِي الْوَقْعَ ، معناه أن المجهود يقنع بما يجد ، والواقع أن نصيب الحجارة القدم فتؤهنها . فأما البعير الموقَّع فهو الذي يَكْثُر آثار الدَّبَرِ يُظَاهِرُهُ .

المقامة الثامنة والأربعون - وتعرف بالحرامية

روى الحارث بن همام عن أبي زيد السروجي قال : ما زلت منذ رَحَلْتُ عَنَسِي ، وارتحلتُ عن عِرْسِي وعَرَسِي ، أحنُّ إلى عِيَانِ البَصْرَةِ ، حَنِينِ المَظْلُومِ إلى النُّصْرَةِ ، لِمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَرْبَابُ الدَّرَايَةِ ، وَأَصْحَابُ الرِّوَايَةِ ؛ مِنْ خِصَائِصِ مَعَالِمِهَا ، وَعِلْمَائِهَا ، وَمَأَثَرِ مَشَاهِدِهَا وَشُهَدَائِهَا ، وَاسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُوطِّئَنِي مَرَاَهَا ، لِأَفُوزَ بِمَرَاَهَا ، وَأَنْ يُخَيِّطَنِي قَرَاَهَا ، لِأَقْتَرِيَ قُرَاَهَا . فَلَمَّا أَحَلَّنِيهَا الحَظَّ ، وَسَرَّحَ لِي فِيهَا اللِّحْظَ ، رَأَيْتُ بِهَا مَا يَمْلَأُ الْعَيْنَ قُرَّةً ، وَيُسَلِّي عَنِ الْأَوْطَانِ كُلِّ غَرِيبٍ ، فَعَلَسْتُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، حِينَ نَصَلَ خِضَابُ الظَّلَامِ ، وَهَتَفَ أَبُو الْمُنْذِرِ بِالنُّوَامِ لِأَخْطُوَ فِي خِطِّطِهَا ، وَأَقْضِيَ الْوَطَرَ مِنْ تَوْسِطِهَا ، فَأَذَانِي الْإِخْتِرَاقِ فِي مَسَالِكِهَا ، وَالْإِنْصِلَاتِ فِي سِكَكِهَا ، إِلَى مَحَلَّةِ مَوْسُومَةٍ بِالْإِحْتِرَامِ ، مَنَسُوبَةٍ إِلَى بَنِي حَرَامٍ ، ذَاتِ مَسَاجِدَ مَشْهُودَةٍ ، وَحِيَاضِ مَوْزُودَةٍ ، وَمَبَانٍ وَثِيقَةٍ ، وَمَغَانٍ أُنِيقَةٍ ، وَخِصَائِصٍ أَثِيرَةٍ ، وَمَزَايَا كَثِيرَةٍ .

* * *

رَحَلْتُ ، أَيْ شَدَدْتُ عَلَيْهَا الرَّحْلَ ، وَالرَّحْلُ : مَرْجُ النَّاقَةِ ، وَالنَّعْسُ : الذَّاقَةُ النَّوِيَّةُ ، شُبِّهَتْ بِالنَّعْسِ وَهِيَ الصَّخْرَةُ لَصْلَابَتِهَا ، قَالَ اللَّيْثُ : إِذَا تَمَّ سَنُ النَّاقَةِ ، وَاشْتَدَّتْ قُوَّتُهَا وَصَلَبَتْ عِظَامُهَا وَأَعْضَاؤُهَا فَهِيَ عَنَسٌ . عِرْسِي : زَوْجَتِي . غَرَسِي : أَوْلَادِي . أَحْنُ : اشْتَأَقُ . عِيَانُ : مَعَايِنَةٌ وَمَشَاهِدَةٌ . خِصَائِصُ :

ما يختص به من الفضائل . معالها : مواضعها المشهورة . والمآثر : الفضائل
والمكارم ، والمآثرة : الفضيلة يخص بها . مشاهدتها : مواضع اجتماع أهلها .
يوطئني ثراها : يجعلني أطوها وأمشي عليها ، وأوطأه الشيء : أمكنه من أن
يطأه . الثرى : التراب الندي . ومرآها : منظرها . يُخَطِّبُنِي قَرَاهَا : يُرَكِّبُنِي
ظهرها . أَفْتَرِي : أَتَتَّبِعُ . أَهْلَنِيهَا : أَزَلْنِيهَا . الحظ : السعد . اللحظ : العين .
قُرَّة : مُرْوَر . يسلي : يُشْغَل . غَلَسْتُ : خَرَجْتُ فِي الْعَاسِ ، وهي ظلمة آخر
الليل . نَصَلَ : زَالَ . هَتَفَ : صَاحَ . أبو المنذر : كُنْيَةُ الدِّيكِ ، ويكنى
أبا سليمان . أبو هريرة : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا تَسْبُوا الدِّيكَ
فإنه يوقظ للصلاة » .

أبو هريرة أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الدِّيَكَةَ تَصِيحُ
بِأُيُّهَا رَأَتْ مَلَكًا فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ نَهْيَ الْخَيْرِ ، فَإِنَّهَا رَأَتْ
شَيْطَانًا فَاسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » .

قال صلى الله عليه وسلم : الديك الأبيض صديق وإنه يحرس دار صاحبه
وسبع دور وكان مستعنه في البيت » .
وقال ابن المعتز ويصف ديكاً :

بَشَّرَ بِالصَّبْحِ طَائِرٌ مَتَفًا هَاجَ مِنَ اللَّيْلِ بَعْدَ مَا انْتَصَفَا
مَذْكُرٌ بِالصَّبَاحِ صَاحُ بَنَّا كَخَاطِبٍ فَوْقَ مَنْبَرٍ وَقَفَا
صَفَقَ إِذَا ارْتِيَا حَاسِنًا وَإِذَا عَلَى الدَّجَا أَسْمَا
ونه :

وصاح فوق الجدار مشرفاً كمثل طرف علاه أسوار
ثم غدا يسأل الفرات عن الـ أرزاق منه ثغر ومنقار
رافع رأسه طوراً وخافضه كأنما العُرف منه منشأ

وقال الأسعد بن بليط :

وقامَ بها بُعَى الدُّجَى ذو شِقْشِقَةٍ يدِيرُ البِنايِنَ أَجْفافَهُ سَقَطَا
إِذَا صاحَ أَصغى سَمْعُهُ لأَذَانَهُ وبَادِرَ ضَرْبًا من قَوادِمِهِ الإِبْطَا
ومهما اطْمَأْنَنَتْ نَفْسُهُ قامَ صَارِخًا على خَيْرِ اِزْنٍ نِيْطُ من صُفْرِهِ خِرَاطَا
كَأَن أنوْشِرَوانَ أَعْلَاهُ تاجُهُ وناطَتْ عَلَيْهِ كَفٌّ مَاريةِ القِرْطَا
سَبَّيْ حُلَّةِ الطاوِوسِ حَسَنَ لِباسِهِ ولم يَكْفِهِ حَتَّى سَبَّيْ مَشِيَةِ البَطَا

قوله : أخطو ، أى أمشى . خططها : طرقها . الوطر : الحاجة . توسّطها : المشى فى وسطها . أدانى : أوصلى . الاختراق : المشى ، واخترت البلدة ، إذا قطعت أرضها بالمشى . والاختراق : المرور والسلوك . والمسالك : الطرق . والانصلات : الخروج بسرعة من زُقاقٍ إلى آخر ، وانصلت السيف : خرج بسرعة . سككها : أزقتها الواحدة سِكَّةً ، ومُتَمِّت سِكَّةً لاصطفاف الدور فيها ، ويقال للطريق المستوية المصطفة من النَّخْل : سِكَّةً . حِلَّةً : منزلة . موسومة : مُعَمَّاة . الاحترام : الامتناع . حياض : بجمع حَوْض . مورودة : مقصودة . الشَّرْب . مغانٍ : منازل . أُنَيْقَةٌ : مُعْجَبَةٌ حَسَنَةٌ . أُثِيرَةٌ : منتشرة لكثرتها . مزايا : جمع مزيّة وهى الفَضِيلَةُ يختصّ بها الشئ .

* * *

بِهَا ما شِئْتَ مِنْ دِينٍ وَدُنْيَا وجيرانٍ تناقَوْا فى المعاني
فَشغوفٌ بِآياتِ المَثنائِ ومفتونٌ بِرِئائِ المَثنائِ
ومضطَّاعٌ بِتلخيصِ المعاني ومطلَّعٌ إلى تلخيصِ عاني
وكم من قارىءٍ فيها وقارٍ أَضْرًا بِالْجَفْـوَنِ وبِالجَفَانِ
وكم من مَعْلَمٍ لِلْعِلْمِ فيها ونادٍ لِلنَّدى حُلُوِّ المِجَانِ

ومعنى لا تزال تُعْنِي فيه أَعَارِيْدُ الْغَوَانِي وَالْأَغَانِي
فَصِلْ إِنْ شِئْتَ فِيهَا بِصَلَّى وَإِمَّا شِئْتَ فَادْنِ مِنَ الدَّانِ
ودونك مُحَبَّةٌ الْأَكْيَاسِ فِيهَا أَوِ الْكَاسَاتِ مَنْطَلِقَ الْعِنَانِ

* * *

تَنَافَوْا : تَبَاعَدُوا . مشغوف : مولع شديد الحب . الثاني : أم القرآن ،
وقيل السَّبْعُ الطَّوَالِ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ . ورنات : أصوات . الثاني : أوتار عود
الغناء . مضطلع : قوَّى . التلخيص : تهذيب الشيء وتخليص فوائده ، وكأنه
مقلوب التلخيص . وتخليص عان : افتكأك أسير . قارئ : عابد مكثر لقراءة
القرآن ، قار : مطعم للضيف . الجنون : العيون . الجنان : صحاف الطعام ، يريد
أن هذا أضرب يحفونه بكثرة النظر في الورق قارئاً ما فيها وهذا يجفانه لإطعام
ما فيها . معنى : منزل . تغنَّ : تصوت . أعاريد : أصوات . الغواني : جمع
غانية ، وهى المرأة الجميلة . الأغاني : جمع أغنية ، وهى ما يتغنَّى به . الدَّانان :
خوابي الحمر . دونك ، أى الزم . الأكياس : أهل الفطنة والتدبير . منطلق
العنان : مسيب ممرح .

* * *

قال : فينما أنا أَنْفَضُ طَرْقَهَا ، وَأَسْتَشِفُّ رَوْتَقَهَا ؛ إِذْ لَحْتُ عِنْدَ
دُلُوكِ بَرَّاجٍ ، وَإِظْلَالِ الرِّوَّاحِ ، مَسْجِداً مُشْتَهَراً بِطَرَائِيقِهِ ، مُزْدَهَراً
بَطَوَائِفِهِ ، وَقَدْ أَجْرَى أَهْلُهُ ذَكَرَ حُرُوفِ الْبَدَلِ ، وَجَرَوْا فِي حَلْبَةِ
الْجَدَلِ ، فَعَجَبْتُ نَحْوَهُمْ ، لِأَسْتَمِطِرَ نَوَّءَهُمْ ، لَا لِأَقْبِسَ نَحْوَهُمْ ، فَلَمْ يَكُ
إِلَّا كَقَبْسِهِ الْعَجَلَانِ ، حَتَّى ارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالْأَذَانِ ، ثُمَّ رَدِفَ
التَّاذِينَ بِرُوزِ الْإِمَامِ ، فَأَعْمِدَتْ طَبِيَّ الْكَلَامِ ، وَحُلَّتِ الْحَبَى لِلْقِيَامِ ، وَشَغِلْنَا

بالقنوت . عن استِمْدَادِ الْقُوتِ ، وبالشُّجُودِ ، عن استِنزالِ الْجُودِ .
 وَلَمَّا قُضِيَ الْفَرَضُ ، وَكَادَ الْجَمْعُ يَنْفُضُ ، انْبَرَى مِنَ الْجَمَاعَةِ ، كَهَلْ خُلُوْ
 الْبَرَاةِ ، لَهُ مَعَ السَّمَةِ الْحَسَنِ ، ذِلَاقَةُ اللَّسَنِ ، وَفَصَاحَةُ الْحَسَنِ . وَقَالَ :
 يَا جِيرَتِي ، الَّذِينَ اضْطَفَقْتَهُمْ عَلَى أَغْصَانِ شَجَرَتِي ، وَجَعَلْتُ خِطَّتَهُمْ دَارَ
 هَجْرَتِي ، وَاتَّخَذْتَهُمْ كَرِيثِي وَعَيْيَتِي ، وَأَعَدَدْتُهُمْ لِحَضْرِي وَعَيْيَتِي ،
 أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ لَبُوسَ الصَّدَقِ أَبْهَى الْمَلَابِسِ الْفَاخِرَةِ ، وَأَنَّ فُضُوحَ
 الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ فُضُوحِ الْآخِرَةِ ، وَأَنَّ الدِّينَ إِحْمَاضُ النَّصِيحَةِ ، وَالْإِرْشَادُ
 عُنوانُ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ ، وَأَنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمِنٌ ، وَالْمُسْتَرْشِدُ بِالنَّصِيحَةِ قَمِينٌ .

* * *

انْفُضْ طَرَفَهَا ، أَيْ أَمْشِ بِهَا وَحْدِي ، يَقَالُ : جَاءَ فُلَانٌ يَنْفُضُ الطَّرِيقَ .
 إِذَا جَاءَ وَحْدَهُ وَقَالَتْ الْجَهَنَّمِيَّةُ :

يَرِدُ الْمِيَاهُ حَضِيرَةً وَنَفِيضَةً وَرَدَّ الْقَطَاةُ إِذَا اسْمَأَلَ التَّبَعُ

الْحَضِيرَةُ : الَّذِي يَحْضُرُ مَعَهُ غَيْرُهُ ، وَجَمْعُهُ الْحَضَائِرُ . وَالتَّبَعُ : الظِّلُّ .
 وَاسْمَأَالٌ : نَقْصٌ ، وَيُقَالُ أَيْضًا : نَفَضَ الْمَكَانَ وَاسْتَنْفَضَهُ ، إِذَا نَظَرَ جَمِيعَ مَا فِيهِ
 حَتَّى يَعْرِفَهُ . اسْتَقْشَفَ : اسْتَقْصَى النَّظَرَ . رَوَقَهَا : حَسَنَهَا . لَحَتْ : نَظَرَتْ . دُلُوكُ
 بَرَاحٍ : زَوَالُ الشَّمْسِ ، وَبَرَاحٌ مِنْ أَسْمَائِهَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْكَسْرِ . عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ .
 دُلُوكُهَا : غُرُوبُهَا . أَبُو غُبَيْدَةَ : دُلُوكُ الشَّمْسِ زَوَالُهَا وَمِثْلُهَا ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ
 الْأَزْهَرِيُّ هَذَا الْقَوْلُ أَصَحُّ عِنْدِي ، وَقِيلَ : دُلُوكُهَا ، مِنْ زَوَالِهَا إِلَى غُرُوبِهَا .

وَيَدُلُّكَ هَذَا الْوَصْفُ عَلَى أَنَّ الْبَصْرَةَ مِنْ نَهَايَةِ الْعَظْمِ وَالْكِبَرِ عَلَى جَانِبِ
 عَظِيمٍ ، لِأَنَّهُ زَعَمَ أَنَّهُ خَرَجَ فِي الْفَلَسِ ، وَبَقِيَ يَمْشِي فِي أَزْقَتِهَا إِلَى الظَّهْرِ . وَيُقَالُ

إنها في آخر الدولة الأموية كسرت فوجد في طولها فرسخان ، وفي عرضها فرسخ وخمسة أقدام فرسخ .

قوله : إظلال ، أى دنوّ وقُرب . طرائفه : عجائبه وغرائبه . مزدهراً :

مضيفاً بخلق الفضلاء والعلماء . طوائفه : جماعته ، وحروف الإبدال يجمعها طال يرم أنجدة . والحلبة : جماعة الخيل في الطلّق تجرى ليختبر عتيمتها من هجتها .

الجلد : الخصاص . محت : ملت . أستمطر نوءهم : أطلب معروفهم ، والنوء : طلوع نجم من المنازل وسقوط آخر يقابله . أقتبس : أخذ ، وقبسة العجلان . أخذ القبس ، وهو شمعة من نار يقتبسها من مُعظم النار . ردّف : تبع وجاء بعده ، قال تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ ^(١) ، أى جاء بعدكم ، وأردفت الرجل جئت بعده .

ابن الأعرابي : ردفت الرجل وأردفته ولحنته وألحنته بمعنى واحد . القنوت : الطاعة ، وهو أيضاً طول القيام في الصلاة . ابن الأنباري : القنوت أربعة أقسام : الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت . استمداد : طلب أن يمدّوه بالقوت وهو الاستئزال . ينفض : يتفرق . انبرى : ظهر وقام بسرعة . كهل : تآم الخلق . السمّت : الوقار . ذلاقة : حذّه . اللسن : حدة اللسان ، وتقدم الحسن في الأربعين . اصطفيهم : اخترتهم . أغصان شجرتي : بنى عمى وقرابتي وأولادى . خطّتهم : بلدتهم ، والمهاجر عند العرب : المستقبل من البادية إلى الحاضرة . ودار هجرتي : موضع سكنائى الذى هاجرت إليه . كرشى : أهلى . عيبى : خاصتى الذين أفرد بهم . وعيبة الرجل : موضع سرّه . وكرشه : عياله . والعيبة : وعاء يجعل فيه المتاع ، والكرش مثلها ، والكرش الجماعة من الناس ، والكرش أيضاً لكل مجتر من البهائم بمنزلة المعدة من الإنسان ، فساق الكرش والعيبة على جهة المثل وإنهم موضع سرّه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الأنصار كرشى وعيبى » ، قيل : موضع سرّى ، وقيل مدادى لأن ذات الكرش تستمد

من كَرِهَها . الفضوح والنضيحة : الشَّهرة . إِمْحاض : إِبْخَاص . الإِرشاد : الهداية . عنوان العقيدة : دليل البواطن والمعتقدات . والمستشار : الذى تسشيريه فى رأيك . مؤتمن : قد أَمِنَ على الأسرار والنفوس ، لا يَخُونُ فيها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ندم مَنِ استشار ، ولا شَقِيَ مَنِ استخار » وقال بشار :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ الْمَشُورَةَ فَاسْتَعِنْ بِرَأْيِ نَصِيحٍ أَوْ مَشُورَةٍ حَازِمٍ ^(١)
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً فَإِنَّ الْخِصَافِي رَافِدَاتُ الْقَوَادِمِ
وما خير كفٍّ أَمْسَكَ الْغُلَّ أَخْتَهَا وما خير سيفٍ لم يؤيِّدْ بَقَائِمِ
وخلَّ الهوى للضعيف ولا تَكُنْ ثَوَمًا فَإِنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ بِنَاثِمِ
وحارب إذا لم تُعْطَ إِلَّا ظُلَامَةً شَبَا الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الظَّالِمِ

وهى قصيدة طويلة ، قالها فى إبراهيم بن عبد الله ، فلَمَّا قُتِلَ صرفها إلى المنصور فى أبى مسلم ، وكان بشار يقول : المشاور على إحدى الحسينين : صواب يفوز بشمرته ، وخطأ يشارك فى مكروهه وقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ ^(٢) ، لما فى ذلك من الائتلاف ، وهو أغنى الناس عن المشورة وقال ابن المعتز :

تجاوز عن إساءة كل دَهِرٍ وصاحب يوم حادثة بَصِيرِ
وإن نابتك نائبة فشاور فكم حد المشاور غِبَّ أَمْرِ
وقسم هم نفسك فى نفوسٍ ولا تنفردن بطول فكرِ
إذا كظَّ الفرات بماء مدَّ أغصن به حلاقم كل نَهْرِ

قال عيسى بن على : ما زال المنصور يشاور فى أمره ، حتى قال فيه ابنُ هرمة :

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميره فتاجى ضميراً غير مختلف العقل ^(٣)

(١) مختارات البارودى ٤ : ٤ (٢) سورة آل عمران ١٥٩

(٣) ديوانه ١٧٩

ولم يترك الأدنين في كلِّ أمره إذا اختلفت بالأضعفين قوَى الخيلِ
وأُشَدَّ الجاحظ :

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزَتْنا ما نَعِدُ وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدُ^(١)
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْقُبُدُ

ثم قال : ولا أعلم الموصوف بالاستبداد إلا مجهلاً مذموماً ، والنفل السائر
على الأفواه :

وما العجزُ إلا أن تشاور عاجزاً وما العزمُ إلا أن تهيمَ وتَفَعَّلَا
وقال سعد بن ناشب :

إِذَا هُمْ أَتَوْنِي بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزَمَهُ وَنَكَبْتُ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِباً^(٢)
وَلَمْ يَسْقُشْ فِي رَأْيِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِباً
وقال ابن رشيقي في أدب قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ :

أَشَاوِرُ أَقْوَامًا لَا خِذَ رَأْيِهِمْ فليوُنْ عَنِّي أَعْيُنًا وَخُذُوا^(٣)
وَلَيْسَ بَرَأْيِي حَاجَةٌ غَيْرَ أَتَنِّي أَوْسَهُ كَيْ لَا يَكُونَ وَحِيدًا
وَلَا أَنَا مَنِ يَبْعَثُ السَّهْمَ رَامِيًا إِلَى غَرَضٍ حَتَّى يَكُونَ سَدِيدًا
فَلَا يَتَّهَمُ عَقْلِي الرِّجَالُ فَإِنِّي أَعْرِفُهُمْ أَنِّي خُلِقْتُ وَدُودًا

وأُشَدَّ الحريري يتي بشار في درة الغواص^(٤) على أن قول الخواص مشورة
بوزن مفعله خطأ وإنما هي مشورة بوزن مفعولة ومثوبة مثل مكربة من
الصحيح ، فنقلت حركة الواو إلى ما قبلها فسكنت ، واختلف في اشتقاقها
ف قيل : هو من شُرْتُ العسل أشوره إذا جنيته ، فكان المسقشير يحني الرأي من

(١) لسعد بن أبي ربيعة، ديوانه ٣٠

(٢) لسعد بن ناشب، ديوان الحماسة — بشرح الرزوق ٦٧

(٣) قله اليميني في التنف ٢٤

(٤) درة الغواص ٢٨

المشير ، وقيل من شُرَّت الدابة إذا أُجريتْها مقبلة ومدبرة لتختبرها ، والاشتقاقان
متقاربان . المسترشد : السائل أن يُرشد . قمن : حقيق .

* * *

وَأَنَّ أَخَاكَ هُوَ الَّذِي عَذَلَكَ ، لَا الَّذِي عَذَرَكَ ، وَصَدِيقُكَ مَنْ
صَدَقَكَ ، لَا مَنْ صَدَّقَكَ ، فَقَالَ لَهُ الْحَاضِرُونَ : أَيُّهَا الْخَلُّ الْوُدُودُ ،
وَالْخِدْنُ الْمَوْدُودُ ، مَا سِيرُ كَلَامِكَ الْمُلَفَزُ ، وَمَا شَرَحُ خُطَابِكَ الْمَوْجَزُ ؟
وَمَا الَّذِي نَبِغِيهِ مِنَّا لِيُنَجِّزَ ، فَوَالَّذِي حَبَانَا بِحَبَّتِكَ ، وَجَعَلَنَا مِنْ صَفْوَةِ
أَحَبَّتِكَ ، مَا نَأْلُوكَ نَصْحًا ، وَلَا نَدَّخِرُ عَنْكَ نَصْحًا ، فَقَالَ : جُزَيْتُمْ
خَيْرًا ، وَوُقِيتُمْ ضَيْرًا ، فَإِنَّكُمْ تَمْنُنُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسٌ ، وَلَا يَصْدُرُ
عَنْهُمْ تَلْبِيسٌ ، وَلَا يَحْتَجِبُ فِيهِمْ مَظْنُونٌ ، وَلَا يُطَوَّى دُونَهُمْ مَكْنُونٌ ،
وَسَأُبْشِكُمْ مَا حَاكَ فِي صَدْرِي ، وَاسْتَفْتِكُمْ فِيمَا عَمِلَ فِيهِ صَبْرِي .

* * *

عَذَلَكَ : لَأَمَكَ . صَدَقَكَ : قَالَ الصديق ، كأنه أراد أن الصديق إنما
سَمِيَ صَدِيقًا لصدقه لصاحبه ، يريد أن أَخَاكَ هُوَ الَّذِي يَلُومُكَ وَيَقْبَحُ لَكَ سُوءَ
فِعْلِكَ وَمَنْ حَسَّنَ عَذَرَكَ فِي ذَلِكَ ، فَلَيْسَ بِصَدِيقٍ وَلَا أَخٍ ، مِثْلُ مَا حَكَى
الْأَصْمَعِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِأَخِي لَهُ : اعْلَمْ أَنَّ النَّاصِحَ لَكَ الْمَشْفِقُ
عَلَيْكَ ، مَنْ طَالَعَ لَكَ مَا وَرَاءَ الْعَوَاقِبِ بِرُؤْيَيْهِ وَنَظَرِهِ ، وَمِثْلُ لَكَ الْأَحْوَالِ
الْخَوْفَةِ ، وَخَلَطَ لَكَ الْوَعْرَ بِالسَّهْلِ مِنْ كَلَامِهِ وَمَشُورَتِهِ ، لِيَكُونَ خَوْفُكَ كَفَاءَ
رَجَائِكَ ، وَشَكَرَكَ إِزَاءَ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الْغَاشَّ لِهَوَاكَ وَالْحَاطِبَ عَلَيْكَ مِنْ
مَدْلِكَ فِي الْإِغْتِرَارِ ، وَوَطَأَ لَكَ مَهَادَ الظِّلِّ ، تَابِعًا لِمَرْضَاتِكَ مِنْقَادًا لِهَوَاكَ ، وَقَالَ
الشاعر فيمن لا يقبل النصيح :

إِذَا مَا هَدَيْتَ امْرَأً مَخْطِئًا أَضَلَّ السَّبِيلَ إِلَى قَصْدِهِ
فَلَمْ تَلْفِهِ سَامِعًا قَابِلًا فَخَسَّ لَهُ الْمَشَى فِي ضِدِّهِ

الْخَلْلُ : الخليل . الودود : صاحب الكثير الود . الخدن المودود : الصديق
المحبوب . الملقز : المبهم الخفي . الموجز : المختصر . تبغيه : تطلبه . لِيُنْجَزَ : ليعمل
في الحين . حباناً : اختصنا . صفوة : خيار . نألوك نصيحاً : نقصر في نصيحتك .
تذخر : نرفع ونحبا . نضجاً : عطية ندفعها لك ، مأخوذ من التضج وهو الشب
القليل دون الرى . والنضج أيضاً : الرش بالماء . وقِيْتُمُ ضيراً : كفيتم الضر .
يَصْدُر : يرجع . تكليس : التباس وتخليط . لا يَحْيَبُ فِيهِمْ مَظْنُونٌ ، أى ما ظن
فيهم من النصح والمعاونة موجودة فيهم غير مفقودة . مكنون : مستور .
يُطَوَّى : يُحْجَبُ ويستتر . أَبْشَكُمْ : أنشر لكم وأظهر . حاك في صدرى :
أثر فيه واحتك به . عيل : غلب ، وغالنى الشيء عَوْلاً : غلبنى وثَقَلَ عَلَى .

* * *

اعلموا أَنِّي كُنْتُ عِنْدَ صُلُودِ الزُّنْدِ ، وَصُدُودِ الْجُدِّ ، أَخْلَصْتُ مَعَ
اللَّهِ نِيَّةَ الْعَقْدِ ، وَأَعْطَيْتُهُ صَفْقَةَ الْعَهْدِ ، عَلَى الْأَسْبَابِ مُدَامًا ، وَلَا أَعَاقِرُ
تَدَامِي . وَلَا أَحْتَسِي قَهْوَةَ ، وَلَا أَكْتَسِي نَشْوَةَ ، فَسَوَّلْتُ لِي النَّفْسُ
الْمُضِلَّةَ ، وَالشَّهْوَةَ الْمَذِلَّةَ الْمُرَّةَ ، أَنْ نَادَمْتُ الْأَبْطَالَ ، وَعَاطَيْتُ الْأَرْطَالَ ،
وَأَضَعْتُ الْوَقَارَ ، وَارْتَضَعْتُ الْعُقَارَ ، وَامْتَطَيْتُ مَطَا الْكُمَيْتِ ،
وَتَنَاسَيْتُ التَّوْبَةَ تَنَاسِيَ الْمَيْتِ ، مِمَّ لَمْ أَقْنَعْ بِهَا تَيْكُمُ الْمَرَّةَ ، فِي طَاعَةِ
أَبِي مُرَّةَ ، حَتَّى عَكَفْتُ عَلَى الْخُنْدَرِيسِ ، فِي يَوْمِ الْحَمِيسِ ، وَبِتُ صَرِيرِ
الْصُّنْبَاءِ ، فِي اللَّيْلَةِ الْغَرَاءِ ، وَهَذَا أَنَا بَادِي الْكَأَبِ ، لِرَفْضِ الْإِنَابَةِ ، نَامِي

النَّدَامَةُ ، لَوْصَلِ الْمَدَامَةُ ، شَدِيدُ الْإِشْفَاقِ ، مِنْ تَقْضِي الْمِيثَاقِ . مَعْتَرَفٌ
بِالْإِسْرَافِ ، فِي عِبِّ السَّلَافِ :

فِيَا قَوْمِ هَلْ كَفَّارَةٌ تَعْرِفُونَهَا تُبَاعِدُ مِنْ ذَنْبِي وَتَذِنِي إِلَى رَبِّي

* * *

قوله : صَلُودُ الزَّئِدِ ، هُوَ أَلَا يَسْمَحُ بِالنَّارِ ، صُدُودُ الْجِلْدِ : إِعْرَاضُ
السَّعْدِ ، يَرِيدُ الْأَيَّامَ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا فَقِيرًا . وَالْعَقْدُ ، كَافَتْ الْعَرَبُ إِذَا عَاهَدَ الرَّجُلُ
صَاحِبَهُ عَقْدَ أَصَابِعِهِ ، ثُمَّ صَارَتْ الْمَعَاهِدَةُ بِاللِّسَانِ تَسْمَى عَقْدًا ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ
يَرْبِطُ رَسْنَ بَعِيرِهِ بِخَبَاءٍ مَنْ يَسْتَجِيرُ بِهِ أَوْ يَرْسُلُ حَبْلَهُ فِي الْبَيْتِ مَعَ حَبْلِهِ ،
فَيَشْبِكُهُ بِهِ ، وَكَانَ هَذَا - كَمَا عِنْدَهُمْ عَقْدًا لَا يَسْمُ الْمُسْتَجَارُ بِهِ الْمُسْتَجِيرَ إِلَّا لَمَّا يَسْلَمُ
وَنَدَهُ ، وَقَالَ حَبِيب :

بَلَى لَقَدْ سَلَفَتْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لِلْحَقِّ لَيْسَ كَحَقِّي حَرَمَةٌ مَحْجَبُ
أَنْ يَلْعَقَ الدَّلُّو بِالْأَلُو الْغَرِيبَةَ أَوْ يَلَامِسُ الطَّنْبُ الْمُسْتَحْصَدَ الطَّنْبُ
الْمُصَفَّقَةُ : ضَرْبَةٌ يَدِ الْمُشْتَرَى عَلَى يَدِ الْبَائِعِ . أَسْبَأُ : أَشْتَرِي . مُدَامًا : خَمْرًا .
أُكْتَسِي نَشْوَةً : أَظْهَرَ سَكْرَةً . سَوَّلَتْ : زَيْلَتْ وَحَسَنْتْ . الْمِصْنَةُ : الْحَبِيرَةُ .
الْأَبْطَالُ : فَرَسَانِ الْخِلَاعَةِ لِلْسِّنِّ . الْأَرْطَالُ : وَهِيَ أَرْبَعَةٌ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ :

سَأَلْتُ أَخِي أَبَا عَيْسَى وَجَبْرِيلَ لَهُ فَضْلُ
فَقُلْتُ : الْخَمْرُ تُعْجِبُنِي فَقَالَ كَثِيرُهَا قَتْلُ
فَقُلْتُ لَهُ فَقَدْ زَلَّنِي فَقَالَ وَقَوْلُهُ فَضْلُ
وَجَدْتُ طِبَاعَ الْإِنْسَانِ نَ أَرْبَعَةٌ هِيَ الْأَصْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةِ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رَطْلُ

يَذَكِّرُ هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ تَابَ مِنْ شَرْبِ الْسَّكْرِ ، وَعَاهَدَ اللَّهَ ، أَلَّا يَشْرَبَ
خَمْرًا ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَرَجَعَ لَخْلَاعَتِهِ .

ومثل حالته هذه حالة أبي محمد البصري ، كان تاب وحج ، فلما قفل راجعاً
بداله في شرب الخمر ، فقال :

ألا يا هِنْدُ قد قَضَيْتِ حَجِّي فها تِ شَرابِكِ العِطَرِ العَجِيبَا
فقد ذَهَبَتْ ذُنُوبِي بِاللَّيَالِي فقومِي الآن تَقْتَرِفِي الذُّنُوبَا
خَلَطْنَا ماءَ زَمْزَمٍ فِي حَشَانَا بِنَاءِ الْمَزْنِ فامزجَا قَرِيبَا

وكان أبو القاسم المغربي قد نسك زماناً ، ولبس الصوف وترهب وحج ،
فعمش غلاماً تركياً وهام به ، وتقلد الوزارة ببغداد وغيرها ، وانتهى في الجاه
إلى الغاية وتملك الأحرار ، واشترى الغلام التركي وقال :

تبدَّلْ مِنْ مَرْقَعَةٍ وَنُسْكَ بأنواعِ المسكِ والشُّفُوفِ
وعنْ له غِلامٌ ليس يحوى هواه ولا رضاه بلبسِ صُوفِ
فعد أشدَّ ما كان انْهَاكَ كذلك الدهرُ مِخْتَلِفُ الصُّوفِ
وقال أيضاً :

يا أهلَ مصرٍ قد عاد ناسِكُكُمْ بالكُرخِ بعد التُّقَى إلى الفُتُكِ
خَشَّ قَلْبِي مَقْرُطَقَ غَنَجٍ قد بدَّ قَلْبِي به من النَّسْكِ
رمى فؤادِي بسهمٍ مُقْلَمَتِهِ وكيف يُخْطِي مولدَ التُّرْكِ !

وقال كشاجم :

يقولون تُبِّ والكأس في كَفِّ شادنٍ وصوتُ الثَّانِي والثَّالِثِ عَالِي^(١)
فقلت لهم : لو كنت أزمعت^(٢) توبَةً وأبصرت هذا كلَّهُ لَبَدَّالِي

(١) ديوانه ١٤١

(٢) الديوان : « أضمرت »

وقال الحسن :

كيف التزوع عن الصِّبَا والكَّاسِ قس ذا لنا يا صاحِبِي بَقْيَاسٍ^(١)
 قالوا كَبُرَتْ فَقُلْتُ ما كَبُرَتْ يَدِي عن أن تسير إلى فَمِي بالكَّاسِ
 والراح طَيِّبَةٌ وليس تمامها إلا بطيبِ خلائقِ الجَلَّاسِ
 وكانَّ شاربها لفرط شعاعها بالليل يكرع في سَنًا مِقْبَاسِ
 وإذا زَرَعْتَ من الغواية فليكن لله ذاك النَّزْعُ لا لِلنَّاسِ
 قوله : أضعت الوقار ، يريد أنه ضيَّع وقاره في مجلس اللهو ، وقد تقدَّم

قوله :

وأصفي السرورَ إذا ما الوقورُ أَمَاطَ ستور الحيا وأطَرَحَ
 العُقَارَ : الخمر ، لأنها عاقرت الدنَّ ، أي لازمته ، أو لأنها تعتر شاربها بنقل
 السكر . امتطيت : ركب . مَطَا الكُمَيْت : ظهر الخمر ، وورَّى بفرس ،
 أراد أنه اعتكف على شربها ، ومُتِمَّتْ كَيْتًا لأنها حمراء إلى الكُمَيْتة ، وأبو مرة
 كمنية إبليس ، وقد تقدَّم ، وقال الحسن :

نَمْتُ وإبليس إلى الصَّبحِ في كلِّ الذي يُؤْتِمْنِي خَصْمُ
 رأيته في الجـُـوِّ مستعلياً ثم هوى يتبعه نَجْمُ
 فقال لي لَمَّا هَوَى مرحباً بتائب يتبعه وَهْمُ
 هل لك في غَيْدَاءٍ ممكورةٍ يَرْتَجُّ منها كَفْلُ صَخْمُ !
 فقلت : لا ، قال : ففي أُغْيَدٍ ذِي غُنَّةٍ يجرُّه اللَّثْمُ
 لست أبا مَرَّةٍ إن لم تُعْذِ فإن ذا من فَعَاك الْقَشْمُ

وقال فيه وذكر أنه قاد له غلاماً :

دَبَّ له إبليس فاقتاده والشيخ فَنَافَعَ على لعنته

عجبت من إبليس في كبره وخُبت ما أختر من نيته
ناه على آدم في سجدة وصارقوا إذا لذريته

وقال سليمان بن الأعمى في الوليد ، أخو صريع الغواني :

يأبى السجود له من فرط نخوته وقد تحول في مسلاخ قواد
وقال ابن رشيق يشكر إبليس :

رأيت إبليس من مروءته لكل ما لا يُطاق محتملاً^(١)
إذا هويتُ أمراً وأعجزني جاء به في الظلام معتملاً
تبذلاً منه في حوائجنا ولا يزال الكريم مبتذلاً
وقال أيضاً يلعنه :

أرى الشيخ إبليس ذا علة فلا برئ الشيخ من علمته^(٢)
يقود على الحب مستيقظاً ويأتيك في الليل في صورته
فيؤتيك ما شاء من نفسه ويبلغ ما شاء من لذته
ومن كان ذا حيلة هكذا تمثّل للمره في يقظته
فلا تدخروا دونه لعنة لأنّ رضا الله في لعنته

قوله : عكفت ، أى أقت ولازمت : الخندريس : الخمر القديمة ، وإنما
ذكر يوم الخميس لأنه يومُ تعرض فيه الأعمال على الله تعالى وإقدام العبد على
الذنوب وقت العرض على الله تعالى أكبر خطراً . العتباء : التي عُصرت
من عنب أبيض . الأصمعى : هى التي تضرب إلى البياض ، من أبيض عُصرت
أو من غيره . صريعها : الذى صرعه بالشكر ، يريد أنه بات سكران مطروحاً .
وقال أبو العلاء بن زهر في سكارى :

(١) التتف ٥٩

(٢) التتف ١٥

وموسدين على الأ كف خدودهم قد غا لهم شرب الصبوح وغالي
ما زالت أسقيهم وأشرب فضلهم حتى سكرت وناهم ما نالي
والخمر تعرف كيف تأخذ ثارها إني أملت إناها فأمالني

الغراء : ليلة الجمعة . رفض الإنابة : طرح التوبة والرجوع . نامى الندامة :
كثير الندم . بادى الكابة : ظاهر الانكسار والحزن وسوء الحال . المدام
والمدامة : الخمر ، سُميت بذلك لأنها أديمت في ظرفها . الإشفاق : الخوف .
نفذ الميثاق : حل العهد . الإسراف : الإكثار . عبّ : حسو ، والعب أن
يتابع الرجل الجرعة بعد الجرعة بغير تنفس . السلاف : الخمر العتيقة ، والسلاف
والسلافة : ما سال منها من غير أن تُعصر ، وهى أفضل الخمر قال الأعشى :

ببابل لم تُعصر فجاءت سلافة تخالط قنديدا ومسكا مُحْتَمًا^(١)

القنديد : الخمر تطبخ ويجعل فيها أفوايه طيب .

[مقاطيع خمرية]

ونذكر هنا جملة من المقاطيع الخمرية ، نجعلها خاتمة ما قيل في الخمر .

عزم الواصل على الصبح فقال للحسين بن الضحاك : اكتب إلى الفتح
ابن خاقان تدعوه إلى الصبح ، وكان قد برى من مرض ، فكتب إليه :

لما اصطبحت وعينُ اللهو رَمُفْنِي قد لآح لي باكرًا في ثوبٍ لَذَنِي^(٢)
ناديت « فتحًا » وبشرت المدام به لما تخلص من مكروه عِلَّتِي
ذَبُّ الفتى عن حريم الرّاحِ مكرمةً إذا رآها امرؤ ضدًا خلقتي^(٣)
فانجمل إلينا وبجمل بالمرور لنا وخالس الدهر في أوقات غفلتي
فسار وأصطبح معه .

(٢) ديوانه ٣٣

(١) ديوانه ٢٩٣

(٣) الديوان : « نعلنه »

وقال الحسين بن الضحاك : دخلتُ على الحسن بن سهل ، في فصل الخريف
وقد جاد الوسمي من المطر برش حسن ، واليوم في أحسن منظر وأطيبه ، وهو
جالس على سرير أبنوس ، وعليه قبة فوقها طارفة ديباج أصفر ، تشرف على
بستان ، وعلى رأسه غلام كالدينار ، فسلمت عليه فردّ على السلام ، ونظر إلى
كالمستنطق ، فقالت :

أَلَسْتَ تَرَى دَيْمَةً تَهْطُلُ وَهَذَا صَبَاحُكَ مُسْتَبِيلٌ^(١)
وهذا المدام وقد راعنا بطلعته الشادن الأكلُ
فَعَادَ بِنَاوَهُ سَكْرَةً تَهْوَنُ مَكْرُوهَ مَا تَسْأَلُ
فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ طُرَّةً تَخْبِرُنِي أَنَّهُ يَفْعَلُ
وقد أشكل العيش في يومنا فياحبذا عيشنا المُشْكِلُ

فقال : العيش مشكل ، فما ترى ؟ قلت : مبادرة القصف ، وتقريب
الإلف ، قال : على شرط أن تبيت ، قلت : لك الوفاء على أن يكون هذا
الواقف على رأسك يستقيني ، فضحك ، وقال : ذلك لك على ما فيه ، ثم دعا
بالطعام والشراب ، ففقدت الغلام ساعة ثم جاء من الحمام ، فقالت :

جَرَدَهُ الْحَمَامُ عَنْ دَرَّةٍ تَلُوحُ فِيهَا عُكْنٌ بَصَّةٌ^(٢)
كَأَنَّمَا الرَّشُّ عَلَى خَدِّهِ طَلٌُّ عَلَى تَفَاحِيَةِ غَضَّةٍ
يَا لَيْتَهُ زَوَدَنِي قُبْلَةً أَوْ لَا فَمِنْ وَجْنَتِهِ عَضَّةٌ

فقال الحسن : قد عمل فيك النبيذ ، فقالت :

اسْتَقْيَانِي وَصَرْفًا بِنْتُ حَوَّلَيْنِ قَرَقَفًا^(٣)

(١) ديوانه ٩١ ، ٩٢

(٢) ديوانه ٧٠ ، ٧١

(٣) ديوانه ٨١

وَسَقِيَا الْأَهْيَفُ الْغَرِيرَ سَقَى اللَّهُ أَهْيَفًا
بَابِي مَا جَنَ السَّرِيرَةَ يَبْدَى تَعَطُّفًا
فَإِذَا رَمَتْ مِنْهُ ذَاكَ تَابَى وَعَنْفًا
فَإِذَا هُمَ لِلْمَنَا مَقْشُومًا وَخَفْفًا

فتغاضب الغلام فذهب ، ثم عاد وقال : أقبل على شرابك ، ثم ناولني قدحاً ، والحسن قد خرج ، فشربت وأعطاني تملاً ، فقلت : اجعل بدله قبلة ، فأبى ، فقال له فرج غلام الحسن : بحياتي يا بني ، أسعفه بما طلب ، فضحك ثم دنا مني كأنه يعطيني تملاً وتغافل ، فاختمت منه قبله ، فقال : هي حرام ، فقلت :

هُوَ نَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ لِي فَرَجَ بَقَاتِيهِ فَسَقِيَا لِفَرَجٍ^(١)
وَبِنَفْسِي نَفْسَ مَنْ قَالَ وَقَدْ كَانَ مَا كَانَ : حَرَامٌ وَحَرَجٌ

ثم اشتهر الصبح ، فخرجت ثم عدت للحسن من غدٍ ، فقال : كيف كان مسيتك يا حسين ؟ فقلت :

تَأَلَّفْتُ طَيْفَ غَزَالِ الْحَرَمِ فَوَاصِلِي بَعْدَ مَا قَدْ صَرَمَ^(٢)
فَغَضَّ الْجَفُونَ عَلَى خِجَالَةٍ وَأَعْرَضَ إِعْرَاضَةَ الْحَتَمِ
فَمَا زِلْتُ أَبْطُهُ مَارْحًا وَأُفْرِطُ فِي اللَّهْوِ حَتَّى ابْتَسَمَ
وَحَكَمَنِي الرَّيِّمُ فِي نَفْسِهِ بِشَيْءٍ وَلَكِنَّهُ مُكْتَمَ

فقال : يا فاسق ، أظن ما ادعيت في النوم وكان في اليقظة ؟ وأصلح الأشياء بنا أن رخص العار عن أنفسنا بهبته لك ، نخذه لا بارك الله لك فيه ، فأخذته وانصرفت .

(١) ديوانه ٨١ ، ٨٢

(٢) ديوانه ٩٤

وقد تقدّم في هذا الكتاب من كلام الحسين ما يفوق به كلّ شاعر ،
وهو القائل :

أَجْرِنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمِئْتُ إِلَى الْوَعْدِ مَتَى يُنْجِزُ الْوَعْدَ الْمُؤَكَّدَ بِالْعَهْدِ^(١)
أَعِمِّدْكَ مِنْ خُلْفِ الْمُلُوكِ وَقَدْ تَرَى تَقْطَعُ أَنْفَاسِي عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ
أَيَبْخُلُ فَرْدُ الْحَسَنِ عَنِّي بَنَائِلٍ قَلِيلٌ وَقَدْ أَفْرَدْتَهُ بِهِوًى فَرْدٍ !
وهذا منتهى ما أوردته للحسين من العجائب .

دخل عليّ بن الجهم على عبد الله بن طاهر في غَدْوَةِ الرَّبِيعِ ، وفي السماء
غيمٌ رقيق ، والمطر يحيى قليلاً ، ويسكن قليلاً ، فغاضبته جارية له ، فانتقص
عزّزه فغضب ابن الجهم بذلك ، فأراد تنشيطه فدخل عليه فأنشده :

أَمَا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحَلَّى شَمَائِلَهُ صَحْوٌ وَغَيْمٌ وَإِبْرَاقٌ وَإِرْعَادُ^(٢)
كَأَنَّهُ أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَصَلٌ وَهَجْرٌ وَتَقْرِيبٌ وَإِبْعَادُ
فَبَاكِيرِ الرَّاحِ وَاشْرِبْهَا مُعْتَمَةً لَمْ يَذْخَرْ مِثْلُهَا كَسْرِي وَلَا عَادُ
وَاشْرَبْ عَلَى الرَّوْضِ إِذْ لَاحَتْ زَخَارِفُهُ

زَهْرٌ وَنُورٌ وَأُورَاقٌ وَأُورَادُ
كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَعَلَ الْحَبِيبُ بِنَا بَذَلَ وَبُخِلَ وَإِبْعَادٌ وَمِيعَادُ
وَلَيْسَ يَذْهَبُ عَنِّي كُلُّ فَعْلٍ كُمْ غَيٌّ وَرَشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ
فَاسْتَحْسِنُهَا وَأَسْرُ لَهُ بِثَلَاثَةِ دِينَارٍ وَحَمَلَهُ وَخَلَعَ عَلَيْهِ .

وقال عليّ أيضاً :

الْوَرْدُ يَبْضَحُكَ وَالْأَوْتَارُ تَصْطَغِبُ وَالنَّايَ يَنْدُبُ أَحْيَانًا وَيَنْتَجِبُ^(٣)

(١) ديوانه ٤٦

(٢) ديوانه ١٢٢

(٣) ديوانه ١٠٥

والراح تَعْرِضُ في يوم الربيع كما تُجَنِّي العروسُ عليها الدرَّ والذهب
وكما انسكبت في الكأس آونةً حببت أن شعاع الشمس ينسكب
وقد مرَّ من كلام ابن الجهم كلُّ بديعٍ ، في نظمه رفيع ، وآخر شعر قاه
وهو أحسن ما قيل في معناه :

يارحمةً للغريب في البلد النَّازِحِ ماذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَ^(١)
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفع
يقولُ في نأيه وغربته : عدلٌ من الله كل ما صَنَعَ

وكان هجاء لعلى بن أبي طالب ، وسمعه يوماً أبو العيناء يطعن على عليّ
فقال له : أنا أدري لم تطعن على أمير المؤمنين ، قال : أتعني قصّة بيعة أهلِي ،
قال : لا ، أنت أوضع من ذلك ولكن لأنه قتل الفاعل [فعل] قوم لوط
وأنت أسفلهما . وقال البحتري فيه :

إذا ما حُصِّلَتْ عَلَيَّا قريشٍ فلا في العيرِ أنت ولا النفيرِ^(٢)
ولو أعطاك ربك ما تمنى ل زاد الخلق في عِظَمِ الأيورِ
علام هجوت مجتهداً عليّاً بما لَقِقْتَ من كذبٍ وزورِ
أما لك في استك الوجعاء شغلٌ يكف أذاك عن أهلِ القبورِ

وقال ابن القنص كاتب سيف الدولة :

قُمْ فاسقني بين خفق الناي والعود ولا تبغ طيبَ موجودٍ بمفقودٍ
كأساً إذا أبصرت في القوم محشماً قال السرور له قُمْ غيرَ مطرودٍ
نحنُ الشهود وخفق الناي خاطبنا يزوج ابن سحابٍ بنتَ عَنُقودٍ

(١) ديوانه ١٥٤

(٢) ديوانه ١٠٣٨

وقال المصحفي :

صَفَرَاءُ تَطْرُقُ فِي الزُّجَاجِ فَإِنْ سَرَتْ فِي الْجِسْمِ دَبَّتْ مِثْلَ صَلِّ اللَّادِغِرِ
خَفِيَتْ عَلَى شَرَابِهِمْ فَكَانَتْهُمْ يَحْدُونُ رِيًّا فِي إِنْاءِ فَارِغِرِ
إدريس بن اليماني :

ثَمَلَتْ زَجَاجَاتٌ أَتَقَنَّاهُ فُرْغًا حَتَّى إِذَا مُلِمْتُ بِصَرْفِ الرِّاحِ
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ إِنْ الْجُسُومُ تَخَفُّ بِالْأَزْوَاجِ
ابن المعتز :

وَنَدْمَانِ سُقَيْنَ الرِّاحَ صِرْفًا وَأُفُقُ اللَّيْلِ مُرْتَفِعُ الشُّجُوفِ
صَفَّتْ وَصَفَّتْ زَجَاجَتُهَا فَأَنْصَحَتْ كَمَعْنَى دَقَّ فِي ذَهْنٍ لَطِيفِ
وله ، وهو مما يتصل بأبيات الديك المتقدمة :

فَاشْرَبَ عُقَارًا كَانَتْهَا قَبَسٌ قَدْ سَبَكَ الدَّهْرُ تَبَرَّهَا فَصَفَا
تَرَى النَّدَامَى الْإِبْرِيْقَ مِنْ دَمِهَا كَأَنَّهُ رَاعِفٌ وَمَا رَغْفَا
ولبعضهم :

مَا زَالَ يَشْرِبُهَا وَتَشْرَبُ عَقْلَهُ خَبَلًا وَتُؤْذِنُ رُوحَهُ بِرَوَاجِ
حَتَّى انْثَنَى مَتَوَسِّدًا بِيَمِينِهِ سَكْرًا وَأَسْلَمَ رُوحَهُ لِلرَّاحِ
وقال النظام :

مَا زِلْتُ أَخْذُ رُوحَ الزُّقِّ فِي لَطْفٍ وَأَسْتَبِيحُ دَمًا مِنْ غَيْرِ تَجْرُوحِ
حَتَّى انْثَنَيْتُ وَلِي رُوحَانِ فِي جَسَدِي وَالزُّقَّ مَطْرَحَ ، جِسْمٌ بَلَا رُوحِ
أَخْذَهُ أَحْسَنَ أَخْذٍ مِنْ بَشَارِ حَيْثُ قَالَ :

شَرِبْنَا مِنْ فُؤَادِ الزُّقِّ حَتَّى تَرَكَنَا الزُّقَّ لَيْسَ لَهُ فُؤَادُ

وقال ديك الجن :

وقم أنت فاحث كأسنا غير صاغر
فقام تسكاد الكأس تخضب كفه
موردة من كف ظبي كأنما
ظليلاً بأيدينا نتمتع روحها
وقال حبيب :

وكأس كمسول اللماء شربتها
إذا غوتبت بالماء كان اعتذارها
إذا اليد نالتها بوتر توقرت
وقال الحسن :

وصفراء قبل المزج بيضاء بعده
ترى العين تستعفيك من لماعها
كف يواقيتا روا كد حولها
ولنخوارزمي :

وصفراء كالدينار بنت ثلاثة
مسرة محزون، ورغد معربد
يطوف بها ظبي يريد عيوننا
وقال مسلم بن الوليد :

إبريقنا سلب الغزالة جندها
يسقيك من عينيه كأس صباية
وحكى المدير بقلته غزالاً (١)

(٢) ديوانه ٤١٩

(٤) ديوانه ٢٠٤

(١) ديوانه ١٠٧

(٣) نهاية الأرب ٤ : ١١٥

وقال أبو ذلامه :

سقاني أبو بشرٍ من الرّاحِ شربةً لها لذةٌ ما ذوقتها بشراب
وما طبخوها غير أن غلامهم مَشَى في نواحي كرمها بشهاب
ولما أنشدها على بن الخليل صاح : أحرقها العبد أحرقه الله !

كان ابن لنسكك أسرع الناس سكرًا ، فقال في ذلك :

فَدُنُوكَ لو عَلِمْتَ ببعض ما بي لها جرّعتني إلا بمُسْعِطٍ
فحسبك أن كرمًا في جوارى أمرئ ببابه فأكاد أَسْقُطُ

قوله : فياقوم هل كفارة تعرفونها ، إنما غيّر بيت أعرابي ، أنشد أبو العباس أبياته ، وهي :

فيا قوم هل كفارة تعرفونها تَبَاعِدُ من ذنبي وتُدْنِي إلى رَبِّي
شكوت فقلت كل هذا تبرّمًا بحبي أراح الله قلبك من حُبِّي
فلما كتمت الحبّ قالت : أشدّ ما صبرت وما هذا بفعلٍ شجى القلبِ
وأذنو فتقصيني وأبعد طالبًا رضاها فتعتدّ التّباعِد من ذنبي
فشكواي يؤذّيها وصبري يسوّءها وتجزع من بُعدِي وتنفر من قُرْبِي
فيا قوم هل من حيلةٍ تعرفونها

أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربّي !

وقال أبو العبر الهاشمي المتحامق :

أبكي إذا غضبت حتى إذا رضيت بكيت عند الرضا خوفًا من الغضبِ
فالوت إن غضبت والموت إن رَضِيتَ
إن لم يُرَحْنِي سُلُو عِشْت في تعبِ

وأبو العبر على تحامقه جيّد الشعر ، ومن ذلك قومه :
 وفي ساعدى ممن تملقت عَصَّةً تذكّرني ذاك الشَّيْبَ المفلجاً
 وآثار خدشٍ في يديّ مابحةٍ أقام عليها القلب منى وعرجاً
 أما والذي أمسيْتُ أرجو موابه لقد حلّ ما أخشاه وانقطع أرجا
 وله :

داء دافين وهوىّ بدرى أضلم مجازيك بمرصاد
 يا واحد الأمة في حسنه أشتت في صدك حسّادى
 عبدك تُخَيِّب موته قلةً يجعلها خاتمة الزّاد

ولأعرابي في نحو ما أنشده أبو العباس :

سكتُ فقالت : لم سَكَتَ عن الحقِّ وفُهِتُ فقالت : ما دَعَاكَ إلى الشُّطْقِ
 فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذا وذا فقالت : وذا الإيماء أيضاً من الخُمُقِ
 فلم أر لي إذ حَلَّتِ الغرب مخلصاً من الشرِّ إلا في المسير إلى الشرقِ
 فلَمَّا أَيْتُ الشَّرْقَ أَلْفَيْتُهَا به وقد قعدت لي منه في أضيق الطُّرُقِ

* * *

وعلى ما تقدّم في وصف الخمر من النظم المستحسن المرغب في شربها ، فإنه جاء من التحذير فيها ما يوجب تركها على أهل التخصيص والفضل .

من حديث أنس رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
 « مَنْ شَرِبَ الخمر لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد
 الثانية لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الثالثة
 لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلةً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقاً
 على الله أن يستميه من طينة الخبال » .

ابن الأعرابي : طينة الخبال عُصارة أهل النار في النار .

وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مدمِن الخمر كعابد وثن » .

قال أبو زيد : فَمَا حَلَّ أَنْشُوطَةَ نَفْثِهِ . وَقَصَى الْوَطَرَ مِنْ اشْتِكَاءِ
بَثِّهِ ، نَاجَتْنِي نَفْسِي : يَا أَبَا زَيْدٍ ، هَذِهِ نُهْزَةٌ صَيْدٌ ، فَشَمَّرَ عَنْ يَدٍ وَأَيْدٍ .
فَاتَهَضْتُ مِنْ مَجْثَمِي انْتِهَاضَ الشَّهْمِ ، وَانْحَرَطْتُ مِنَ الصَّفِّ انْحِرَاطَ
الشَّهْمِ ، وَقُلْتُ :

أَيْهَا الْأَرْوَعُ الَّذِي فَاقَ مَجْدًا وَسُودًا
وَالَّذِي يَبْتَفِي الرِّشَاءَ دَلِيْنُجُو بِهِ غَدًا
إِنَّ عِنْدِي عِلَاجَ مَا بَتَّ مِنْهُ مُسَهَّدًا
فَاسْتَمِعْهَا عَجِيْبَةً غَادَرْتَنِي مُلْدَدًا
أَنَا مِنْ سَا كِنِي سَرُو جَ ذَوِي الدِّينِ وَالْهُدَى

* * *

قوله : أَنْشُوطَةٌ : عُقْدَةٌ صِهْلَةٌ تَسْمِيهَا الْعَامَةُ اللَّجْجُ . نَفْثُهُ : لَفْظُهُ . الْوَطَرُ :
الْحَاجَةُ . بَثُّهُ : حَزَنُهُ . نَاجَتْنِي : حَدَّثَتْنِي . النُّهْزَةُ : الْفُرْصَةُ وَمَا أُخِذَ بِهَا تَعَبٌ
أَيْدٍ : قُوَّةٌ : اتَهَضْتُ : تَقَدَّمْتُ . مَجْثَمِي : مَوْضِعُ قُعُودِي . الشَّهْمُ : الشَّدِيدُ
النَّفْسِ . انْحَرَطْتُ : انْدَفَعْتُ بِسُرْعَةٍ وَالْانْحِرَاطُ التَّصْمِيمُ وَرُكُوبُ الرَّأْسِ .
الْأَرْوَعُ : السَّيِّدُ . فَاقَ : زَادَ عَلَى غَيْرِهِ فِي الْفَضْلِ . عِلَاجٌ : مَعَانَاةٌ وَطَبٌّ .
مُسَهَّدًا : مَمْتَنِعٌ النَّوْمِ . مُلْدَدًا : مُلْتَفِتًا يَمِينًا وَشِمَالًا مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ .

* * *

كُنْتُ ذَا ثُرُوءٍ بِهَا وَمُطَاعًا مَسُودًا
مَرْبَعِي مَأْلَفُ الضُّيُوءِ فِ وَمَالِي لَهْمٌ سُودِي

أَشْتَرَى الْحَمْدَ بِاللَّهِمَا وَأَتِي الْعِرْضَ بِأَجْدَا
 لَا أَبَالِي بِمُنْفَسٍ طَاحَ فِي الْبَذْلِ وَالنَّدَى
 أَوْقِدُ النَّارَ بَالِيفًا عَ إِذَا النَّكْسُ أَتَخَدَا
 وَيَرَانِي الْمُؤْمَلُونَ نَ مَلَاذًا وَمَقْصِدَا
 لَمْ يَشْمُ بَارِقِي صَدٍ فَاثْنَيْنِي يَشْتَكِي الصَّدَى
 لَا وَلَا رَامَ قَابَسُ قَدَحَ زَنْدِي فَأَصْلَدَا
 طَالَمَا سَاعَدَ الزَّمَا نَ فَأَصْبَحْتُ مُسْعَدَا
 فَقَضَى اللَّهُ إِنْ يُغَيَّرَ مَا كَانَ عَوْدَا
 بَوًّا الرُّومَ أَرْضَنَا بَعْدَ ضِغْنٍ تَوْلَدَا
 فَاسْتَبَاحُوا حَرِيمَ مَنْ صَادَفُوهُ مَوْحَدَا
 وَحَوُّوا كُلَّ مَا اسْتَسَرَّ بِهِ أَلِي وَمَا بَدَا

* * *

ثروة : غنى . مسوِّدًا : مقدَّمًا للسيادة . مربعى : منزلى . مألَف : موضع
 الاجتماع . سُدِّي : مهمَل . اللّٰهَ : العطايا . اليَفَاع : ما ارتفع من الأرض . النَّكْس :
 الدنى . أَخَد : أطفأ . الْمُؤْمَلُونَ : الرّاجون . مَلَاذ : ملجأ . المقصد : الموضع تقصده
 يَشْمُ بَارِقِي : ينظر برفى . صَدٍ : عطش . اثْنِي : رجع . رَام : طلب . قَابَس :
 طالب النار . قَدَحَ زَنْدِي : استخراج ناره . أَصْلَد : وجده صلدًا أى شحيحًا .
 سَاعَد : وافق . بَوًّا ، أى أنزل . ضِغْن : حقد وعداوة . اسْتَبَاحُوا : صَيَّرُوهُ مُبَاحًا
 حَرِيم : عِيَال . مَوْحَد : مُسْلِم . حَوُّوا : ضَمُّوا . اسْتَسَرَّ : خَفِيَ . بَدَا : ظَهَرَ .

تَطَوَّحَتْ : تَرَامَيْتُ عَلَى جِهَالَةٍ وَأَلْقَيْتُ بِنَفْسِي لِلْهَلَاكِ . طَرِيدًا : مُنْفِيًا . مُشْرِدًا : مَفْزَعًا عِنْدَ الْمَرْبِ فَارًّا .

* * *

أَجْتَدَى النَّاسَ بَعْدَمَا كُنْتُ مِنْ قَبْلُ مُجْتَدِي
وَتُرَى بِي خِصَاصَةً أَتَمَنَّى لَهَا الرَّدَى
وَالْبَلَاءَ الَّذِي بِهِ شَمَلُ أَنْسِي تَبَدُّدَا
اسْتِبَاءَ ابْنَتِي الَّتِي أَسْرَوْهَا لِنُفْتَدَى
فَاسْتَبِينَ مُحْنَتِي وَمُدَّ إِلَى نَصْرَتِي يَدَا
وَأَجِرْنِي مِنَ الزَّمَا نِ فَقَدْ جَارَ وَاعْتَدَى
وَأَعَنِّي عَلَى فَكَا لِكِ ابْنَتِي مِنْ يَدِ الْعَدَى
فَبِذَا تَنَمَّحَى الْمَاءَ يَمُّ عَمَمٍ تَمَرَّدَا
وَبِهِ تُقْبَلُ الْإِنَا بَةُ يَمِّنٍ تَرَهَّدَا
وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِمَنْ زَاغَ مِنْ بَعْدِ مَا هَتَدَى
وَلَئِنْ قَتُّ مُنْشِدًا فَلَقَدْ فَهَتْ مُرْشِدَا
فَاقْبَلِ النُّصْحَ وَالْهَدَا يَةَ وَاشْكُرْ لِمَنْ هَدَى
وَاسْمَحِ الْآنَ بِالَّذِي يَتَسَنَّي لِحَمْدَا

* * *

أَجْتَدَى : أَسْأَلَ . خِصَاصَةً : فَتْرَ . الرَّدَى : الْهَلَاكِ . شَمَلُ : مَجْتَمِعُ .
تَبَدُّدُ : تَفَرَّقُ . اسْتِبَاءُ ابْنَتِي : أَخَذَهَا أُسِيرَةً . اسْتَبِينَ : تَحَقَّقَ وَتَبَيَّنَ . مُحْنَتِي :

بأيتي . جار واعتدى : مال وظلم . وفك الرقبة وفكها : تخلصها من أسر الرق وكذلك الرهن ، وفي الحديث « اعتق النِّسمة وفك الرقبة » قيل : أليس واحداً ؟ قال : لا ، عتق النِّسمة : أن تنفرد في عتقها ، وفك الرقبة : أن تعين في عتقها ، ابن عباس رضى الله عنهما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فَدَى أسيراً من أيدي العدو ، فأنا ذلك الأسير » . تمنحى ، أى تذهب . تمرّد : أكثر الفساد . الإنابة : الرجوع إلى الله تعالى . تزهد : ترك الرّغبة في الدنيا زاع : مال . فُهِتْ : نطقت . مرشداً : دالاً على الخير . اسبح : جُد . يَسْتَنِي : يتيسر . الفنجديهي : كان ابن قَطَرِي قاضي ناحية المزار ، بلد عند البصرة قد تاب من الشرب ، ثم نقض التوبة ، وعاد يشرب ، ثم بعد المعاودة حضر مسجد بني حَرَام يوماً بالبصرة ، وتاب ورجع إلى الله تعالى بصدق النية ، وسأل عن كفارة ذنبه ، وكان في المسجد رجلٌ يزعم أنه من أهل سرّوج ، وله بنت مأسورة في أيدي الكفار ، فقال لابن قَطَرِي : كفارة ذنبك أن تصدّق على بشيء أفكها به ، فأعطاه عشرة دنانير ، فلما أخذها منه دخل الحانة .

ثم إن الحريري أنشأ هذه اللقاة الحرامية في ذلك فقيل له : هي أحسن من مقامات البديع ، فأنشأ أربعين مقامة ، ثم استزادوه فكمّلها خمسين .

قال أبو زيد : فلما أتممت هذرميتي ، وأوهم المستول صدق كلمتي أغراه القرم إلى الكرم بمواساتي ، ورغبه الكلف بحمل الكلف في مقاساتي ، فرضخ لي على الحافرة ، ونضخ لي بالعدة الوافرة . فانقلبت إلى وكري ، فرحاً بنجح مكري ، وقد حصلت من صوغ المكيدة ، على سوغ الثريدة ، ووصلت من حوك القصيدة ، إلى لوك العصيدة .

قوله: هذرمتي ، أى كثرة كلامي . أوهيم: أى خُيِّلَ له . كلمتي ، أى قصيدتي .
 أغراه ، أى حرَّضه . القَرَم : الشَّهْوَة . مواساتي : إعطائي . السَّكَّاف : الحُب .
 والسَّكَّاف : جمع كُلفَة وهى ما يُتَّكَاف من العمل . رضىخ : أعطى . على
 الحافرة ، أى عندما أكلت كلامي ، والحافرة : أوَّل الأمر ، وقيل أن أصلها
 فى بيع الفرس ، ولرفعة الخيل عندهم كان لا يفارق البائع حافرَ فرسه ، حتى يأخذ
 ثمنه . نَضَخ : رفع ، ونَضَخُ الماء فورانه من منبعه . الوافرة : الكثيرة . وكَرى :
 يبتى ، وأصله للظائر . صَوَّغ المكيدة : صنعة الكيد . سوَّغ : بلع بسهولة .
 لَوَّك : مضغ .

قال الحارث بن همام : فقلتُ له : * * *
 سَبَحَانَ مَنْ أَبْدَعَكَ ، فما أعظمَ
 خُدَعَكَ ، وأحَبَّتْ يَدَعَكَ ! فاستغربَ فى الضَّحْكَ ، ثم أنشد غير
 مرتبك :

عِشْ بِالْخُدَاعِ فَأَنْتَ فى دَهْرٍ بَنُوهُ كَأَسَدٍ بِيْشَةٍ
 وَأَدِرْ قَنَاءَ الْمَكْرِ حَتَّى تَسْتَدِيرَ رَحَاَ الْمَعِيشَةِ
 وَصِدِّ النَّسُورِ فَإِنْ تَعَذَّرَ صَيْدُهَا فَاقْنَعْ بِرِيْشَةٍ
 وَاجْنِ الثَّمَارِ فَإِنْ تَقَشَّكَ فَرَضٌ نَفْسَكَ بِالْحَشِيشَةِ
 وَأَرِخْ فَوَادَكَ إِنْ نَبَأَ دَهْرٌ مِنَ الْفِكْرِ الْمُطِيشَةِ
 فَتَغَايِرُ الْأَخْدَاتِ يُؤْ ذِنْ بِاسْتِحَالَةِ كُلِّ عَيْشَةٍ

أبدعك ، أى أوجدك وخلقك . استغرب : أكثر الضحك . مرتبك : مختلط
 فى كلامه . يشة : موضع كثير الأسد . المكرو : الخديعة . نبا : ارتفع . المطيشة :
 المدهشة للعقل . تغاير : اختلاف . الأحداث : النوازل . يؤذن : يعلم . استحالة : تغير .
 (م ٢١ - شرح مقامات الحريري ج ٥)

المقامة التاسعة والأربعون . وهي الساسانية

حكى الحارث بن همام قال : بلغني أن أبا زيد حين ناهز
 القُبْضَةَ ، وابتزّه قَيْدُ الهَرَمِ النَّهْضَةَ ، أحضر ابنه ، بعد ما استجاش
 ذهنه ، وقال له : يا بني إِنَّهُ قد دَنَا ازْتِحَالِي من الفناء ، واكْتَحَالِي بِمِرْوَدِ
 الفناء ، وأنت بِمُحَمَّدِ اللَّهِ وليُّ عَهْدِي ، وَكَبَشُ الكَتِيبَةِ السَّاسَانِيَّةِ مِنْ
 بَعْدِي ، ومثلك لَا تُقَرِّعُ لَهُ الْعَصَا ، وَلَا يُدَبُّهُ بِطَرَقِ الْحَصَا ؛ ولكن
 قد بُدِبَ إلى الإذكار ، وَجُعِلَ صَيْقَلًا للأفكار . وإني أُوصيك بما لم
 يوص به شَيْثُ الأَنْبَاطِ ، وَلَا يَعْقُوبُ الأَسْبَاطِ ؛ فاحفظ وصيتي ،
 وجانب معصيتي ، واحذِ مِثَالِي ، وافقهُ أُمثَالِي ، فَإِنَّكَ إن استرشدتَ
 بِنُصْحِي ، واستصَبَحْتَ بِصُبْحِي ، أَمْرَعُ خَانُكَ ، وارْتَفِعَ دُخَانُكَ ،
 وإن تَنَاسَيْتَ سُورَتِي ، وَنَبَذْتَ مَشُورَتِي ، قَلَّ رِمَادُ أَثَافِيكَ ، وَزَهَدَ
 أَهْلُكَ وَرَهْطُكَ فَيْكَ .

* * *

ناهز : قارب . الْقُبْضَةُ ، أراد بها ثلاثاً وتسعين سنة ، لأنك إذا قيل لك :
 اعقد في يديك ثلاثاً وتسعين قبضت أصابعك كلها وشدت عليها الإبهام ،
 والمعنى أنه قارب المائة التي ليس في العيش بعدها منفعة ، والشعراء يضمنونها
 أشعارهم إذا وصفوا البخيل بقبض الكف ، قال الخليل بن أحمد :

وكفَّ عن الخير مقبوضةً كما قبضت مائة سبعة

وقال :

فَمَا تَسْمَعُونَ تَخْفَرُهَا ثَلَاثُ يَضُمُّ حَسَابَهَا رَجُلٌ شَدِيدُ
بَكَفْتِ خَرْقَةٍ جُمِعَتْ لَوَجْءُ بَأْنَسْكَدَ مَنْ عَطَائِكَ يَا يَزِيدُ
وَابْتَزَّهُ : سَلَبَهُ . الْهَرَمَ : كِبَرُ السِّنِّ . الْتَهَضَّةُ : الْقِيَامُ إِلَى مَا يَرِيدُ .

ودخل هشام بن عبد مناف وقد أَسْنَى عَلَى فَتِيَةٍ مِنْ قَوْمِهِ فَقَامُوا إِلَيْهِ إِجْلَالًا ،
وَأَجْلَسُوهُ فِي أَرْفَعِ مَوْضِعٍ ، فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمْ ، إِنْ بَنَى مَرَّةً كَانُوا إِذَا شَاحَ
عِنْدَهُمُ الرَّجُلُ قَيِّدُوهُ وَقَالُوا لَهُ : نَبْ ، فَإِنْ وَثَبَ أَحْبَبُوهُ ، وَقَالُوا : فَيْكَ بِقِيَةٍ ،
وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ قَالُوا : لَيْسَ فِي هَذَا مَنْفَعَةٌ فَقَتَلُوهُ ، وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ :

لَوْ أَنَّ عَمْرِي مِائَةٌ هَدَّيْتَنِي تَذَكَّرْتُ أَنِّي تَنْصَفُفُهَا^(١)

لَهْفِي عَلَى خَمْسِينَ عَامًا مَضَتْ كَانَتْ أُمَامِي ثُمَّ خَلَقَتْهَا

اسْتَجَاشَ : اسْتَجْمَعَ وَحَشَدَ . الْفِنَاءُ : مَا حَوْلَ الدَّارِ . وَالْفَنَاءُ بِالْفَتْحِ :
الْمَوْتُ . الْكُتَيْبَةُ : الْجَلِيشُ . وَكَبَشْتُهَا : رَئِيسُهَا وَحَامِيهَا . وَالَّذِي كَانَتْ الْعَصَا
تُقَرَّعُ لَهُ عَامِرُ بْنُ الظَّرَبِ الْعَدَوَانِيَّ حَكِيمَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَمَّا أَسْنَى كَانَتْ
تَبْزِلُ فِي حَكَمِهِ ، وَكَانَتْ لَهُ بِنْتُ حَكِيمَةٍ ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَقْعُدَ وَرَاءَ سِتْرِ لَتَنْظُرَ حَكَمَهُ ،
فَإِذَا أَنْكَرَتْ مِنْهُ شَيْئًا قَرَعَتْ لَهُ بِالْعَصَا ، فَتَمُتِ سَمْعُ صَوْتِ قَرَعِهَا عِلْمٌ أَنَّهُ زَلَّ ،
فَرَجَعَ . وَقِيلَ : قُرِعَتْ لِأَكْثَمَ بْنِ صَيْفِيٍّ ، وَقِيلَ لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ الْكِنَانِيِّ ،
وَقِيلَ لِعَمْرٍو بْنِ نُحَيْمَةَ الدَّؤَمِيِّ .

وخطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب بنته عمرة ، وهي أم عامر
ابن صعصعة ، فقال : يَا صَعْصَعَةُ إِنَّكَ تَشْتَرِي مِنِّي كَيْدِي ، فَارْحَمْ وَلَدِي ؛ قَبْلَ تَكْ
أَوْ رَدَدْتُكَ . وَالْحَسِيبُ : الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَبًا . بَعْدَ أَبٍ ، وَقَدْ أَنْكَحْتُكَ خَشِيَّةً
أَلَّا أَجِدَ مِثْلَكَ ، أَفَرَّ مِنَ السَّرِّ إِلَى الْعِلَانِيَةِ ، يَا مَعْشَرَ عَدُوَّانٍ أَخْرَجْتَ مِنْ بَيْنِ
أَظْهَرِكُمْ كَرِهْتُمْكُمْ مِنْ غَيْرِ رَهْبَةٍ ، لَقَسْمٍ لَوْلَا قِسْمَةُ الْخُظُوفِ عَلَى الْجُدُودِ مَا تَرَكَ
الْأَوَّلَ لِلْآخِرِ مَا يَعِيشُ بِهِ ، وَفِيهِ يَقُولُ الْمُتَلَمِّسُ :

لَذِي الْحَلْمِ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تُقَرِّعُ الْعَصَا وَمَا عُلِمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَ^(١)
 وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ جَلَسَ عَلَى الْمَنْبَرِ وَتَكَلَّمَ ، وَفِيهِ يَقُولُ الْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفَرٍ :
 وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَوْ أَنَّ عَلِيَّ نَافِعٌ أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ^(٢)
 قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : نَزَلَتْ عَدْوَانُ مَاءً ، فَأَحْصَى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ غَلَامٍ أَغْرَلَ^(٣) ،
 سِوَى مَنْ كَانَ مَخْتُونًا لِكَثْرَتِهِمْ ، ثُمَّ وَقَعَ بِأُمِّهِمْ يَدَهُمْ ، فَتَفَانَوْا ، فَقَالَ
 ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدَوَانِي :

عَذِيرُ الْحَيِّ مِنْ عَدَوَا نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ^(٤)
 بَغَى بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ فَلَمْ يُبْقُوا عَلَى بَعْضٍ
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِيزُ النَّاسَ بِالسُّنَّةِ وَالْفَرَضِ
 وَمِنْهُمْ حَكَمٌ يَقْضِي فَلَا يُنْقِضُ مَا يَقْضِي

الحكم : عامر بن الظرب ، والذي كان يجيز الناس في الحج منهم رجل كان
 يسمى أبا سيارة ، أجاز الناس على حمار له أسود ، من المزدلفة إلى منى أربعين
 عاماً ، ثقيل في المثل : أصبح من غير أبي سيارة^(٥) ، وكانت إجازته أن يقول : اللهم
 حَبِّبْ بَيْنَ نَسَائِنَا وَبَعْضِ بَيْنَ رِعَائِنَا ، واجعل للمال في سُمَحَائِنَا ، أَوْفُوا بَعْدَكُمْ ،
 وَأَكْرَمُوا جَارَكُمْ ، وَاقْرُوا ضَيْفَكُمْ ، ثُمَّ يَدْفَعُ فِيَقُولُ :

خَلَوْا الطَّرِيقَ عَنْ أَبِي سَيَّارَةَ وَعَنْ مَوَالِيهِ بَنِي فَزَّارَةَ
 * حَتَّى يَجِيزَ سَالِمًا حِمَارَهُ *

ثُمَّ يَقِفُ فَيَقُولُ : أَشْرَقَ ثَبِيرٌ ، كَيْمَا نَغِيرُ . وَكَانَتْ الْإِجَازَةُ قَبْلَهُمْ فِي خُرَاعَةٍ .
 فَغَابَتْهُمْ عَلَيْهَا عَدْوَانُ . وَلَا تَقَرَّعُ لَهُ الْعَصَا مِثْلَ ، يُضْرَبُ لِنِ وَاقِفٍ صَاحِبِهِ وَسَاوَاهُ .

(١) ديوانه ٢٦

(٢) المفضليات ٢١٦

(٣) الأغزل : الأثقل .

(٤) مجمع الأمثال ١ : ٤١٠

(٥) الأغاني ٣ : ٧٩

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها قال عَمَّهَا :
 مثل محمد لا تَقْرَعُ له العصا ، وأصل ذلك أن الناقة الكريمة إذا أتاها حل غير كريم
 منعه عنها ، وقَرَعُوهُ بالعصا على أنفه . وفي المثل : إن العصا قُرعت لذى الحلم .
 قوله : ولا يَنْبَغُ بطَرْقِ الحِصَا ، كانت العرب إذا أرادت اختبار الرجل :
 هل يصلح للسفر والغارة ؟ ترك الرجل صاحبه حتى ينام ، فيأخذ حصاة فيرمي
 بها إلى جانبه ، فإن انقبه توثق به .

وخرج أبو كبير الهذلي ومعه تَأْبَطُ شَرًّا للغارة ، فلما جَنَّ الليل أُووَا إلى
 موضعٍ ليناموا فيه ، فتركه أبو كبير حتى نام ، فرمى إلى جانبه بحصاة ، فساعة
 مَسَّتْ الأرض وثب ثم عاد إلى نومه ، ففعلها ثلاثاً فكان ينتبه لوقوعها ويثب
 ويجول يطلبها رامياً ، فلا يجد إلا أبا كبير نائماً ، فقال له عند الثالثة : والله لئن
 عُدْتُ لأَقْتُلَنَّكَ ، فإنه ليس هنا مَنْ يفعل هذا غيرك ، فضحك أبو كبير وقال :
 أردت اختبارك ، ثم ذكر القصة في قصيدته التي يقول فيها :

وَإِذَا رَمَيْتَ لَهُ الْحِصَا رَأَيْتَهُ يَنْزُو لَوْقَتِهَا طُمُورُ الْأَخِيلِ^(١)

يريد أن ابنه كان فوق هذا في ذكاء القلب فهو كأنه منتبه أبدا .
 وطَرَقَ الحِصَا أيضاً من فِعْلِ الْكُفَّانِ يأخذ الكاهن حصيات ، فيضرب
 بها الأرض وينظر فيها فيخبر بالغيبات .
 قوله : نُدِبَ ، أى دعى وَحُرِّضَ . الإِذْكَارُ : التذكير بما يفعل .
 الْأَفْكَارُ : الأذهان .

شيث هو ولد آدم عليه السلام ، وكان أَجَلَ بنيه وأَحَبَّهُمْ إليه ، وهو وصيُّ أبيه
 وإليه ترجع الأنساب ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربعة من الأنبياء سريانئون :
 آدم وشيث وإدريس - وهو أخنوخ - ونوح ، وأنزل الله تعالى على شيث
 خمسين صحيفة . وقال بَقِيَّةُ بنِ أَرْطَاة : بلغنى أن حواء حملت بشيث الرضا حتى

نبت أسنانه ، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه في بطنها . وهو الثالث من ولد آدم ، وإله لما حَضَرها الطَّلُق أخذها عليه شدة ، فانتبذت به ، فلما وضعته أخذته الملائكة ، فمكث معهم أربعين يوماً ، فعموه المهن ، ثم ردّوه إليها معاً . والمهن جمع مِهنة ، وهي الخدمة .

الأنباط ، قيل : سُمُوا أنباطاً لاستنباطهم البناء ، واستخراجهم المياه ، والنسابون يزعمون أنهم ولد يافث بن نوح ، ولا يصح على هذا أن يوصيهم شيث ، لأنّ بين زمن شيث وزمن يافث آلافاً من السنين . الجوهرى : النبط والأنبط : قوم كانوا ينزلون بين البصرة والكوفة والجمع أنباط ، والرجل نَبْطِيّ . ابن دريد : النبط . جيل من الناس معروف ، وهم النبط والأنباط . والأسباط : بنو يعقوب عليه السلام ، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل ، والأسباط في ولد يعقوب كلقبائل في ولد إسماعيل .

أخذ مثالي ، أى امش على طريقى وافعل بفعلى . استرشدت : استدلت . استصبحت : استضأت . أمرع : أخصب . الخان : الفندق ، وهذا مثل لرفاهة العيش . كبذت : طرحت . الأناقى : أحجار القدر . زهد : لم يرغب .

يابنى ؛ إني جربت حقائق الأمور ، وبلوت تصارييف الدهور ؛ فرأيت المرء بنسبه ، لا بنفسه ، والفحص عن مكسبه ، لا عن حسبه . وكنت سمعت أن أمه أيش : إمارة ، وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فأرست هذه الأزرع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فأتحدث منها معيشة ، ولا استرغدت فيها عيشة ، أما فرص الوليات ، وخلس الإمارات ؛ فكأضغاث أحلام ، والنفى المنتسخ بالظلام ؛ وناهيك غصة بمرارة الفطام . وأما بضائع التجارات ، فعرضة للمخاطرات ، وطعمة للغارات ،

وما أشبهها بالطيور الطيَّارات. وأما اتخاذ الضياع، والتصدى للزديراع،
فمنهكة للأعراض، وقود عاتقة عن الارتيكاض، وقلة خلا
ربها عن إذلال، أو رزق روح بال، وأما حرق أولي الصناعات،
فغير فاضلة عن الأقوات، ولا نافعة في جميع الأوقات، ومُعظمها
معصوب بشيبة الحياة. ولم أر ما هو بارد المغنم، لذيد المطعم، وافي
المكسب، صافي المشرب، إلا الحرفة التي وضع سامان أساسها،
ونوع أجناسها

* * *

بلوت : اختبرت . أشبه : ماله . الفحص : البحث ، والأربع التي ذكر
نسبها الثعالبى للمأمون قال : قال لى المأمون : الناس أربع طبقات بين إمارة
وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فمن لم يكن منهم كان كلاً علينا . مارست :
خالطت . أحدث : صادفتها محمودة . استرغدت : استكثرت . فرص : نهز ،
والنهزة والفرصة ما يحضرك من الفوائد من غير أن تتعنى في طلبها ، فإن فوتتها
ولم تفطنم أخذها ففانتك ، فربما تتعنى غاية التعنى في طلبها ، فلا تظفر بها .
الجوعرى : الفرصة . النوبة والشرب ، يقال : وجد فلان فرصة ، أى نهزة ،
وجاءت فرصتك من الشيء ، أى نوبتك . خلّس : جمع خلسة ، وهى كالخطف
وشبهه ، يريد أن الأمير كأنه اختلس أيامه ، أى اختطفها لقصر مدتها ، ويقال :
الخلسة . فرصة . وأضغاث الأحلام : أباطيلها التي لا يصح تأويلها باختلاطها .
والصفت : كل ما كان مختلطاً لاحقيقة له ، والحلم : الرؤيا والجمع أحلام . ويقال :
هذا رجل ناهيك من رجل ! ونهيك من رجل ، أى إنه نجدة وعناية ينهك عن
تطلب غيره ، فناهيك : كافيك . الغصة : ما يحتنق به . الفطام : قطع الرضاعة عن

الصبي ، وفي الكلام معنى التعجب كأنه قال : ما أنكد غصة العزل على أهل الولايات ، والعزل للولاية كالحيض للنساء . والبضائع : الأموال يتجر فيها . عرضة للمخاطر ، أى معرضة للضرر والسلب ، وفلان عرضة لكذا ، أى نصب ، وهو له عرضة ، أى يتعرض له دونه ، وهذا عرضة لك ، أى عُدّة . وقال النقاش فى قوله تعالى : ﴿ عُرْضَةٌ لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ أى علة لها وسبباً ومتخذاً لذلك ، وأصل العُرْضة : الدابة تتخذ للسفر لقوتها ، ثم جعل كل ما صلح لشيء عرضة له ، حتى قيل : المرأة عرضة للزوج . والطعمة : المأكلة ، وهذه الضيعة طعمة لفلان ، والطعمة أيضاً : وجه المكسب ، فطعمة للغارات ، يريد أن قُطّاع الطرق يسلبون أموال التجار أبداً فأرزاقهم معرضة للتلف . التصدّى : التعرض . منهكة : مذلة وسبب هتك ، وهو الجهد والضعف ، ونهكته الحمى وأنهكته ، إذا جهدهت وأضنته وقصّته لحمه ، ونهكه السلطان عقوبةً بالغ فى عقوبته . رَوْح بال : راحة قلب . عاتقة : حابسة . الارتكاض : الجرمى والتصرف وهذه مشاهدة من أحوال أهل الحرث وقال صلى الله عليه وسلم حين رأى السكة : «مادخات قطّ دار قوم إلا ذلّوا» . وقال صلى الله عليه وسلم فى الإمارة : «ستحرون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة ، فنعمت المروضة وبئست الفاطمة» .

والحرقة : الصنعة : فاضلة : زائدة . معصوب : مربوط ، والعصب الفتل الشديد ، يريد أن الصنعة يُنتفعُ بها ما دام صاحبها شاباً قوياً فإذا شاخ لم يقدر على الانتفاع بها . قوله : بارد المغنم ، أى السهل منه ، وهو الذى يؤخذ بغير قتال .

ساسان : شيخ المكدين والغرباء ، وهم بنو غُبراء . والغبراء : الأرض ، ومُثْمُوا بنى غُبراء قطعهم جهات الأرض وجوّالانهم فى البلدان ، فكأنهم ليس لهم أصل يُنسَبون إليه إلا الأرض . وقيل : مُثْمُوا بذلك لازومهم لغبراء الأرض وهو وجهها وترابها والرقاد فيها فيُعَيَّرُونَ بذلك ويتغيَّرُونَ .

وكان الأحنف العكبري^(١)، وهو أبو الحسن عميل بن العكبري، كان فصيحا شاعرا، وذكر صاحب فيه فصلا وهو: ولو أنشدتُك ما أنشدنيهِ الأحنف العكبري، وهو فردُ بني ساسان اليوم في مدينة السلام في الفصاحة وحسن الطريقة في الشعر لامتلات تعجباً من ظرفه وإعجاباً بنظمه، ومن افتخاره قوله:

على أنى بمحمد الله في بيتٍ من الجُدِ
وإخواني بنو ساسا ن أهل الجِدِّ والجُدِّ
لهم أرض خراسا ن فغسان مع اللدِّ
إذا ما أعوز الطَّرَق على الطُّراق والجُنْدِ
حذاراً من أعاديهم من الأعراب والكرِدِ
قطعتنا ذلك النهج بلا سيفٍ ولا غمدِ
ومن خاف أعاديه بنا في الرَّوْع يَسْتَعْدِي

ففي هذا البيت معنى بدیع، يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل إذا وقع أحدهم في أيدي العداة وأراد التخلص قال: أنا مكدر، فبني الحريري هذا الموضع من مقامته على شعر الأحنف، وأكثر هذه المقامة مأخوذ من مُلَحِّه، ومن هذا الشعر:

وقالوا قد سلا عَنْكَ وقد حالَ عن العهدِ
ولا والله ما حُلْتُ ولكن قلَّ ما عِنْدِي

ومن شعره:

عشت في ذلة وقلة مالٍ واغترابٍ في معشرٍ أنذالٍ
بالأمانى أقول لا بالمعاني فغذائي حلاوة الآمالِ
لِي رزق يقول بالوقف في الرأى ورجلٌ تقول بالاعتزال

(١). الأحنف العكبري، له ترجمة في البيهقي ٣: ١٠٤ - ١٠٦، وأورد فيها كثيراً

وله :

العنكبوت بنتٌ بيتاً على وَهْنٍ تأوى إليه ومالى مثله وَطَنُ
والخنفساء لها من جنسها سَكَنُ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سَكَنُ

وله :

نرى العقيان كالذهب المصْفَى يركب فوق أنفار الدواب
وكيسى منه خلوٌ مثل كفى أما هذا من العجب العجائب !

وله :

رأيت فى النوم دنيانا مزخرفةً مثل العروس تراءت فى المقاصير
فقلت جُودى فقلت لى على عجلٍ إذا تخلصت من أيدى الخنازير

* * *

وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدتُ
وقائعهم معلماً ، واخترتُ سيماءها لى ميسماً ؛ إذ كانت الشجر الذى
لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ، والمصباح الذى يعشوا إليه الجمهور ،
ويستصيح به العمى والعمور . وكان أهلها أعزَّ قبيل ، وأسعدَ جيل ،
لا يرهقهم مسٌ حيف ، ولا يُقلِّقهم سلٌ سيف ، ولا يخشون حمةً
لأسع ، ولا يدينون لدانٍ ولا شاسع ولا يرهبون مِمَّنْ برق ورعد ،
ولا يحفلون بمن قام وقعد ؛ أنديتهم منزّهة ، وقلوبهم مرفّهة ، وطعمهم
مُعجّلة ، وأوقاتهم غرٌ مُعجّلة ، أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا
خرطوا ، لا يتخذون أوطاناً ، ولا يتقون سلطاناً ، ولا يعتازون عماً
تعدو وخصاصاً ، وترّوح بطاناً .

* * *

قوله : أَضْرَمَ ، أى أوقد . الخافقين : المشرق والمغرب . أوضح : بَيَّن .
 مَنَارَهَا : سِرَاجَهَا . مُعَلِّمًا : مشهوراً . سماها : علامتها ، يريد أنه اختار علامتهم
 لِنَفْسِهِ . يَبُورُ : يَكْسِدُ ويهلك أهله . المنهل : موضع الماء . يغور : يغوص في
 الأرض . بعشو : ينظر . الجمهور : معظم الشيء . العور : جمع أعور . الجليل :
 أهل المصر . يُرْهَقُهُمْ : يدرِكهم ويفشاهم . حَيْفَ : جَوْر وظلم . مُحَمَّة : سم .
 لاسع : ضارب . والاسع : الضرب بمؤخره ، مثل العقرب ، واللدغ لما كان
 بالقم ، ولسمه بلسانه : عابه وآذاه ، ورجل لُسمة ولساعة ولَسَاع ، أى عيابٌ
 مؤذٍ . يدبنون : يطيعون . دانٍ وشاسع : قريب وبعيد . يرهبون : يخافون .
 بَرَق ورعد : هدد وخوف . يحفلون : يبالون . مَن قام وقعد : من غيظه وشره .
 انخرطوا : ركبوا رءوسهم ، واندفعوا بشدة ، وخرطت الفصن ، إذا وضعت
 يدك عليه ثم تجرّه عليك فيسقط ما فيه من ورقٍ وثمر . أنديتهم : مجالسهم .
 مرفهة : الرفاهية : العيش اللين . غُرَّ : بيض . محجلة : مشهورة . سقطوا :
 وقعوا . لقطوا : جمعوا الرزق ، وأصله للطير . يمتازون : يفترقون . خصاصاً :
 جِيعاً . بطاناً : شباعاً وهى للطير ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم توكلتُم على الله حقَّ توكله لرزقكم
 كما يرزق الطير تَغْدُو خِصاصاً وتَرُوح بِطَاناً » .

* * *

فقال له ابنه : يا أبتِ لَقَدْ صَدَقْتَ ، فيما نَطَقْتَ ؛ وَلَكِنَّكَ
 رَتَقْتَ ، وَمَا فَتَقْتَ ؛ فبَيِّنْ لِي كَيْفَ أَقْطِيفَ ، وَمِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ
 الْكَتِفَ ، فَقَالَ : يَا بَنِيَّ إِنَّ الْأَرْتِكَاضَ بِأَيْهَا ، وَالنَّشَاطَ جِلْبَابُهَا ،
 وَالْفِطْنَةَ مِصْبَاحُهَا ، وَالْقِحَّةَ سِلَاحُهَا ، فَكُنْ أَجْوَلَ مِنْ قُطْرُبَ ،

وَأَشْرَى مِنْ جُنْدُبَ، وَأَنْشَطَ مِنْ ظَبْيٍ مُقَمَّرٍ، وَأَسْلَطَ مِنْ ذَنْبٍ مُتَمَمَّرٍ،
وَأَفْدَحَ زَنْدَ جَدِّكَ بِجَدِّكَ، وَاقْرَعُ بَابَ رَعِيكَ بِسَعِيكَ، وَجُبَّ كُلٌّ
فَجٍّ، وَلِجَّ كُلٌّ لُجٍّ، وَانْتَجَعَ كُلٌّ رَوْضَ، وَأَلْقَى دَلُوكَ فِي كُلِّ حَوْضَ،
وَلَا تَسَامِ الْطَلَبَ، وَلَا تَمَلَّ الدَّأْبَ، فَقَدْ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى عَصَا شَيْخِنَا
سَاسَانٌ : مَنْ طَلَبَ ، جَلَبَ ، وَمَنْ جَالَ ، نَالَ . وَإِيَّاكَ وَالْكَسَلَ، فَإِنَّهُ
عُنْوَانُ النَّحُوسِ ، وَلَبُوسُ ذَوِي الْبُوسِ ، وَمِفْتَاحُ الْمَتَرَبَةِ ، وَلِقَاحُ
الْمُتَعَبَةِ، وَشِيْمَةُ الْعَجَزَةِ الْجَهْلَةِ ، وَشِدْنَةُ الْوُكَلَةِ الشُّكْلَةِ ، وَمَا اشْتَارَ
الْعَسَلُ ، مِنْ اخْتَارِ الْكَسَلَ ، وَلَا مَلَأَ الرَّاحَةَ ؛ مَنْ اسْتَوْطَأَ الرَّاحَةَ .

* * *

قوله : رَتَقْتُ ، أَيْ أَلَحْتُ وَسَدَيْتُ ، وَهُوَ ضِدُّ فَتَقْتُ ، تقول : رَتَقْتُ
الشَّيْءَ ، إِذَا ضَمَمْتَ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ ، وَفَتَقْتُهُ : نَقَضْتُهُ . أَقْتَطِفُ : أَجْنِي النَّمْرَ ،
وهذا مثل قوله : مَنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ ، قَالُوا : تُؤْكَلُ مِنْ أَسْفَلِهَا ، لِأَنَّ الْمَرْقَةَ
تَدْخُلُ بَيْنَ عِظَامِهَا وَلَحْمِهَا ، فَمِنْ أَكْلِهَا مِنْ أَعْلَاهَا جَرَتْ الْمَرْقَةُ عَلَيْهِ ، وَلَفِظَ
الْمَثَلُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو عُبَيْدٍ : فَلَانِ أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤْكَلُ كُلُّ الْكَتِفِ ، يُضْرَبُ
مِثْلًا لِمَنْ جَرَّبَ الْأُمُورَ وَدَرَى تَصَرُّفَهَا ، قَالَ الْبَكْرِيُّ : إِنْ لَحِمَ الْكَتِفُ إِذَا
أُكِلَ مِنْ أَعْلَاهُ تَنَاثَرَ ، وَإِذَا أُكِلَ مِنْ قَبْلِ الْغُضْرُوفِ ، لَمْ يَتَأْتِ لَأْكُلْهُ .
وَالْغُضْرُوفُ : اللَّحْمُ الرَّخِصُ الْمُتَّصِلُ بِأَسْفَلِ الْكَتِفِ الْمُنْتَسِعِ ، وَقِيلَ : أَاكُلُ
الْكَتِفَ ، إِذَا أَمْسَكَ فِيهَا بِطَرَفِ الْغُضْرُوفِ رَبَّمَا سَقَطَتْ فَتَرَبَّتْ ، وَإِذَا أَمْسَكَهَا
بِالطَّرَفِ الْآخَرِ أَمِنَ مِنْ ذَلِكَ .

الفنجدية : لَحِمَ الْكَتِفَ إِذَا جُذِبَ مِنَ الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ انْتِطَعَ بِكَلِيَّتِهِ ،
وَإِذَا جُذِبَ مِنَ الْجَانِبِ الْأَعْلَى تَقَطَّعَ اللَّحْمُ وَلَمْ يَنْقَطَعْ ، لِأَنَّ الْمَرْقَةَ تَجْرِي بَيْنَ لَحْمِ

الكتف والعظم ، فإذا أخذته من أعلاه تصببت المرققة عليك بسرعة ، وإذا أخذت اللحم من أسفله تقشّر من عظمها فلم تنصب المرققة بالسرعة ، وهو مثل يضرب للبصير بالأمور ، وقال أوس بن حجر :

أَمْ دَلَّكُمْ بَعْضُ مَنْ يَرْتَادُ مَشْتَمِي بِأَيِّ أَكَلَةِ لَحْمٍ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ^(١)
يقول : أنا أعلم كيف أنا لكم .
وقال آخر :

إِنِّي عَلَى مَا تَرَوْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ
قطرب : دويبة تجول اللّيل كآة ولا تنام ، ويقال فيه أيضاً : أسهر من قُطْرَب ، وهذا قول أبي عمرو ، وغيره يرويه : أَسْعَى مِنْ قُطْرَب ، لا أسهر ، ويقول : هو دويبة لا تستقرّ بالنهار ، ويحتجّ بقول ابن مسعود : لأعرفنّ أحدكم جيفة ليل قُطْرَب نهار . وقُطْرُب اسم رحل مشهور ، وهو ابن المستنير صاحب اللثث ، وكان من أهل العربية مجلس لسبويه يناظره ، فلما رآه سبويه قد قد احتدّ بالسؤال قال : إنك لقطرب ليل ، فسُمّي بذلك ، والقُطْرَبُ أيضاً ذكر الفيلان . ابن ظفر ذكر مَنْ يعول عليه أنه حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر ، يظهر للمنفرد من الناس ، فربما صدّه عن نفسه إذا كان شجاعاً وإلا لم ينته حتى ينكحه ، فإذا أنكحه تدوّد دُبرُهُ وهلك . قال : وهم إذا رأوا من ظَهَرَ لَهُ الْقَطْرَب قالوا : أَمْنَكُوح أَمْ مَرْوَع ، فإن قال : منكوح يشوا منه . وإن قال : مَرْوَع سَكَنُوهُ وعالجوه . قال : فقد رأيتُ أهلَ مصر وما بين يديها وما خلفها ، وتحققت أهل صعيدها والعربان ، وهم مستوون في الجهل بهذا الحيوان ، ومختلفون الاختلاف الشديد في فعله وصورته ، إلا أن أهل مصر أكثر لهجاً به ، والقطارب أيضاً : صفار الكلاب .

قوله: أَسْرَى، أى أمشى بالليل . الجندب: ذكر الجراد ، وقيل: هى دويبة تشبه الجراد ذات جناحين ، فلا تزال ترمح ، ولفظ المثل : أَسْرَى من جراد . مقمر : لاعب فى القَمَر . وأنشط : أخفّ ، والظبي يأخذه النشاط فى الليلة المقمرة فيلاعب . متنمّر : متشبه بالنمِر وهو سَبُعٌ مؤذ . جَدَّكَ : حظك . اقرع: اضرب . رَعِيكَ : أكلك ، وأراد بيباب رعيك الذى يحيثك منه الرزق . ألقى دلوك إلى كل حوض: لفظ المثل « ألقى دلوك فى الدلاء » ، يضرب فى بذل الجهد فى اكتساب المال والبحث عليه ، وهو كما قال الشاعر :

وليس الرزق عن طلب حثيث ولكن ألقى دلوك فى الدلاء^(١)

تجنّك بملئها طوراً وطوراً تجنّك بحمأةٍ وقليل ماء
قوله : فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان . الفنجديهى قرأت فى بعض الفوائد أنه كان مكتوباً على عصا ساسان . المكدي: الكسل شؤم ، والتميز مذموم ، والحركة بركة ، والتوانى هلكة . وكتب طائف: خير من أسد رابض . ومَنْ لم يفترف : لم يعتلف . جال : تصرف ومشى فى البلاد . نال : أدرك حاجته . عنوان : دليل . النحوس : جمع نحس ، وهو ضدّ السعد . ذوى البؤس : أهل الفقر . لقاح المتعبه ، أى أصلها وسببها . شيمة : طبيعة ، وكذلك الشنشنة . الوكّلة التّكّلة : هو العاجز الذى يَكُلُ أمره لغيره ويتّكل عليه فيه . اشتار : حرّك واستخرج . الراحة الأولى : الكفّ ، والثانية ضدّ التعب .

وعليك بالإقدام ، ولو على الضّرعام* ، فإنّ جرّاء الجنان ، تُنطق اللسان ، وتُطلق العنان ، وبها تُدرك الحظوة ، وتُمْلِك الثروة ، كما أن الخور صِنُو الكسل ، وسبب الفشل ، ومَبْطَأة للعمل ، ونَخْبِيَةٌ للأمل ، ولهذا قيل فى المثل : مَنْ جَسَرَ ، أَيْسَرَ ، وَمَنْ هَابَ ، خَاب .

(١) لأبى الأسود الدؤلى ، جهرة الأمثال ١ : ٧٤ ، وديوان أبى الأسود ٥٣

ثم ابرز يا بني في بكور أبي زاجر، وجراءة أبي الحارث، وحزامه
أبي قرّة، وختل أبي جعدة، وحرص أبي عتبة، ونشاط أبي وثاب،
ومكر أبي الحصين، وصبر أبي أيوب، وتلطّف أبي غزوان، وتلوّن
أبي براقش، وحيلة قصير، ودهاء عمرو، ولطف الشعبي، واحتمال
الأحف، وفطنة إياس، ومجانة أبي نواس، وطمع أشعب، وعارضة
أبي العيّناء.



الإقدام : الجراءة . الضرغام : الأسد . والجراءة : الشجاعة . والجنان :
القلب . والخطوة : المنزلة الرفيعة ، والثروة : الغنى . صنو : أخ . القشل :
الضعف والحيرة ، يريد أن فزع النفس وضعفها يحثب الأمل والرجاء ، وقال
معاوية : الهيبة مقرون بها الخيبة .

أبو زاجر : هو الغراب ، مُتَمي بذلك ، لأن العرب تزجر به وتتشاءم ،
وتقدّم ذلك ، ومن وصيته لولده على أسنتهم ، قالوا : قال الغراب لابنه : يا بني إذا
رمى فتلوّص أي تلوّ ، قال : يا أبت أنا أتلوّص قبل أن أرمي . وقال لابنه وقد
رأى رجلاً فوق سهماً : يا بني اتئد ، حتى تعلم ما يريد الرّجل ، فقال : يا أبت ،
الحذر قبل إرسال السهم .

وأبو الحارث : الأسد كنى بذلك لاحترائه ، أي لا اكتسابه بقتوته .

وأبو قرّة : الحرباء كنى بذلك لأنّ البرد لا يفارقه ، فالحرباء تدور لذلك مع
الشمس حيثما دارت ، وتقدّم حزامها ، وصر أنها لا تفارق ساق الشجرة حتى
تمسك ساق الأخرى .

وأبو جعدة : كنية الذئب ، وهى كنية بالضدّ لأنّ جعدة عندهم الشاة ، ولما كان الذئب يقتلها حيث وجدها جعلوه أباهما بضدّ ما يفعل الأب الذى لا يقال له أب إلا لوجود الرحمة عنده على بنيه ، ونحوها قولهم للأسود : أبو البيضاء . والختل : المكر .

وأبو عقبة الخنزير ، زمن حرصه أنه يمشى بالليل وبالأسحار لطلب ما يأكل ، ويستتر بالنهار حرصاً على السلامة .

وأبو وثاب : الظئى ، وكنتى بذلك اسرعة وثبة .

وأبو الحصين : الثعلب ، وهو أكثر الحيوان مكرراً ، ومن بعض مكره أنه إذا رأى الغلبة تماوت فلا تشكّ فى أنه ميّت ، فإذا وقع له غير عارف تركه فما يمرّ يسيراً حتى يقوم فاراً أو تحصينه يبصل العنصل من الذئب ، لأنّ الذئب لا يطاؤه فى زعم قوم ، وقالوا : إنّ الضبّع صادت ثعلباً ، فقالت : أخيرك يا ثعلب بين خصلتين ، فقال : ما هما ؟ فقالت : إما أن آكلك وأما أن أكلك ، فقال لها الثعلب : أما تذكرين يوم نكحتك ؟ فقالت : متى ؟ فانفتحت فوها وانفلت الثعلب ، فذكروا ذلك مثلاً ، وقالوا : ضرب عليه خصلتى الثعلب ، وقالوا : إنّ الثعلب اطلع فى بئر وهو عاطش وعليها رشاء فى طرفيه دلوان ، فقع فى الدلو العليا فأنحدرت ، فشرب ، فجاء الضبّع فاطلعت فى البئر ، فأبصرت القمر فى الماء منتصباً والثعلب قاعد فى قعر البئر فقالت له : ما تصنع هنا ؟ فقال لها : إني أكلت نصف هذه الجبنة وبقي نصفها لك فانزلى فكليها ، فقالت : وكيف أنزل ؟ قال : تقعين فى الدلو فقعدي فيها ، فأنحدرت وارتفع الثعلب فى الدلو الأخرى فلما التقيا فى وسط البئر قالت له : ما هذا ؟ قال : كذا التجار ، نختلف ، فضربت بهما العرب للثل فى المختلفين ، وأوصاف مكره كثيرة .

وأبو أيوب : الجمل مُمَيّ بذلك لأنه أصبر الدواب على العطش والجوع

وقطع الأشهر بالسير المتصل ونقل الأوفار ، ومهما كان به شيء من قوة تجدد ،
فإذا وقف عِلْمُ أنه ليس فيه بقية ينتفع بها .

وأبو غزوان الهرّ لغزوه الفئران وخشاش الأرض وتلطّفه يظهر في محاولاته
لتصيد الفأر فإذا قدمت المائدة : قُرْبَ منها وأخذ يتلطّف في صياحه ويتضرّع
ويحتكّ بالمائدة أو بالأكل حتى يعطى .

وأبو براقش : طائر أغبر أوسطه أحمر ، وإذا انتفض تلون ألواناً .
أخذ الحريريّ هذا الفصل من كلام العلماء ، قالوا : ابن آدم هو العالم الكبير
الذى جمّع الله تعالى العالم كلّ فيه فكان فيه بسالة الأسد وصبر الجمل وحرص
الخنزير وحذر الغراب وروغاف الثعلب ؛ وضرع السنور ، وحكاية القرد
وجبن الصقر .

قيل لرجل من كبار العلماء وكان بايلاً سريع النسيان في ابتداء تعلّمه : بم
أدركت العلم مع بلادتك وكلّ خاطرك ؟ قال : بكيور ككيور الغراب وصبر
كصبر الجمل وحرص كحرص الخنزير .

واخلب بصوغ اللسان ، واخذع بسجّر البيان ، وازتد الشوق
قبل الجلب ، وامتر الضرع قبل الحلب ، وسائل الركبّان قبل المتجع ،
ودمت لجنيك قبل المضطجع ، واشخذ بصيرتك للعيافة ، وأنعم
نظرك للقيافة ، فإن من صدق توثمه ، طال تبسمه ، ومن أخطأ فراسته
أبطأت قريسته .

وكن يا مبنّى خفيف الكلّ ، قليل الدالّ ، راغباً عن العلّ ، قانعاً من
الوبل بالطلّ . وعظم وقع الحقيّر ، واشكر على التّقيّر ، ولا تقنط
عند الردّ ، ولا تستبمد رشح الصلّد ، ولا تبتس من روح الله ، إنه
لا يبتس من روح الله إلا القوم الكافرون .

وَإِذَا خَيْرَتْ بَيْنَ ذَرَّةٍ مَّنْقُودَةٍ، وَذَرَّةٍ مَّوْعُودَةٍ، فَمُلَّ إِلَى النَّقْدِ،
رَفَضَ الْيَوْمَ عَلَى الْغَدِ، فَإِنَّ لِلتَّأْخِيرِ آفَاتٍ، وَلِلْعَزَائِمِ بَدَوَاتٍ، وَلِلْعِدَاتِ
مُعَقَّبَاتٍ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّجَازِ عَقَبَاتٍ وَأَيَّ عَقَبَاتٍ.

* * *

قوله: اخْلُبْ بصوغ اللسان، أى بمذوبة الكلام، قال ابن كنانة الشاعر:
كنت أتكلم بكلام فلو لم يجد سامعُه إلا القطن الذى فى وجه أمه فى القبر،
لتغلغل إليه حتى يخرجَه ويهديه إلى. وأنا اليوم أنحدث بذلك الحديث بعينه
نما أفرغ منه حتى أُهَيَّئَ له اعتذارى. وارْتَدَّ، أى اطلب. والجلب: ما يجلب
إلى السوق للبيع. امتر: امسح، ويفعل ذلك بالضرع لأنه يُدَرُّ لبنه. المنتجع:
موضع العشب، أراد به موضع طلب الرزق. دَمِث: لين. اشْحَذْ: اجْلُ
واصْطَلْ. وقال فى الدرة: ويقولون: شَحَاتُ البتاء، وصوابه، بالذال لأن اشتقاقه
من شَحَذَتِ السيف، إذا بالغت فى إحداذه فكان الشحاذ هو المُلِحُّ فى المسألة
المبالغ فى طلب الصدقة. بصيرتك: ذهنك. العيافة: زَجَر الطير. أنعم: بالغ.
القيافة: الاستدلال على الولد، وذلك أن ينظر خِائِفَتَهُ وصفته، فيشبهه بأبيه.
توسمه: نظره. الفِرَاسَة: الحكم بحالات الشيء على ما يكون منه فى المستقبل.
الكل: الثقل. والدَلُّ والدلال بمعنى واحد. العَلَّ: الشرب بعد الشرب وراغباً
عنه: تاركاً له. النقيير: حفرة فى ظهر نوى الدّر، ومنها تنبت النخلة. تقنط:
تيأس. روح الله: رزقه، ولبعضهم فى هذا المعنى:

سَيُفْتَحُ بَابٌ إِذَا سُدَّ بَابٌ نعم وتاين الأمور الصَّعَابُ
ويَقْسَعُ الْحَالُ مِنْ بَعْدِهَا تضيق المذاهب فيه الرَّحَابُ
مع العسر يُسْرَكان هَوْنٌ عَلَيْكَ فلا اليسر دامٍ ولا الاكْتِثَابُ
إِذَا احْتَجَبَ النَّاسُ مِنْ سَائِلٍ فما دون سائل ربِّي حِجَابُ

آخر:

عَسَىٰ فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ
إِذَا اشْتَدَّ عَسْرٌ فَارَجٌ يُسْرًا فَإِنَّهُ تَضَىٰ اللَّهُ أَنَّ الْعُسْرَ يَقْبَعُهُ يَسْرٌ

آخر:

فَلَا تَجْزَعْ إِذَا أُعْسِرْتَ يَوْمًا فَقَدْ أَيْسَرْتَ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ
وَلَا تَيَاسُ فَإِنَّ الْيَأْسَ كُفْرٌ لَعَلَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنْ قَلِيلٍ
وَإِنَّ الْعُسْرَ يَتَّبِعُهُ يَسَارٌ وَقَوْلُ اللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلٍ
وَلَا تَظُنَّنَّ بَرِّكَ ظَنٌّ سَوْءٌ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَىٰ بِالْجَمِيلِ

قوله : دَرَّه ، كناية عن الشيء القليل : دُرَّة : جوهرة . آفات : جوائح .
وللعزائم بدوات ، يريد أن الإنسان يعزم على فعل الشيء في وقت ثم يبدو له
ألا يفعله . النَّجْز : تعجيل قضاء الحاجة ، وقد قدّم مثل هذا المعنى عند قوله :
وبع أجلا منك بالعاجل .

* * *

وَعَلَيْكَ بِصَبْرِ أُولَى الْعَزْمِ ، وَرِفْقِ ذَوِي الْحَزْمِ ، وَجَانِبِ خُرْقِ
الْمَشْتَطِّ ، وَتَحَلُّقِ بِالْخُلُقِ السَّبْطِ ، وَقَيْدِ الدَّرْهِمِ بِالرَّبْطِ ، وَشُبِّ الْبَذْلِ
بِالضَّبْطِ ، وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ،
وَمَتَّى نَبَابِكَ بَلَدٌ ، أَوْ نَابَكَ فِيهِ كَمَدٌ ، فَبُتَّ مِنْهُ أَمْلَكَ ، وَاسْرُخْ عَنْهُ
جَمْلَكَ ، خَيْرُ الْبِلَادِ مَا جَمَّلَكَ ، وَلَا تَسْتَشْقِلَنَّ الرِّحْلَةَ ، وَلَا تَكْرَهَنَّ
الثَّقْلَةَ ، فَإِنَّ أَعْلَامَ شَرِيعَتِنَا ، وَأَشْيَاخَ عَشِيرَتِنَا ، أَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ الْحَرَكَةَ
بَرَكَهٌ ، وَالطَّرَاوَةَ سُفْتَجَةٌ ، وَزَرَوْا عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْغُرْبَةَ كُرْبَةٌ ، وَالثَّقْلَةَ
مُثْلَةٌ ، وَقَالُوا : هِيَ تَعْلَةٌ مِنْ افْتِنَعِ بِالرِّذِيلَةِ ، وَرَضِيَ بِالْحُشْفِ وَسُوءِ
الْكَيْلَةِ . وَإِذَا أَرْمَعْتَ عَلَى الْإِغْتِرَابِ ، وَأَعْدَدْتَ لَهُ أَنْعَامًا وَالْجِرَابِ ،

فتخير الرفيق المسعد، من قبل أن تُصعد؛ فإن الجمار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق .

خُذْهَا إِلَيْكَ وَصِيَّةً لَمْ يُوصِهَا قَبْلِي أَحَدٌ
غَرَاءَ حَاوِيَةً خَلَا صَاتِ الْمَعَانِي وَالزُّبْدُ
نَقَّحْتُهَا تَنْقِيحَ مَنْ مَحَضَ النَّصِيحَةَ وَاجْتَهَدُ
فَاعْمَلْ بِمَا مَثَلَتْهُ عَمَلَ اللَّيْلِ أَخِي الرَّشْدُ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ هَذَا الشُّبْلُ مِنْ ذَلِكَ الْأَسَدُ

* * *

المشتط : المتجاوز القدر في محاولته . وألحرق ضد الرتق . الشببط : السهل .
شُبْ : أخاط . البذل : العطاء . والضبط : الحبس . قال أبو حاتم الدارى :
دخلت مع أبى مدينة السلام فرأيت رجلاً واقفاً على الطريق يلعب بحية ويقول :
مَنْ يَهَب لِي دِرْهَمًا حَتَّى أَتَلْعَ هَذِهِ الْحَيَّةَ ؟ فَالْتَفَتَ إِلَى أَبِي وَقَالَ : يَا بَنِي احْفَظْ
دِرْهَمَكَ فَمَنْ أَجْلَهَا تُبَلِّغَ الْحَيَاتِ . مغلولة : محبوسة ، أى لاتكن شحيحاً ممسكاً
ولا كريماً متلقاً . نابك : نزل بك . كمد : حزن . بت : أقطع . أملك ،
أى رجاءك : أسرح عنه ، أى أزله وسرحه بالشئ إلى غيره . الرحلة : الارتحال .
النقلة : الانتقال . أعلام شريعتنا : مشايخ طريقتنا . الطراوة : أن يطرأ على
بلد لم يره . السفتجة : ما أتناك بغير تكلف ولا مشقة ، وهى عند أهل المشرق
أن يأخذ الرجل الدرهم والدنانير ، فيعطيهما صاحبه ، ويقول : احملها لى معك
لأمن طريقك ، ولتعتك إلى بلد كذا فادفعها لى ، ثم فإن طريقى غير آمن
من اللصوص . قال مالك رضى الله تعالى عنه : إن قصد بها المنفعة لم يُجز لأنه
سَلَفٌ جَرَّ منفعة ، فيقول : الطراوة على الناس كالسفتجة ، ترغب لك فى أخذ

الدرهم ، وقد يكون منك تمتع عن أخذها . زروا : عابوا . كربة : هم ، وقال :
 مَنْ ذَمَّ السفر : الغربة كربة والنقلة مثله ، والغريب كالفرس الذي زابل أصله
 وقد شربه ، فهو ذاو لا يثمر وذا بِلٌ لا ينضر . إذا كنت في غير بلدك فلا تنس
 نصيبك من الذل . تَعَلَّة : عذر . الرذيلة : الدون من كل شيء . الخشف : الردى
 من التمر . السكيلة الهيئة ، ومعناه أنه اجتمع عليه عيبان : تمر فاسد وكيل ناقص .
 أزمعت : عزمت . الاغتراب : الجولان والغربة . الجُرَاب : الوعاء للزاد .
 المسعد : الموافق القليل الخلاف . تُصعد : ترتفع وتخرج ، الجار قبل الدار ، يقول :
 لا تشتر داراً حتى تعلم مَنْ جيرانك ، وكفى الجار أن قال صلى الله عليه وسلم
 في حقه : « مازال جبريل يُوصيني بالجار حتى خفت أن يورثه » ، وقال
 الزاهد ابن عمران :

لِتُعْنَ بِالْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ تَسْكُنُهَا لا خَيْرَ فِي الدَّارِ مَا لَمْ يَحْمَدِ الْجَارُ
 الجار إن غبت عن أهلٍ وعن وطنٍ نعم الخليفةُ هم أهلٌ وأنصارُ
 والجار المساعد أحسن من القرابة . ويروى أن رجلاً كان جاراً لأبي دلف
 ببغداد ، فأدركته حاجة ، وركبه دينٌ فادح حتى احتاج إلى بيع داره ، فساوموه
 فيها ، فسَمَّى لهم ألف دينار ، فقالوا له : إن دارك تساوي خمسمائة دينار ، فقال :
 أبيع داري بخمسمائة وجوار أبي دلف بخمسمائة ، فبلغ أبا دلف الخبر ، فأمر بقضاء
 دينه ووصله ، وقال : لا تنتقل من جوارنا ، فانظر كيف صار الجوار يُباع
 كما يباع العقار ، وقال الشاعر :

يُومُونَنِي أَنْ بَعْتُ بِالرَّخْصِ مَنْزِلِي وَلَمْ يَعْلَمُوا جَاراً هُنَاكَ يَنْغَصُّ
 فَقَدْ لَمْ كَفُّوا الْمَالَ فَإِنَّمَا بِجِيرَانِهَا تَفُلُّو الدِّيَارُ وَتَرْخُصُ
 غراء : ظاهرة حسنة . حاوية : جامعة . خلاصات : جمع خلاصة ، وهو
 الذي يتخلص من الشيء ويصفو منه ، والزُّبْد : جمع زبدة اللبن . فقَحَّتْهَا :

هَذَّبَهَا . مُحَضَّرَ : أَخْلَصَ . اللَّيْبُ : الْعَاقِلُ . أَخَى الرَّشْدَ : صَاحِبُ الرَّشْدِ .
الشَّيْلُ : وَلَدُ الْأَسَدِ .

ثم قال : يَا بَنِيَّ ، قَدْ أَوْصَيْتُ وَاسْتَقْصَيْتُ * * * ، فَإِنْ اقْتَدَيْتَ فَوَاهَاً لَكَ ،
وَإِنْ اعْتَدَيْتَ فَأَهَاً مِنْكَ ، وَاللَّهِ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ ، وَأَرْجُو أَلَّا تُخْلَفَ
ظَنِّي فِيكَ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ : يَا أَبَتِ لَا وَضِيعَ عَرْشُكَ ، وَلَا رُفِعَ نَعْشُكَ ، فَلَقَدْ
قَلَّتْ سَدَدًا ، وَعَلِمْتَ رَشْدًا ، وَنَحَلْتَ مَا لَمْ يَنْحَلْ وَالِدٌ وَلَدًا ، وَلَيْسَ
أُمِّهِلْتُ بَعْدَكَ — لَا ذَقْتُ فَقْدَكَ — فَلَا تَأْدِبَنَّ بَأْدَابِكَ الصَّالِحَةَ ،
وَلَا قَتْدِينَ بَأَنَارِكَ الْوَاضِحَةِ ؛ حَتَّى يَقَالَ : مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ وَالْغَادِيَةِ
بِالرَّائِحَةِ ! فَاهْتَزَّ أَبُو زَيْدٍ لُجُوبُهُ وَابْتَسَمَ ، وَقَالَ : مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَاظْلَمْ .
قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَامٍ : فَأَخْبِرْتُ بَأَنِ بَنِي سَاسَانَ ، حِينَ سَمِعُوا هَذِي الْوَصَايَا
الْحَسَنَةَ ، فَضَلُّوْهَا عَلَى وَصَايَا الْقِمَانِ ، وَحَفَظُوهَا كَمَا تُحَفَظُ أُمُّ الْقُرْآنِ ؛ حَتَّى
إِنَّهُمْ لَيُرَوْنَهَا إِلَى الْآنَ ، أَوْلَى مَا لَقَنُوهُ الصَّبِيَّانِ ، وَأَنْفَعَ لَهُمْ مِنْ نَحْلَةِ الْعِيقِيَّانِ .

غُرَاءَ : ظَاهِرَةٌ حَسَنَةٌ . حَاوِيَةٌ : حَامِيَةٌ . خَلَاصَاتُ : جَمْعُ خَلَاصَةٍ وَهُوَ
الَّذِي يَصِفُو مِنْهُ . وَالزَّبْدُ : جَمْعُ زَبْدَةِ اللَّبَنِ اقْتَدَيْتَ : اتَّبَعْتَ وَصِيَّتِي . وَاهَاً :
عَجَبًا . اعْتَدَيْتَ : ظَلَمْتَ . آهَا : كَلِمَةٌ مَعْنَاهَا التَّوَجُّعُ . عَرْشُكَ : سَرِيرُكَ ، وَالْمَعْنَى
أَنَّهُ يَدْعُو لَهُ بِالْبَقَاءِ . سَدَدًا : صَوَابًا . نَحَلْتَ : أَعْطَيْتَ . الْوَاضِحَةُ : الْبَيِّنَةُ . الْغَادِيَةِ :
السَّحَابَةِ تَأْتِي بِالْغَدْوِ . وَالرَّائِحَةُ بِالْعَشِيِّ ، قَالَ الْفَرَاءُ النُّعْوَى : مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَلَا
ظَلَمَ مِثْلَ أَخْذِهِ النَّاسَ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

أَنَا ابْنُ الَّذِي لَمْ يَخْزِنِي فِي حَيَاتِهِ قَدِيمًا وَمَنْ يَشْبَهُ أَبَاهُ فَاظْلَمْ
لَقَنُوهُ : عَلَّمُوهُ . أَوْلَى . أَحَقُّ . نَحْلَةٌ : عَطِيَّةٌ . الْعِيقِيَّانِ : الذَّهَبُ .

المقامة الخمسون وهي البصرية

حكى الحارث بن همام قال : أشعرتُ في بعض الأيام هَمَّا بَرَّحَ به استعاره ، ولاحَ على شعاره ، وكنتُ سمعتُ أن غُشيانِ مجالسِ الذِّكر ، يَسْرُو غواشيَ الفِكر ، فلم أرَ لطفاءَ ما بي من الجُمرة ، إلَّا قَصْدَ الجامع بالبصرة ، وكان إذ ذاك مأهولَ المساند ، مشفوه الموارد ، يُجتنَى من رياضِه أزهيرُ الكلام ، ويُسمع في أرجائه صريرُ الأقلام ، فانطلقتُ إليه غيرَ وَّانٍ ، ولا لَوٍ على شان ، فلَمَّا وطئتُ حصاه ، واستشرفتُ أقصاه ، تراءى لى ذو أطمارٍ بالية ، فوق صخرة عَالِيَةٍ ، وقد عَصَبَتْ به عُصَبٌ لا يحصى عديدهم ، ولا ينادى وليدهم ، فابتدرتُ قَصْدَهُ ، وتورَدْتُ وِرْدَهُ ، ورجوتُ أن أجِدَ شِفائى عنده ، فلم أزلُ أتَنقَلُ في المراكز ، وأغضى للاكز والواكز ، إلى أن جلستُ تجَاهَهُ ، بحيثُ أَمِنْتُ اشتباهه ، فإذا هو شيخنا التَّمْرُوجى لا ريبَ فيه ، ولا لَبَسَ يُخَفِّيه ، فأنسَرى بمرآه هَمَّى ، وازْفَضْتُ كتيبة غمَّى .

* * *

أشعرت : ألبست . برَّح : شق واشتدَّ . استعاره : توقده في القلب . لاح : ظهر ، يريد أنه لبس الهمَّ كالشَّمار . والشَّعار : ثوب يلى الجسد ، والشَّعار علامة القوم في الحرب ، فعناه عَبَسَ وجْهُه من شدة الهم . يسرو : يزبل . غواشى الفكر : ما يغشا ويدخل عليه من الهم . مأهول : كثير الأهل . المساند : جمع مُسَنَد ، وهو ما يسند إليه ظهره ، أراد مواضع العلماء المتصدين للإقراء . والموارد : مواضع المياه . مشفوه : كثيرة الشفاء عليه للشرب ، وأراد

ازدحام الطلبة على الأشياخ لأخذ العلم . أزاهير : أنوار . أرجائه : نواحيه .
 صرير : أصوات . وان : مقصر . لاو على شان : معرج على أمر . استشرفت
 أقصاه : اطلعت بنظري عليه كله . تراءى : ظهر . أطار : ثياب خلقة .
 عصبت : أهدقت وحلقت . عُصَب : جماعات . لاينادى وليدهم ، هذا مثل
 يستعمل في الأمر المعجب المبالغ في وصفه المعجب منه ، وقد يؤول على تأويلات ،
 وهو يستعمل في الخير والشر . والرخاوة والشدة . ابتدرت قصده ، أى عجلت
 المشى إلى جهته . توردت وزده ، أى طلبت منفعة . والمراكز : مواضع
 الجلوس ، ومركز الرجل : موضعه ، وركزت الشيء غرسته . أغضى : أغضض
 على المكروه . اللاكز : الضارب في الصدر . الواكز : الضارب في ناحية الفم ،
 والوكز واللکز يجمع اليد . تُجَاهه : قبالة وجهه . اشتباهه : القياسه بغيره .
 يخفيه : يستره . انسرى : زال وانكشف . ارفضت : تفرقت . كتيبة غمى ،
 أى عسكره .

* * *

وَحِينَ رَأَى ، وَبَصَرَ بِمَكَانِي ، قَالَ : يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، رَعَاكُمْ اللَّهُ
 وَوَقَاكُمْ ، وَقَوَّى ثِقَاكُمْ ، فَأَاضُوعَ دِيَاكُمْ ، وَأَفْضَلَ مَزَايَاكُمْ ،
 بَلَدُكُمْ أَوْفَى الْبِلَادِ طُهْرَةً ، وَأَزْكَاهَا فِطْرَةً ، وَأَفْسَحَهَا رُقْعَةً ، وَأَمْرَعَهَا
 نَجْمَةً ، وَأَقْوَمَهَا قِبْلَةً ، وَأَوْسَعَهَا دِجْلَةً ، وَأَكْثَرَهَا نَهْرًا وَنَخْلَةً ، وَأَحْسَنَهَا
 تَفْصِيلًا وَجَمَلَةً ، دِهْلِيزُ الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَقِبَالَةُ الْبَابِ وَالْمَقَامِ ، وَأَحَدُ جَنَاحِي
 الدُّنْيَا ، وَالْمِصْرُ الْمُؤَسَّسُ عَلَى التَّقْوَى ، لَمْ يَتَدَنَّسْ بِيُوتِ النَّيِّرَانِ ،
 وَلَا طَيْفٍ فِيهِ بِالْأَوْثَانِ ، وَلَا سُجْدٍ عَلَى أَدِيمِهِ لَغَيْرِ الرَّحْمَنِ ، ذُو الْمَشَاهِدِ
 الشَّهُودَةِ ، وَالْمَسَاجِدِ الْمُقْصُودَةِ ، وَالْمَعَالِمِ الْمَشْهُورَةِ ، وَالْمَقَابِرِ الْمَرْوُورَةِ ،

وَالْأَنْهَارِ الْمَحْدُودَةِ، وَالْخِطَطِ الْمَحْدُودَةِ، بِهِ تَلْتَقِ الْفُلُكُ وَالرُّكَّابُ، وَالْحَيْتَانُ
وَالضَّبَّابُ، وَالْحَادِي وَالْمَلَّاحُ، وَالْقَانِصُ وَالْفَلَّاحُ، وَالنَّاشِبُ وَالرَّامِحُ،
وَالسَّارِحُ وَالسَّابِحُ، وَلَهُ آيَةُ الْمَدِّ الْفَائِضُ، وَالْجَزْرُ الْغَائِضُ .

* * *

وقوله : وحين رآني ، يريد أن السَّروحي علم أن ابن هَمَّامٍ يَعْرِفُ مَكْرَهُ
النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدٍ ، فَنَحْنِي أَلَّا يُسَمَّحَ لَهُ بِخِدَاعِ أَهْلِ بَلَدِهِ ، فَأَخَذَ يَمْدَحُ الْبَصْرَةَ
وَأَهْلَهَا لِرِضَايَةِ ذَلِكَ . رَعَاكُمْ اللَّهُ : حَفَظَكُمْ . وَقَاكُمْ : كَفَاكُمْ مَا يَحْذَرُ . تَقَاكُمْ :
خَوَّفَكُمْ اللَّهَ . أَضْوَعَ رِيَاءَكُمْ : أَنْوَحَ رَائِحَتَكُمْ . مَزَايَاكُمْ : فَضَائِلُكُمْ الَّتِي خُصِّصَتْ
بِهَا . أَوْفَى : أَكْمَلَ . أَفْسَحَهَا : أَوْسَعَهَا . الرِّقْعَةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ الْأَرْضِ .
أَمْرَعَهَا : أَخْصَبَهَا . النَّجْعَةُ : مَوْضِعُ الْعُشْبِ يَنْتَجِعُهُ النَّاسُ . دِجْلَةٌ : نَهْرُ الْبَصْرَةِ .
تَفْصِيلًا وَجَمَلَةً ، يَقُولُ : إِنْ جِزَيْتُ مَوَاضِعَهَا وَتَنَاظَرْتُ كُلَّ جِزَاءٍ مِنْهَا مَعَ كُلِّ جِزَاءٍ
مِنْ غَيْرِهَا كَانَ لَهَا الْفَضْلُ ، فَإِنْ قِيلَ : أَيْ الْبِلَادُ أَحْسَنُ عَلَى الْجَمْلَةِ ؟ قِيلَ الْبَصْرَةُ .
الدَّهْلِيزُ : أَسْطُوَانُ الدَّارِ وَمَدْخَلُهُ ، وَالْمَقَامُ : مَوْضِعُ قِيَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
عِنْدَ الْكَعْبَةِ لِلدَّعَاءِ . أَحَدُ حَتَايِ الدُّنْيَا : مِنْ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ : «الدُّنْيَا عَلَى مِثَالِ
الطَّائِرِ ، فَالْبَصْرَةُ وَمِصْرُ الْجَنَاحَانِ فَإِذَا خَرَبَا وَقَعَ الْأَمْرُ» . الْمَوْسِسُ عَلَى التَّقْوَى :
الَّذِي بُنِيَ أَسَاسُهُ فِي الْإِسْلَامِ . يَتَدَنَسُ : يَتَوَسَّخُ . الْأَوْثَانُ : الْأَصْنَامُ . أُدِيَّتِهِ :
جِلْدُهُ ، أَرَادَ بِهِ أَرْضَهُ . اخْلُطَّطَ : الدَّوْرُ وَالْأَرْقَةُ . الْمُخْتَطَّةُ : الْمَوْسُومَةُ لِبَيْتِي فِيهَا .
الْفُلُكُ : السَّفِينُ . الرُّكَّابُ : الْإِبِلُ ، يَرِيدُ أَنَّهَا بِمَجْرِيَةِ بَرِيَّةٍ . الضَّبَّابُ : جَمْعُ ضَبٍّ .
الْحَادِي : سَائِقُ الْإِبِلِ فَإِذَا كَانَ الْحَادِي حَسَنَ الصَّوْتِ بَلَغَتْ الْإِبِلُ جَهْدَهَا
فِي الْمَشْيِ . الْمَلَّاحُ : خَادِمُ السَّفِينَةِ . الْقَانِصُ : صَائِدُ الْحَوْتِ . الْفَلَّاحُ :
الْحَرَّاثُ . النَّاشِبُ : الرَّامِي النَّشَابُ . الرَّامِحُ : الطَّاعِنُ بِالرَّمْحِ ، أَرَادَ الْإِغْزَازَ
لأنَّهم رَمَاةُ الْعَرَبِ لأنَّهم أَحْصَابُ رِمَاحٍ . وَالسَّارِحُ : رَاعِي الْإِبِلِ . وَالسَّابِحُ :

العائم في الماء . آية : علامة . المدّ والجزر ، أى زيادة البحر ونقصانه وهما الماء والحصر ، ونهر البصرة يركض فيه البحر .

* * *

وَأَمَّا أَنْتُمْ فَمَنْ لَا يَخْتَلِفُ فِي خَصَائِصِهِمْ اثْنَانِ ، وَلَا يُنْكِرُهَا
ذُوشَنَانُ ؛ دَهْمَاؤُكُمْ أَطْوَعُ رَعِيَّةً لِسُلْطَانٍ ، وَأَشْكُرُهُمْ لِإِحْسَانٍ ،
وَزَاهِدَكُمْ أَوْرَعُ خَلِيقَةً ، وَأَحْسَنُهُمْ طَرِيقَةً عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَعَالِمَكُمْ
عَلَامَةُ كُلِّ زَمَانٍ ، وَالْحِجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، وَمِنْكُمْ مَنْ اسْتَنْبَطَ
عِلْمَ النَّحْوِ وَوَضَعَهُ ، وَالَّذِي ابْتَدَعَ مِيزَانَ الشُّعْرِ وَاخْتَرَعَهُ ، وَمَا مِنْ
فَخْرٍ إِلَّا وَلَكُمْ فِيهِ أَيْدُ الطُّوْلِ ، وَالْقِدْحُ الْمَعْلَى ، وَلَا صَبَتْ إِلَّا وَأَنْتُمْ
أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى . ثُمَّ إِنَّكُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ مِصْرٍ مُؤَدِّينَ ، وَأَحْسَنُهُمْ فِي
النُّسْكِ قَوَانِينَ ، وَبِكُمْ اقْتَدَى فِي التَّعْرِيفِ ، وَعُرِفَ التَّسْحِيرُ فِي الشَّهْرِ
الشَّرِيفِ ، وَلَكُمْ إِذَا قَرَّتِ الْمَضَاجِعُ ، وَهَجَعَ الْمَاجِعُ ، تَذْكَارٌ
يُوقِظُ النَّأَمَ ، وَيُؤْنِسُ الْقَائِمَ ، وَمَا ابْتَسَمَ تَعْرِفُ فَجْرٌ ، وَلَا بَرَعَ نَوْرُهُ فِي
بَرْدٍ وَلَا حَرٍّ ، إِلَّا وَلَتَأْذِينُكُمْ بِالْأَسْحَارِ ، دَوَى كَدَوَى الرِّيحِ فِي الْبَحَارِ .
وَبِهَذَا صَدَعَ عَنْكُمْ النَّقْلُ ، وَأَخْبَرَ النَّبَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْلِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّ
دَوَى كَدَوَى الْأَسْحَارِ ، كَدَوَى النَّحْلِ فِي الْقِفَارِ ، فَشَرَفَ أَلَكُمْ بِبِشَارَةِ الْمُصْطَفَى
وَوَاهَاً لِمِصْرِكُمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ عَفَا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا شِفَا .

* * *

خصائصهم : ما يختصون به من الفضائل ، أراد أن البصرة اجتمعت فيها

الأشياء المتنافرة والمتضادة التي لا تجتمع ببلد ، فهي أجمع بلاد الله فائدة ، قال ابن أبي عيينة في نحوه :

زُرُودَى القصر نعم التصر والوادی لا بدّ من زُورَة من غير ميعادِ
زُرّه فليس له شبه يقاربه من منزلٍ حاضرٍ إن شئت أو بادِ
ترى قراقره والعيس واقفةً والضَّبُّ والنون والملاح والحادي
[ذكر البصرة]

وبالبصرة اختطّها عُتْبَة بن غَزْوَان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعُتْبَة بدرى مهاجرى ، بناها سنة أربع عشرة من الهجرة فمرّ بموضع منها فوجد الكذّان ، وهى الحجارة الرخوة فقال : هذه البصرة ، انزلوها بسم الله ، فسمّيت لذلك البصرة ، واختطّت الكوفة سنة سبع عشرة من الهجرة فى الحرم ، وكسّرت البصرة فى أيام خالد القسرى فوجد طولها فرسخين فى مثلها والكوفة ثلثاها . وأمّا فى أيام المنصور فقسم على مَنْ يستوجب العطاء من أهل البصرة ألف ألف درهم ، فأصاب كلّ رأس درهين .

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدعيها عليهم : النخل والشاء والحمام ، أما النخل فهم أعلم خلق الله به وأحذقهم بإصلاحه ، وفيها من أصناف النخل ما ليس فى بلد من البلدان ، وأما الشاء المعبدية فقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عبد القيس ، فقال : يا رسول الله إني رجل أحبّ الشاء ، فدفع له فخلا من المعز فقبض بيده على أصل أذنه ، حتى استدارت أصابعه ، فصار فى أذنه كالسّمة فسار إلى بلده فأطرقه شاءه ، فحُمِلت إلى البحرين ، فتناسلت هناك فليس فى البحرين شاة كريمة إلا وفى أذنها سمّة كالخلقة ، فيغالى بها لتلك العلامة حتى تبلغ الشاة منها خمسين ديناراً ، وتعتد بالبصرة عقودها ، وفيها شاة لبني فلان أمّها فلانة ، وأبوها تيس بنى

فلان ، مقدار حلبها بالغداة والعشي كذا . وحمامهم بلغت في الهداية أن جاءت من أقاصى بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وينتهى ثمن الطائر منها إلى تسعمائة دينار، وتباع بيضتها بعشرين ديناراً، وكل ما وصف في المقامة موجود في البصرة، ولما صعد على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه منبرها خطب وقال في آخر خطبته : يا أهل البصرة، يا بقايا ثمود ويا جند المرأة، ويا أتباع البهيمة، دعا فأتبعتم، وعقر فأنهزتم، أما إني أقول لا رغبة فيكم ولا رهبة منكم، غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرض يقال لها البصرة، أقوم الأرضين قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، ومتصدقها أكثر الناس صدقة، وتاجرها أعظم الناس تجارة منها إلى قرية يقال لها الأبله أربع فراسخ، يستشهد عند مسجدتها سبعون ألفاً، الشهيد منهم كالشهيد في يوم بذر . فبنى الحريري في مدح البصرة على هذا الحديث، وإنما ختم كتابه بذكر البصرة وأهلها لتقوى مفاخرهم، ومفاخر بلدهم في البلدان فيلجئون بالمقامات ويقدمونها على غيرها .

قوله : شأن ، أى عداوة . دهاؤكم : جماعاتكم ، والدهاء معظم الناس وأكثرهم . والدّهم : العدد الكثير . عابذك : زاهدكم . كالحسن البصرى ومحمد ابن سيرين وغيرهما . الخليفة ، أى أخوف الناس من الله تعالى . علامة : كثير العلم .

[ذكر أبى الأسود]

ومستنبط علم النحو هو أبو الأسود الدؤلى ، واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان أحد بنى الديل من كنانة ، وهو يعدّ في التابعين والمحدثين والشعراء والبغلاء والتّحويين ، ويعدّ في العرج والمفاليج والبُخَر ، شهد مع على رضى الله عنه صفين ، وولى البصرة لابن عباس رضى الله عنهما ، وكان من شيعة على

وكانت امرأته عثمانية ، وكان أصهاره لا يزالون يردّون عليه قوله في عليّ ،
فقال فيهم :

يقولُ الأزدلون بنو قُشَيْرٍ طَوَالَ الذَّهْرَ لَا تَنْسَى عَلَيًّا
فَقَاتَ لَمْ وَكَيْفَ يَكُونُ تَرْكِي مِنْ الْأَعْمَالِ مَا يَعْصِي عَلَيًّا
أَحَبُّ مُحَمَّدًا حَبًّا شَدِيدًا وَعَبَّاسًا وَحَمَزَةً وَالْوَصِيَّا
بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُوه أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَيَّا
فَإِنْ يَكُ حُبِّهِمْ رَشَدًا أَصَبَهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غِيًّا

ولم يشك أبو الأسود أنه رشد، وعلى هذا تأويل قوله تعالى: (وإنّا أو إياكم
لعلّى هدى أو فى ضلال مبين) .

ومن بخله أنه كان يقول : لا تجاودوا الله فإن الله أجود وأجود ، ولو شاء
الله أن يوسع على خلقه حتى لا يكون فيهم محتاج لفعل . وكان يقول لولده :
إذا بسط الله لك فى الرزق فانبسط ، وإن قبضه فانقبض .

ومرّ برجل وهو يقول : مَنْ يَعْشَى هَذَا الْجَائِعُ؟ فأدخله وعشاه حتى شبع ،
ثم ذهب السائل ليخرج ، فقال له : أين تذهب ؟ فقال : لأهلى فقال : لا أدعك
تؤذى المساكين بسؤلك ، اطرحوه فى الأدفم ، فبات عنده مكبولا حتى أصبح .
وكتب إلى رجل يستسلفه فكتب إليه الرجل : المؤنة كثيرة ، والفائدة
قليلة ، والمال مكذوب ، فراجعه أبو الأسود : إن كنت كاذبا فجعلك الله صادقا ،
وإن كنت صادقا فجعلك الله كاذبا .

وقال الخليل : كان أبو الأسود ضئيلا بما أخذه من عليّ رضى الله عنه ،
وذلك أنه سمع لحنّا فقال لأبى الأسود : اجعل للناس حروفا ، فأشار إلى الرفع
والنصب والخفض .

وقال له زياد : قد فسدت ألسنة الناس ، لأنه سمع رجلا يقول : سَقَطَتْ عَصَاتِي ، فدافعه أبو الأسود .

وسمع رجلا يقرأ (أن الله يرى من المشركين ورَسُولُهُ) يخفص ، فقال : ما بعد هذا شيء ، فقال له : ابغني كتابا يفهم ، فجئ به رجل من عبد القيس ، فلم يرضه فهُمَّه ، فَأَتَى بآخر من قريش ، فقال له : إذا رأيتني قد فتحت في بالحرف فانقط نقطة على أعلاه ، وإذا ضمنت في فانقط نقطة بين يديه ، وإذا كسرت في فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإذا أشربت ذلك غنة ، فاجعل النقطة نقطتين ، فهذا نقط أبي الأسود .

واختلف الناس إليه يتعلمون العربية ، وفرَّع لهم ما أصَّله فأخذه جماعة كان أبرعهم عنبة بن معدان المهري يقال له الفيل ، فأقبل الناس عليه بعد موت أبي الأسود ، فبرع من أصحابه ميمون الأقرن ، فرأس في الناس وزاد في الشرح ، فبرع من أصحابه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، فبرع في النحو وتكلم في الهمز ، وأمل في كتابا ، وأخذ أبو عمرو بن العلاء عن أخذ عنه ، ثم نجم من أصحاب أبي عمرو عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب وأبو الخطاب الأخفش ، فآلف عيسى كتابين سمي أحدهما الكامل والآخر الجامع ، قال المبرد : فأخذ الخليل عن عيسى ، فلم يكن قبله ولا بعده مثله ، وهو القائل يمدح كتابي عيسى :

بطل النحو الذي جَمَعْتُمُ غير ما أحدث عيسى بن عُمرُ

ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمسٌ وقمرُ

قال أبو العباس : وقد قرأت أوراقا من أحدهما فكان كالإشارة إلى الأصول ، ثم أخذ عن الخليل جماعة لم يكن فيهم مثل عمرو بن قنبر سيديويه ، ويكنى أبا بشر وأبا الحسن ، وهو من موالى بنى الحارث بن كعب فآلف كتابه الذي سماه قرآن النحو ، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل .

وأبو الأسود من سكان البصرة .

[الخليل مخترع علم العروض]

ومستنبط : مستخرج ، والذي استنبط العروض هو الخليل ، وذكره بعض العروضيين فقال : لل خليل في العروض حكمة مخترعة ، وسابقة مبتدعة ، تبين بذلك فضله ، وظهر تقدمه لأنه لم يقبّع فيما وضعه أثراً موجوداً ، ولا اقتفى فيه رسماً مرسوماً ، واهتدى إلى ما لم يهتد إليه المتقدمون ولا أوجد مزيداً عليه المتأخرون . ولولا الخليل لم يُعَلِّم صحيح الشعر من كسيره ، ولا سقيمه من عليه ، وفي حَضْرِهِ لجميع أوزان العرب في خمس دوائر أعظم العَجَب لمن تدبر ماصنع وفهم .

وكان الخليل يحب أن يرى عبد الله بن المقفع ، وكان ابنُ المقفع يحب ذلك ، فجمعهما عباد المهابي ، فتجادتا ثلاثة أيام ولياليهن ثم افترقا ، فقيل لل خليل : كيف رأيت عبد الله ؟ فقال : مارأيت مثله قطّ وعلمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ فقال : مارأيت مثله قطّ وعقله أكثر من علمه ، وصدقا في ذلك ، أدّى عقل الخليل إلى أن مات وهو أزهد الناس ، وجَهِل ابن المقفع أرداه ، فكتب كتاباً لعبد الله بن عليّ على المنصور ، فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله ، ولا يحتمل الأمراء دون الخلفاء مثله ، فقال فيه : ومتى غَدَرَ أمير المؤمنين بعنه عبد الله بن عليّ ، فساؤه طوالق ودوابه حَوَاس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون في حلٍّ من بيعته ، فاشتد ذلك على المنصور وكتب إلى أمير البصرة أن اقتل عبد الله بن المقفع فقتله .

وقال ابن المقفع إن أكرمك الناس لمالٍ أو لسلطانٍ فلا يعجبك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولكن يعجبك إن أكرموك لأدبٍ أو دين . واتخذ عباد المهابي أرضاً فأراد غرسها ، فلامه أصحابه وقالوا : هي سبخة

فأشار عليه الخليل بفرضها ففرضها ، فجاءت بكل شيء حسن ، فحمل إليها الخليل
فاستحسنها ، وقال :

ترفعت عن ندى الأعماق وانخفضت عن المعاطش واستغنت بسقيهاها
فمال بالخلوخ والرمان أسفلها واعم بالنخل والزيتون أغلاها
وصار يغبطه من كان يمدله ولائم لأمه فيها تمنأها
أبا معاوية اشكر فضل واهبها وكلما جتها فاعمر مصلأها
وله :

عش ما بدالك قصرك الموت لامهرب منه ولا فوت
بيننا غنى بيت وبهجته زال الغنى وتقوَّض البيت

وتوفى الخليل سنة سبعين ومائة وهو ابن خمس وسبعين سنة وتقدمت
أخباره في الأربعين فلتنظر هناك .

قوله : اخترعه ، أى أوجده قبل أن يكون . مصر ، أى بلد . وقوانين :
طرق مستقيمة . التعريف : خلق الرأس بعد يوم عرفة . قرت المضاجع : نام
الناس فيها . جمع : نام . نغر : سن وأراد به بياض الصبح . بزغ : صدع
وظهر . النقل : الحديث : المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم . واهأ : عجباً .
عفا : درس . شفا : طرّف وشى قليل ، وشفا كل شيء حدّه وطرّفه .

* * *

ثم إنّه خزن لسانه ، وخطم بيانه ؛ حتّى حُذِجَ بالأبصار ، وقرف
بالإفصار ، ووَسِمَ بالاستقصار ، فتَنَفَّسَ تنفّسَ مَنْ قِيَدَ لِقود ،
أو ضَبَّتْ به برائِنُ أسد ، ثم قال : أمّا أنتم يا أهل البصرة ، فما منكم
إلاّ العلمُ المعروف ، ومن له المعرفة والمعروف . وأمّا أنا فمن عَرَفَنِي

فَأَنَا ذَاكَ ، وشرُّ المعارف مَنْ آذَاكَ ، وَمَنْ لَمْ يُثَبِّتْ عِرْفَانِي ،
فَسَأْضِدُّهُ صِفَتِي .

أَنَا الَّذِي أَنْجَدَ وَأَتَمَّ ، وَأَيَّمَنَ وَأَشَامَ ، وَأَصْحَرَ وَأَبْجَرَ ، وَأُدْلَجَ
وَأَسْحَرَ ، نَشَأْتُ بِسُرُوجٍ ، وَرُيِّتُ عَلَى الشَّرُوجِ .

ثُمَّ وَجَلَّتْ الْمَضَائِقُ ، وَفَتَحَتْ الْمَغَالِقُ ، وَشَهِدَتْ الْمَعَارِكُ وَأَلْنَتْ
الْعَرَائِكُ ، وَاقْتَدَتْ الشَّوَامِسُ ، وَأَرْغَمَتْ الْمَاعِطُسُ ، وَأَذْبَتُ الْجَوَامِدُ ،
وَأَمَعَتْ الْجَلَامِدُ .

* * *

خزن : حبس . خَطَمَ : زَمَّ ، وَالْخَطَامُ حَبْلٌ : يَشُدُّ عَلَى أَنْفِ الْبَعِيرِ . حَدَجَ :
نَظَرَ إِلَيْهِ بِحَدَّةٍ . قُرِفَ : أَتَمَّ ، وَقُرِفَتْهُ بَشَرٌ . رَمِيَتْهُ بِهِ : الْإِقْصَارُ الْعَجْزُ .
قَوْدَ : قَتَلَ نَفْسَ بِنَفْسٍ . ضَبَّيْتُ : عَلَّقْتُ . بَرَّائِنُ : أَطْفَائِرُ . الْعِلْمُ . الْمَشْهُورُ
بِالْفَضَائِلِ ، وَالْمَعْرُوفُ الثَّانِي : الْعَطَاءُ . أُجِدُّوهُمْ : أَتَى نَجْدًا وَتَهَامَةً . أَيْمَنَ
وَأَشَامَ : أَتَى الْيَمِينَ وَالشَّامَ . أَصْحَرَ وَأَبْجَرَ : مَشَى فِي الصَّحْرَاءِ وَالْبَحْرِ . أَدْلَجَ
وَأَسْحَرَ : مَشَى بِاللَّيْلِ وَالسَّحَرِ . نَشَأْتُ : كَبُرْتُ . وَجَلَّتْ : دَخَلَتْ . الْمَعَارِكُ :
مَوَاضِعُ الْقِتَالِ . الْعَرَائِكُ : الطَّبَائِعُ الصَّعْبَةُ . الشَّوَامِسُ : الشَّوَارِدُ الَّتِي تَأْتِي
الْإِقْيَادَ . أَرْغَمَتْ الْمَاعِطُسُ : أَذَلَّتِ الْأَنْوُفُ . أَمَعَتْ الْجَلَامِدُ : أَسَلَتْ الْمِيَاهُ
مِنَ الْجَنَادِلِ الْعَمَمِ .

* * *

سَلُّوا عَنِّي الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ ، وَالْمُنَاسِمَ وَالْمَوَارِبَ ، وَالْمَحَافِلَ
وَالْجَحَافِلَ ، وَالْقَبَائِلَ وَالْأَقْنَابِلَ ، وَاسْتَوْضِحُونِي مِنْ تَقْلَةِ الْأَخْبَارِ ، وَرُؤَاقِ
الْأَنْمَارِ ، وَحُدَاةِ الرُّكْبَانِ ، وَحُذَاقِ الْكُهْنَانِ ، لَتَعْلَمُوا كَمْ فَجَّ

سَلَكْتُ، وَحِجَابِ هَتَكْتُ، وَمَهْلَكَةِ اقْتَحَمْتُ، وَمَلْحَمَةِ أَلَحْتُ،
وَكَمْ أَلْبَابِ خَدَعْتُ، وَبِدَعِ ابْتَدَعْتُ، وَفُرْصِ اخْتَلَسْتُ، وَأَسَدِ
اِفْتَرَسْتُ؛ وَكَمْ مُحَلَّقٍ غَادَرْتُهُ لَقَى، وَكَامِنٍ اسْتَخْرَجْتُهُ بِالرُّثْقِ، وَحَجَرٍ
شَحَذْتُهُ حَتَّى انْصَدَعَ، وَاسْتَنْبَطْتُ زُلَالَهُ بِالْخُدَعِ، وَلَكِنْ فَرَطُ
مَافَرَطٍ، وَالْمُصْنُ رَطِيبٍ، وَالْفَوْدُ غَرِيبٍ، وَبُرْدُ الشَّبَابِ قَشِيبٍ؛
فَأَمَّا الْآنَ وَقَدْ اسْتَشَنَّ الْأَدِيمَ، وَتَأَوَّدَ الْقَوِيمُ، وَاسْتَنَارَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ؛
فَلَيْسَ إِلَّا النَّدَمُ إِنْ نَفَعَ، وَتَرْقِيعُ الْخَرْقِ الَّذِي قَدْ اتَّسَعَ.

* * *

الْمَنَامُ : أَخْطَفَ الْإِبِلَ . الْفَوَارِبُ : مَقَادِمُ ظُهُورِهَا . الْحَافِلُ : الْجَمْعُ .
الْجَحَافِلُ : الْجَبُوشُ . الْقَنَابِلُ : جَمَاعَةُ الْخَيْلِ وَاحِدُهَا قُنْبَلَةٌ . اسْتَوْضَحُونِي :
اطْلُبُوا بَيَانَ أَمْرِي . الْأَسْمَارُ : الْأَحَادِيثُ بِاللَّيْلِ يُسْمَرُ عَلَيْهَا . الْخُدَاةُ : خِدَامُ
الْإِبِلِ . فَيْجٌ : طَرِيقٌ فِي الْجَبَلِ . سَلَكْتُ : دَخَلْتُ . هَتَكْتُ : خَرَقْتُ .
مَهْلَكَةٌ : مَوْضِعُ خَوْفٍ يَهْلِكُ فِيهِ النَّاسُ . اقْتَحَمْتُه : تَرَامَيْتُ فِيهِ . مَلْحَمَةٌ :
مَوَاضِعُ الْحَرْبِ الشَّدِيدَةِ يَلْتَحِمُ فِيهَا أَهْلُ الْمُسْكِرِينَ وَيَلْتَصِقُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .
أَلَحْتُ ، أَيْ أَوْقَدْتُ النَّارَ يَدْنُهُمْ حَتَّى التَّصَقُّوا وَصَارُوا لِحْمَةً وَاحِدَةً ، وَذَلِكَ أَشَدُّ
مَا يَكُونُ الْحَرْبِ . أَلْبَابُ : عُقُولُ . بَدَعٌ : جَمْعُ بَدْعَةٍ ، وَهُوَ الشَّيْءُ الْمُبْدَعُ .
اخْتَلَسْتُهَا : أَخَذْتُهَا بِسُرْعَةٍ وَاخْتَطَفْتُهَا . مُحَلَّقٌ : طَائِرٌ فِي الْمَوَاءِ . لَقَى : مَطْرُوحًا
عَلَى الْأَرْضِ . وَكَامِنٌ : مُسْتَوْرٍ . شَحَذْتُهُ : صَقَلْتُهُ . انْصَدَعَ : انشَقَّ ، وَأَرَادَ
بِالْحَجَرِ بَخِيلًا لَا يَرِشُّ شَيْءَ كَالْحَجَرِ ، فَتَحِيلَ عَلَيْهِ حَتَّى أَخَذَ مَالَهُ . اسْتَنْبَطْتُ :
اسْتَخْرَجْتُ . زُلَالَهُ : مَاءُ الْعَذْبِ الصَّافِي ، أَرَادَ أَخَذْتُ مَالَهُ . فَرَطُ مَافَرَطٍ ،
أَيْ سَبَقُ مَا سَبَقَ . رَطِيبٌ : نَاعِمٌ ، وَغَصْنُهُ : قَامَتُهُ . وَالْفَوْدُ : نَاحِيَةُ الرَّأْسِ .
غَرِيبٌ : أَسْوَدُ . بَرْدٌ : ثَوْبٌ . قَشِيبٌ : جَدِيدٌ . اسْتَشَنَّ الْأَدِيمَ : بَيَسَ الْجِلْدَ ،

والشنّ : القِرْبَةُ البالية اليابسة . تأوّد القويم : اعوجّ المعتدل . اسقنار : أضاء
وشاب . الليل البهيم : الشعر الأسود . وقال الشاعر في معنى استشنّ الأديم :

يَأْمَنُ لَشَيْخٍ قَدْ تَحَدَّدَ لِحْمَةٌ أَفْنَى ثَلَاثِ عِمَائِمِ أَلْوَانَا
سَوْدَاءَ حَالِكَةٍ وَسَحَقٍ مَفُوفٍ وَأَجْدَلُونَا بِمَدَاكِ هِجَانَا
قَصْرَ اللَّيَالِي خَطْوَهُ فَتَدَانِي وَحَنُونٍ قَائِمٍ صُلْبُهُ فَتَحَانِي
وَالْمَوْتُ يَأْتِي بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ وَكَأَنَّمَا يَعْنِي بِذَلِكَ سَوَانَا

وقال ابن الرومي في اسقنارة الليل :

فَجَارَ عَلَى لَيْلِ الشَّبَابِ فِضَامَهُ نَهَارُ مَشِيبٍ مَرْمَدٌ لَيْسَ يَنْفَدُ
وَعَزَّالِكَ عَنْ لَيْلِ الشَّبَابِ مَعَاشِرُهُ وَقَالُوا نَهَارَ الشَّيْبِ أَهْدَى وَأَرْشَدُ
وَكَانَ نَهَارُ الْمَرءِ أَهْدَى لِرَشْدِهِ وَلَكِنَّ طَلَّ اللَّيْلِ أُنْدَى وَأَبْرَدُ

وأنشد الزاهد ابن عمران قول الشاعر :

لَمْ أَقُلْ لِلشَّبَابِ فِي كَنْفِ اللَّهِ وَلَا حَفْظَهُ غَدَاةً اسْتِقْلَاءً

فتراد بعد استقلا :

لَاوَلَا لِلْمَشِيبِ كَأَبْدَالِي مَرْحَبًا بِالشَّيْبِ أَهْلًا وَسَهْلًا
مَوْزَنَ بِالْحَمَامِ هَذَا وَذَا كَمْ سَوْدَ الصَّحْفِ بِالذُّنُوبِ وَوَلَّى

وأحسن ما قيل في ذم خضابه قول ابن الرومي :

رَأَيْتُ خَضَابَ الْمَرءِ بَعْدَ مَشِيبِهِ حَدَادًا عَلَى قَعْدِ الشَّيْبَةِ يَلْبَسُ^(١)
وَلَا فَمَا يَفْرَى الْفَتَى بِخَضَابِهِ أَيْطَمَعُ أَنْ يَخْفَى شَبَابٌ مَدْلَسُ
وَكَيْفَ بَأَن يَخْفَى الْمَشِيبُ لِنَاضِرِ وَكَلَّ ثَلَاثَ صُبْحِهِ يَتَنَفَسُ
وَهَبْهُ يَوَارِي شَيْبَهُ أَيْنَ مَاؤُهُ وَأَيْنَ أَدِيمٌ لِلشَّيْبَةِ أَمْلَسُ

وقال محمود الوراق :

يا خاضبَ الشَّيْبَةِ نَحْ قَدَمَا فَإِنَّمَا تَدْرُجُهَا فِي كَفَنٍ
أَمَا تَرَاهَا مِنْ ذِ عَايَتِهَا تَزِيدُ فِي الرَّأْسِ بِنَقْصِ الْبَدَنِ

قوله : ليس إلّا الندم . ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من أذنبَ ذنباً أو أخطأ خطيئة فندم كانَ كَفَّارَةً لِمَا صَنَعَ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ونور السموات
والأرض وإن لكم من الله نَظْرَةً » .

كتب عبد الملك إلى الحجاج بتوعد علي بن الحسين ويكتب إليه بما يقول
ف فعل ، فقال : إن لله لوحاً محفوظاً يلحظه في كل يوم مائة لحظة ، ليس منها
لحظة إلّا يُنَحِّي فيها ويُمَيِّت ، ويُعَزِّز ويُذِلّ ويفعل ما يشاء ، وإني لأرجو أن
يكفيك الله منها بلحظة واحدة ، فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك .

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك : أكلت الجمل الذي ركب عليه أبوك
من المدينة لأغزيتك جنوداً مائة ألف ومائة ألف ، فكتب إليه عبد الملك بكلام
على فقال ملك الروم : ما خرج هذا إلّا من كلام النبوة .

* * *

وكنْتُ رُوِّيتُ مِنَ الْأَخْبَارِ الْمُسَنَّدَةِ ، وَالْأَثَارِ الْمَعْتَمَدَةِ ، أَنَّ لَكُمْ
مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ نَظْرَةً ، وَأَنَّ سِلَاحَ النَّاسِ كُلِّهِمُ الْحَدِيدُ ،
وَسِلَاحُكُمْ الْأَدْعِيَّةُ وَالتَّوْحِيدُ ، فَقَصْدُكُمْ أَنْضَى الرِّوَا حِلِّ ، وَأَطْوَى
الْمَارَاحِلِ ؛ حَتَّى قَمْتُ هَذَا الْمَقَامَ لَدَيْكُمْ ، وَلَا مَنْ لِي عَلَيْكُمْ ؛ إِذْ مَاسَعَيْتُ
إِلَّا فِي حَاجَتِي ، وَلَا تَعَبْتُ إِلَّا لِإِرَاحَتِي ، وَلَسْتُ أَبْغِي أَعْطَيْتُكُمْ ، بَلْ
أَسْتَدْعِي أَدْعَيْتُكُمْ ، وَلَا أَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ؛ بَلْ أَسْتَنْزِلُ سِوَالَكُمْ .

فادعوا اللهَ بتوفيقِ للمتَاب ، والإعدادِ للمآب ، فإنه رفيع الدَّرجات ،
مُحيب الدعوات ، وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عن عباده ويُعْفُو عن
السيئات . ثم أنشد :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذُنُوبٍ	أَفْرَطْتُ فِيهِمْ وَاعْتَدَيْتُ
كَمْ خُضْتُ بِحَرِّ الضَّلَالِ جَهْلًا	وَرَحْتُ فِي الْغَىِّ وَاعْتَدَيْتُ
وَكَمْ أَطَعْتُ الْهَوَىَّ اغْتِرَارًا	وَاخْتَلْتُ وَاعْتَلْتُ وَاقْتَرَيْتُ
وَكَمْ خَلَعْتُ الْعِذَارَ رَكْضًا	إِلَى الْمَعَاصِي وَمَا وَنَيْتُ
وَكَمْ تَنَاهَيْتُ فِي التَّخَطُّي	إِلَى الْخَطَايَا وَمَا انْتَهَيْتُ
فَلَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ هَذَا	نَسِيًّا وَلَمْ أَجْنِ مَا جَنَيْتُ
فَالْمَوْتُ لِلْمَجْرَمِينَ خَيْرٌ	مِنْ الْمَسَاعِي الَّتِي سَعَيْتُ
يَا رَبِّ عَفْوًا فَانْتَ أَهْلٌ	لِلْعَفْوِ عَنِّي وَإِنْ عَصَيْتُ

* * *

أنفى الرواحل : أهنأ الإبل . أطوى المراحل : أقطع الأرض مجتهداً ،
وأردَّ المرحلتين والثلاث مرحلةً واحدة . من : إحسان . أبغى : أطلب . الأعطية
والأدعية : اسم لما يعطى ولما يدعى . استنزل : أطلب بتلطف . سؤالكم :
طلبكم التوبة لى من الله تعالى . والمآب : الرجوع . يعفو : يمحو ، وعفا الله عنك :
درس ذنوبك ومحاها ، من عفا المنزل : درس وانمحت آثاره . وقال ابن المعتز :

كنت فى سفرة البطالة والغى زماناً فخان منى قدوم
تُبْتُ عن كلِّ مآثمٍ فعسى يُمحى بهذا الحديثِ ذاك القديمُ

وله :

الله يعلم ما إنمَّ هَمَّتْ به إلا ونقصه خوفي من النار
وإنَّ نفسي ما هَمَّتْ بمقصية إلا وقلبي عليها عائب زارِي

آخر :

تطالبني نفسي بما فيه صونُها فأغضى ويسطو توقُّها فأطيعُها
ووالله ما ينحني على ضلالها ولكنَّها تأتي فلا أستطيعُها

قوله : أفرطت ، أى ضيقت . اعتديت : ظلمت نفسي ، قال داود الطائي :
ما أخرج الله عبداً من ذلِّ المعصية إلى عزِّ الطاعة إلا وأغناه بغير مالٍ ، وآسنه
بغير أهلٍ ، وأعزّه بلا عشيرة . خضت : جُزْتُ الفى الضلال . اغترار :
انخداع . اختلت : تكبرت ومشيت تمثيلاً ، واغتلت : أهلكت ، والغيلة :
القتل بالخداع ، وغالم : قتلهم غيلةً . افترت : كذبت . خلعت العذار :
أزلت لحامَ الدين الذى يمسكنى ، ونسيبتُ فى المعاصى . ركضا : جرياً ووثباً .
وفيت : فترت وقصرت فى الجرى إليها . تناهيت : أى بلغت النهاية ، وهى
آخرُ الشئ : التنعطى . الجواز والقطع ، وتخطيت الشئ : جزته ، والخطايا :
الذنوب ، وهى من الخطأ لأنَّ فاعلها مخطئ . بفعلها . والنسى : الشئ المنسى
لحقارته لا يخطر ببالك فتنسأه . أجن : أكتسب . المساعى : جمع مسعاة ، وهى
السعى والشئ الكديد ، والمساعى أيضاً : المواضع التى يُسعى فيها ، أى يُبشى
بكذ ، وقال حبيب :

أخاف إلهى ثم أرجو نواله ولكنَّ خوفي غالبٌ لرجائيا
ولولا رجائى واتسكالى على الذى تكفل لى بالصنع كهلاً وناشياً
لما ساع لى عذبٌ من الماء بارد ولا لذى نوم ولا زلت باكياً
على أنه قد كان منى جهالةً لىالى فيها كنتُ لله عاصياً

أخذه من قول الحسن البصري : ينبغي أن يكون الخوف أغلب من الرجاء
فإن الرجاء إذا غلب الخوف فسد القلب .

* * *

قال الراوى : فطفقت الجماعة تُمدُّه بالدُّعاء ، وهو يُقلِّب وجهه في
السَّمَاءِ إلى أن دَمَعَتْ أَجْفَانُهُ ، وَبَدَأَ رَجَفَانُهُ ، فصاح : اللهُ أَكْبَرُ
بانت أَمَارَةُ الاستِجابة ، وانجابت غِشَاوَةُ الاسْتِجابة . فجزيتُم يا أَهْلَ
البُصَيْرَةِ ، جزاء مَنْ هَدَى مِنَ الْخَيْرَةِ .

فلم يبقَ مِنَ الْقَوْمِ إِلَّا مَنْ سُرَّ لِسُرُورِهِ ؛ وَرَضَخَ لَهُ بِمَسْئُورِهِ
فَقَبِلَ عَفْوَ رَحْمَةٍ ، وَأَقْبَلَ يُفْرِقُ فِي شُكْرِهِمْ .

ثمَّ انْحَدَرَ مِنَ الصَّخْرَةِ ، يَوْمُ شَاطِئِ الْبُصَيْرَةِ ، وَاعْتَقَبْتُهُ إِلَى حَيْثُ
تَحَالَيْنَا ، وَأَمِنَّا التَّجَشُّسَ وَالتَّحَسُّسَ عَلَيْنَا ، فَقُلْتُ لَهُ : لَقَدْ أَغْرَبْتَ فِي
هَذِهِ التَّوْبَةِ ، فَمَا رَأَيْتُكَ فِي التَّوْبَةِ ، فَقَالَ : أَقْسِمُ بِعَلَامِ الْخَفِيَّاتِ ،
وَعَفَاكِ الْخَطِيئَاتِ ، إِنْ شَأْنِي لَعَجَابٌ ، وَإِنَّ دَعَاءَ قَوْمِكَ لَمُجَابٌ ، فَقُلْتُ
زِدْنِي إِفْصَاحًا ، زَادَكَ اللهُ صِلَاحًا فَقَالَ : وَأَيُّكَ لَقَدْ قَتُ فِيهِمْ مَقَامُ
الْمَرِيبِ الْخَادِعِ ، ثُمَّ انْقَلَبْتُ مِنْهُمْ بِقَلْبٍ أَلْمِيبِ الْخَاشِعِ ، فَطُوبَى لِمَنْ
صَغَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَيْهِ وَوَيْلٌ لِمَنْ بَاتَ يَنْعُونَ عَلَيْهِ . ثُمَّ وَدَّعَنِي وَانْطَلَقَ ،
وَأَوْدَعَنِي الْقَلَقَ .

قوله : فطِفِقْتُ ، أى أخذت وجمِلْتُ . تَمَدَّه بالدعاء ، أى تَصَلَّ دعاءها بدعائه، وتقول : امددته بالمال، إذا قَوَّيْتَهُ به، ومددته بالجيش. رَجَفَانِه : اهتزازُه، ورجف الشيء : تحركه، والرجفة : اهتزازُ الأرض . بانت : ظهرت . انجابت : انكشفت وزالت . غشاوة الاستراية : غطاء الشك . رَضَخَ : أعطى . ميسوره : ما تيسر له . وعفو برهم : فضل إحسانهم . يَهْرِفُ : يكثر الكلام ويُطْنِبُ في الشكر . انحدر : انصب . يؤمّ : يقصد . شاطىء : ساحل . اعتقبته : تبعته . تخالينا : صِرْنَا في خلوة من الناس . التجسّس : طلب الشيء باليد ، وقيل : التجسّس : طلب الشيء بالكلام . والتجسس : طلبه باليد، ثم قد يقع كل واحد منهما موقع صاحبه . ابن الأنباري : تجسس الرجل وتحمّس بمعنى واحد ، هذا إجماع أهل اللغة . وفرق بينهما يحيى بن أبي كثير، فقال : التجسس البحث عن عورات الناس والتجسس الاستماع لحديث القوم . ابن الأنباري : الجاسوس : الباحث على أمور الناس . النوبة : الدولة . إيضاحاً : بياناً . المريب : صاحب الريبة . النيب : الراجع إلى الله بتوبته . الخاشع : هو الخاضع . صفت : مالت .

* * *

فلم أَزَلْ أعاني لأجله الفكر ، وأنشوفُ إلى خبرٍ ما ذكر . وكلما استنشيتُ خبره من الرّكبان ، وجّابة البلدان ، كنتُ كمن حاور عجماء ، أو نادى صخرة صماء ، إلى أن لقيتُ بعد تراخي الأمد ، وتراخي الكمد ركبا قافلين من سفر ، فقلتُ : هل من مغرّبة خبر ؟ فقالوا . إن عندنا خبراً أغربَ من العنفاء ، وأعجبَ من نظر الزّرقاء .

* * *

أعاني : أقامى . أنشوف : أنطلع . خبرة : اختبار . استنشيت : استطلعت ، وأصل معناه شممت . جوابة : قطاعة . وجّالة أى الذين عادتهم الجولان في

البلاد . حاور : كَلَمْ . عَجَبًا ، : بهيمة ، والمحاورة : المراجعة في الكلام . تراخي :
 طَوَّلَ المدة . السكمد : مُصاحبة المَهْم والحزن . ركبا : أصحاب الإبل . قافلين :
 راجعين من سفر . مغرّبة ، أى هل عندكم من حديث غريب . والعنقاء ، قال
 ابن عباس رضى الله عنه : هو طائرٌ فُضِّلَ به بنو إسرائيل ، فانتقل بعد يوشع
 إلى بلاد قيس عيلان بنجد والحجاز ، فأذى الولدان ، فشكوا ذلك إلى خالد
 ابن سنان - وكان نبيًا بين عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام - فدعا الله أن
 يقطع نسلها فبقيت صورتها تصوّر في البسط ، وكان أجمل طائر وأعظمه ،
 ووجهه على هيئة وجوه الناس . وقال أهل الرواية : عنقاء مُغرِب ، إنما هو
 الأمر العجيب . والعنق : السرعة ، وذ كرت عجائب البلدان بمجلس الراضى ،
 فقال قائل : أَعْجَبُ ما فى الدنيا طائر بأرض طبرستان على شاطئ الأنهار شبيه
 بالباشق ، يسمّى الكلم ، وهو يصيح فى فصل الربيع فتجتمع إليه المصافير ،
 وصغار الطير ، فتزقه ، فإذا كان آخر النهار أخذ واحداً مما قرب من الطير
 فيأكله ، فذلك فعله إلى أن ينتضى فصل الربيع ، فتجتمع إليه المصافير وصغار
 الطائر فتطرده وتضربه ، فيفتر منها فلا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعى . وهو
 طائر حسن ، موثى العينين .

وذكر الجاحظ أنه من عجائب الدنيا ، وذلك أنه لا يطأ الأرض بقدميه ،
 بل يأخذاها خوفاً على الأرض أن تنخسف من تحته ، والثانى دودة تُضَيءُ
 بالليل كالشمع ، وتصير بالنهار لها أجنحة خُضْر ، وبالليل لا جناحين لها ، غذاؤها
 التراب ، لم تشبع قط منه خوفاً أن يفتى التراب فتموت جوعاً ، والثالث أعجب
 من الطائر ، والدودة من يكرى نفسه للقتال ، يعنى المسترزقة من الجند ، فاستحسن
 الخبر مَنْ حضر ، فقال الرّاضى معارضاً لما ذكر الجاحظ أن أعجب ما فى الدنيا
 ثلاث : البوم ، لا تظهر بالنهار خوفاً أن تصيبها العين لحسنها وجمالها ، فظهر
 بالليل ، الثانى الكركى لا يطأ الأرض بقدميه معاً بل يأخداها فإذا وطئها

لم يعتمد عليها اعتماداً قوياً خوفاً من أن تنخسف الأرض بثقله ، الثالث الطائر الذي يقعد في مشارق الماء من الأنهار الذي يُعرَف بمالك الحزين ، يشبه السكركي لا يشبع من الماء خشية أن يفنى فيموت عطشاً . فافترق أهل المجلس والكل متعجبون من الراوى كيف تأتي منه مثل هذه المذاكرة مع مَنْ حضر من أهل السنّ والعرفه مع صغر سنه . والحكاية بكاملها في كتاب السعوى .

[الزرقاء]

وأما الزرقاء فكانت تُبصر على مسيرة ثلاث ليال ، وكانت من جدّيس ابن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وكان مع جدّيس طنم بن لاوذ بن إرم ، وكانت مملكتهم في طنم ، وكانوا يسكنون اليمامة ، وها من العرب العاربة فأقاموا بُرْهة ، وبلادهم أفضل البلاد ، حدائق ملتفة ، وقصور مصطفة ، فكفروا بأنهم الله فأهلكهم ، وذلك لأنهم ملكهم عُملوق بن طنم ، وكان غشوماً لا يملك نفسه في هواه ، فاختصمت إليه امرأة من جدّيس اسمها هزيلة مع زوجها في ابن لها ، فأمر بالولد فجعل في غلمانه ، وأمر بالزوج أن يباع وتُعطى المرأة عُشر ثمنه ، وبالمرأة أن تباع ويُعطى الزوج خمس ثمنها ، قالت هزيلة :

أتينا أبا طنم ليحكم بيننا فابعد حُكما في هزيلة ظالماً

وهي أبيات ، فبلغه قولها ، فأمر ألاّ تزوج امرأة من جدّيس حتى تُحمل إليه قبل زوجها فيعتزرها ، فلقوا منه ذلاً طويلاً إلى أن تزوجت الشمس بنت غفار أخت الأسود بن غفار ، وكان سيّد جدّيس فلما كانت ليلة إهدائها مُجِلت إليه ، والقيان معها يُقلّان :

ابدأ بعملوق إليه فاركب وبادر الصبح بأمر معجب

* فالبكر بعدكم من مذهب *

فلما افتضحها ، خرجت على قومها في دماؤها شاقة جيبها من دُبر ومن قُبيل
وهي تقول :

أبصلح ما يؤتى على فتياتكم وأتتم رجال فيكم عدد الرَّمَلِ
فإن أنتم لم تفضُّوا بعد هذه فكوُّوا نساء لا تفر من الفحلِ
فوَ أننا كُنَّا رجالاً وكُنتم نساء لكننا لا نُقيم على الذلِّ

فأنفت جديس عند ذلك ، واجتمعت إلى أخيها الأسود ، وأجمعوا على
أن يصنعوا لها طعاماً ، فيدعوا عملاً مع قومه فإذا جاءوا في الخيل والبغال
عمَّوم بالقتل ، فقالت الشموس لأخيها : الغدر عار وعاقبته بوار ، صبحوا القوم
في ديارهم تظفروا أو تموتوا كراماً ، فقالوا لها : المكر أمكن من نواصيهم . ثم
صنع لهم الطعام ودفنوا سيوفهم في الرمل ، فلما استكملوا في المداغة أتوا عليهم
أجمعين ، وهرب من طسم رياح بن مرة ، فأتى حسان بن تبع لينهره ، فاستبعدوا
أرضهم ، وكان قد تَبَّع لرياح كلبة ، فضربها في رجلها حتى عرجت ، فقال :
أبعيدة أرض قطعها كلبة عرجاء ! فتجهز معه بجيش فلما صاروا من جديس
على ثلاثة أيام ، صعدت الزرقاء على منارٍ كان لها لتنظر الجيش ، وكان رياح قد
قال لم : إن الزرقاء تُبصر على ثلاث ليال ، ولكن ليقطع كل رجلٍ منكم
غصناً من شجر ، فيحمله لنشبه عليها ، فلما رأتهم ، قالت : يا قوم أتتكم الشجر
أو أتتكم حمير ، فلم يصدقوها فقالت :

أقسم بالله لقد دبَّ الشَّجَرُ أو حمير قد أقبلت شيئاً تجرُّ

فكذبوها ، وقالوا . كلَّ بصرٍك وضعف ، فقالت : أقسم بالله لقد أرى رجلاً
ينهش كَتِفًا ، أو يُخَصِّفُ نعلًا ، فتهاونوا بحديثها ، حتى صَبَّحهم حسان فاجتاحهم
فأخذت الزرقاء ، فشق عيناها فإذا فيها عروق سود من الإثم ، وكانت أول
من اكتحل به ، وهرب الأسود ، فنزل بطييء ، فسله فيهم ، وتسمى زرقاء

اليامة ، واسم البلد جو ، فلما صُلِبَت على بابها ، مُثِّمَت اليامة ، وقيل : اليامة اسم البلد ، واسم الزرقاء عَنز ، وقيل إن حسنا لم يصلبها ، ولكن حملها في السَّيْرِ ، وقالت عندما قُرِّبَ لها البعير لتركبه ، ولم تكن اعتادت ركوبه :

شَرَّ يَوْمِهَا وَأَغْوَاهُ لَهَا رَكَتْ عَنزٌ بِجَدَجٍ بِجَمَلًا

وقيل إن عنزا هي أخت الزرقاء ، وقال الشاعر :

ما نظرت ذات أجفان كمنظرها حقًا كما صدع الدين الذي صدعا
قالت أرى رجلًا في كفِّه كِتْفٌ أو يخصف النعل لهُ في أية صنعا
فكذبوها فوافتها على هَجَلٍ أقيال حيرتُ زجى الموت والشرعا
فاستنزلوا أهل جوٍّ من معاقلم وهذموها شامخ البنيان فأتضعها

* * *

فسألتهُم إيضاح ما قالوا ، وأن يَكِيلُوا لي بما اكتالوا ، فحكوا
أنَّهُم أَلَمُوا بِسُروح ، بعد أن فارقها العلوج ، فرأوا أبا زيدَها المعروف ،
قد لبس الصوف ، وأمَّ الصُّفوفَ وصارَ بِها الزَّاهِدَ المَوْصُوفَ ،
فقلت : أتعنون ذا المقامات . فقالوا : إنه الآن ذو الكرامات ، فخرني
إليه النزاع ، ورأيتها فُرْصَةً لا تُضَاع ، فارتحلتُ رِحْلَةَ المَعِدَّة ، وسيرتُ
نَحْوَهُ سَيْرَ المَجْد ، حتَّى حَلَلْتُ بِمَسْجِدِهِ ، وقرَّرتُ مُتَعَبِّدِهِ ، فإذا هو قد
نَبَذَ حُجْبَةً أَصْحَابِهِ ، وانتصبَ في مِحْرَابِهِ ، وهو ذو عِباةٍ مَخْلُولة ، وسَمَلَةٍ
مَوْصُولَةٍ ؛ فِهْبَتُهُ مَهَابَةٌ مِنْ وَلَجٍ على الأسود ، وألفيتهُ مِنْ سِيَاهِهِمْ في
وُجُوهِهِمْ من أثرِ السُّجُود . ولما فرَغَ من سُبْحَتِهِ ، حيَّاني بِمُسَبِّحَتِهِ ،
من غير أن نَعَمَ بِمَحْدِثٍ ، ولا اسْتَخْبَرَ عن قديم ولا حديث ، ثم أقبل

على أوزاده، وترَكْنِي أُعْجِبُ مِنْ اجْتِهَادِهِ، وَأَغْبِطُ مَنْ يَهْدِي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ. ولم يزل في قُنُوتٍ وَخُشُوعٍ، وَسُجُودٍ وَرُكُوعٍ، وَإِخْبَاتٍ وَخُضُوعٍ، إِلَى أَنْ اكْتَمَلَ إِقَامَةُ الْخُمْسِ، وَصَارَ الْيَوْمُ أَمْسٍ، فَيَنْتَهِزُ انْكِفَاءً بِي إِلَى بَيْتِهِ، وَأَسْهَمَنِي فِي قُرْصِهِ وَزَيْتِهِ. ثُمَّ نَهَضَ إِلَى مُصَلَّاهُ، وَتَحَلَّى بِمُنَاجَاةِ مَوْلَاهُ؛ حَتَّى إِذَا التَّمَعَ الْفَجْرَ، وَحَقَّ لِلْمَجْتَهِدِ الْأَجْرُ، عَقَّبَ تَهْجِيئَهُ بِالتَّسْبِيحِ، ثُمَّ اضْطَجَعَ ضِجْجَةَ الْمُسْتَرِيحِ، وَجَمَلَ يُرْجِعُ بِصَوْتٍ فَصِيحٍ :

* * *

قوله : يَكِيلُوا لِي مَا اكْتَالُوا ، أَيِ يَعْطُونِي مَا أُعْطُوا مِنَ الْعِلْمِ . أَلُمَّا : نَزَلُوا . الْعُلُوجُ : الرُّومُ . أَمَّ : صَارَ إِمَامًا . حَفَزَنِي : عَجَّلَنِي . النِّزَاعُ : الشُّوقُ . فُرْصَةٌ : غَنِيمَةٌ . الْمَعْدَّةُ : الْكَامِلُ الْعُدَّةُ فِي السَّفَرِ . قَرَارَةٌ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَقَرُّ فِيهِ . مُتَعَبِّدُهُ : مَوْضِعُ عِبَادَتِهِ . نَبَذَ : تَرَكَ . انْتَصَبَ : قَامَ وَوَقَفَ . الْحِرَابُ عِنْدَ الْعَرَبِ : سَيِّدُ الْمَجَالِسِ وَمَقْدَّمُهَا وَأَشْرَفُهَا، وَقِيلَ لِلْقَبْلَةِ مُحْرَابٌ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ مَوْضِعٍ فِي الْمَسْجِدِ ، وَقِيلَ لِلْقَهْصَرِ مُحْرَابٌ لِأَنَّهُ سَيِّدُ الْمَنَازِلِ . الْأَصْمَعِيُّ الْحِرَابُ عِنْدَهُمُ : الْغُرْفَةُ .

أحمد بن عبيد : الْحِرَابُ : مَجْلِسُ الْمَلِكِ ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِانْفِرَادِ الْمَلِكِ بِهِ لَا يَقْرَبُهُ أَحَدٌ ، وَتُسَمَّى مُحْرَابُ الْمَسْجِدِ لِانْفِرَادِ الْإِمَامِ بِهِ ، وَيُقَالُ فُلَانٌ : حَرَبٌ لِفُلَانٍ ، إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا مَبَاعَدَةٌ . عِبَاءَةٌ : كِسَاءٌ . مَخْلُوعَةٌ : بَالِيَةٌ مُشْدُودَةٌ بِالْخِلَالِ وَالشَّمْلَةِ : الْكِسَاءُ يُشْتَمَلُ بِهِ . مَوْصُولَةٌ : يَرِيدُ أَنَّهَا خَلَمَنَهُ قَدْ تَقَطَّعَتْ فَوْصِلَتْ وَجَلَ : دَخَلَ . أَلْفَيْتُهُ : وَجَدْتُهُ . سِيَاهٌ : عَلَامَتُهُمْ حَتَّى أَنِّي بِمُسَبِّحَتِهِ ، أَيِ بِسَبَابَتِهِ وَقَدْ تَدَمَّدَ ذِكْرُهَا . نَعَمْ : تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ خَفِيَ : وَالْأَوْرَادُ : جَمْعُ وَرْدٍ ، وَهُوَ النَّصِيبُ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُومُ بِهِ الْإِنْسَانُ كُلَّ لَيْلَةٍ . أَغْبَطُ : أَحْسَدُ وَأَتَمَّنِي أَنْ أَكُونَ مِثْلَهُ .

وسجود ورَّكوع: سجد الرجل إذا انحنى ومال إلى الأرض ، من قول العرب : سجدت الدابة وأسجدت ، إذا خفضت رأسها لتركيب ، ويقال : قنت الرجل ، إذا أخذ في التَّعْظِيم والدعاء لله تعالى ، والقنوت على أربعة أقسام : الطاعة كقوله تعالى : (كُلُّ لَه قَانِتُونَ) والصلاة كقوله تعالى : (اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي) ، وطول القيام ، كقوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل : أى الصلاة أفضل؟ فقال : طول القنوت والسكوت ، كقول زيد بن أرقم كنا نتكلم في الصلاة يكلم أحدهنا الذى يليه حتى نزل (وقوموا لله قانتين) فأمنسكنا عن الكلام ، قال أبو عبيدة : نرى أن القنوت في الضَّجِج سَمَّى قنوتاً لأن الإنسان قائمٌ في الدعاء من غير أن يقرأ القرآن ، فكانه في سكوت . إخبار ، أى تذلل . انكفاً : انقلب . أمتهنى ، أى أعطاني سهماً ، أى نصيباً . تهجده : قيامه للصلاة .

* * *

خلٌّ اذَّكَارَ الْأَرْبُوعِ	والمعهد المرتبع
وَالظَّائِعِينَ الْمَوْدِعِ	وَعَدَّ عَنْهُ وَدَّعِ
وَانْدُبَ زَمَانًا مَلَفًا	سَوَدَّتْ فِيهِ الصُّحُفَا
وَلَمْ تَرَلْ مُتَكِفًا	عَلَى الْقَبِيحِ الشَّنِيعِ
كَمْ لَيْلَةٍ أَوْدَعْتَهَا	مَائِمًا أَبْدَعْتَهَا
لِشَهْوَةٍ أَطْعَمْتَهَا	فِي مَرَقِدٍ وَمَضْجَعِ
وَكَمْ خُطَا حَشَشْتَهَا	فِي خَزِيَةِ أَخَذْتَهَا
وَتَوِيَّةٍ نَكَشْتَهَا	لِللَّعِبِ وَمَرْتَعِ
وَكَمْ تَجَرَّاتٍ عَلَى	رَبِّ السَّمَوَاتِ الْعَلَا
وَلَمْ تُرَاقِبْهُ وَلَا	صَدَقْتَ فِيمَا تَدْعِي

وكم غمضت بره وكم أمنت مكره
وكم نبذت أمره وكم نبذ الحذا الرقع
ولم ركضت في اللعب وفهمت عمدا بالكذب
ولم تراعى ما يجب من عهده المتبع
فالبس شعار التديم واسكب شايب الدم
قبل زوال القدم وقبل سوء المصراع
واخضع خضوع المعترف ولذ ملاذ المقترف
واعص هواك وانحرف عنه انحراف المقلع
إلام تسهو وتني ومُعظم العُمر فيني
فيما يضر المقتني ولست بالمرتديع
أما ترى الشيب وخط وخط في الرأس خطط
ومن يلح وخط الشمط بفوذه فقد نعي

* * *

ادكار : تذكر . الأربع : المنازل . عد : كف . دَع : اترك . اندب :
ابك . سلف : ذهب وتقدم . الصحف : الكتب . المعتكف : القيم . الشنع :
الذى يُتحدث يقبحه . أودعتها : أى ضمنيتها وجعلتها فيه . المآثم : الذنوب .
أبدعتها : اخترعتها . خطا : جمع خطوة وهى الباع . حثتها : عجلتها . خزي :
هوان . ونسكتها : نقضتها . مرتع : أكل رغد . تجرأت : تشجعت وأقدمت .
تراقبه : تحارسه وتحشى منه . غمضت : نقصت . بره : إحسانه . نبذت :
تركت . الحذاء : النعل . ركضت : جريت . فُهِت : نطقت . تراعى : تحفظ .

والعهد : الميثاق . شعار : ثوب يُلمَصَق بالجسد . اسكب : اسكب : صب .
شأيب : دُفَع المطر ، واحدها شؤبوب ، فاستعارها للدم كما استعار الدم للدمع .
الصرع : موضع السَّقْطَة وصرعت : أسقطت . لُذ : الجأ . ملاذ : ملجأ . المقترف :
الذنب . انحرف : مل . المقلع : الذى يقطع عن المعاصى ويفارقها . تسهوا :
تخطئ . تنى : تفر . فنى : تم ، سكَّن الياء ضرورة . المقتنى : المكتسب .
المرتدع : المنتهى الكاف عن شهواته . وَخَط : فشا وانتشر ، والوخط : مخالطة
بياض شيب الرأس بسواده ، والوخط فى غير هذا الطَّعن غير النافذ . خَطَّ :
كتب . خطط : طرائق . والشَّمط : اختلاط بياض الشيب بسواد الشعر .
بفؤده : بجانب رأسه . نعى : تحدَّث بموته ، وقال الأليبرى :

الشَّيبُ ثَبَّهَ ذَا النُّهَى فَتَنَّبَهَا	وَنَهَى الْجَهُولَ فَاسْتَفَاقَ وَلَا انْتَهَى
بَلْ زَادَ غَيًّا نَفْسَهُ فَتَهَاغَتْ	نَبَغَى الْآهَامَ وَكَانَتْهَا بَيْنَ الْآهَامِ
فَالَى مَتَى أَلْهَوُ وَأَفْرَحَ بِالْمُنَى	وَالشَّيْخَ أَقْبَحَ مَا يَكُونُ إِذَا لَمَا
مَاحِسَنَهُ إِلَّا التُّقَى لَا أَنْ يَرَى	صَبًّا بِالْحَاسِظِ الْجَاذِرِ وَالْمَهَا
أَنْى يَقَاتِلُ وَهُوَ مَغُولُ الطُّبَا	كَأَبَى الْجَرَى إِذَا اسْتَقْلَّ نَأْوَهَا
حَقَّ الزَّمَانُ هَلَالُهُ فَكَأَنَّمَا	أَبْقَى لَهُ مِنْهُ عَلَى قَدَرِ الشُّهَا
فَقَدْ حَسِرًا يَشْتَهَى أَنْ يَشْتَهَى	وَلَكَمْ جَرَى طَلْقُ الْجَمْعِ وَحِ كَمَا شَتَى
إِنْ أَنْ أَوَاهُ وَأَجْهَشَ بِالْبُكََا	لَذَنُوبِهِ خِيَكُ الْمَدَوِّ وَقَهْمَتَهَا
لَيْسَتْ تُنْهَمُهُ الْعِظَاتُ وَمِثْلُهُ	فِي سَنَةِ قَدْ آتَى أَنْ يَنْتَهَى نَهَا
قَدْ الدَّاتِ وَزَادَ غَيًّا بِمَدَمِ	هَلَا تَيْقِظُ بِمَدَمِ وَتَنْبَهَا
يَاوِيحِهِ مَا بَالُهُ لَا يَنْتَهَى	عَنْ غَيِّهِ وَالْعَمْرِ مِنْهُ قَدْ انْتَهَى ا

وَيُحَكِّ يَا نَفْسُ اخْرِصِي عَلَى ارْتِيَادِ الْمَخْلَصِ
 وَطَاوِعِي وَأَخْلِصِي وَاسْتَمِيعِي النُّصْحَ وَعِي
 وَاعْتَبِرِي بِمَنْ مَضَى مِنْ أَقْرُونِ وَانْقَضَى
 وَاخْشَى مُفَاجَاةَ الْقَضَا وَحَازِرِي أَنْ تُخْذَعِي
 وَاتَّهَجِي سُبُلَ الْهُدَى وَادِّ كِرِي وَشَكَّ الرَّدَى
 وَأَنَّ مِثْوَاكَ غَدَا فِي قَعْرِ لَحْدٍ بَلَقَعَ
 آهًا لَهُ يَتَّ الْبِلَى وَالْمَنْزِلَ الْقَفْرَ الْخَلَا
 وَمُورِدَ السَّفَرِ الْأَوَّلَى وَاللَّاحِقِ الْمَتَّبِعِ
 يَنْتُ يُرَى مَنْ أُودِعَهُ قَدْ ضَمَّهُ وَاسْتُودِعَهُ
 بَعْدَ الْفَضَاءِ وَالسَّعَةِ قِيدُ ثَلَاثِ أَذْرُعِ
 لَا فَرْقَ أَنْ يَحُلَّه دَاهِيَةً أَوْ أَبْلَهَ
 أَوْ مُفْسِرٍ أَوْ مَنْ لَهُ مُلْكٌ كَمُلْكِ ثُبَعِ



قوله : ارتياد ، أى طلب . الخُص : المنجى . عى : احفظى ، وهو أمر
 للوئث من وعى يعى . اعتبرى : اتعظى . القرون : الأمم السابقة : انقضى :
 فرغ وتم . والقضاء هنا : الموت . ومفاجأته : إتيانه على غفلة . حاذرى : خافى .
 انتهجى : اسلكى وامشى فى نهج ، وهو الطريق البين . سبل الهدى : طرق
 الرشاد . ادكرى : تذكرى . وشك الردى : مرعة الموت . ميثواك : موضع
 إقامتك ، لأن الثوى والثواء : الإقامة . والمثوى : الموضع الذى تقيم فيه . لحد :
 شق فى جانب القبر . بلقع : خال . آها : كلمة توجع . مورد : موضع الماء .
 (م ٢٤ - شرح مقامات الحريري ج ٥)

السفر: المسافرون . الأولى: الأولون المتقدمون، والألى: مقلوب الأول، تقول :
أولى وأوّل ككثير وكثير ، وأخرى وأخر ، ثم قلبوا الأول فقالوا: الأولى ،
وتأتى الأولى فى كلامهم بمعنى الذين موصولة وهى كثيرة ، يريد أن القبر
مورد للأولين والآخرين ، وسماه سفرأ ، لأن الإنسان فى الدنيا مسافر لا يقيم ؛
إنما يقطع أيامه ، وقال التهامى :

العيش نومٌ والنسيّة بقطعة والمرء بينهما خيالٌ سارى
فاقضوا ما ربكم عجلاً إنما أعماركم سفرٌ من الأسفار

قيّد : قَدَّر ، فإن قيل : كيف جعل القبر ثلاثة أذرع ، والذراع شبران ،
والقدر قدره ما بين تسعة أشبار إلى ثمانية ؟ فأخبرنى الحاج ابن السقاط أن عندهم
بالشرق ذراعاً يسمونه السالكى ، يذرعون به ثيابهم وغيرها فيه من ذراع
اليَد ذراع ونصف .

وقال أبو القاسم الزجاجى : الذراع الهاشمى ذراع وثلاث ، ففى ثلاثة أذرع
بالحاشى ثمانية ففى ثلاثة أذرع بالحاشى ثمانية أشبار ، وبالسالكى تسعة أشبار ،
فأحصى الذراعين أراد .

وإنما نقل لفظ ثلاثة أذرع من قول عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: كيف بك إذا أنت مت ؟
فانطلق بك قومك ، فماسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ، ثم رجعوا بك
ففسلوك وكفنوك وحنطوك ثم حملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب
ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتنا القبر مُنكراً ونكير أصواتهما كالرعد
القاصف ، وأبصارهما كالبرق الخاطف ، يجران أشعارهما ، ويحشيان التراب بأنبياهما
فتلتلاك وترتراك ، كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ قال عمر : ويكون معى مثل عقلى
هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإذا أ كفيكما .

[ذكر تبع الأكبر]

داهية : مجرب للأمور حاذق بها . أبله : عى كثير الغفلة . مُعْسِر : فقير .
تبع ، أراد به تَبِعًا الأكبر ، وهو الذى ذكر الله فى كتابه .

قال صاحب التيجان . اسمه شمو رعى بن ناشر النعم ، وسمى أبوه ناشر النعم لأنه أحيا مُلْك حير بعد أربعين عامًا ، وهى أيام مُلْك سليمان وسمى شمعورش تبعًا الأكبر ، وإن كانت العرب لم تسم قبله تَبِعًا لأن العرب لم يسم لها أحفظ منه ، وكان يتجاوز عن مسيئهم ويحسن إلى محسنهم ، وكان جميع أهل الأرض شاكرين لأيامه ، وكان أعقل مَنْ رَأَوْا من الملوك وأعلام همة ، وأبعدهم غورًا ، وأشدهم مكرًا لمن حارب ، وغزا جميع ملوك الآفاق ، وقطع بجيوشه الأرض كلها شرقًا وغربًا . ثم رجع إلى قصر غمدان يدير ملك الأرض وذات له ملوكها وعمر زمانًا طويلا ، وهو أوَّل مَنْ أمر بصناعة الدروع السوانج ، جعل على أهل فارس ألف درع ، وعلى الروم ألف درع ، وعلى اليمن كذلك ، وعلى ممالكها مثل ذلك فكانوا يَغْدُون عليه كل سنة بذلك العدد ، ولذلك قال أبو ذؤيب :

وعليه مسرودتان قَصَّاهما داود أو صنع السوانج تَبِعُ
وقال ابن الكلبي : لم يملك الأرض كلها إلا ثلاثة أبرار ، وهم سليمان عليه السلام وذو القرنين وتَبِع ، وهو أسعد وأبو كرب . وثلاثة كُفَّار ، وهم النمرود وبختنصر والضحاك . وأبو كرب الذى ذكر هو تبع ، وكان مَلِكًا عظيمًا ، فتح البلاد ، وملك العباد ، وأقبل من اليمن يريد العراق فتزل الحيرة وحفر لهم نهرًا ، وهو نهر الحيرة إلى سوقها ، وبعث إليه حسان فى جنده ليطوف الأرض ، ففى به حسان فى عسكر عظيم جرار ، لا يمر بمدينة إلا فتحها ولا ملك إلا قهره . وقيل فى تسمية ملوك اليمن تبابعة أنه لكثرة ما يبيع الملك منهم من الجنود . وقيل : سُمِّي تَبِعًا لأنه تبع من قبله . ولابن سُكَّرة فى معنى بيت القامة .

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تُكثّر حسرتي ووساوسِي
والموت أنصف حين عدل قسمة بين الخليفة والفقير البائس

* * *

وَبَعْدُهُ الْعَرَضُ الَّذِي	يَحْوِي الْحَيَّ وَالْبَذَى
وَالْمُبْتَدَى وَالْمُحْتَذَى	وَمَنْ رَعَى وَمَنْ رُعِيَ
فَيَا مَفَازَ الْمُتَّقِي	وَرَبِجَ عَبْدٍ قَدْ وُقِيَ
سُوءِ الْحَسَابِ الْمُوْبِقِ	وَهَوْلَ يَوْمِ الْفَزَعِ
وَيَا خَسَارَ مَنْ بَغَى	وَمَنْ تَعَدَّى وَطَنَى
وَشَبَّ نِيرَانَ الْوَعَى	لِمَطْمٍ أَوْ مَطْمَعٍ
يَا مَنْ عَلَيْهِ الْمَثَلُ	قَدْ زَادَ مَا بِي مِنْ وَجَلٍ
لَمَّا اجْتَرَحْتُ مِنْ زَلَلٍ	فِي عُمْرِي الْمَضِيعِ
فَاغْفِرْ لِعَبْدٍ مُجْتَرِمٍ	وَارْحَمْ بُكَاءَ الْمُنْسَجِمِ
فَأَنْتَ أَوْلَى مَنْ رَحِمَ	وَخَيْرُ مَدْعُوٍّ دُعِيَ

* * *

قوله : وبعد العرض ، يريد عَرَضُ النَّاسِ للحساب . يحوى : يضم .
الحي : المستحي . البذَى : المتكلم بالقواحش . المحتذى : المتبع . الحاذى حذوه .
رعى : ملك ، يريد أن العَرَضُ بعمِّ الناس ، فيحتوى على العفيف والبذى ، وعلى
الأغنياء والفقراء والمالك ورعيته لا يتميز فيه أحد ولا يشرف إلا بعمل
صالح . قوله : فيامفاز المتقى . المفاز : الخلاص . وقى : كفى . الموبق : المهلك .
هول : خوف . بغى : ظلم . وتعدى : جاوز الحد في جوره . طنى : جاوز
الحد في تكبره . شبَّ : أوقد . الوعى : الحرب . وجل . خرف . اجتاحت :

اكتسبت . زلل : خطأ . زفير : نفخ . والشهيق : رد النفس مع البكاء بصوت . ردّفه : خافه .

* * *

قال الحارث بن همام : فلم يزل يُردّدها بصوتٍ رقيق ، ويصلّيها بزفيرٍ وشهيقٍ ، حتّى بكيتُ لبكاءٍ عَيْنِيهِ ، كما كنتُ من قبلُ أُنْكِى عَلَيْهِ . ثم بَرَزَ إلى مسجده ، بوَضوءٍ تهجّده ، فانطَقْتُ رِدْفَهُ ، وصَلَّيْتُ مَعَ مَنْ صَلَّى خَلْفَهُ . ولما انقَضَ مَنْ حَضَرَ ، وتفرّقوا شَعَرَ بَعَرٍ ، أَخَذَ يَهْنِمُ بِدَرْسِيهِ ، وَيَسْبِكُ يَوْمَهُ فِي قَالِبِ أَمْسِيهِ ، وَفِي صِنَنِ ذَلِكَ يُرِنُ إِرْنَانُ الرَّقُوبِ ، وَيَنْكِى وَلَا بَكَاءَ يَعْقُوبِ ، حتّى اسْتَبْنْتُ أَنَّهُ التَّحَقُّ بِالْأَفْرَادِ ، وَأَشْرَبَ قَلْبُهُ هَوَى الْإِنْفِرَادِ ، فَأَخْطَرْتُ بِقَلْبِي عَزْمَهُ الْإِرْتِمَالِ ، وَتَخَلَّيْتُهُ وَالتَّخَلَّى بِتِلْكَ الْحَالِ ، فَكَأَنَّهُ تَفَرَّسَ مَا نَوَيْتُ أَوْ كَوَشِفَ بِمَا أَخْفَيْتُ ، فَزَقَرَزَفِيرُ الْأَوَامِ ثُمَّ قَرَأَ : « فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » ؛ فَأَسْجَلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ بِصَدَقِ الْمُحَدِّثِينَ ، وَأَيَقَنْتُ أَنَّ فِي الْأَمَةِ مُحَدِّثِينَ . ثُمَّ دَنَوْتُ إِلَيْهِ كَمَا يَدْنُو الْمُصَافِحُ ، وَقُلْتُ : أَوْصِنِي أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ . فَقَالَ : اجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ ، وَهَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ . فَوَدَّعْتُهُ وَعَبَّرَاتِي ، يَتَحَدَّرْنَ مِنَ الْمَآقَى ، وَزَفَرَاتِي يَتَصَعَّدْنَ مِنَ اللَّتَاقِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ خَاتِمَةُ التَّلَاقِ .

* * *

انفص : تفرق . شَفَر بَفَر ، أى فى كل طريق وعلى كل جهة . يهيم : يرد
 كلامه خفياً لا يفهم . يسبك يومه فى قالب أمسه : استعارة ، أى يفعل فى اليوم
 ما فعل فى الأمس . وفى ضمن ذلك ، أى فى أثنائه . يرن : بصوت . الرقوب :
 المرأة التى لا يعيش لها ولد . ولا بكاء يعقوب : يجوز رفع بكاء ونصبه والرفع
 أكثر . وبكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام حتى عمى ، وهو قوله تعالى :
 « وَايْبَسَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ » ، استبنت : تحققت . الأفراد : العباد ،
 يقال : فلان فرد فضله ، أى ليس له نظير ، والأفراد سبعة من العباد لا تخلو الدنيا
 منهم حتى إذا مات واحد خلف الله تعالى فى موضعه آخر . أشرب : خولط
 وغلب عليه . هوى الانفراد : حب الوحدة ، قال ابن الرومى :

إلى الزَّهاد فى الدُّنيا جنان الخلد تشتاؤُ
 عبيد من خطاياهم إلى الرحمن أَبَاقُ
 حدتهم نحوه الرَّغبة مع الرَّهبان فاستاقوا
 عليهم حين تلقاهم سكينات وإطراقُ
 يضجّون إلى الله ودمع العين مهراقُ
 ملك الملك هل مما تطوّقناه إطلاؤُ
 فنى أعناقنا طرّاً من الآثام أطواق

وللفقيه أبى العباس بن خليل :

فهموا إشارات الحبيب فهموا وأقام أمرهم الرّشاد فقاموا
 وتوسّلوا بمدامع منهلة تحت الدياجى والأفام نيامُ
 وتلوا من الذّكر الحكيم جوامعاً جمعت لها الألباب والأفهام
 ياصاح لو أبصرت ليلهم وقد صغت القلوب وصفت الأقدام

لرأيت نورَ هدايةٍ قد حفهمُ فسرَى السرورُ وأشرق الإِظلامُ
فهم العبيد الخادمون مليكهمُ نعم العبيد وأفلح الخدامُ
سلّوا من الآفات لما استسلموا فعليهمُ حتى الماتِ سلامُ
وقالوا في هوى الانفراد : الوحدة خير من القرين السوء ، وأنشدوا :

أُنِسْتُ بالوحدة علماً بها فإنها خير من الجمعِ
ألا ترى الواحد أضلاً لما يحسب من أصلٍ ومن فرعِ
أترك من لا أرتجى نفعه رجاء ربِّ الضر والنفع
آخر :

أُنِسْتُ بوحدتي حتى لو انى أُنانى الأُنس لاستوحشت منه
ولم تدع التجارب لى صديقاً أُميل إليه إلا مِلْتُ عنه
وقال آخر :

اهرب بنفسك تستأنس بوحدتها تلق الرِّشاد إذا ما كنت منفرداً
إن السَّباع لتهدأ في مرابضها والناس ليس بهادٍ شرَّهم أبداً
قوله : تفرّس ، أى علم بفراسته وجودة نظره . نويت : أضمرت فى نيتي .
كوشف : اطلع عليه . زفر : نفخ . الأواه : الحزين الذى يصيح : آه آه .
أُسجِلت : صدقت . المحدثين : الذين حدثوه بتوبة السروجى . محدثين ،
هم المكشفون من الزهاد الذين يحدثون بالغيوب ، كأن المكشف قد حدث
بما يقول . وقيل : المحدثون الصادقون ظناً وفراصة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « قد كان فيمن قبلكم ، محدثون ، فإن يكن من
أمتي هذه فهو عمر بن الخطاب » . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه المعيا
وهو الصادق الظنّ ، ودليله ما ذكره صلى الله عليه وسلم فى عمر حديث سارية

ابن زُنَيْمٍ ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه قد أرسله فى جيش للمسلمين ، فالتقى الله فى روح عمر رضى الله تعالى عنه وهو يخطبُ الناس بالمدينة : إن العدو قد نهز المسلمين واشتد الخطب عليهم ، وكانوا بحضرة جبل ، فقطع عمر الخطبة وقال : يا سارية الجبل ، فاسمع الله تعالى سارية من مسافة شهر نداء عمر ، فانحاز بالمسلمين إلى الجبل ، فتخلصوا . قوله : المصافح ، أى المعانق عند الوداع . نصب عينك ، أى غرضها وقدامها ، وأول مَنْ قال : اجعل الموت نصب عينك أُمِيَّة بن أبى الصلت فى قوله :

كلُّ عيش وإن تطاول يوماً صائرُ أمره إلى أن يَرُولا
ليقنى كنت قبل ما قد بدا لي فى رموس الجبال أرعى الوُعولا
فاجعل الموت نصب عينك واحذرْ غولة الموت إن للسوت غولا
عبرانى : دموى . يتصعدن : يترفعن . التراقى : العظان المعوجان أعلى الصدر . خاتمة التلاقى : آخر لقائه .

[شعر الوداع]

ونذكر هنا جملة من الشعر فى ذكر الوداع الذى كان بينهما ويجعلها كالتوديع لما سلف لهما فى هذا الكتاب من رياض الآداب فإنها كانت أنس الوحيد ، ومسلاة الطريد ، فمن ذلك قول بعضهم :

وداعك مثل وداع الربيع وفقدك مثل افتقاد الدِّيمِ
عليك سلام فسكم من ندى فقدناه منك وكم من كرم
وقال آخر :

أقول له يوم ودعته وكلُّ بعبرته مُبْلِسُ
لئن رجعتُ عنك أجسامنا لقد سافرت معك الأنفسُ

وقال أبو سعيد الهمداني : أنشدني هلال بن القلاء حين ودّعني :

لأودعَنَّكَ ثم تدمع مقلتي إن الدموع هي الوداع الثاني
وأصوم بعدك عن سواك فأغتدى متقلاً صومين في رمضان
في فرقة الأحباب شغل شاغل والموت صدقاً فرقة الإخوان

(وأنشدني أبو محمد بن حزم)

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي فقلبي عنكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معني له سأل المعاينة الكلام

وكرر هذا المعنى فقال :

يقول أخى شجاك رحيلُ جسمي وروحك ما لها عنه رحيلُ
فقلت له المعاني مطمئن لذا طلب المعاينة الخليلُ

وقال آخر :

بأنوا فأضحي الجسم من بعدهم ما تبصر العين له فينا
ووالأسفى منه ومن قولهم ما ضرك الفقد لنا شياً
بأى وجه ألتفاهم إن وجدوني بعدهم حياً

وقال آخر :

لا كان يوم الفراق يوماً لم يبق للعائين نوماً
شقت مني ومنك شملاً فسر قوماً وساء قوماً
يا قوم من لي بفقد خيل يسومني في العذاب سوماً
ما لامي الناس فيه إلا بكيت كيما أزد لوماً

وقال صاعد اللغوى :

قلت له والرقيب يعجله مستعجلاً للفرار : أين أنا
فمدّ كفا إلى تراثيه وقال : سر آمنافانت هنا

* * *

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن عليّ، برّد الله مضجعه: هذا
آخر المقامات التي أنشأتها بالاغترار، وأملتُها بِلِسَانِ الاضطرار، وقد
أُجِئْتُ أَنْ أَرُصِّدَهَا لِلإِسْتِعْرَاضِ، وناديتُ عليها في سُوقِ
الاعتِرَاضِ، هذا مع معرفتي بأنّها من سَقَطِ المتاع، ومّا يستوجب أن
يُبَاعَ ولا يُبْتَاعَ، ولو غَشِيَتْ نُوْرُ التوفيق، ونظرت لِنَفْسِي نظر
الشَّفِيقِ، لَسَرَّتْ عَوَارِي الدّٰى لَمْ يَزَلْ مَسْتُورًا، ولكن كان ذلك
في الكتاب مسطورًا. وأنا أَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالٰى مَّا أودَعْتُهَا من أباطيلِ
اللغو، وَأَضَالِيلِ اللّٰهُو، وَأَسْتَرْشِدُهُ إِلَى مَا يَعْصِمُ مِنَ السَّهْوِ، وَيُحْظِي
بِالْعَفْوِ، إِنَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوٰى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ، وولّى الخيرات في
الدنيا والآخرة.

* * *

قوله : أنشأتها، أى صنعتها. الاغترار : الجهل والانهداع. أملتُها :
أَلْقَيْتُهَا لِمَنْ يَكْتُبُهَا. واضطر اضطراراً إذا لم يجد بداً من فعله. أَرُصِّدُهَا :
أَعِدُّدْتُهَا. الاستِعْرَاضُ : أن تعرض على النَّاسِ حَتَّى يرونها. سَقَطِ المتاع :
هَجِينَةٌ. يَبْتَاعُ : يَشْتَرِي. غَشِيَتْ غَطَانِي. أودعْتُها : ضَمَنْتُهَا. اللّٰغُو : سَقَطُ
الكلام. الأضاليل : جمع أضلولة، وهى ما يضل به مَنْ ركبهُ. أَسْتَرْشِدُهُ :
أَسْتَهْدِيهِ. يَعْصِمُ : يَمْنَعُ. السَّهْوُ : الْخَطَا. يَحْظِي : يَسْعَدُ. الْعَفْوُ : الْمَغْفِرَةُ.

وقوله : هو أهل التقوى ، عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول ربكم عز وجل : أنا أهل التقوى فلا يشرك بى غيرى ، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بى أن أغفر له .

* * *

انتهى الشرح بحمد الله وتوفيقه وحسن عونه، وكان من توفيق الله تعالى أن أول حرف شرحت من اللغة فى هذا الكتاب بحمد الله ، وآخر حرف ختمت به عفو الله ، وما وقع بين حمد الله سبحانه وتعالى ، والثناء عليه ، وبين عفو الله عن عبده مرجو من جميل صنعه الامتنان بالصفح عن جميع هذره ، وملتمس من جلاله تعالى وكرمه جزيل الأجر على ما ضمنته من حكم الآداب وغيره .

[ذكر فى العفو عن المذنبين]

واذ كر فصلاً أديباً فى العفو عن المذنبين، أختتم به الديوان ، فمن وقف عليه ، ووجد فى نفسه لذته ، واستشعر لرجاء ، وطمع فى العفو ، فرغبنا إليه أن يسأل لنا العفو مع نفسه .

فمن ذلك أنه كان للمأمون خادم لوضوئه ، فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء ، فغضب المأمون فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول : ﴿ وَالكَاطِمِينَ أَلْمِيزُ ﴾ ، قال : كظمت غيظي ، قال : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ، قال : عفوت عنك ، قال : ﴿ اللَّهُ يَحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴾ ، قال : اذهب فأنت حر .

وأمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بعقوبة رجل ، فقال له رجاء بن حيوة : إن الله تعالى قد فعل ما تحب من الظفر ، فافعل ما يحب من العفو ، فعفا عنه . العتي : وقعت دماء بين حيين من قرش ، فأقبل أبو سفيان فما بقى أحد

واضع رأسه إلا رفعه ، فقال : يامعشر قريش ، هل لكم في الحق أو فيما هو أفضل من الحق ؟ قالوا ؟ وهل شيء أفضل من الحق ؟ قال : نعم العفو ، فتبادر القوم فاصطلحوا .

قال المبارك بن فضالة : كنت جالسا في السَّمَط عند أبي جعفر إذ أمر برجل أن يُقتل فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة ينادى مناد بين يدي الله عز وجل : مَنْ كَانَتْ لَهُ يَدٌ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيُقِمْ ، فَلْيَتَقَدَّمْ فَلَا يَتَقَدَّمْ إِلَّا مَنْ عَفَا عَنْ مَذْنِبٍ » . فأمر بإطلاقه .

وكان رجل شريـب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلام له أربعة دراهم أن يشتري بها من الفواكه للجلس ، فرأى الغلام بباب مجلس منصور بن عمار ، وهو يسأل الفقير شيئا ، ويتول : مَنْ دفع له أربعة دراهم دعوتُ له أربع دعوات ، فدفع له الغلام الدراهم ، فقال له منصور : ما الذي تريد أن أدعوك ؟ قال : أن يعفني الله من رقّ العبودية ، فدعا له منصور وأمن الناس . قال : والثانية ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، فدعا له وأمن الناس ، قال : والثالثة يا غلام ؟ قال : أن يتوب الله على مولاى ، فدعا له وأمن الناس ، قال : والرابعة يا غلام ؟ قال : أن يغفر الله لى ولمولاى ولك يا منصور وللحاضرين ، فدعا منصور وأمن الناس ، فرجع الغلام ، فقال له مولاؤه لم أبطأت ؟ فقص عليه القصة ، قال : وبم دعا ؟ قال : سألت لنفسي العتق ، قال : اذهب فأنت حرّ ، قال : والثانية ؟ قال : أن يخلف الله على الدراهم ، قال : لك أربعة آلاف درهم ، قال : والثالثة ؟ قال : أن يتوب الله عليك ، قال : تبت إلى الله عز وجل . قال : والرابعة ؟ قال : أن يغفر لى ولك ، وللواظ وللحاضرين ، وقال : هذه الواحدة ليست لى . فلما بات رأى فى المنام كأن قائلا يقول : أنت فعلت ما كان إليك ، أترانى لا أفعل ما كان إلى ! قد غفرت لك وللغلام وللمنصور وللحاضرين .

قال يحيى بن معاذ : يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلبُ رجائي لك مع الإخلاص ، لأنني أعتد في الإخلاص على الأعمال ، وفي الذنوب أعتد على عفوك ، وقال السّلامى .

تبسطننا على الآمال إنا رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال بكر بن سليمان الصواف : دخلنا على مالك بن أنس في العشيّة التي قبض فيها ، فقلت : يا أبا عبد الله ، كيف نجدك ؟ قال : لأدرى ما أقول لكم ، ستعاينون من عفو الله تعالى ما لم يكن في حسابكم . ثم ماخرجنا حتى أغمضنا عينيه .

وفي الحديث : « لو لم تذبوا الجاء الله بأمة يذنبون فيغفر لهم » ، وقال أبو نواس :

يا نواسى توقّر وتمزى وتصبّر
ساءك الدهر بشيء ولما سرك أكثر
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
أكبر الأشياء فى أصغر عفو الله أصغر
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدر
ليس لمخلوق تدير بل الخالق دبر

وقال أبو العتاهية :

إلى لا تمذّبني فإني مقربا بالذى قد كان مني
فما لي حيلة إلا رجائي لعفوك إن عفوت وحسن ظني
يظن الناس بي خيراً وإني لشرّ الناس إن لم تعف عني

وكم من زلة في الخطايا وأنت على ذو فضل ومن
إذا فكرت في ندمي عليها عَصَفْتُ أَنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِيَّ

وهذا آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وآخر شعر حتمت به هذا الشرح ،
راجياً من ربي صفحته وعفوه ، والحمد لله أولاً وآخراً كما يجب لجلاله غفرانك .
اللهم تباركت وتعاليت . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم ، ورضى الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين
وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

فهرس المقامات

- ٣ المقامة الحادية والأربعون التنيسية ، تتضمن قيام أبي زيد واعظاً ، وقيام ابنه طالباً ، وكيف عطف الناس أبو زيد على ابنه .
- ٤٠ المقامة الثانية والأربعون النجرانية ، تتضمن إلقاء أبي زيد النازاقي بعض الأشياء .
- ٧٧ المقامة الثالثة والأربعون البكرية ، وتسمى البدوية ، تتضمن ذكر خبر ناقة أبي زيد ، وتتضمن مدح البكر والثيب وذمهما وذم الأدب .
- ١٣٧ المقامة الرابعة والأربعون الشتوية ، وتسمى اللغزية ، تتضمن إنشاء أبي زيد قصيدة في الناز تحمها تفسيرها .
- ١٨٥ المقامة الخامسة والأربعون الرملية ، تتضمن مخاصمة أبي زيد مع زوجته ، وأنه لم يطررها إلا مرة واحدة .
- ٢٠٢ المقامة السادسة والأربعون الحلبية ، تتضمن كون أبي زيد معام صبيان ، وأمره للصبيان العشرة بالإنشاء في فنون مختلفة .
- ٢٥٨ المقامة السابعة والأربعون الحجزية ، تتضمن كون أبي زيد حجاماً وعاورته مع ابنه .
- ٢٩٤ المقامة الثامنة والأربعون الحرامية ، تتضمن رواية الحارث عن أبي زيد أنه رأى رجلاً يسأل كفارة لذنبه ، فأجابه بأن طلب منه أن يعينه على فداء ابنه من الأسر .
- ٣٢٢ المقامة التاسعة والأربعون الساسانية ، تتضمن أن أبا زيد لما شاخ أوصى ابنه بالآ صناعة أتع من الكدية .
- ٣٤٣ المقامة الخمسون البصرية ، تتضمن توبة أبي زيد ولزومه المسجد